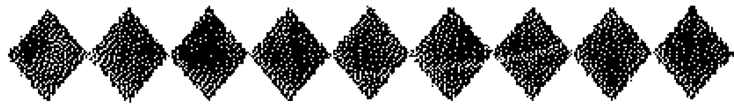
مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

السيد يسين



الحرب الكونية الثالثة

عاصفة سبتمبر و السلام العالمى



الأعمال



الفكرية

الحرب كونية الثالثة

عاصفة سبتمبر والسلام العالمى

الحرب الكونية الثالثة

عاصفة سبتمبر والسلام العالمى

السيد يسين



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الفكرية)

إشراف: مصطفى غنايم

الحرب الكونية الثالثة
عاصفة سبتمبر والسلام العالمى
السيد يسين

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

طبعة خاصة من دار ميريت لمكتبة الأسرة

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

تصدير

تابعت منذ عام ١٩٩٠ الاهتمام العالمى بحوار الحضارات، منذ أن دعيت - باعتبارى أمينا عاما لمنتدى الفكر العربى فى عمان - للمشاركة فى أعمال المؤتمر العالمى الذى كان عنوانه "أوربا - العالم" والذى عقد بلشبونة فى البرتغال عام ١٩٩٠.

فى هذا المؤتمر ألقى الباحث البلجيكى رولاند دراير بحثا بالغ الأهمية عن "حوار الحضارات فى إطار اليونسكو من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٨٩". وأنهى دراير بحثه بإثارة مجموعة من الأسئلة الهامة حول شروط حوار الحضارات بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية وطرق تنفيذه.

كان هذا البحث فى الواقع مدخلى للاهتمام الأكاديمى المستمر بحوار الحضارات. ويشهد على ذلك أننى كتبت بحثا باللغة الإنجليزية قدمته لندوة الحوار العربى اليابانى التى أشرفت على تخطيطها وتنفيذها وعقدت فى عمان من ١٩ - ٢٠ سبتمبر ١٩٩٢، وكان عنوانه "حوار الحضارات فى عالم متغير". وقد نشرت ترجمة عربية لهذا البحث، ضمنتها كتابى "الوعى التاريخى والثورة الكونية" (نشره مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية عام ١٩٩٥).

ومنذ هذا التاريخ تابعت تطور الاهتمام الأكاديمى والعالمى بقضية حوار الحضارات، وخصوصا بعدما ألقى الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإيرانية الإسلامية خطابه التاريخى أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عن "حوار الحضارات"، والذى تضمن الدعوة لحوار حضارى عالمى. وقد وافقت الجمعية العامة بالإجماع على هذه الدعوة وصدر قرار دولى بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات.

وتنفيذا لهذا القرار نظمت هيئة اليونسكو مؤتمرا عالميا فى فلنيوس عاصمة ليتوانيا موضوعه "حوار الحضارات". وقد دُعيت لهذا المؤتمر

لكــى أقــدم بحثا بالإنجليزية عن "مفاهيم الحضارة فى القرن الحادى والعشرين".

وأخــذت الدعــوة لحــوار الحضارات أبعادا جديدة بعدما ظهرت المقالة الشهيرة لعالم السياسة الأمريكى صمويل هنتنجون عن "صراع الحضارات"، والتى سرعان ما ظهرت فى كتاب متكامل. وأثارت هذه النظرية جدلا عالميا، وخفت صوتها بعد الانتقادات العميقة التى وجهت لها سواء من داخل الدوائر الغربية الفكرية، أو من الدوائر الفكرية فى مختلف بلاد العالم.

كــان العالم يستعيد أنفاسه بعد هذه المعركة الفكرية الكبرى، لكى يؤكــد مــرة أخــرى على أهمية الحوار الحضارى، وضرورة تلافى الصـــراع بيـــن الثقافات، وإذا بأحداث الحادى عشر من سبتمبر تقع، ويصاب الناس فى مختلف أرجاء المعمورة بصدمة مروعة. ولم يكن مــرد هــذه الصدمة إلى كبر أعداد الضحايا الأبرياء الذين سقطوا بلا ذنــب ولا جريــرة فى البرجين الشهيرين، ولكن الصدمة كانت بحكم الإدراك العمــيق بأن الإرهاب تجاوز كل الحدود، وانتقل فى تصعيده إلى مرحلة التهديد المباشر للأمن العالمى.

كنت قبل سبتمبر مشغولا بكتابة سلسلة مقالات فى جريدة "الأهرام" وجــرائد عربية أخرى عن حوار الحضارات، حاولت أن أوصل فيها المشــكلة التى كان يحوطها قدر كبير من الغموض. وتكشف عن ذلك المناقشات التى دارت فى مؤتمر اليونسكو فى فلينوس والذى شاركت فى جلساته.

فقــد تبين لى أن الباحثين والمفكرين من مختلف بلاد العالم ليست لديهــم رؤية واضحة عن نظرية حوار الحضارات، ولا تصور محدد عــن المنهجــية التى ينبغى أن تتبع لإدارة الحوار، ولا تحديد لجدول أعمال مقترح.

ولعــل هذا كله هو الذى دفعنى بعد عودتى من المؤتمر إلى كتابة هــذه السلسلة من المقالات، والتى توزعت بين موضوعين رئيسيين: تأصيل حوار الحضارات، والمركزية الغربية والخصوصية الثقافية.

كنــت فى صميم بحث الموضوع لكى أصل فى النهاية إلى أجندة محددة لحوار الحضارات تضم ثلاث موضوعات رئيسية: الإشكاليات

المعرفية التى تواجه الإنسانية فى بداية القرن العشرين، والمشكلات الواقعية، وتحدى صياغة نظام عالمى جديد أكثر عدالة من النظام العالمى الراهن.

وفجأة وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر. واضطررت لإيقاف البحث فى موضوع حوار الحضارات، والتصدى للأحداث الجديدة.

وقد بدأت منذ ذلك الحين سلسلة جديدة من المقالات بدأتها بمقال عنوانه "خطاب الحرب العالمية الثالثة!" وقد بدأت المقال بهذه الفقرة:

"هل كان يمكن لنا أن نواصل حديثنا الممتد عن حوار الحضارات، وأهمية ممارسة النقد الذاتى، ورهانات النهضة العربية سواء فى بداياتها القديمة أو انبعاثها الراهن بعد سقوط عصر الثورة العربية، بعد الأحداث الدرامية ليوم الهول العظيم، التى دارت على المسرح الأمريكى فى واشنطن ونيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ؟ وكيف نستطيع ذلك إذا كان هذا الحدث التاريخى سيؤرخ به فى القرن الحادى والعشرين باعتباره إعلانا جهيرا عن التغير الحاسم فى ملامح لوحة المستقبل العالمى؟"

وهكذا تغيرت وجهتى فى البحث، فوليت وجهى تجاه دراسة أحداث سبتمبر وتداعياتها منذ وقوعها حتى الوقت الراهن..

والكتاب الذى أقدم له اليوم يتضمن اجتهاداتى فى دراسة زلزال سبتمبر وتوابعه من الناحية الدولية والسياسية والفكرية والثقافية.

وقد آثرنا أن نبدأه بدراسة سبق أن نشرناها فى مجلة "سطور" القاهرية بعنوان "من الفوضى الطليقة إلى الهيمنة المقننة"، لأنها تتضمن قراءتى لتطورات النظام الدولى منذ عام ١٩٩٠ حتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وهى فى الواقع تحلل وتفسر الوقائع المتراكمة التى أدت فى النهاية إلى أحداث سبتمبر.

وقد دفعتنى أهمية وخطورة أحداث سبتمبر - تنظيما لفكرى - إلى صياغة مبكرة لإطار نظرى لدراسة أحداث سبتمبر، بما يسمح لى بالتناول الشامل للحدث الكبير وتداعياته، وهو الذى أبدأ به القسم الأول من الكتاب وعنوانه الحادى عشر من سبتمبر. وهو يضم إحدى عشرة مقالة سبق لى أن نشرتها فى قسم خاص فى كتابى عن "حوار

الحضـــارات: الغرب الكونى والشرق المتفرد" والذى نشرته دار نشر ميريـــت عام ٢٠٠٢. وتبرير إعادة نشرها اليوم أنها كانت فى الواقع مقدمة تفكيرى المنهجى فى أحداث سبتمبر وتداعياتها.

والقســـم الـــثانى موضـــوعه تشـــريح ظاهرة العداء بين الإسلام والغرب.

أمـــا القســـم الثالـــث وعنوانه خطاب المثقفين بين تبرير الحرب ومعارضـــتها، فقد اهتممت فى المقالات التى نشرت تحت هذا العنوان بالتحلـــيل الـــنقدى لخطابـــات المثقفين الأمريكيين حول الحرب ضد الإرهاب، سواء فى ذلك من أيدوا الحرب أو من عارضوها.

والقســـم الرابع عنوانه حوار نقدى حول مشروع خطاب مصرى موجـــه للمثقفين الأمريكيين. وهو يبدأ بمقالة تتضمن مشروع خطاب مصـــرى قمت بصياغته باسم المثقفين المصريين للحوار مع المثقفين الأمريكييـــن بـــناء على دعوة من المجلس المصرى للشئون الخارجية قدمهـــا لى السفير عبد الرؤوف الريدى والذى دعانى لإلقاء محاضرة فـــى مقر المجلس عن أحداث سبتمبر وصياغة مشروع الخطاب. وقد نشرت مشروع الخطاب فى الأهرام، وتلقيت ردودا بالغة الأهمية حول شكل الخطاب ومضمونه، قمت بمناقشتها بالتفصيل.

أما القسم الخامس والأخير فعنوانه: سبتمبر وإعلان الإمبراطورية الأمريكية. وهو يتضمن مجموعة مقالات تشير إلى اهتمامى بموضوع الـــتحول الكيفى فى الهيمنة الأمريكية لأننى أعددت مشروعا بحثيا منذ فترة عنوانه "عصر الإمبراطورية : حقبة ما بعد سبتمبر". وأحاول فى هـــذا المشـــروع تأصيل فكرة الإمبراطورية على أساس أن الولايات المـــتحدة الأمريكـــية تظهـــر بعد الحادى عشر من سبتمبر باعتبارها "إمـــبراطورية بازغـــة"، ولذلـــك اتجهت إلى الدراسة التاريخية لفكرة الإمـــبراطورية وتجلـــياتها فى إمبراطوريات شتى شهدها التاريخ فى الغرب والشرق على السواء.

وهكـــذا يمكـــن القـــول إن القسم الرابع والأخير يحمل فى ثناياه إرهاصـــات المشروع البحثى عن "عصر الإمبراطورية" الذى يشغلنى فى الوقت الراهن، وأرجو أن يصدر فى كتاب قريبا.

إن هذه التحولات فى مشروعى البحثى من حوار الحضارات إلى عاصفة سبتمبر وتوابعها، تكشف فى الواقع عن روح العصر الذى نعيشه، والتى تؤثر تأثيرا بالغا على المشاريع الفكرية للباحثين فى مختلف أنحاء العالم.

نحن نعيش – كما قيل فى عبارة أضحت كلاسيكية – فى عالم يتسم بعدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ! هو عالم – فى صياغة أخرى – ينسم بالانقطاعات السياسية والاقتصادية والثقافية، كما يقرر المفكر الفرنسى دينيس ديكلو فى كتاب عميق له بعنوان "المجتمع العالمى: عصر الانقطاعات" يفسر فيه طبيعة هذه الانقطاعات فى البنية العالمية المعاصرة.

وأرجو أن يفتح الكتاب بأقسامه المختلفة أمام القراء آفاقا واسعة للتفكير المنهجى عن العالم وتحولاته بعد الحادى عشر من سبتمبر.

والله الموفق

القاهرة فى أول أكتوبر ٢٠٠٢

السيد يسين

مقدمة

من الفوضى الطليقة إلى الهيمنة المقننة!

ترى هل نستطيع أن نصوغ تعميمات صحيحة تتعلق بفهم منطق الأحداث العالمية التى ما برحت تنهال على الوعى الإنسانى المعاصر فـــى كل حين؟ أم أننا نعيش فى عالم يتسم بانعدام اليقين وليست هناك إمكانـــية للتنبؤ بمستقبله، كما تذهب إلى ذلك عبارة أضحت كلاسيكية فـــى أدبيات العلاقات الدولية؟ هل نحن نعيش فى عالم تسوده الفوضى بـــلا حـــدود، أم أن هـــناك إرهاصات تشى بتشكل نظام عالمى جديد يخـــتلف تمامـــا فى توجهاته عن النظام العالمى الذى عشنا فى رحابه طـــوال القرن العشرين؟ وهل صحيح أن مبدأ سيادة الدولة ذوى وفى طـــريقه إلـــى الانقراض فى ظل صعود فاعلين أكثر قوة وديناميكية، ويمارســـون أدوارهـــم على مستوى العالم كله؟ هل الشركات المتعددة الجنســـيات أضـــحت أقوى من الدول؟ وهل صعود مؤسسات المجتمع المدنى داخل الدول وعبر الدول يؤكد ضعف الدولة أم يزيد من قوتها؟ وهـــل العولمـــة خـــير مطلق سيأتى بالخير العميم لكافة الدول غنيها وفقـــيرها، أم هى شر خالص لن يعود سوى بالنكبات على دول العالم الثالث؟

وأخـــيرا هل انتقل العالم بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر من حقـــبة الدولـــة العظمى الوحيدة ونعنى الولايات المتحدة الأمريكية إلى عصر الإمبراطورية الأمريكية التى تبسط أجنحة هيمنتها على الكوكب كله؟

كل هذه الأسئلة ما فتئت تتردد على ألسنة الكتاب والباحثين طوال العقـــد الأخـــير. ومن الطبيعى فى ظل التنوع الإيديولوجى السائد فى

العـــالم، واخـــتلاف المشـــارب والمواقع للمثقفين والكتاب أن تختلف الإجابـــات، لدرجـــة أنـــنا لو بحثنا بدقة لوجدنا لكل سؤال من الأسئلة الرئيسية التى طرحناه إجابتين واحدة مؤيدة والأخرى معارضة.

ولـــيس ذلك غريبا على كل حال. ذلك أننا نعيش فى ظل مرحلة تحـــولات تاريخية كبرى على مختلف الأصعدة. العالم ينتقل ببطء - وإن كـــان بثبات - من نموذج حضارى راسخ أثر فى الحياة الإنسانية منذ عشرات السنين، ونعنى نموذج "المجتمع الصناعى" الذى هو ربيب الـــثورة الصـــناعية، إلـــى نموذج حضارى ناشئ هو نموذج "مجتمع المعلومات العالمى" والذى يتحول تدريجيا ليصبح هو "مجتمع المعرفة" مصاحبا لتحول الاقتصاد إلى "اقتصاد المعرفة".

ونعـــرف يقينا من خبرة القرون السابقة أن التغيرات الكبرى فى تـــاريخ الإنسانية لا تحدث فجأة، ولكنها تبرز فى نهاية طريق طويل تتراكم فيه الخبرات، وتحدث التطورات، إلى أن يتحول التراكم الكمى إلى تنوع كيفى.

منذ نحو خمسة عقود برز فى العالم ما يطلق عليه "الثورة العلمية والتكنولوجية"، وهى الثورة التى أصبح فيها "العلم" لأول مرة فى تاريخ الإنســـانية عنصراً أساسياً من عناصر الإنتاج. وأدت هذه الثورة إلى انقلاب حقيقى فى مجال الإنتاج الصناعى، كشف عن نفسه فى ابتكار مـــواد جديـــدة ليست موجودة فى الطبيعة، مما أدى - من بين عوامل أخرى - إلى تنوع الإنتاج تنوعا لا حدود له، وإلى ابتكار سلع جديدة كـــل يـــوم، ممـــا ســـاعد علـــى سيادة نمط الاستهلاك فى كل أرجاء المعمورة.

ولـــم تلبث ثورة الاتصالات الكبرى أن ظهرت فى الأفق، والتى تمثلت أساساً فى ظهور الأقمار الصناعية بكل ما ترتب عليها من نتائج عســـكرية وسياســـية واقتصـــادية واجتماعية، وبرز البث التليفزيونى الفضائى، بحيث أصبحت المعمورة كلها دائرة فى شبكة واحدة، بحيث أصبح الحدث محليا كان أو عالميا يبث فور حدوثه، مما أحدث تغيرات كبرى فى الوعى الإنسانى المعاصر، وهو ما من شأنه - على المدى الطويـــل - أن يبلور "وعيا كونيا" سيجعل النزعة الإنسانية تتحقق فى

ظـل كافة الثقافات، حيث سيبين بجلاء أن "الإنسان هو الإنسان" كما كان يؤكد دائما الكاتب الأمريكى الشهير مارك توين.

انــتقال حاسم من نموذج "المجتمع الصناعى" إلى نموذج "مجتمع المعلومــات العــالمى" نعـم، ولكن لا يقل عنه أهمية انتقال العلاقات الدولــية مــن نمط "الثنائية القطبية" كما يطلق عليه إلى نمط "الأحادية القطبــية". ويعنى هذا التغير بكل بساطة سقوط الصراع الدامى الذى دار طــوال القــرن العشرين بين الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة "العــالم الحــر" ورافعــة شــعار الرأسمالية والديموقراطية السياسية، والاتحاد السوفيتى زعيم "العالم الاشتراكى" الذى رفع شعار الماركسية والديموقراطــية الاجتماعية. سقط هذا الصراع وانتهت الحرب الباردة بكــل مــا صــاحبها من ردع نووى متبادل، كاد فى بعض اللحظات التاريخية أن يؤدى إلى اشتعال حرب ذرية.

هــل يمكن التأريخ للحظة التغير العالمية هذه؟ نعم يمكن القول إن عام ١٩٨٩ هو العام الحاسم فى نهاية القرن العشرين، بل لعله كان هو نفســه الــنهاية الفعلــية لهذا القرن! ففيه أو بعده بقليل انهار الاتحاد الســوفيتى، وسقطت كتلة الدول الاشتراكية، وبدأ ما نطلق عليه عصر الفوضى الطليقة!

الفوضى الطليقة!

تــرى ماذا نعنى ببداية عصر الفوضى الطليقة ؟ نعنى على وجه الــتحديد عملــية التفكك الكبرى التى لحقت ببنية عديد من المجتمعات المعاصرة لأسباب شتى.

فى الدول الاشتراكية بعد أن زال القيد الإيديولوجى، ونعنى العقيدة الماركســية الرســمية التى فرضت فرضا على عديد من دول أوربا الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية، وكنتيجة من نتائج الحرب التى خرج فيها الاتحاد السوفيتى منتصرا مع الحلفاء ضد النازية والفاشية، تحركــت هذه المجتمعات المقهورة بحرية وتنفست هواء الديموقراطية الحقيقية المنعش ، فاندفعت إلى طريق التعددية الحزبية ، والانتخابات الدوريــة النزيهة. وهكذا انقلبت الحياة فى هذه المجتمعات ، لدرجة أن

هناك بحوثا علمية رصينة تتحدث عن " ما بعد الشيوعية" تحاول أن ترصد بالبحث العلمى مؤشرات التغير الكمية والنوعية .

لم يكن الاندفاع إلى الديموقراطية هو الملمح الوحيد لعالم ما بعد الشيوعية، ذلك أنه ربما فاقه فى الأهمية ملمح بارز هو الاندفاع للتعبير الثقافى والسياسى عن الخصوصية الثقافية. ذلك أن نشأة الدولة القومية فى أوربا بصفة عامة، ونشأة الدول الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة، أدت إلى إضفاء الظلال على التعددية الثقافية التى تمور بها المجتمعات الأوربية، بل وانتهت فى ظل الاشتراكية التى فرضت قسرا على دول أوربا الاشتراكية إلى قهر كل مظاهر التعددية الثقافية، سواء فيما يتعلق باللغة أو الدين أو العادات والتقاليد . بل إن الاتحاد السوفيتى مارس داخل حدوده عمليات تهجير قسرية لمجموعات واسعة من السكان، وكان يقتلعهم من مواطنهم الأصلية ويوطنهم فى أقاليم أخرى.

ومن هنا قامت ثورة "الخصوصيات الثقافية" التى تجاوزت فى بعض الحالات المطالبات الثقافية للحق المشروع فى التعبير عن الذات الثقافية، إلى المطالبة بالحكم الذاتى وحتى المطالبة بالانفصال عن الوطن الأم وتحقيق الاستقلال الكامل. تم ذلك فى حالات متعددة بالتفاوض ، وتحقق ذلك فى حالات أخرى بالعنف والحرب .

وهذه الموجة من موجات التأكيد على الخصوصية الثقافية والتى وجدت متنفسا لها عقب انهيار العالم الشيوعى، تأتى فى الواقع متسقة مع ما شوهد فى العالم كله منذ عقود لما يمكن أن نطلق عليه "ثورة الأعراق" Ethnic revolution، ونعنى بذلك أنه فى مجتمعات عديدة، وخصوصا فى المجتمعات التعددية مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، بدأت كل جماعة عرقية كان يظن أنها تكاملت فى إطار سياسة "بوتقة الصهر" Melting Pot تبحث عن جذورها ، وتبرز ملامحها الثقافية المتميزة .

وهذه الثورة العرقية سرعان ما أشعلت النار فى البلقان الذى كان دائما منبعا للنزاعات الدولية ، وهكذا شهدنا الحروب الأهلية المميتة فى الصرب، حيث ظهرت شعارات "التطهير العرقى"، مما أدى إلى التدخل الدولى، الذى حاول أن يحاصر موجات الفوضى المتدفقة

فـــى أوربـــا، خوفـــا مـــن انقلاب الموازين فى القارة بل وفى العالم أجمع.

وســـرعان ما ظهرت العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافـــية. وأصبحت أشبه بتيار جارف منطلق بلا حدود ولا سدود . وبغـــض النظر، عن "إيديولوجية" العولمة التى زعمت أنها هى بذاتها الحل السحرى لمشكلات الإنسانية، فإنه سرعان ما تبين فى الممارسة أنهـــا عولمـــة متوحشـــة صـــاغت مبادئها الدول الصناعية المتقدمة وعلـــى رأســـها الولايـــات المـــتحدة الأمريكـــية، لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية والثقافية، حتى ولو كان ذلك على حساب الدول النامية.

ومما لاشك فيه أن العولمة بممارساتها أضافت إلى مناخ الفوضى الـــذى يعيشه العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى. ولعل ما يكشف عن حـــدة الصـــراع فـــى عـــالم اليوم الحركات المناهضة للعولمة والتى تظاهرت ضدها فى دافوس وفى بورتى الليجيرى ودربان.

وقـــد أدت العولمة عملا إلى حصار الدولة القومية وتضييق دائرة نفوذهـــا لصالح المؤسسات الدولية كالبنك الدولى وغيره التى فرضت سياسة التكيف الهيكلى، مما أدى إلى أضرار فادحة بالطبقات الوسطى والفقـــيرة فـــى عديـــد من البلاد النامية. وأدى ذلك أيضا إلى سيطرة الســـوق ومـــن يمثلونه على عملية اتخاذ القرار الاقتصادى الذى يتخذ أساســـا لخدمـــة الطبقات الرأسمالية المتنوعة الشرائح ، والتى تحالفت تحالفا عضويا مع أهل السلطة فى عديد من البلاد .

ومـــن علامات الفوضى البارزة تآكل نفوذ وقدرات الأمم المتحدة ممـــثلة فى مجلس الأمن. ذلك أن القوة العظمى الوحيدة وهى الولايات المـــتحدة، اســـتطاعت أن تجمد مجلس الأمن وتسلبه سلطاته، وتعمل عســـكريا وسياسيا خارج إطار الشرعية الدولية، ولعل الحصار غير المشروع للعراق، خير مثال للفوضى الدولية المعاصرة .

وفـــى ظل التحيز الأمريكى والفوضى الدولية استطاعت إسرائيل أن تجمـــد كـــل اتفاقياتها مع السلطة الفلسطينية، وأن تراوغ فى مجال احترام تعهداتها، حتى لا تقوم الدولة الفلسطينية.

حقـــبة كاملـــة مـــن الفوضى اجتاحت العالم. غير أن هناك دولا اســـتجابت لـــتحديات الفوضى بإعادة صياغة توجهاتها بشكل ايجابى،

تمثل فى التخلى عن البنى الشمولية والسلطوية السياسية، والدخول طوعا فى دائرة الديموقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان. وفى مجال الاقتصاد بذلت بعض الدول الواعية جهودا خارقة حتى تتكيف مع أخطار العولمة، وتتفاعل معها تفاعلا خلاقاً، من خلال تبنى سياسات تكنولوجية فعالة، وبعض هذه الدول مثل ماليزيا استطاعت أن تنتقل فى ربع قرن من مصاف الدول المتخلفة إلى مصاف الدول السريعة النمو، مما اعتبر عالميا نموذجا للإنجاز الخارق. وسواء تم هذا الإنجاز نتيجة لفاعلية "القيم الآسيوية" كما يتردد، أو لبراعة التخطيط والإصرار على الإنجاز، فإن هذا النموذج الناجح أمامنا جميعا، يدعو كافة الدول لدراسته للبحث عن سر نجاحه وتفوقه.

فى هذه الحقبة الحاسمة من التاريخ المعاصر ونعنى منذ عام ١٩٨٩ حتى الآن، لم يستطع الوطن العربى – للأسف الشديد – أن يمارس النقد الذاتى الحقيقى لتشخيص علله وأمراضه السياسية والاقتصادية والثقافية التى امتدت واستفحلت.

من الناحية السياسية مازالت الأنظمة العربية تسبح فى محيط الشمولية أو السلطوية، حيث تقهر الجماهير وتقيد حركتها تحت مسميات شتى. ولا فرق هنا بين نظم ملكية وجمهورية. ولا تخدعنا فى هذا المجال أوصاف الثورة أو الاشتراكية أو الوحدوية التى تصف بها بعض النظم نفسها، فالنتيجة واضحة للعيان.

أما من الناحية الاقتصادية فهناك غياب كامل للرؤية الاستراتيجية التى من شأنها – على المدى الطويل – أن تعبئ الطاقات فى سبيل تنمية مستدامة من شأنها أن تحفظ حقوق الأجيال المستقبلية، بالإضافة إلى سد الاحتياجات الأساسية لأجيال الحاضر.

ومن الناحية الثقافية هناك مؤشرات كمية وكيفية تكشف عن التردى الفكرى، والذى يعود أساسا إلى شيوع الأمية التى بلغت نحو ٤٠% من السكان فى الوطن العربى، بما يصاحبها من شيوع الفكر الخرافى وسيادة التأويلات المشوهة للدين، وذيوع الفكر المتطرف، وبروز الإرهاب على المستوى المحلى والإقليمى والدولى.

الهيمنة المقننة!

ونحـــن فى غمار حقبة الفوضى الطليقة، إذا بأحداث الحادى عشر من سبتمبر تدهمنا! نسفت رموز القوة الأمريكية الاقتصادية وضربت رمـــوز القـــوة العســـكرية. وإذا كان العالم كله قد صدم نتيجة لعنف الأحـــداث، ولغرابتها والتى تفوق الخيال، إلا أننا فى الوطن العربى - ولا داعى لإخفاء الحقائق - سادت قطاعات عريضة من جماهيرنا فى الوهلـــة الأولى وكرد فعل تلقائى للأحداث سعادة غامرة! فها هى القوة العظمـــى الوحـــيدة، التى مارست طوال عقود تحيزها الفاضح للدولة الإســـرائيلية العنصرية، وساعدتها على ضرب الشعب الفلسطينى، ها هـــى تضرب فى مقتل وتصاب هيبتها فى الصميم، وهى التى أعدت نفسها لمشروع الدرع الصاروخى المنيع الذى سيتكلف نحو ٨٠ بليون دولار، كـــان مـــن شأنها لو أنفقت إنفاقاً رشيداً على التنمية أن تقضى على البؤس فى العالم!

غير أنه بعد موجة التشفى العربى الأولى سرعان ما تبين لنا أننا كعـــرب ومسلمين محاصرون فى دائرة بالغة الضيق! فالإرهابيون - كمـــا أذاعت أمريكا - عرب ومسلمون. لم يكن هناك دليل على ذلك. غير أن بعض الحمقى من المسلمين والعرب تكفلوا فى الفترة الأخيرة بتقديم الدليل من خلال شريط التليفزيون الذى أذاعته قناة الجزيرة.

وهـــو وإن كان مشكوكا فى صحته، إلا أنه يقدم الدليل بصورة ما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإن كانت بحكم ممارستها للقوة ليست فـــى حاجـــة إلـــى دليل قطعى، بعد أن مثلت الإدارة الأمريكية بقيادة الرئيس المبجل بوش الابن، دور الادعاء والقاضى فى نفس الوقت.

فتحت إذن حملة الكراهية ضد المسلمين والعرب. غير أنه أخطر مـــن ذلـــك أتاحت الأحداث الرهيبة التى وقعت فى الحادى عشر من ســـبتمبر للولايات المتحدة الأمريكية أن تنتقل من دور الدولة العظمى الوحـــيدة إلـــى دور الإمبراطورية الكونية التى تمارس الهيمنة المقننة على كل العالم.

كـــان شـــعار "مـــن لـــيس معـــنا فهـــو ضـــدنا" هو إعلان قيام الإمبراطورية، وفاتحة عهد تقنين الهيمنة، بمعنى أن الولايات المتحدة

الأمريكية لم تعد تكتفى باستعراض قوتها الاقتصادية أو العسكرية أو الثقافية، ولكنها انتقلت إلى مجال إصدار الأوامر للدول المختلفة والتى عليها أن تنفذ فوراً، لا فرق فى ذلك بين حلفائها الأقربين وبين أى دولة فى العالم.

والهيمنة المقننة تعنى من بين ما تعنيه أن ما تقوله الولايات المتحدة فى أى شأن اقتصادى أو سياسى أو ثقافى يصبح قانوناً لا رجعة فيه، وأن من حقها وحدها مخالفة المعاهدات الدولية، أو خرقها، أو الانسحاب منها. وأن إرادتها هى الإرادة المطلقة. وأنها هى وحدها المشرع العالمى فى شئون الحرب والسلم، وفى ميادين الاقتصاد والبيئة والدفاع بل والثقافة أيضاً!

وتطبيقا لهذه النزعة الإمبراطورية، انسحبت الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة كيوتو لضبط المناخ العالمى، وانسحبت من معاهدة حظر انتشار الصواريخ. وفرضت الحماية على الصلب الأمريكى مخالفة بذلك قواعد معاهدة منظمة التجارة العالمية.

وهى تخطط علنا لضرب العراق عسكريا، وتمهد لتغيير نظامه، وهى التى أعطت الضوء الأخضر لشارون لكى يشن حرب إبادة للشعب الفلسطينى.

وهى - بموافقة السلطة الفلسطينية للأسف - التى تخطط لإعادة هياكل السلطة الفلسطينية بإشراف مباشر من المخابرات الأمريكية!

وهى نفس الإمبراطورية التى قررت أن الحرب ضد الإرهاب لا يحدها مكان ولا زمان، ولم تجرؤ الدول الأوروبية الحليفة على انتقادها علنا، ولا على مقاومة مخططاتها التى من شأنها أن تدفع العالم إلى محيط ليس له قرار.

لقد انتقلنا من مرحلة الفوضى الطليقة إلى حقبة الهيمنة الأمريكية المقننة بكل أخطارها العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية على الوطن العربى، الذى مازال سادرا فى نومه، عاجزا عن ممارسة النقد الذاتى، وهو المدخل الضرورى إن أريد للشعب العربى أن يتخلى عن أردية الجاهلية السياسية والثقافية، وأن يعانق آفاق العصرية.

القسم الأول

الحادى عشر من سبتمبر

[١]
نحو إطار نظرى لدراسة أحدا ث سبتمبر

الإطار النظرى التحليلى لدراسة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر يتضمن دراسة الحدث وبنية المجتمع العالمى والخطاب السياسى والثقافى والسياسات التى أعلنت والممارسات التى تمت، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة .

أولا: القطيعة التاريخية:

(١) الحدث

- هل صحيح أن حدث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كما وصف فى كثير من الكتابات يمثل فاصلا تاريخيا بين ما قبل وما بعد؟
- وهل هو يمثل قطيعة تاريخية Copure Historique بين عصر وعصر، وعلى غرار القطيعة المعرفية فى مجال الفكر؟
- ألا يثير هذا التوصيف فكرة التحقيب Periodization التى يعنى بها المؤرخون فى محاولة تحديد النقاط الفاصلة التى تفصل بين مرحلة تاريخية وأخرى.
- وما هى المعايير التى على أساسها يمكن القول بنهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى؟
- هل عام ١٩٩٠ الذى عادة ما يؤرخ به لنهاية عصر الحرب الباردة ونهاية النظام الثنائى القطبية، وبروز النظام الأحادى القطبية، يصلح حقا لتحقيب العقد الأخير من القرن العشرين؟

أم أن النظام الأحادى القطبية هو استمرار - بصورة أخرى- للنظام العالمى السابق؟

- سؤال أخير هل مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ستؤدى كما يؤكد هنرى كيسنجر فى مقالة له (الشرق الأوسط ٢٠٠٠/٢/٣) إلى صياغة النظام العالمى للقرن ٢١؟

أم أنها فى الواقع استمرار للنظام العالمى قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة الأكبر ؟ أم أن هناك تغيرا لأن الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر تحولت لتصبح القوة الأوحد فى القرن الحادى والعشرين (هذه التفرقة وردت فى مقال محمد حسنين هيكل فى "وجهات نظر" عن "الأزمة والحرب").

وهل تتفق هذه التفرقة الهامة مع بعض تقديرات الخبراء من أن الولايات المتحدة تتحول فى الواقع من قوة عظمى وحيدة إلى إمبراطورية ؟

- وإذا كان ضد صحيحا فهل هناك نموذج نظرى للإمبراطورية يمكن أن يحدد اتجاهات وأبعاد السلوك الامبراطورى ؟ أم أننا لابد فى هذه الحالة أن نعتمد على المشابهة التاريخية Historical analogy. للمقارنة مع إمبراطوريات سابقة فى التاريخ كما فعل بول كنيدى فى كتابه "صعود وسقوط القوى العظمى"، حيث استدعى نماذج من الإمبراطوريات السابقة ليصل إلى نتيجته الأساسية وهى الانهيار الحتمى للقوة الأمريكية فى العقود القادمة .

ثانيا: المقارنة بين الأمم والشعوب فى القدرات التكنولوجية:

ثارت أقوال بعد وقوع الحدث مباشرة ، تستبعد أن يقوم بهذا العمل الإرهابى فائق التخطيط ودقيق التنفيذ إرهابيون عرب أو مسلمين، سواء كانوا يتبعون تنظيم القاعدة (بن لادن) أو طالبان، على أساس أن هذه المنظمات الإرهابية وهؤلاء الإرهابيين العرب، لا يمكن أن يصلوا إلى هذا المستوى التخطيطى والتقنى الرفيع .

- أليس فى هذه الأقوال تسليم بالمقولات الاستشراقية عن سمو الغربيين عن غيرهم، وعن دونية "الشرقيين" (العرب والمسلمين) وعجزهم عن الارتقاء إلى المستوى الغربى فى التخطيط والتنفيذ ؟

– وأليس فى ذلك تجاهلا لبروز أجيال جديدة من الإرهابيين درسوا فى أبرز معاهد الغرب واستطاعوا أن يكتسبوا مهارات بالغة التفوق فى التكنولوجيا والبحث العلمى وعلوم الكمبيوتر، وتمكنوا من ممارسة كل فنون الثورة الاتصالية المعاصرة؟

ثالثا : التقصير الأمنى الأمريكى الفادح :

بعيدا عن التقصير المخابراتى الأمريكى وهو لافت للنظر حقا بالرغم من ضخامة ميزانية أجهزة المخابرات، أين النظام الأمنى الذى يحمى الولايات المتحدة الأمريكية ؟

دولة تتحدث عن مشروع للدرع الصاروخى ميزانيته المقترحة ٨٠ بليون دولار تعجز عن حماية أمنها فى الداخل ؟

رابعا : مشكلة التكيف الفكرى والاستراتيجى للأجهزة الأمريكية :

مع النموذج الجديد للتهديدات والتى سبق لأجهزة البحث الاستراتيجى الأمريكى (على رأسها مؤسسة راند) أن حددت معالمه بالتركيز على مصطلحى Cyber war أى "الحرب الفضائية" وحرب الشبكات Net War (ويدخل الإرهاب فيها وتجارة السلاح وتجارة المخدرات) .

ولجوء المنظمات الإرهابية إلى إبداع إرهابى من نوع جديد، مثل اجتياز الحاجز الفاصل بين العقل والجنون!

وفى تقرير للجنرال تيفانى فى البنتاجون ورد فيه قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أنه إذا كان الإرهاب يستوحى عملياته من كتاب الجنون فعلى مخططى الأمن الأمريكى أن يرجعوا إلى نفس المرجع!

ولكن تبقى العقبة الحقيقية كيف ندرب المسئولين عن الأمن القومى وفى أجهزة المخابرات على نمط التفكير الجنونى ؟

هل دار بخلد أحد تحويل الطائرات المدنية المختطفة بركابها إلى أسلحة للتدمير الشامل ؟

(٢) بنية المجتمع العالمى

* نحـــتاج أولا إلـــى رصد تحليلى للتغيرات التى لحقت بالمجتمع العـــالمى منذ عام ١٩٩٠ حتى الآن، وهى التى أجمع خبراء العلاقات الدولية على توصيف اتجاهاتها إنها "انفلات العالم من ناحية"، ومحاولة "ضبط إيقاعه من ناحية أخرى.

مؤشـــرات الانفلات متعددة، ثورة الأعراق، الانفصال عن الدول القومية، الحروب الأهلية ذات الطابع الدينى، دعوات التطهير العرقى، زيـــادة حدة الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين، أما محاولات الضبط فأخذت أساسا اتجاهين:

التدخل الإنسانى (الصومال) .

التدخل السياسى (كوسفو والعراق) .

وكل نمط منهما يثير إشكاليات قانونية وسياسية وعملية .

* نحتاج إلى أن نفهم منطق التحول الحضارى العالمى والانتقال من مرحلة التحديث إلى مرحلة ما بعد التحديث .

أو بعـــبارة أخـــرى من المجتمع الصناعى إلى مجتمع المعلومات العالمى (الذى يتحول إلى مجتمع المعرفة) ومن الاقتصاد المعلوماتى – إلى اقتصاد المعرفة .

وأصبحت عملية إنتاج المعرفة هى العملية الكبرى التى ستسيطر علـــى مـــناخ القرن الحادى والعشرين وهى التى ستكون الفاصل بين التخلف والتقدم بالمعنى الاقتصادى والثقافى.

* وإذا نظـــرنا إلـــى نمـــط العلاقات الدولية الذى يسود بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فهناك تساؤلات:

هـــل حقـــا ســـننتقل مـــن هيمنة القطب الأكبر (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى الهيمنة الشاملة للإمبراطورية الأمريكية ؟

ومـــا انعكاســـات ذلك على مجمل العلاقات الدولية واتجاهاتها فى العقود القادمة ؟

وعلى الدول العربية تحديدا؟

(٣) الخطاب السياسى والثقافى

أ تحليل مضمون الخطاب السياسى:

* الحــرب ضد الإرهاب "من ليس معنا فهو ضدنا" حق الولايات المــتحدة المطلــق فــى ضرب الدول التى تأوى الإرهابيين أو تشجع الإرهاب، حرب الإرهاب ستستمر إلى مدى زمنى غير منظور.

* التحالف الدولى الجديد ومواقف مختلف الدول منه وآثاره على مواقع الدول وحراكها فى النظام الدولى، وتأثيراته على العلاقات بين الحكومــات والشعوب، وعلى الاستقرار السياسى فى كل دولة، وعلى الــتوازن الاســتراتيجى بيــن أطراف بذاتها (الهند - الباكستان مثلا) (الصين - الولايات المتحدة) (روسيا - الولايات المتحدة) .

ب- الخطاب الثقافى:

إثارة الفروق بين المدنية والبربرية :

* إعــادة إنتاج التفرقة التى ابتدعها خطاب الحداثة Medernity الغــربى والــذى تطور من بعد ليصوغ الإيديولوجيات العنصرية فى القــرن التاســع عشر لتبرير الاستعمار الغربى لشعوب العالم الثالث (عبء الرجل الأبيض White man's Burden).

* إعادة إنتاج خطاب المركزية الغربية - Western centrsim الــذى يؤكد أن الغرب هو المصدر الأساسى للقيم الإنسانية الصحيحة، مع تبنى نظرة دونية للثقافات والحضارات الأخرى.

* بروز تأثير اللا شعور التاريخى فى العداء بين الغرب والإسلام فــى بعــض عــبارات الخطاب السياسى (راجع بوش استخدام عبارة Crusade الحملة الصليبية لوصف الحرب ضد الإرهاب.

وراجــع برلســكونى (الحضــارة الغربــية أسمى من الحضارة الإسلامية!)

* إعــادة الحياة مرة أخرى بطرق غير مباشرة إلى مقولة صراع الحضارات التى ابتدعها هنتنتجون.

ومن ناحية أخرى ضرورة تحليل الخطاب الإسلامى المتخلف الذى تبنته منظمة القاعدة وطالبان وقوى وقيادات إسلامية متطرفة، عن توصيف الحرب ضد الإرهاب بأنها حرب دينية بين المسلمين والغربيين.

* وضرورة تحليل الخطاب السياسى العربى المتخلف الذى لا يعترف صراحة بإدانة الإرهاب، ويبدى تعاطفا بصورة صريحة أو ضمنية مع بن لادن والتيار الذى يمثله.

(٤) السياسات التى صيغت

١ - هل التحالف الدولى كان هو الصيغة الأمثل لمواجهة الحدث؟

٢ - هل الحرب كما تمت ضد أفغانستان وإن أدت إلى انهيار طالبان قادرة حقا على مواجهة الإرهاب؟ أم لابد من مواجهة أسبابه؟

وهل هذه المواجهة شأن أمريكى أم غربى خالص، أم أن هناك مسئولية تقع على عاتق المجتمعات العربية والإسلامية التى تسودها نظم سلطوية ويشيع فيها الفساد، وتزداد الفروق الجسيمة بين الغنى والفقر؟

٣ - هل هناك حقا فرصة لممارسة النقد الذاتى الأمريكى لمجمل السياسات الأمريكية المعادية للشعوب فى الحقبة الماضية؟ وممارسة النقد الذاتى الإسلامى والعربى فى نفس الوقت.

(٥) الممارسات

١ - كيف تم تنفيذ التحالف الدولى؟

٢ - كيف دارت الحرب، وهل صحيح أنها وجهت فقط لقواعد طالبان العسكرية أم أنها لحقت أيضا الشعب الأفغانى وأحدثت خسائر وأضراراً فادحة بالمدنيين الأبرياء؟

- ماذا عن مذبحة القلعة وغيرها من المذابح والتصريحات الأمريكية بعدم الاحتفاظ بالأسرى؟

٣ - ماذا عن تحول المجتمع الأمريكى بعد ١١ سبتمبر إلى مجتمع تسوده كما عبر عن ذلك منذ سنوات الكاتب الأمريكى بيتر جروس "فاشية ودودة" Friendly Fashism إلى مجتمع تسوده فاشية صريحة وعدوانية، كما تبين من القوانين الاستثنائية التى تقيد حريات كل من الأمريكيين والأجانب؟

(٦) النتائج المتوقعة

- ما هى النتائج المتوقعة على بنية النظام الدولى ذاته، والقيم التى يستند إليها؟

- ما هى النتائج غير المتوقعة؟

[٢]

خطاب الحرب العالمية الثالثة!

هل كان يمكن لنا أن نواصل حديثنا الممتد عن حوار الحضارات، وأهمية ممارسة النقد الذاتى، ورهانات النهضة العربية سواء فى بداياتها القديمة أو انبعاثها الراهن بعد سقوط عصر الثورة العربية، بعد الأحداث الدرامية ليوم الهول العظيم، التى دارت على المسرح الأمريكى فى واشنطن ونيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١؟ وكيف نستطيع ذلك إذا كان هذا الحدث التاريخى الذى سيؤرخ به فى القرن الحادى والعشرين، باعتباره إعلانا جهيرا عن التغير الحاسم فى ملامح لوحة المستقبل العالمى؟

لقد أثار هذا الحدث كل الإشكاليات المعرفية والمشكلات الواقعية التى يدور حولها حوار الحضارات.

ولا أدرى لماذا حين وقع الحدث، وكنت فى كانتربرى بإنجلترا أشارك فى مؤتمر عالمى عن "حوار الحضارات فى البحر البيض المتوسط"، حيث دعيت لألقى الخطاب الافتتاحى فى المؤتمر بالاشتراك مع رئيس جامعة كنت، تذكرت قصيدة شهيرة للشاعر اليونانى السكندرى المعروف كافافى عنوانها "فى انتظار البرابرة!".

يقول كافافى فى القصيدة إنه انتشرت إشاعة فى المدينة أن البرابرة قادمون لغزوها. وانبرى الحاكم وارتدى بدلته العسكرية المرصعة بالنياشين وكذلك أعضاء مجلس الشيوخ والأعيان، وهرعوا جميعا إلى الحدود حتى يكونوا فى انتظار البرابرة للترحيب بقدومهم لغزو المدينة!

وانتظر الحاكم والزعماء السياسيون والأعيان منذ الصباح الباكر حتى المساء، ولكن البرابرة لم يظهروا فى الأفق. وقال الحاكم وهو ينصرف كسيف البال: لم يأت البرابرة مع أن قدومهم كان حلا من الحلول!

غير أن ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر جاء على عكس السيناريو الذى قدمه كافافى فى قصيدته الشهيرة، فقد جاء البرابرة فعلا وعلى غير انتظار! جاءوا والحراس فى غفلة تامة، وجهالة مطبقة، مطمئنين كل الاطمئنان إلى أن دروعهم الصاروخية كفيلة بردع أى معتد، وتخويف أى مهاجم. وهل كان فى التصور أن ينفذ أحد أيا كان من الأبواب المحكمة للإمبراطورية الأمريكية، التى انفردت بعد السقوط المدوى للاتحاد السوفيتى بالعالم فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية؟

الغرب والباقى!

ويبدو أن عالم السياسة الأمريكى صمويل هانتنجتون فى مقولاته الشهيرة عن صراع الحضارات، حين ميز تمييزا حاسما بين الغرب والباقى The West and the rest، ويعنى بذلك باقى الأمم والشعوب والثقافات، كان يتنبأ بالمناخ الثقافى الذى سيسود العالم فى القرن الحادى والعشرين!

غير أننا لا نستطيع أن نسند وظيفة المتنبئ للسيد / هانتنجتون، ولكنه قد يكون أقدر منا فى فهم التلافيف المعقدة للعقل الغربى الذى ما يزال مسكونا بأشباح الحروب الصليبية، حين احتك الغرب المسيحى مع الشرق الإسلامى فى مواجهة تاريخية مازالت آثارها اللاشعورية النفسية فيما يبدو كامنة فى الإدارك الغربى.

وقد أتيح لى المراجعة النقدية للإدراك الغربى للمسلمين والعرب وأنا بصدد إعداد كتابى "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر" الصادر عام ١٩٧٣ عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة. وقد عكفت على إعداد هذا الكتاب عقب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ للرد على الحرب النفسية التى شنتها إسرائيل على

العـــرب لتشـــويه الشخصـــية العربية وإلحاق كل السمات السلبية بها، وللإعـــلان المدوى عن عجزها عن المبادأة، واتخاذ القرار، وبالتالى عـــدم قدرة الشعوب العربية التى احتلت إسرائيل بلادها وفى مقدمتها مصر، على شن الحرب ضد إسرائيل لتحرير أرضها المحتلة. وقد قاد الحملـــة الجـــنرال هاركابى مدير المخابرات الإسرائيلية السابق، الذى أصـــبح بعد اعتزاله الخدمة العسكرية أستاذاً لعلم النفس الاجتماعى فى الجامعـــة العـــبرية. وكان عنوان مقالته الشهيرة المسمومة التى بدأت الحـــرب النفسية ضد العرب "لماذا انهار العرب فى حرب الستة أيام". وقـــد نشـــرها فى مجلة أمريكية شهيرة هى "أوربس" فى العدد الثالث الذى صدر فى شتاء عام ١٩٦٧.

كـــان الكتاب جهداً أكاديميا للرد على التراث العلمى الغربى الذى يتبنى بشكل منهجى صورة متحيزة للعرب والمسلمين، وكان رأينا أن الغـــرب مـــازال يحمل فى ذاكرته التاريخية أصداء للعداء القديم بين العـــالم الإسلامى والعالم الغربى، الذى عانى تاريخيا وخصوصا أثناء فـــترة المد الإسلامى الذى دفع بحدود الإمبراطورية العثمانية إلى قلب أوروبا.

وقد تأكد لى صدق ما انتهيت إليه بصدد الذاكرة التاريخية الغربية حين قرأت فى "الفيجارو" الجريدة الفرنسية المعروفة، مقالا عقب قرار الملك فيصل باستخدام سلاح البترول فى حرب **أكتوبر ١٩٧٣**، ذهب فـــيه كاتـــبه إلى أن الملك فيصل كان ينتقم بهذا القرار فى الواقع من "شـــارل مارتل" القائد العسكرى الفرنسى الذى صد القوات الإسلامية الـــتى زحفـــت لاحـــتلال مدينة بواتييه! وهى المعركة التاريخية التى اعتبرها الغرب النقطة الحاسمة التى أوقفت المد الإسلامى فى أوروبا.

رد الفعل الغربى

إن مـــن يحلـــل بدقـــة الخطاب الغربى الذى جاء تلقائيا كرد فعل فـــورى لـــيوم الهول العظيم، حين حدث الهجوم المفاجئ على المعاقل الاقتصـــادية والسياســـية العسكرية الأمريكية ورموزها الساطعة التى كانـــت محـــل فخـــرها، والمؤشـــرات المـــبهرة علـــى القوة الفائقة

للإمبراطورية الأمريكية، ليدرك أن هذا الخطاب الذى ترددت أصداؤه فى واشنطن ولندن وباريس، على ألسنة الرؤساء بوش وشيراك وبلير، يعيد إنتاج الخطاب الغربى التقليدى الذى ساد منذ عصر التنوير، والذى قام على أساسه مشروع الحداثة الغربية كله، ويقوم على التفرقة بين البربرية والمدنية! والبربرية - فى هذا الخطاب - تميز شعوب الأرض جميعا، أما المدنية فهى التى يتصف بها الغرب الظافر الذى خرج منتصرا من غياهب القرون الوسطى، مفتتحا عصر الثورة الصناعية، ومزودا بالعلم والتكنولوجيا، وبالآلة الحربية الحديثة، التى سمحت له بالقيام بأكبر عملية استعمارية فى التاريخ الحديث، لاحتلال بلاد العالم الثالث وخصوصا فى أفريقيا وآسيا.

وهو هذا الخطاب العنصرى الذى ابتكر نظرية "عبء الرجل الأبيض" فى تمدين الشعوب البربرية الغارقة فى جهالاتها، والسادرة فى تخلفها! لقد كانت هذه النظرية وغيرها من الإدراكات الغربية المتحيزة إزاء شعوب العالم غير الغربى وثقافاته، هى الغطاء الإيديولوجى لإضفاء الشرعية على الاستعمار، وهى ذاتها التى أصبحت المكونات الرئيسية للنظرية العنصرية التى سادت طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وهذه النظرية هبطت من عليائها بعد أن وجهت إليها سهام النقد، ليس فقط من قبل مفكرى العالم الثالث، ولكن أيضا من قبل المفكرين الغربيين النقديين، بالإضافة إلى حركة التحرير البطولية التى قامت بها شعوب العالم الثالث لكى تفك إسار الاستعمار الغربى.

غير أن التطورات الحديثة فى أوروبا فى العقود الأخيرة، وما أدت إليه التغيرات الاقتصادية، والتطورات التكنولوجية، دفعت إلى انبعاث النظرية العنصرية وإن كان فى ثوب جديد. واتخذت هذه العنصرية صورا وأشكالا شتى سياسية واجتماعية وثقافية. فى الجانب السياسى شهدت بعض البلاد الغربية وعلى الأخص فرنسا صعودا للحزب اليمينى العنصرى الذى يقوده "لوبن" والذى أدى به إلى النجاح فى الانتخابات ودخوله بنسبة كبيرة فى البرلمان الفرنسى. كما شهدت ألمانيا أيضا بروزا واضحا للجماعات والأحزاب العنصرية. وتجمع هذه الأحزاب والجماعات على اتخاذ موقف سلبى من العمال

المهاجريـــن مـــن أصول عربية وإسلامية وتركية، ليس ذلك فقط، بل تتصاعد الدعوات إلى طردهم من البلاد. وفعلا تأثرت الحكومات بهذه التيارات وعدلت من تشريعاتها لتقييد الهجرة، وترحيل أعداد كبيرة من المهاجرين على أسس قانونية مفادها مخالفتهم لقوانين الإقامة والهجرة.

أمـــا التجلـــيات الاجتماعية العنصرية الغربية الجديدة، فتبدو فى محاولـــة الهيمنة على أسلوب الحياة للمهاجرين والمواطنين من أصول عربـــية وإســـلامية مـــن خـــلال سياسات التهميش والاستبعاد والقهر الاجـــتماعى. وتـــبرز التجلـــيات الثقافية للعنصرية فى تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

ولـــو تأملـــنا فى خطاب الرؤساء الغربيين الذى صدر تلقائيا كرد فعـــل علـــى يوم الهول العظيم، لأدركنا أن مفرداته الغالبة هى مجرد إعادة إنتاج للعنصرية القديمة والجديدة على السواء!

انظر إلى خطاب بلير الذى يقرر فيه أن الهجوم ليس مجرد حادث إرهـــابى ولكنه موجه ضد مجتمعاتنا الديمقراطية، وهو يمثل البربرية الموجهـــة ضد المدنية والحضارة الغربية. وتأمل خطاب شيراك الذى يثـــير نفـــس المعـــانى ويستخدم مفاهيم شبيهة فى حديثه عن البربرية والحضارة!

ومن حق هؤلاء الرؤساء الغربيين أن يدينوا هذا الحادث الإرهابى البشـــع لكونه اعتداء جسيما على الحق فى الحياة لآلاف المدنيين من الأبـــرياء، ليســـوا هم فقط، بل إن رؤساء الدول جميعا وفى مقدمتهم الـــدول العربية والإسلامية شاركوا فى هذه الإدانة. غير أن الرؤساء الغربييـــن وخصوصـــا رئيس الجمهورية الفرنسى، ورئيس الوزراء الإنجلـــيزى كـــان ينبغى عليهم أن يتأنوا قليلا قبل الاندفاع فى وصف الشعوب الأخرى بالبربرية، لأن فرنسا وإنجلترا لهما تاريخ حافل حقا فى القرن العشرين، فى ممارسة فرنسا للاستعمار الاستيطانى للجزائر الـــذى مارســـت فـــيه - والحق يقال - صورا شتى من الجرائم ضد الإنســـانية. كما أن الاحتلال الإنجليزى للهند ومصر وغيرها من بلاد العالم، كشف عن ممارسات بربرية لا حدود لبشاعتها.

إن إعـــادة إنـــتاج الخطـــاب العنصرى القديم على لسان الرؤساء الغربييـــن لـــيس من شأنه سوى إحياء السجلات التاريخية للاستعمار

الغربي، بما يحمله من نزعة عنصرية ضد شعوب العالم غير الغربى. وهــو الاتجــاه الذى انبرى المؤتمر العالمى الذى عقدته اليونسكو فى فيلنــيوس عاصـــمة ليتوانيا فى أبريل الماضى، للهجوم عليه وتفنيده، والدعــوة إلـــى محــوه مــن الوجــود، تحقيقا للمثل العليا فى حوار الحضارات.

[٣]

صعود وسقوط القوى العظمى!

لـــم يكد العالم يفيق من صدى أحداث يوم الهول العظيم الذى ألم بالولايــات المتحدة الأمريكية شعبا وحكومة، حتى تصاعدت عديد من الأســئلة الــتى ســبق لها أن ترددت مع نهاية القرن العشرين، حول اســتمرار القــوة الأمريكية أو اضمحلالها فى العقود القادمة، بالمعنى الــتاريخى لكلمــة الاضــمحلال، الــذى هــو المصير الحتمى لأى إمبراطورية!

صيغت هذه التساؤلات فى بداية القرن الحادى والعشرين حين أثار بعض الباحثين السؤال: هل سيكون هذا القرن أمريكيا، أم أن هناك من الشــواهد مــا يدل على أن مرحلة الاضمحلال النسبى للإمبراطورية الأمريكية قد بدأت لأسباب شتى؟

وربمــا كــان أشهر الباحثين الذين تصدوا بالبحث العلمى للإجابة على السؤال، هو المؤرخ الأمريكى بول كيندى صاحب الكتاب الشهير الذى أثار ضجة كبرى حينما صدر عام ١٩٧٨ وهو "صعود وسقوط القوى العظمى من عام ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠".

ويلفــت الــنظر أولا أن بول كيندى إنجليزى الأصل، سبق له أن عمل مساعدا للباحث الاستراتيجى المعروف ليدل هارت، وربما يفسر أصــله الإنجلــيزى جسـارته فــى طــرح موضوع اضمحلال القوة الأمريكــية. ومــن ناحية ثانية فالعنوان الفرعى للكتاب يشير إلى أن مؤلفــه أراد أن يعطــى لنفسه مجالا تاريخيا واسعا لاختبار أطروحته الرئيســية، والتى مفادها أنه إذا زادت الالتزامات الاستراتيجية للدولة العظمــى علــى إمكانياتها الاقتصادية فإنها تسقط، بالمعنى التاريخى

للكلمــة، بمعــنى الاضمحلال التدريجى لقوتها. وقد دلل كيندى على صدق مقولته حين اختبرها بالنسبة لإمبراطوريات متعددة سبق لها فى عصور شتى أن صعدت صعودا بارزا، ومارست هيمنتها على العالم، ثم ما لبثت أن لحقتها عوامل التفكك.

غير أن كيندى فى تحديد الفترة الزمنية لبحثه من عام ١٥٠٠ حتى عــام ٢٠٠٠، مع أن كتابه صدر عام ١٩٧٨، (ومعنى ذلك أنه انتهى مــن كتابه حوالى عام ١٩٧٥)، يكون فى الواقع قد تحول بوعى من كونــه مؤرخــا مقتدرا يتقن التعامل مع الحقيقة التاريخية، إلى باحث مســتقبلى أراد أن يمــد بصر استشرافه لكى يتحدث عن خمسة عشر عامــا تلــبت انــتهائه من كتابه. وأهمية هذا المسلك أنه يسمح له بأن يستخلص من خيوط التفاعلات الدولية المتشابكة تنبؤا باضمحلال القوة الأمريكية فى العقود التالية، وهو التنبؤ الذى أثارعليه الدوائر الرسمية فــى واشنطن! ولم يكن هذا غريبا، فها هو مؤرخ معترف به يحترف تدريــس الــتاريخ فــى جامعــة بيل العريقة، يفاجئ زعماء الإدارة الأمريكــية بأن القوة العظمى المهيمنة للولايات المتحدة الأمريكية إلى زوال! وينــبغى أن نلتفت إلى أن كيندى صاغ تنبؤه المثير فى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفيتى قائما، وإن كانت بوادر التفكك كانت قد بــدأت تفعل فعلها فى جسده المترنح. ولكنه استخلص تنبؤه بعد دراسة دقــيقة مقارنــة للإمكانــيات والقدرات السوفيتية والصينية واليابانية والأمريكية، واعتمد فى ذلك على مؤشرات كمية وكيفية.

المؤرخ والمستقبل

وقد يكون مناسباً أن نثير السؤال التقليدى: هل يصلح المؤرخ لكى يكون باحثا مستقبليا يصوغ الفروض والاحتمالات عن فترات مقبلة لم تتضح ملامحها وسماتها بعد؟ هناك إجابة معروفة على السؤال، مفادها أن المؤرخ بحكم دراسته المنهجية للماضى هو أقدر الناس على التنبؤ بالمســتقبل، على أساس استخلاصه للدلالات الهامة من عبر التاريخ. غــير أن هــناك إجابة مضادة مبناها أن المؤرخ ليس مؤهلا لتحليل الحاضــر الزاخــر بالتفاعلات، لأن تدريبه الأكاديمى لا يسمح له إلا

بتطبيق المنهج التاريخى، معتمدا فى ذلك أساسا على الوثائق، لاستخلاص ما يطلق عليه وإن كان مختلفا بشأنه "الحقيقة التاريخية". غير أن هناك عددا من المؤرخين اللامعين تحدوا فى الواقع - بحكم القدرة النافذة على الاستبصار والاستشراف - هذه الحدود التى أراد المعترضون أن يقيموها لتمنع حركة المؤرخ وامتداد بصره إلى المستقبل.

ولعل من أبرزهم جميعا المؤرخ الإنجليزى الشهير اريك هوبزباوم صاحب المرجع المثير "عصر النهايات القصوى: وجيز القرن العشرين ١٩١٤ - ١٩٩١"، والذى صدر فى لندن عام ١٩٩٤، وترجمه ترجمة رائعة هشام الدجانى، وصدر فى عدة أجزاء عن منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩٧.

هذا المرجع الفريد عن تاريخ القرن العشرين، الزاخر بالاستبصارات العميقة، يعد مثالا نموذجيا للتاريخ التأويلى الذى لا يقنع فيه المؤرخ بسرد الأحداث التاريخية، كما تفعل عديد من الكتب الفرنسية والإنجليزية التى صدرت لتؤرخ للقرن العشرين، وإنما هو يتجاوز ذلك بمراحل لأنه يتعقب "دهاء التاريخ " فى كل منعطف، ويستخلص المعنى والدلالة لكل حدث، ليس ذلك فحسب وإنما يعطى الحكم التقييمى الإجمالى للقرن العشرين، حين يقارنه بالقرون السابقة. ويصل هوبزباوم إلى ذروة الإبداع الفكرى حين يضع يده على الملامح الأساسية التى ستتسم فى رأيه بدايات القرن الواحد العشرين.

وقد أتيح له على كل حال أن يلعب دور الباحث المستقبلى فى الحوار الممتد الذى أجراه معه الكاتب الإيطالى أنطونيو بوليتو والذى صدر فى باريس عام ١٩٩٩ بعنوان " رهانات القرن الواحد والعشرين" عن دار نشر كومبلكس. فى هذا الكتاب يستند هوبزباوم إلى معرفته التاريخية العميقة لكى يمد بصره الثاقب إلى المستقبل.

وهكذا فعل بإبداع حقيقى بول كيندى فى نهاية كتابه الشهير. ففى الفصل الثامن والأخير نجد عنوانه الدال" إلى القرن الحادى والعشرين" ويبدأه بفقرة ممتعة فكريا حقا، يعطى لها عنوانا هو " التاريخ والتأمل".

يقول كيندى مفتتحا هذا الفصل المثير الذى ضمنه تنبؤاته بشأن اضمحلال القوة الأمريكية "إن عنوان الفصل بذاته يتضمن ليس فقط

تغيـــيرا فـــى نمط سرد الأحداث، ولكن أيضا تغييرا فى منهج البحث" ويدلـــل على رأيه بأنه حتى الماضى القريب يعد تاريخا، وبالرغم من أن مشكلات التحيز والرجوع إلى المصادر تؤدى إلى أن مؤرخ الحقبة الســـابقة يجـــد أحـــيانا صـــعوبة التمييز بين العرضى والأساسى من الأحـــداث، إلا أنـــه بعد ما يزال يبحث فى حدود تخصصه الأكاديمى وهو التاريخ.

ولكـــن – يقول كيندى – أن يخوض المؤرخ فى موضوع كيف يمكـــن للحاضر أن يتطور فى المستقبل، حتى لو أعتمد فى ذلك على اتجاهـــات بـــارزة مازالت تشق طريقها لتشكيل الأحداث، فإن ذلك لا يعطيه الحق فى أن يزعم أنه يتحدث عن "حقيقة تاريخية".

لأن مـــثل هذه الكتابات لم تعد تستند – كما هو الحال فى الكتابة التاريخية – على الدراسات والأبحاث والوثائق المؤرشفة، وإنما تنتقل إلـــى مجـــال التنبؤات الاقتصادية والاستشرافات السياسية، مما يطرح قضـــية مدى صدقها Validity، هذا الصدق الذى يفترض فى الكتابات التاريخـــية التقلـــيدية الموثقة، والمعتمدة على المنهج التاريخى بمعناه الدقـــيق. ذلك لأنه ليس هناك من يستطيع الحديث بثقة عن المستقبل. فـــالأحداث غـــير المتوقعة، وتجمد تيار معين كان قد بدأ يشق طريقه ويشكل الأحداث، يمكن له أن يدمر أى تنبؤات مهما بدت فى وقتها لها مـــنطقها ووجاهتها. ما أصدق هذه العبارات حين تنطبق على أحداث يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١! وهل كان أحد يتوقع أن يحدث ما حدث فجأة وعلـــى غـــير انـــتظار، أن يتم غزو الولايات المتحدة الأمريكية من الداخـــل، فـــى هجـــوم مفاجئ على رموز القوة الأمريكية؟ أى باحث مســـتقبلى مـــن خبراء وضع السيناريوهات كان يستطيع أن يتنبأ بهذا الحادث الجلل؟

كـــل هذا كان مقدمة أشبه ما تكون باعتذار ضمنى للقارئ، يقرر فـــيه المـــؤرخ بـــول كيندى أن مادة هذه الفصل التى تقوم على التنبؤ بالمســـتقبل، ليس سوى اجتهادات مؤقتة تقوم على استخلاصات سائغة فـــى مجال الاقتصاد والاستراتيجية، بناء على مؤشرات كمية وكيفية، بدون الزعم أن هناك ضمانات تؤكد أنها ستحدث.

ويحدد كيندى من بعد معالم منهجه، فيقرر أن أفضل طريقة للنظر إلـى ملامـح المستقبل هى أن ننظر للخلف بشكل مركز، لكى نتابع عملـية صـعود وسقوط القوى العظمى عبر القرون الخمسة الأخيرة. والفكـرة الأساسـية التى يصدر عنها الباحث هو أن هناك ديناميكية خاصة بالتغير تقودها أساسا التطورات الاقتصادية والتكنولوجية، تؤثر لا محالة على الأبنية الاجتماعية والأنظمة السياسية، والقوة العسكرية، وعلـى وضـع الـدول والإمبراطوريات. غير أن سرعة هذا التغير الاقتصادى الكونى الشامل ليست لها صيغة واحدة، وذلك لسبب بسيط مؤداه أن مراحل التجديد التكنولوجي والنمو الاقتصادى هى بذاتها غير منـتظمة، ولأنه يحكمها ظروف المخترع الفرد، والمنظم الاقتصادى المـبادر، وكذلك ظروف المناخ وشيوع الأمراض، ووقوع الحروب، واعتـبارات الجغرافـيا والإطـار الاجتماعى، وغيرها من العوامل المتشـابكة. وقـد لوحظ أيضا أن المناطق والمجتمعات المختلفة عبر العالم، لها معدلات فى التغير قد تكون سريعة أو بطيئة. ويتوقف ذلك لـيس فقط على تأثير الأنماط المتغيرة للتكنولوجيا والإنتاج والتجارة، ولكـن أيضـا على درجة استقبالها وتلقيها لهذه الأنماط الجديدة، التى تـؤدى إلـى زيـادة المخرجات وتنمية الثروة. ويكفى فى هذا الصدد للتدليل على صدق هذه المقولة المقارنة بين مصر واليابان اللتين بدأتا التحديـث فـى نفس الحقبة التاريخية تقريبا، لنعرف كيف استطاعت اليابان التمثل السريع للتكنولوجيا وطريقة التنظيم الاقتصادى الغربية، فى حين تخلفت مصر فى مضمار سرعة التمثل والتأسيس والتطوير.

والأطـروحة الثانـية لـبول كيـندى أن اختلاف معدلات النمو الاقتصـادى عادة ما يكون لها آثار طويلة المدى على القوة العسكرية النسبية والموقع الاستراتيجى للدول المنتظمة فى إطار نظام عالمى.

لـم تكن هذه الإشارات الهامة إلا مقدمات لنظرية بول كيندى فى صـعود وسـقوط القـوى العظمى، التى تحتاج إلى مناقشة فى ضوء نظـريات أخـرى أحدث، حاولت أن تتجاوز حدود وقصور نظريته، ولعل أبرزها أنه ركز على عوامل قوة الدولة العظمى، غير أنه أغفل المصداقية الأخلاقية للإمبراطورية، والتى حين تختل لابد لها أن تؤدى بها إلى الاضمحلال، بالمعنى التاريخى للكلمة.

[٤]

صوت العقلانية الأمريكية!

لا يمكـــن الحكم بصورة اطلاقية على حضارة ما والادعاء بأنها مـــتقدمة أو مـــتخلفة، كما أنه لا يجوز - أن أردنا نكون موضوعيين، ونلتزم بقواعد المنهج العلمى فى التفكير- أن نعمم الحديث عن شعب معيـــن وننعـــته بالسلبية المطلقة، أو بالإيجابية الفاعلة! فكل حضارة إنســـانية - كمـــا تعلمنا دروس التاريخ فيها الإيجابى والسلبى- وكل شـــعب عادة ما يضم بين جنباته تيارات فكرية، وقوى اجتماعية تؤمن بالـــتقدم، وتـــيارات وقـــوى تنطلق من رؤى تقليدية ومحافظة وأحيانا بدائية.

ومـــن هنا لا يجوز التعميم على المجتمع الأمريكى بكل ما يضمه مـــن شرائح اجتماعية متعددة، وأعراق متنوعة، بل من الضرورى أن نمـــيز بين رؤى العالم المتعددة التى يموج بها، وكذلك ليس من قبيل الإنصـــاف أن نديـــن هـــذا المجتمع على أساس السياسات الخارجية الخاطـــئة الـــتى إتبعتها وتتبعتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة، سواء بالنســـبة للعالم ككل، أو بالنسبة للعالم العربى، وعلى وجه الخصوص بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى.

وإذا كنـــت قـــد حرصت عقب الحادى عشر من سبتمبر على أن أحلـــل الخطـــاب السياســـى للرئيسين بوش وشيراك ولرئيس الوزراء البريطانى بلير فى مقالى "خطاب الحرب العالمية الثالثة" (الأهرام ٢٠ ســـبتمبر) لكـــى أكشـــف عن القيم الكامنة وراءه، والتى استدعت من أعمـــاق الذاكرة التاريخية ذكريات الحروب الصليبية، ومزاعم الغرب باعتـــباره مهـــد المدنية فى مواجهة الشرق باعتباره مرتعا للبربرية، فإنـــنى من وجهة النظر العلمية اتجهت لكى أحلل استطلاعات الرأى العـــام الأمريكـــية التى سارعت لإجرائها معاهد، ومراكز الرأى العام

عقب الحادى عشر من سبتمبر، لكى أدرس عن قرب اتجاهات المواطنين الأمريكيين عقب الحادث الجلل مباشرة. ولفت نظرى أنه قد أجرى استطلاع آراء لعينة قومية من الأمريكيين فى بداية الحادى والعشرين، لقياس اتجاهاتهم إزاء المستقبل، ومعرفة هل هم متشائمون أم متفائلون؟، وكذلك موقفهم من التحديات التى تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية والعالم فى بداية الألفية الثالثة.

وقد اعتبرت هذا الاستطلاع علامة فاصلة فى قياس الاتجاهات الأمريكية لأنه أجرى قبل ١١ سبتمبر، وبالتالى يمكن مقارنة الاتجاهات ما قبل وما بعد الحادث الخطير الذى ألم بالمجتمع الأمريكى.

غير أنه لفت نظرى موقع مهم على شبكة الإنترنت ضم مجموعة كاملة من المقالات التى كتبها معلقون وكتاب سياسيون أمريكيون من اتجاهات شتى عن حادث الحادى عشر من سبتمبر، وحين قمت بتحليل مضمون كيفى لهذه المقالات، تبين لى أنها تندرج فى فئتين كبيرتين، الأولى مقالات تفيض بالدعوة إلى الانتقام وتسرف فى هذا الاتجاه لدرجة المغالاة، ويكشف عن هذا دعوة بعضهم لاستخدام الأسلحة النووية ضد الإرهابيين، والثانية تدعو إلى العقلانية، فى رد الفعل، ولا تنساق بسهولة إلى الدعوات الهستيرية للانتقام حتى لو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء من أبناء الشعوب التى ستتعرض للقصف.

دعوة للمراجعة

وتبدو استنارة أصحاب الخطاب النقدى الأمريكى فى التحليل الشامل الذى قام به الكاتب كريس مونى يوم ١٨ سبتمبر ٢٠٠١ أى بعد أسبوع من الحادث الخطير لمجموعة متنوعة من المقالات التى انتابتها النزعة الهستيرية للانتقام، ويستعرض أمثلة بارزة لهذه الاتجاهات الانتقامية ويشير إلى أن كولتر التى دعت إلى شن حرب صليبية ضد المتعصبين الدينيين الذين اعتدوا على أمريكا مثيرة فى ذلك ذكريات القرن الثانى عشر، وكاتب آخر فى جريدة الواشنطن بوست يدعو إلى استخدام الأسلحة الذرية ضد بن لادن (مثيرا مناخ

الحرب الباردة) ولوحظ اتجاه بعض الأمريكيين لإعادة قراءة عدد من الأشعار التافهة التى خطها قلم المتنبئ الشهير نوستراداموس فى القرن السادس عشر! ولم يفت الكاتب الإشارة إلى تفسير أحد رجال الدين وهو جيرى تولول الذى أكد - بناء على تقاليد الخطاب الدينى المعروفة- أن الله سبحانه وتعالى غاضب على أمريكا، ولذلك سحب حمايته للأمة الأمريكية!

ويلفت كريس موتى النظر بذكاء إلى مقالة مهمة تحاول تطبيق مذهب الداروينية الاجتماعية الذى صيغ فى ضوء نظرية داروين المعروفة عن التطور كتبها "شلبى ستيل" الباحث فى معهد هوفر المعروف باتجاهاته المحافظة، وعنوان المقالة التى نشرها فى الوول ستريت جورنال "حرب العالم": ينبغى أن يوقف الغرب اعتذاره عن عظمة حضارتنا" ويلخص الكاتب هذه العظمة فى عدد من الإنجازات المهمة وهى مفهوم العقد الاجتماعى، وفكرة "الفرد" باعتباره كائنا مكتفيا بذاته، ووحدة سياسية حرة له حقوق وعليه مسئوليات، وفكرة حرية السوق، وسيادة المنهج العلمى، والفصل بين الكنيسة والدولة، غير أن كريس موتى يقرر أن الخطير فى أطروحات ستيل أنه يقرر أن هذه الأفكار السياسية المهمة هى بطريقة أو بأخرى نتاج صراع تطورى بين الحضارات، وهو يقرر بالنص:

"ليس من المبالغة القول - كما فعل فرانسيس فوكوياما منذ عدة سنوات خلت- أن الغرب يمثل الآن وفقا لفكرة هيجل "نهاية التاريخ" نموذج التقدم وإذا كان العالم الثانى والعالم الثالث قد نزعا إلى "الأمركة" بمعنى تطبيق الأسلوب الأمريكى فى الحياة فإن ذلك قد حدث تحت تأثير "الداروينية" وليس حبا فى " الجينز الأزرق" أو سندوتشات البيج ماك. إن الشرور التى مثلتها عهود العبودية والاستعمار تبدو فى إن هذه الصور من القهر قد أبعدت ضحاياها عن مجرى التاريخ، وفصلتهم عن الصراع التطورى.

ويقرر الناقد كريس موتى بذكاء شديد أنه ليس من المبالغة القول أن الفكرة الأساسية التى يمكن استخلاصها من التحليل السابق، أنه يقع على عاتق الغرب تطوير العالم الإسلامى باتباع كل وسيلة ممكنة، ولكن يتساءل موتى وماذا إذ لم يتطور هذا العالم؟ يقول إن سكان هذا

العـالم سيصـبحون حينـئذ مجرد ضحايا إضافيين للصراع من أجل الوجود، لو استخدمت القنابل ضدهم!

ومـن المقالات المتطرفة في التعليق على الحدث مقالة لأكاديمى إنجلـيزى شـهير هو ريتشارد دوكنز بنى شهرته على أساس أنه من أبـرز الممثلين لنظرية داروين فى التطور وعنوان مقالته. "صواريخ الدين الضالة" نشرها فى الجارديان بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٠١، ويقرر فى ختام مقالته أن "الدين هو أيضا من بين مصادر الانقسام فى الشرق الأوسـط، مما أدى إلى استخدام هذا السلاح المميت فى المقام الأول، ولكـن هـذه قضية أخرى وليست موضع اهتمامى هنا، إن اهتمامى الأساسـى يـتركز حـول السلاح نفسه، وأقصد الدين، إن ملء العالم بالديـن، أو بأديـان تـنحدر من الأصل الإبراهيمى، يشبه أن تضئ الشـوارع ببـنادق مملوءة بالبارود! ولا ينبغى أن نندهش إذن إذا تم استخدام هذه البنادق!

ويعلـق موتى قائلا: إن المشكلة فيما يتعلق بتحليل دوكنز الأستاذ بجامعـة أوكسـفورد والمشغول بنظرية التطور، أن العالم ملئ بأديان متعددة، غير أن ما غفل عنه الكاتب هو دور الفقر والإحباط فى إذكاء العقائد الدينية المتطرفة.

فـى ضوء العرض السابق، يمكن القول أنه فى زحمة الأصوات الـزاعقة الداعـية إلى شن الحرب فورا (ضد من؟ وكيف؟) حتى لو استدعى الأمر استخدام الأسلحة الذرية، برزت أصوات عاقلة صدرت عـن مجموعة من الكتاب الأمريكيين الذين استطاعوا بجسارة التعبير عـن التيار النقدى فى الفكر الأمريكى المعاصر، والذى لم يتوان فى لحظـات الأزمـات التى مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أبـرزها علـى الإطـلاق حـرب فيتنام، عن النقد المسئول والعميق لاتجاهات الإدارة الأمريكية فى عهودها المختلفة.

ومما لا شك فيه أن هذه الكتابات التى ربما لا يسمع صوتها بالقدر الكـافى وسط ضجيج الدعوة إلى الانتقام والحرب، سيكون لها تأثيرها فـى الأجـل المتوسـط، فى مجال ترشيد سلوك الجماهير الأمريكية، وتعديل اتجاهاتها، لكى تسلك سبيلا أقوم فيما يتعلق بالنظرة إلى الذات، والنظرة إلى الآخر.

وإذا كان من المستبعد في جو الأزمة الراهنة أن تدور عجلة النقد الذاتي الأمريكي لدى دوائر صنع القرار في واشنطن فيما يتعلق بالأسباب الحقيقية الكامنة وراء كراهية الولايات المتحدة الأمريكية التي انتشرت في العقد الأخير في بقاع متعددة من العالم، إلا أن هذه الكتابات النقدية المبكرة لخطاب الحرب، والتي ترمز إلى جسارة أصحابها، من شأنها أن تفتح باب النقد الذاتي، وهذه عملية ضرورية لصانعي القرار الأمريكي، الذين تحت تأثير غرور القوة تجاهلوا المصالح المشروعة للشعوب والدول في مختلف أنحاء العالم، وصمموا على تحقيق المصالح الأمريكية كما يدركونها هم، حتى لو أدت إلى الإضرار بمصالح الآخرين.

ويكشف عن هذه الظاهرة بكل وضوح استطلاعات أمريكية للرأي العام الأوروبي أجريت في أغسطس الماضي في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، ذهبت فيها غالبية العينات القومية المستطلعة إلى الاعتراض على السياسات الأمريكية فيما يتعلق بقضية درع الصواريخ وانسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة حظر انتشار الأسلحة الصاروخية، وكذلك انسحابها من معاهدة كيوتو الخاصة بضبط المناخ العالمي.

ومعنى ذلك أن عدم شعبية السياسات الأمريكية لا تقتصر – كما هو الشائع – على الشعوب العربية أو الإسلامية بحكم انحياز الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل في الصراع العربي الإسرائيلي، وإنما امتدت للشعوب الأوروبية ذاتها، التي أحست بفطرتها أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ركبها الغرور، وتريد فرض سياساتها على العالم، بحكم انفرادها بالقوة العسكرية الفائقة.

ومن الأهمية بمكان أن نلتفت إلى أن الخطاب النقدي الأمريكي لم يقتصر على تحليل خطاب الحرب لتفنيده إنما التفت أيضا إلى خطة الحرب ذاتها، لكي يكشف عن حدود استخدام القوة المسلحة في الصراع ضد الإرهاب، ولكي ينقد الأسس الواهية التي قامت على أساسها خطة الحرب العالمية التي تريد أن تقودها بشكل مضطرب وغامض ومتعثر – الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يستحق أن نفرد له في معالجة مستقلة.

[٥]

مشكلة التدهور النسبى للقوة الأعظم

يمكـــن القول أن نظرية بول كيندى التى بسطها فى كتابه "صعود وسقوط القوى العظمى" الذى عرضنا له فى المقال الماضى هى أشمل نظـــرية فـــى فلسفة التاريخ المعاصر التى عالجت بعمق شديد قضية اضـــمحلال القوى العظمى بالمعنى التاريخى للكلمة. (وتجدر الإشارة إلـــى أن الكتاب صدرت له ترجمة عربية أنجزتها هيئة الاستعلامات ونشـــرت فـــى سلســـلة "العالم الجديد" التى أشرف عليها د. أنور عبد الملـــك، وقام بالترجمة السيد محرز خليفة وعلى الحداد ومحمد محمد سلامة، وصدرت عام ١٩٩٢ فى كتاب محدود التوزيع).

وتـــرجع أهمية نظرية كيندى إلى أنه ربط ربطا وثيقا منذ البداية بيـــن الاســـتراتيجية والاقتصاد. وتعقب هذه العلاقة الوثيقة بينهما فى ثـــلاث مـــراحل حاســـمة من تاريخ العالم الحديث، فى العالم ما قبل الصـــناعى، وحتى العصر الصناعى، واليوم والغد. والمرحلة الأخيرة المعاصـــرة يقسمها إلى فترتين من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٨٠ حيث يعـــالج الاستقرار والتغير فى العالم الثنائى القطبية، ومن عام ١٩٨٠ حتى عام ٢٠٠٠، وهى الفترة التى كد فيها بصره إلى المستقبل حيث أنه نشر كتابه كما ذكرنا من قبل عام ١٩٨٧ ومعنى ذلك أنه انتهى مـــنه تقريبا عام ١٩٨٥، وهو به بالتالى أعطى لنفسه مدى زمنيا لمدة خمسة عشر عاما لكى يستشرف المستقبل.

والمنهج الذى أتبعه كيندى فى هذا الفصل النهائى المثير من كتابه والذى يعتبر ذروة إبداعه، هو دراسة حالة القوى الأساسية الفاعلة فى الـــنظام الدولـــى ابتداء من عام ١٩٨٠ فصاعدا. ولذلك عنى بدراسة

الصين باعتبارها عملاقا صاعدا، وتحول لدراسة المعضلة اليابانية، ولم يفته بالطبع أن يدرس الاتحاد الأوروبى من زاوية إمكانياته الواعدة ومشكلاته البارزة، وألقى نظرة عميقة على الاتحاد السوفيتى (قبل سقوطه) لكى يكشف تناقضاته، وأخيرا يركز على الولايات المتحدة ويشير عنوان الجزء الذى خصصه لها إلى اتجاهه حين يسميه: مشكلة رقم واحد (ويقصد القوة العظمى الأولى) فى التدهور النسبى.

ويمكن القول أن الزمن أثبت صدق تنبؤات كيندى تماما بالنسبة للصين واليابان والاتحاد الأوروبىوالولايات المتحدة الأوروبية ما عدا الاتحاد السوفيتى، الذى رغم أنه درس بعمق تناقضاته الأساسية، إلا أنه لم يستطع أن يتنبأ بانهياره عام ١٩٨٩ ، بل إنه بعد دراسة مستفيضة لأزماته العميقة وصل إلى نتيجة محددة حين قرر " وهذا يعنى أن الاتحاد السوفيتى على وشك الانهيار، كما أنه لا ينبغى النظر إليه أيضا باعتباره بلدا ذا قوة خارقة، ولكن على أنه يواجه خيارات صعبة".

ولم يدر كيندى أنه بعد عامين أو ثلاثة من نشر كتابه ستهوى إلى القاع الإمبراطورية السوفيتية العظمى التى أكد فى فقرة أخرى من كتابه أنه "لا يوجد من خصائص أو تقاليد الدولة الروسية ما يشير إلى أنها استطاعت أبدا أن تتقبل انهيار إمبراطوريتها ببساطة".

ولكن التاريخ له منطقه، وسواء حدث الانهيار بحكم فساد النظام السوفيتى سواء من ناحية منطلقاته النظرية أو ممارساته، أو بتأثير التآمر الخارجى المتمثل فى الحرب الشرسة التى شنها الغرب عليه منذ بداية نشأته بعد اشتعال الثورة البلشيفية، فإن الواقع قد تجاوز خيال كيندى، تماما مثلما تجاوز الواقع خيال كافة المفكرين الاستراتيجيين المعاصرين بين الذين لم يتخيلوا أبدا إمكان اختراق دوائر الأمن الأمريكية فى الحادى عشر من سبتمبر، ونفاذ الهجمات الإرهابية إلى معاقل القوة الأمريكية العظمى الاقتصادية متمثلة فى البرجين الشهيرين، والعسكرية ممثلة فى البنتاجون والسياسية ممثلة فى الرئاسة الأمريكية.

ولعلــه قــد آن الأوان لكــى نطرح السؤال الرئيسى: كيف طرح كنيدى مشكلة التدهور النسبى للقوة الأمريكية؟

يقــرر كيندى "وبالرغم من أن الولايات المتحدة حاليا مازالت فى مرتبة خاصة بها وحدها اقتصاديا وربما عسكريا، إلا أنها لا تستطيع أن تتجنــب مواجهة الاختيارين الكبيرين اللذين يتحديان طول بقاء كل قــوى كبرى تحتل الموقع "رقم واحد" فى شئون العالم: وهما أولا إذا كانــت علــى المســتوى العسكرى الاستراتيجى تستطيع الحفاظ على تــوازن معقول بين مقتضيات الدفاع التى تراها للدولة والوسائل التى تمــتلكها للوفاء بتلك الالتزامات، وثانيا إذا كانت – وتلك نقطة قريبة الصــلة بالــنقطة الأولــى– تستطيع الحفاظ على الأسس التكنولوجية والاقتصــادية لقوتهــا مــن التدهور النسبى فى مواجهة أنماط الانتاج العــالمى دائمــة التغــير. وهذا الاختيار سيكون هو الاختيار الأعظم للقــدرات الأمريكــية لأنهــا مثل أسبانيا الإمبراطورية فيما حول عام ١٦٠٠، أو الإمــبراطورية البريطانــية فــيما حول عام ١٩٠٠، هى الوريــث لمجموعة واسعة من الالتزامات الاستراتيجية التى أقرت من عشــرات الســنوات، عــندما كانت قدرة البلاد السياسية والاقتصادية والعســكرية علــى التأثير على شئون العالم تبدو مؤكدة بدرجة أكبر. ونتــيجة لذلــك، تخــوض الولايــات المتحدة الآن المخاطرة المألوفة لمؤرخى صعود وسقوط القوى العظمى السابقة، وهى ما يمكن تسميته "بالإفــراط فــى التوسع الاستعمارى"، بمعنى أن صانعى السياسة فى واشــنطن علــيهم مواجهــة الحقيقة الصعبة وهى ان مجمل مصالح والــتزامات الولايــات المــتحدة تزيد الآن كثيرا عن قدرة البلاد على الدفاع عنها جميعا فى نفس الوقت".

هذا هو جوهر نظرية بول كيندى فى الأسباب الرئيسية التى تكمن فــى التدهور النسبى للقوة الأمريكية. غير أن متابعة كيندى فى تدليله علــى صــدق نظريته تتيح لنا أن نتأمل صدق فراسة المؤرخ المقتدر والباحث المستقبلى الجسور القادر على استشراق المستقبل، ولكن أيضا حدود هذه القدرة!

ويكفـــى بهذا الصدد أن نتابع تحليل كيندى حين يقرر أن الولايات المـــتحدة الأمريكية - على عكس القوى العظمى السابقة التى واجهت مشـــكلة زيـــادة التوســـع الاستراتيجى - تواجه أيضا إمكانية الإبادة النووية، بالرغم من الاعتراف بأن الأسلحة النووية حين تهدد كلا من الشـــرق والغـــرب تصبح فى الواقع غير قابلة للاستخدام. غير أنه - يقـــرر كيـــندى- "إذا جـــدت إمكانية أن تصبح الدول الكبرى يوما ما مـــتورطة فـــى حرب نووية فإن الدولة رقم واحد المتدهورة ستواجه تهديدات ليست موجهة بدرجة كبيرة إلى أمن أراضيها ذاتها (وفى حالة الولايـــات المتحدة يعتبر احتمال تعرضها للاحتلال من قبل جيش غاز احـــتمالا بعـــيدا)، ولكنها موجهة إلى مصالح الأمة فى الخارج، وهى مصـــالح بالغة الاتساع إلى الحد الذى يجعل من الصعب الدفاع عنها كلهـــا فى وقت واحد، ومع ذلك من الصعب أيضا التخلى عن أى منها دون خوض المزيد من المخاطر".

وهكـــذا فى ضوء هذه الفقرة الهامة، نكتشف أن كيندى - بالرغم مـــن بصيرته الثاقبة - لم يستطع أن يرقى بخياله إلى تصور أن تسعة عشـــر إرهابيا استطاعوا خطف أربع طائرات أمريكية وحولوها إلى سلاح تدميرى شامل، ونجحوا فى الغزو الفعلى لنيويورك وواشنطن، علـــى عكـــس استبعاد كيندى لإمكانية التهديد المباشر لأمن الأراضى الأمريكـــية. ولـــيس معـــنى هذا أن كيندى قد تجاهل مشكلة الإرهاب الدولـــى وإمكانياته، غير أنه وغيره من الباحثين لم يصل خيالهم إلى توقـــع إمكانية حدوث السيناريو الإرهابى الخطير الذى تم تنفيذه على أرض الواقع بدرجة عالية للغاية من التخطيط المتقن، والتنفيذ المحكم.

ويضيف كيندى فى بيان مدى اتساع الالتزامات الاستراتيجية التى فرضـــتها الولايات المتحدة الأمريكية على نفسها فى مناطق عديدة من العالم، فى الشرق الأوسط حيث البترول والصراع العربى الإسرائيلى ومشـــكلة صـــعوبة اتخاذ موقف منصف منه بحكم قوة ونفوذ اللوبى الصـــهيونى، وفـــى أمريكا اللاتينية حيث تبدو هناك تحديات متنامية تواجـــه المصالح القومية الأمريكية، كما هو الحال فى شرق آسيا. ولا ينـــبغى أن ننسى التزام الولايات المتحدة الأمريكية بالدفاع عن أوروبا بكل ما يتضمنه هذا الالتزام من مشكلات معقدة.

غـير أن الملاحظـة الهامة التى يسوقها كيندى أن أكثر الدوائر المهـتمة بالـتعارض بين الالتزامات الأمريكية والقوة الأمريكية هى القوات المسلحة الأمريكية ذاتها، ويرجع ذلك ببساطة "إلى أنها ستكون أول مـن يعـانى إذا انكشفت نقاط الضعف الاستراتيجى عند اختبار الحرب المرير"

ولا يلبث كيندى أن ينتقل لكى يحدد بإبداع فكرى حقيقى الأسباب العمـيقة لاتجـاه التدهور فى القوة الأمريكية. وهو يلخصها فى عدة أسـباب هامة. أولها الشك فى فاعلية النظام ذاته منذ حرب فيتنام. وقد أثـير موضوع "الإصلاح العسكرى" فى دراسات سابقة عديدة، وأشير علـى وجـه الخصوص إلى أنه من بين المجالات الرئيسية للخلاف درجـة المنافسـة داخل الجيش الأمريكى بين الأفرع المختلفة للقوات المسـلحة، بالإضـافة إلى أن القدر الأكبر من الطاقة مكرس لقضايا مشـتريات الأسلحة بدلا من القضايا الاستراتيجية وتنفيذ المهام. ومن ناحـية أخـرى فعلـى صـعيد المشتريات العسكرية نفسها أصبحت الاتهامات بالتبديد والاحتيال والفساد أمرا مألوفا. وهناك أحاديث عديدة عن الفضائح المختلفة حول الأسلحة ضعيفة الفاعلية والباهظة الثمن فى نفـس الوقـت إلى حد مخيف. وقد وثق قضية الفساد فى المشتريات العسـكرية توثيقا دقيقا أحد الخبراء فى وضع ميزانية البنتاجون وهو ريتشـارد سـتبنج فـى كتابه البالغ الأهمية "لعبة الدفاع" الصادر عام ١٩٨٦ والـذى أرخ فـى نفـس الوقت لسيرة أربعة من أبرز وزراء الدفـاع الأمريكييـن وهـم روبـرت مكمارا، وميلفين ليرد وجيمس شليزنجر وهارولد براون، غير أن المصدر الحقيقى للقلق حول كفاءة الـنظام يعـبر عـنه سؤال هام هو هل التركيبة الحالية لصنع القرار الأمريكى تسمح بتنفيذ استراتيجية كبرى ملائمة؟

وينتقل كيندى إلى مشكلة أخطر حين يتساءل عن الثقافة السياسية الشاملة التى ينبغى أن يعمل فى إطارها صانعو السياسة فى واشنطن. فقـد تزايد القول بأن دولة تحتاج لإعادة صياغة استراتيجيتها الكبرى فـى ضوء المتغيرات الكبرى التى لا يمكن السيطرة عليها فى الشئون الدولـية، قد لا يفيدها نظام انتخابى يكاد يشل صنع السياسة الخارجية كل عامين. وقد لا تفيدها الضغوط غير العادية التى تفرضها جماعات

الضـــغط وغـــيرها مـــن جماعات المصالح وهى كلها بحكم طبيعتها مـــنحازة لجانب هذا المتغير السياسى أو ذاك. وقد لا يفيدها " التبسيط المخل" للقضايا الدولية والاستراتيجية الحيوية رغم تعقيدها عبر وسائل الإعـــلام لا تجد فيها تلك الأمور سوى وقت ومساحة محدودين، لأن المبرر الأساسى لوجودها هو كسب المال، والحصول على الجمهور، ثـــم يـــأتى الإعـــلام فـــى المقام الثانى. كذلك قد لا تقيدها الاتجاهات الهروبـــية الـــتى مازالت قوية فى الثقافة الاجتماعية والتى ربما يمكن فهمهـــا بالمنطق الماضى لفكرة الحدود Frontier والتى قد تميل إلى العزلة. ولكن هذا الاتجاه لا يتفق مع معالم اليوم الأكثر تعقيدا واندماجا مع الثقافات والإيديولوجيات الأخرى.

هكذا تحدث بول كيندى عن مبررات تنبؤه بالتدهور النسبى للقوة الأمريكية فى العقود القادمة. بقيت لنا جولة أخيرة مع تأملاته النهائية حول الحرب ودورة القوة النسبية، والحروب الكونية والقوانين العامة لصعود وسقوط القوى العظمى.

[٦]

من الحرب المتوازنة إلى الحرب غير المتوازية !

يعد موضوع صعود القوى العظمى وتدهورها من مشكلات فلسفة التاريخ البارزة، التى عنى بالتصدى لها - كل بطريقته - المؤرخون والفلاسفة وعلماء الاجتماع. وليس من شك فى أنه موضوع بالغ الصعوبة، لأنه يحتاج في معالجته الى إلمام دقيق بتاريخ العصور الماضية، بالإضافة الى أنه لا يكفى فيه أن يمارس الباحث تأملاته الفلسفية لكى يصل الى صياغة قوانين عامة تفسر ظاهرة الصعود والتدهور، ولكن لابد له - إن أراد أن يكسب دراسته مصداقية علمية - أن يعتمد على مجموعة متكاملة من المؤشرات الكمية والكيفية لكى يقيس قوة الدول العظمى التى يتعرض لها بالبحث .

ويلفت النظر أن عددا من أعظم العقول الغربية قد عنى عناية خاصة بالمشكلة، ولعل من أبرز الفلاسفة والمؤرخين الذين أسهموا فى دراسة موضوع الصعود والتدهور، الفيلسوف الألمانى اشبنجلر فى كتابه الشهير" أفول الغرب " والمؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى فى كتابه "دراسة للتاريخ ". وهناك مدارس فكرية شهيرة تعرضت بعمق للمشكلة من أبرزها "مدرسة فرانكفورت "التى صاغ فلاسفتها" النظرية النقدية" وكان أبرزهم أدورنو و هوركهايمر وماركيوز، كما أن فكرة التقدم اهتم بالتصدى لها فلاسفة مشهورون من أبرزهم جان بول سارتر وميشيل فوكو .

ونستطيع أن نجد عرضا عميقا للإبداع الفكرى فى هذا المجال فى أفضل مرجع فى الموضوع، وهو كتاب"فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى " الذى صدر عام ١٩٩٧ للمؤرخ الأمريكى آرثر هيرمان،

الذى ترجمه الأستاذ طلعت الشايب ترجمة رائعة، وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة فى المشروع القومي للترجمة عام ٢٠٠٠.

ولو رجعنا للفصل الأول من الكتاب وعنوانه "التقدم والاضمحلال والتفسخ" لوجدناه يصوغ مشكلة البحث بدقة بالغة. فالمؤلف يقرر منذ البداية " أن فكرة الاضمحلال هى فى واقع الأمر نظرية عن طبيعة ومعنى الزمن، وكذلك أيضا فكرة التقدم. كما أن مفهوم التاريخ كتقدم أصبح اليوم فى موضع الشك بالنسبة للمثقفين، وللمؤرخين بخاصة.فقد أصبحوا يناقشون أصول وتاريخ "فكرة التقدم "وكيف كانت بمثابة "أسطورة " ثقافية قوية فى الفكر الغربى.

والواقع أن آرثر هيرمان قد استطاع أن يضع مشكلة التقدم والاضمحلال وضعا صحيحا وفى إيجاز بليغ، غير أنه بالرغم من صحة ما قاله من أن المفكرين الغربيين أصبحوا يشكون اليوم فى مقولة التقدم ويعتبرونها أسطورة، إلا أنه لم يؤصل هذه المقولة.وبيان ذلك أن الشك فى فكرة التقدم فى مجال التاريخ الإنسانى بلوره على وجه الخصوص فلاسفة "ما بعد الحداثة " الذين وجهوا سهام النقد العنيف الى مشروع " الحداثة " الغربى الذى تبلور منذ عصر التنوير، واستمر يوجه المسار الغربى حتى الستينات من القرن العشرين. هذا المشروع قام على عدة أسس أهمها الفردية والعقلانية والاعتماد على العلم والتكنولوجيا، وتبنى نظرية "خطية "LINEAR عن التقدم الإنسانى، بمعنى أن التاريخ يتقدم من مرحلة تاريخية الى مرحلة أخرى. غير أن فلاسفة ما بعد الحداثة يقولون أن هذه الفكرة الأخيرة هى محض خيال .

قواعد المنهج

وتبدو خاتمة كتاب بول كنيدى وكأنها مقال موجز فى "قواعد المنهج " الخاصة بصعود وسقوط القوى العظمى، وهو يوجزها فى مجموعة مترابطة من الأفكار والمبادئ .

*الفكرة الأولى أنه " فيما يتعلق بالنظام الدولى فإن الثروة والقوة، أو القوة الاقتصادية والقوة العسكرية مرتبطتان دائما، ويجب أن ينظر إليهما على هذا الأساس. وحيث أنهما مرتبطتان، وحيث أن كل

المجتمعات عرضة للاتجاه الحتمى نحو التغيير، فإنه لا يمكن أن تظل الموازين الدولية ثابتة "

*والفكــرة الثانية أنه " ليس من المؤكد أن وجود قوى صاعدة " وأخــرى "هابطة " فى نظام عالمى مضطرب لابد أن يؤدى دائما الى الحرب "

*والفكرة الثالثة هى أنه "مهما كانت احتمالات الصراعات النووية أو التقليدية بين الدول الكبرى، فإنه من الواضح أن تحولات هامة فى الــتوازنات تحــدث، وسوف تستمر ربما بصورة أسرع من ذى قبل. والأكــثر مــن ذلــك، أنهــا تحدث على صعيدين منفصلين ولكنهما متفاعلان، هما الإنتاج الاقتصادى والقوة الاستراتيجية ".

*والفكــرة الــرابعة أن " القوى الكبرى الحالية فى النظام الدولى مضطرة لمواجهة التحديات المزدوجة التى واجهت كل أسلافها وهى : أولا ، نمــط الــنمو الاقتصادى المتفاوت الذى يؤدى الى أن يصبح بعضها أغنى (وأقوى عادة) بالنسبة للأخريات. ثانيا ، مجال التنافس الخــارجى والخطــير أحــيانا، الــذى يضطرها للاختيار بين الأمن العسكرى الأكثر إلحاحا والأمن الاقتصادى الأطول مدى. وأخيرا يرى بــول كنيدى أن كلا من القوى الكبرى اليوم منغمسة فى الصراع مع معضــلات الصــعود والهبوط. وهذه المعضلات تؤثر عليها عوامل شتى، أبرزها معدلات النمو الإنتاجى والمتغيرات فى الساحة الدولية، والــتكلفة المتصاعدة للأسلحة ومع متغيرات موازين القوى. ويخلص الــى أن هذه متغيرات لا يمكن أن تحكمها دولة واحدة أو فرد واحد. وهكــذا فالدول الكبرى جميعا- إذا أعدنا صياغة ملاحظة " بسمارك " الشــهيرة – يقول كنيدى " تسير فى مجرى الزمن الذى لا تستطيع أن تخلقه ولا أن توجهه، ولكن يمكنها أن تسير فيه الى حد كبير"

نموذج التوازن ونموذج التوازى

وبالــرغم مــن أن اجتهادات بول كنيدى تتسم بالعمق وتستند إلى ثقافــة تاريخــية ممــتازة، الا أنها صيغت فى الواقع فى إطار نموذج الحــرب القديــم الذى سقط فى نهاية القرن العشرين، وشهدنا صعودا

لـنموذج جديد من الحرب، لم يتوقعه بول كنيدى ولا غيره من خبراء الاستراتيجية.

وقد أبـرز هـذا التحول الخطير فى نموذج الحرب تقرير بالغ الأهمـية أصـدرته مؤسسة " راند " الأمريكية والتى هى مركز العقل الإسـتراتيجى الأمريكى منذ سنوات قليلة، وعنوانه "فى معسكر أثينا " الإعداد للصراع فى عصر المعلومات" وفى هذا التقرير رصد منهجى دقيق لبروز نموذج جديد للحرب، ويعرض هذا التقرير لإطار نظرى جديـد عـن الحـروب المقبلة. ويقرر أن الصراع ستغير من طبيعته الـثورة المعلوماتية، مما سيتيح لأشكال جديدة من الأعمال الحربية أن تظهـر وتتصدر المسرح ومن أبرزها أعمال الإرهاب، وهذا التطور من شأنه أن يدفع بصانعى القرارات والمستشارين أن يعيدوا النظر فى تنظـيم القـوات المسلحة وعقائدها العسكرية واستراتيجياتها. ويقرر الـتقرير أن عديدا من الأفكار الواردة به طرحت فى دوائر البنتاجون فى عامى ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

ويلقى التقرير الضوء على عدد من الأفكار الأساسية الجديدة لعل أهمهـا أن المعلومـات والاتصالات وما يطلق عليه مكونات الفضاء المعلوماتى cyber ، والتى يمكن بشكل عام تعريفها على أساس الربط الوثـيق بيـن المـوارد التكنولوجية والتنظيمية والفكرية لمجتمع ما. وسـتدور الصـراعات حـول المعرفة : من يعرف ماذا ومتى وأين ولماذا، وحول درجة أمن المجتمع، والمعرفة عن الذات والخصوم.

والفكـرة الثانـية أن الثورة المعلوماتية لا تتعلق فقط بالتكنولوجيا ولكنها تتعلق أيضا بالتنظيم. ومن ثم فالتفاعل بين التكنولوجيا والتنظيم هو الذى سيحدد اتجاهات الاستراتيجية .

والفكـرة الثالـثة الهامـة أن الثورة المعلوماتية ستقود الى تقوية الشبكات networks فى مجال التنظيم على حساب الأشكال الهرمية التدرجـية التقلـيدية. ومن هنا فالجماعات الإرهابية مستخدمة الثورة المعلوماتـية تـتمحور حول شبكات منفصلة ومتصلة معاً مما يصعب مهمة كشفها ومعرفة قادتها.

والفكـرة الرابعة أن مسرح الصراع سيعاد صياغته بالكامل سواء من ناحية الخصوم، أو أنواع التهديدات، أو الوسائل.

والتهديدات القائمة على المعلومات لن تكون مركزة، وانما ستتسم بالانتشار والتعدد مما يجعل من الصعب تعقب مصدر التهديدات .

والفكـــرة الأخـــيرة أنه سيظهر نمطان جديدان للحرب الأول هو الحـــرب التى تعتمد على الفضاء المعلوماتى cyberwar والثانى هو حـــرب الشـــبكات netwar التى ستركز على الصراعات المنخفضة الكـــثافة، الـــتى تقـــوم بها جماعات إرهابية أو جماعات مسلحة غير منتظمة إذا ما قورنت بالنمط الأول من الحروب والذى عادة ما يدور بين الدول.

وقـــد عـــرض الأستاذ محمد حسنين هيكل لهذا التطوير فى الفكر الإســـتراتيجى الأمريكى من حيث الإدراك الكامل للعقل الإستراتيجى الأمـــريكى لعملـــية الانتقال الحاسمة من نموذج الحرب المتوازنة الى نموذج " الحرب غير المتوازية "، (راجع مقال هيكل، حريق أمريكى وعالمى، مجلة وجهات نظر، عدد ٣٣ ، أكتوبر ٢٠٠١)

ويعتمد هيكل فى تعريفه للحرب غير المتوازية على تقرير رئاسة أركـــان حـــرب القوات الأمريكية وبتوقيع رئيسها الجنرال " شيلتون " وهو يعرفها كما يلى :

"الحرب غير المتوازية هى محاولة طرف يعادى الولايات المتحدة أن يلـــتف مـــن حول قوتها ويستغل نقط ضعفها معتمدا فى ذلك على وســـائل تخـــتلف بطريقة كاملة عن نوع العمليات التى يمكن توقعها. وعـــدم الـــتوازى يعـــنى أن يستعمل العدو طاقة الحرب النفسية وما يصاحبها من شحنات الصدمة والعجز لكى ينتزع فى يده زمام المبادرة وحرية الحركة والإرادة. وبأسلوب يستخدم وسائل مستحدثة، وتكتيكات غير تقليدية وأسلحة وتكنولوجيات جرى التوصل إليها بالتفكير فى غير المـــتوقع وغـــير المعقول، ثم تطبيقه على كل مستويات الحرب. من الاســـتراتيجية إلى التخطيط إلى العمليات يعرض أفق عليه بدائل طار لديهـــا خـــيال لا يخطـــر على البال منطقيا ولا يطرح نفسه عمليا فى التقديرات التى نستطيع تصورها "

ويصـــور تعلـــيق الأستاذ هيكل على هذه الفقرة الانطباع الفورى الذى يتولد لدى أى قارئ لها، وهى أنها تكاد أن تكون وصفا لما حدث يوم الحادى عشر من سبتمبر بعد وقوعه لا قبله! ويشير الأستاذ هيكل

الـــى أن هـــذا التشخيص الإستراتيجى الأمريكى الدقيق والمبكر وجد طريقه إلى مجموعة إجراءات تضمنها التوجيه الرئاسى الذى سبق أن وقـــع عليه كلينتون وأعاد التوقيع عليه الرئيس بوش. والإجراء الأول المقــترح يطلــب " تعظيم قوة الإدراك النظرى والتأقلم مع احتمالاته تنظيميا"

وأهمـــية هذا الإجراء أنه يدعو لتعظيم ملكة الخيال لتصور ما لا يمكن تصوره! وورد فى التقرير للجنرال تيفانى فى شرح هذه الفكرة " أنـــه إذا كـــان العدو فى الحرب غير المتوازية مهيأ لأن يفكر فيما لا يجوز التفكير فيه، كذلك يجب أن يفعل المكلفون بمواجهته . وإذا كان يستعير فى عملياته الهجومية صفحات من "كتاب الجنون". فإن الدفاع ضده يمكن أن يستعير فصولا كاملة من نفس الكتاب !

وهكذا انتقلت الحرب فى بداية الألفية الثالثة من عصر العقل إلى عصـــر الجنون. غير أن هذه تفرقة خادعة حقا، فهل كان إلقاء القنبلة الذريـــة على هيروشيما ونجازاكى عملا من أعمال العقل، أم كان فى الواقع ذروة من ذرى التفكير المجنون!

[٧]

المؤرخ واستشراف المستقبل العالمى

هـل يسـتطيع المؤرخ بحكم تدريبه الأكاديمى وامتلاكه لناصية المـنهج التاريخى، وقدرته على تحليل الوثائق لتسجيل ما يطلق عليه "الحقـائق التاريخـية" أن يكون فى نفس الوقت باحثا مستقبليا؟ ونعنى بالسـؤال فـى الواقـع استناد المؤرخ إلى تتبعه لمجرى التاريخ فى الماضى لكى يستشرف آفاق المستقبل.

هذا سؤال تقليدى أثير من قبل مرات عديدة. وهو يرتبط بمقولات معـروفة، بعضها يعارض هذا الدور الذى قد يصطنعه لأنفسهم بعض المؤرخيـن، على أساس أن التاريخ لا يعيد نفسه. غير أن هناك آراء أخـرى تذهب إلى عكس الرأى السابق، على أساس أن استخدام منهج المشـابهة التاريخية قد يكون مفيدا فى التنبؤ بالمصير التاريخى لدول راهـنة أو لإمـبراطوريات معاصرة. ويأتى إلى الذهن مباشرة - فى مجال حديثنا الممتد عن صعود وسقوط القوى العظمى - المشابهة بين مصـير الإمـبراطورية الرومانـية ومصير الإمبراطورية الأمريكية الحالـية، بالـرغم من الفروق الجسيمة - بطبيعة الحال - بين روما وواشـنطن العاصـمة، بالإضـافة إلى الاختلاف العميق فى السياق الـتاريخى، وتحـول الأوضاع فى مجال السياسة والاقتصاد والثقافة، وقبل ذلك فى حالة العلم والتكنولوجيا.

ومـن الفريق الأول من المؤرخين إشعيا برلين فيلسوف السياسة الشهير، ومؤرخ تاريخ الأفكار المرموق. وقد أبدى رأيه فى الموضوع فى سياق حوار ممتد أجراه معه الباحث الإيرانى المقيم فى كندا راميى جهابجلو فى كتاب بعنوان "مناقشات مع إشعيا برلين" الصادر عن دار

نشـــرّ فونكس فى بريطانيا عام ١٩٩٣. فحين سأله عن المستقبل فى القرن الحادى والعشرين أجاب: لا تسألنى إلا عن القرن العشرين الذى كاد أن ينقضى، فلست نبيا حتى أتنبأ لك بما سيحدث فى القرن الحادى والعشرين!

ونفـــس الموقف المتحفظ إتخذه المؤرخ البريطانى المقتدر ايريك هوبـــزباوم حيـــن كتب كتابه الشهير "عصر النهايات القصوى تاريخ وجيز للقرن العشرين" حيث إعتذر لخوضه فى تاريخ القرن العشرين مع أنه مؤرخ متخصص أساسا فى القرن التاسع عشر !

غـــير أن هوبزباوم تخلى إلى حد ما عن تحفظه، حين أجرى مع صـــحفى إيطـــالى حديثا مطولا نشر فى كتاب بعنوان "رهانات القرن الواحد والعشرين".

وينـــتمى بـــول كيـــندى المؤرخ الذى اهتممنا بعرض نظريته فى ســـقوط وصـــعود القوى العظمى، إلى أصحاب الاتجاه الذى يرى فى المؤرخ قدرة على استكشاف المستقبل. ويبرز ذلك كتابه الذى سبق أن أشرنا إليه وهو "صعود وسقوط القوى العظمى من عام ٥٠٠ إلى عام ٢٠٢٠" وكان قد كتب الكتاب حول عام ١٩٨٥، ويعنى ذلك أنه قد مدّ بصره ليستكشف آفاق خمسة عشر عاما كانت قادمة فى هذا الوقت.

غـــير أن بول كيندى لحقته تغيرات متعددة حين تعرض لمناقشات نقدية من قبل مجموعة من المؤرخين والعلماء، حين ذكر أحدهم له فى نـــدوة علمـــية لمناقشـــة الكتاب "قد كان من الأفضل لو وجهت بعض جهودك العلمية لمناقشة الأوضاع الحاضرة !"

يقرر كيندى أن هذه الملاحظة غيرت مجرى تفكيره. فقد أدرك أنه لا ينـــبغى أن يقنع بالخوض فى أحداث الماضى، ولكنه ينبغى عليه أن يتصـــدى أيضـــا لمشكلات الحاضر. وهكذا أخذ هذا المؤرخ المشهور يقـــرأ فى ميادين علمية لم يسبق له أن ركز عليها كالاقتصاد والإدارة والبيـــئة، لكـــى يخـــرج بعـــد ثلاث سنوات من الدراسة الشاقة بكتابه "الإعـــداد للقرن الحادى والعشرين"، حيث درس بخبرة المؤرخ ووعى الباحـــث المعاصـــر، عديـــداً مـــن المشـــكلات مثل المشكلة السكانية ومشكلات البيئة، والتطور العلمى، والإبداع التكنولوجى، وغيرها من التحديات الهامة ونحن على مشارف الألفية الثالثة.

وكـــان ذلـــك فـــى الواقع إيذانا بأن بول كيندى لن يقنع بالبحوث التاريخـــية التقليدية، ولكنه سيخوض فى مشكلات الحاضر والمستقبل. لكل ذلك لم أفاجأ كثيرا حين طالعت مقالة بالغة الأهمية له فى التعليق على أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى أمريكا، وهو صاحب نظرية تدهور القوة النسبية للولايات المتحدة الأمريكية فى العقود القادمة. وقد نشرت للمقالة ترجمة ممتازة فى جريدة "الشرق الأوسط" وذلك فى عدد الثلاثاء الصادر فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١.

ويـــبدأ بـــول كيـــندى مقاله بعبارة افتتاحية مثيرة حين يقرر "فى الســـاعة الثامـــنة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ - وليس اليوم الأول من عـــام ٢٠٠٠ - دخلـــت أمـــريكا، بكـــل معنى الكلمة، القرن الواحد والعشـــرين!" ذلـــك أن ما جرى من وقائع إرهابية خطيرة "كان حدثا ملحمـــيا حول مجرى الحياة". ويضيف كيندى أنه قبل الحادث الخطير "كـــان بوســـع الأمريكيين أن يبتهجوا بثروة بلادهم الهائلة، وموقعهم الجغرافى، ومواردها المادية، وبراعتها التكنولوجية، ونفوذها العسكرى المطلـــق، وكلها مجتمعة جعلت من الولايات المتحدة البلد الأكثر قوة ونفوذا فى العالم منذ إمبراطورية روما، بالمقارنة مع الدول الأخرى. فقـــد انهار الاتحاد السوفيتى وتعانى خليفته روسيا من التمزق البطئ، وتـــبخر "الـــتحدى" الـــيابانى، ويعتـــنق العالم الرأسمالية من الطراز الأمريكى.."

ويشير إلى المقارنة بين حادث سبتمبر وموقعة بيرل هاربر، حيث فاجـــأت الطائـــرات اليابانـــية الأسطول البحرى الأمريكى وأنزلت به خســـائر فادحـــة. غير أن الولايات المتحدة - لوضوح العدو وتحدده ولفارق القوة العسكرية والاقتصادية بينها وبين اليابان- استطاعت أن ترد على اليابان بضربة ساحقة، وحققت عليها انتصارا غير مشروط، بعد أن ألقت القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى.

ولكن ما أبعد المشابهة بين الحادثين فى الواقع. فالولايات المتحدة الأمريكـــية تم غزوها من الداخل بطائرات مختطفة من خطوط أشهر شركاتها للطيران وهما أمريكان إيرلاينز، ويونايتيد إيرلاينز.

وبقرر كيندى " كان إلحاق الهزيمة باليابان مثل إطلاق النار على فـيل أما إلحاق الهزيمة بالإرهابيين الذين أنزلوا البلايا بأمريكا فيشبه الدوس على السمك الهلامى"

وفـي معـرض تقدير كيندى لقوة الولايات المتحدة الأمريكية فى الوقت الحالى، يقرر أنه قام – قبل الحادث – بنوع من إعادة الحسابات لقوتها مستخدما فى ذلك المعايير النموذجية للعلوم الاجتماعية، وكانت النتيجة أن هذا البلد يقف فوق كل المنافسين المحتملين باعتبارها أعظم قـوة فى العالم. ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية تضم ٤,٥% فقط مـن سكان العالم، إلا أن الأرقام المطلقة للبشر نادرا ما تكون مؤشرا جيدا للثقل النسبى. ذلك أنه بالمقارنة تمتلك الولايات المتحدة ما يقرب من ٣٠% من إجمالى الإنتاج العالمي. وفى العام الماضى كان ٣٦% من الانفاق العسكرى فى العالم يعود إلى البنتاجون. ويقرر كيندى أن ميزانـية الدفاع فى الولايات المتحدة تعادل الميزانيات الدفاعية للدول التسعة الأكبر التى تأتى بعدها، وهى إحصائية لم توجد فى التاريخ من قبل.

غير أن أمريكا باعتبارها عملاق العصر لها نقاط ضعفها الخطيرة والـتى مـن صنعها. ذلك أن "تفوقها الثقافى والتجارى وقرع طبول تعالـيمها فـى السـوق الحـرة ينظر إليه باعتباره تهديدا للكثير من الجماعات الدينية والطبقية خصوصا فى المجتمعات التقليدية. ويصور منـتقدوا أمريكا شركاتها العملاقة باعتبارها ذات نفوذ قوى فى إعاقة التوصـل إلـى اتفاقات دولية بشأن السيطرة على المناخ، وفي فرض التغييرات على الأسواق المحدودة، والتهويل على حكومات دول العالم الثالـث الضـعيفة". وبالإضـافة إلى ذلك فإن دعمها القوى لإسرائيل يعطى مبررا لموقف أعدائها فى العالم الإسلامى.

غـير أنه بالرغم من أن أمريكا ابتكرت الإنترنت ولها دور بارز فـى إيجاد أسواق للتعامل على مدى أربعة وعشرين ساعة يوميا، مما يجعلها غنية على نحو هائل، إلا أنها ليست تلك القلعة الحصينة التى لا يمكـن اخـتراقها، فقد ثبت أن واقع الصراع مع التهديد الأمني الجديد للإرهـاب في الداخل، يجعلها فى موقف ضعيف نسبيا، خصوصا أن القـوات المسـلحة الأمريكية لم تعد لمواجهة التحديات الأمنية للقرن

الجديد، مع أن الفكر الإستراتيجى الأمريكى بادر بتحديد معالم نموذج الحرب القادمة، والتى تقوم أساسا على الإرهاب، مما يستدعى تغييرا جوهريا فى نمط التفكير، وإدراكا عميقا لتغييرات العصر.

ويقـــرر كيـــندى أنه تحت وطأة الأحداث الخطيرة فى يوم الهول العظيم، لم يجرؤ أحد حتى الآن أن يسأل الرئيس بوش أو وزير الدفاع عـــن الكيفية التى كان يمكن لإنفاق ٨٠ مليار دولار على درع مضاد للصواريخ البالستية أن يتم بها الدفاع عن مركز التجارة العالمى.

والملاحظـــة الرئيسية التى يخلص إليها كيندى من تحليله، هى انه مـــن الصعب تجنب الاستنتاج بأن خطر الهجمات الإرهابية لن يزول، كمـــا أنـــه لا يمكـــن تحقيق نجاح كبير فى منع حدوث هذه الهجمات، فالجنى - كما يقول- خرج من عنق الزجاجة وهو يحمل روح الانتقام وأصبح تفجير السيارة الآن تفجير طائرة.

وأهم ما يشير إليه كيندى أن خطورة الهجمات الإرهابية لا تتمثل فقط فى العدد الكبير من الضحايا الأبرياء، ولا فى الخسائر الاقتصادية والمالـــية المهولـــة، ولكن فى تأثيرها السلبى على نمط أسلوب الحياة الأمريكى ذاته. فالثقافة الأمريكية "تحتفى بالضربات السريعة والحاسمة والانتصارات الواضحة المحددة. والكثير الكثير من الحريات: التحرر مـــن الحكومـــة والتحرر من الضرائب، والتحرر من الهيمنة الدولية، والحرية فى قيادة السيارات التى تسرف فى استهلاك الوقود، والحرية فـــى المطالـــبة ببترول رخيص. والحرية فى أن يتمتع المرء بالأمن والسلام إزاء المشاكل الخارجية".

"إن المشكلة الحقيقية والتى لم يعالجها بصراحة ساسة أمريكا هى أنهم لم يقولوا أن هذا العدو الجديد يمكن أن يلحق ضررا بالأمريكيين أكبر من الضرر الذى يمكنهم الحاجة به"

هكذا تكلم بول كيندى المؤرخ الذى لم يستطع أن يكبح جماح تنبئه بالمســـتقبل، والـــذى تحـــت وقع الأحداث الخطيرة التى مثلت البداية الحقيقـــية للقـــرن الحـــادى والعشرين، لم يتردد فى تحليل الحاضر، مؤكـــدا الصـــلات العضـــوية الوثـــيقة بين ثلاثية الماضى والحاضر والمستقبل.

[٨]

اليابان فى خضم الحوار الحضارى

لا أنكـر أنـنى تـرددت كثيراً فى قبول الدعوة التى وجهتها لى الدكتورة كيوكوسا كاى الأستاذة بمعهد الاقتصاديات النامية فى طوكيو باليابان للاشتراك فى المؤتمر الدولى عن مشروع دراسة المجتمعات الإسلامية معقبا، ومحاضرا فى ندوة علمية عن "الحركات الاجتماعية والحيوية اليابانية فى الشرق الأوسط فى عصر العولمة".

ويرجع ترددى فى قبول الدعوة إلى أنه سبق لى أن زرت اليابان فـى مناسبات علمية أكثر من ست مرات. كانت المرة الأولى حوالى عـام ١٩٦٣ وكنـت أيامها باحثا بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وأوفدنى أستاذى الراحل الدكتور أحمد خليفة ممثلا للمركز فـى دورة تدريبية هامة عن حقوق الإنسان استغرقت شهراً كاملاً فى معهـد يابانى تشترك فى إدارته الأمم المتحدة. فى هذا التاريخ المبكر ركـزت الأمم المتحدة على قضية حقوق الإنسان من مختلف جوانبها القانونـية والاقتصـادية والسياسية والاجتماعية متبعة فى ذلك منهجا علمـيا رصـينا قـبل أن تصـبح قضية حقوق الإنسان هذه الأيام – وللأسـف الشديد – مهنة من لا مهنة له، ومصدرا للارتزاق وموردا للإثراء غير المشروع.

كـان هـذا الشـهر الذى أمضيته فى بلدة يابانية صغيرة اسمها "فونشـو" تبعد عن طوكيو حوالى عشرين كيلوا مترا فرصة نادرة لى لكـى أتعمق فى دراسة الشخصية اليابانية، وأغوص فى ثنايا المجتمع اليابانى محاولا سبر أغواره. وفى سبيل ذلك اطلعت على نوعين من المـراجع العلمية الموثقة، الأولى كتبها باحثون غربيون والثانية كتبها

باحثون يابانيون، حتى أقارن بين نظرة الغير إلى اليابان، ومفهوم الذات اليابانية. ومن أبرز المراجع من الفئة الأولى كتاب الأنثروبولوجية الأمريكية الشهيرة "روث بندكت" وعنوانه "السيف وزهرة الكريزأنتيم". وقد حاولت بهذا العنوان المثير والدال معا أن تلخص المعالم الرئيسية للشخصية القومية اليابانية والتي تقوم على أساس العنف الشديد من ناحية، والرقة البالغة من ناحية أخرى. ذلك أن الثقافة اليابانية كانت تتميز في مجال التنشئة الاجتماعية بتدريب الأطفال والشباب وتعليمهم وفق نظم شبه عسكرية صارمة.

ومازالت آثار هذه العادات اليابانية باقية حتى اليوم. فمن يزور اليابان سيلاحظ فورا أن تلميذات المدارس يرتدين زيا موحدا أشبه بلبس البحارة الأزرق، في حين أن التلاميذ يرتدون بدلة شبه عسكرية. وقد أدت هذه النزعة العسكرية إلى ظهور نظام فاشى فى ظل الإمبراطورية قبل الحرب العالمية الثانية، تجلت سماته فى غزو مناطق من كوريا والصين وفرض نظام للقهر الشديد القسوة على شعوب المناطق المحتلة. بالإضافة إلى انضمام اليابان إلى دول المحور التى كانت تتشكل أساسا من ألمانيا وإيطاليا فى مواجهة الحلفاء الأوربيين الذين انضمت إليهم الولايات المتحدة الأمريكية فى المواجهة التاريخية التى وقعت فى الحرب العالمية الثانية، والتى انتهت بهزيمة ساحقة للعسكرية اليابانية، بعد أن ألقت الولايات المتحدة الأمريكية – بلا أدنى مبرر عسكرى– القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى.

غير أنه بجانب هذه السمات العنيفة فى الشخصية اليابانية والتى حاولت الولايات المتحدة الأمريكية ترويضها عقب الحرب العالمية الثانية، هناك سمات تكشف عن الرقة اليابانية البالغة ويبدو ذلك فى أن اليابانيين برعوا فى فن تنسيق الزهور، الذى يكشف عن حب نادر للطبيعة بما فيها من جبال وأنهار.

والطريف أن روث بندكت كتبت هذا الكتاب أثناء الحرب العالمية الثانية بتكليف من الحكومة الأمريكية بغير أن تزور اليابان مرة واحدة! لقد أجرت بحثها العميق حقا "عن بعد" In absentia بلغة العلم الاجتماعى، وتعنى هذه المنهجية أن الباحث وإن لم يقم ببحث ميدانى مباشر فى منطقة البحث، فإنه يتجه – كما فعلت روث بندكت –

لتحليل الأدب السياباني والحكايات والأساطير، بالإضافة إلى دراسة المقررات الدراسية، والأهم من ذلك كله دراساتها لعينة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني الذين كانوا مقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية، واعتبرتهم بمثابة "إخباريين" Informants عن ثقافتهم بحكم سابق عيشهم في الوطن الأم. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المواطنين الأمريكيين لاقوا مصيرا تعسا أثناء الحرب، إذ جمعتهم السلطات الأمريكية في معسكرات شكا في ولائهم، وخوفا من ضلوعهم مع اليابان في حربها ضد الحلفاء.

غير أنه بالإضافة إلى هذه المراجع الغربية عن اليابان، أطلعت على عدد وفير من المراجع التي كتبها علماء اجتماعيون يابانيون عن مجتمعهم، ومن أبرزهم عالمة الاجتماع اليابانية "ناكانيه" في كتابها الهام "المجتمع الياباني". وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنها قدمت فيه نظرية سوسيولوجية متكاملة تذهب فيها إلى استحالة تطبيق النظريات السوسيولوجية الغربية لفهم المجتمع الياباني. ذلك أن هذا المجتمع لا يصلح لكي تطبق عليه نظرية الطبقات الاجتماعية الماركسية، ولا نظريات التدريج الاجتماعي الوظيفية والسائدة في علم الاجتماع الأمريكي. وذلك لأن تشكيل المجتمع الياباني وانقسامه إلى فئات اجتماعية لها خصوصية خاصة. ولعل أهم ما يميز الانتماء في المجتمع الياباني أن الياباني حين يقول "نحن" فهو لا يقصد طبقة اجتماعية ينتمي إليها، وإنما يقصد الشركة أو المؤسسة التي يعمل بها. ذلك أن توحد الفرد الياباني مع "مؤسسته" ظاهرة قد تكون نادرة حقا في العالم المعاصر. ومن هنا جاء التقليد الياباني من أن العامل أو الموظف الياباني يعمل عادة طوال عمره في نفس المؤسسة، ومن هنا لا نجد ما يسمى ظاهرة "الحراك المهني" الواسع الذي نجده في مجتمع كالمجتمع الأمريكي، حيث يتحرك الأفراد وينتقلون من عمل إلى عمل، ومن شركة إلى أخرى سعيا وراء الأجر الأعلى.

كان عام ١٩٦٣ هو عام تعرفي لأول مرة على اليابان. وكانت المرة الثانية حين انعقدت في طوكيو اجتماعات "لجنة علم الاجتماع القانوني" المنبثقة عن الجمعية الدولية لعلم الاجتماع حيث أتيح لي أن أتعرف على عدد من أساتذة القانون اليابانيين البارزين.

غـــير أن الزيارة البارزة لليابان كانت عام ١٩٩١ حين كنت أمينا عاما لمنتدى الفكر العربى بعمان، حيث نظمت الحوار العربى اليابانى الأول فى طوكيو، وكان حدثا فريداً فى الواقع لأنه سمح بتبادل الرأى بيـــن عـــدد مـــن المثقفيـــن العرب والمثقفين اليابانيين حول عديد من المشـــكلات الهامة، وأهمها مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى وكيفية حلـــه، بالإضافة إلى تدعيم علاقات الحوار الفكرية بين اليابان والعالم العربى. وقد شاركنى فى تنظيم هذا الحوار من الجانب اليابانى أستاذة جامعـــية مـــرموقة هى الدكتورة أوجاتا التى أصبحت من بعد مساعدة الأمين العام للأمم المتحدة لشئون اللاجئين.

المجتمع الإسلامى والعولمة

وهكـــذا حيـــن تلقيت الدعوة لزيارة اليابان مرة سابعة قلت لنفسى المســـافة طويلـــة، والسفر شاق، وما الذى ستضيفه الزيارة لمعرفتى السابقة عن اليابان؟ غير أننى فى النهاية قبلت لأننى أردت فى الحقيقة أن أطلـــع على الجهود اليابانية فى مجال دراسة المجتمعات الإسلامية فـــى هذا المشروع الطموح الذى يتبناه معهد اقتصاديات الدول النامية. والـــيابان معروفة منذ فترة طويلة باهتمامها العلمى العميق بتطورات المجتمعات الإسلامية والعربية.

ولديهم باحثون علميون متخصصون فى كل بلد عربية. وقد أتيح لـــى أن أتفـــاعل علمياً مع باحثيهم المتخصصين فى دراسة المجتمع المصـــرى، فوجدتهـــم ممن يأخذون أمورهم مأخذ الجدّ ويتعمقون فى الدراســـة بعـــد اتقـــانهم للغة العربية، ويعرفون الشخصيات السياسية والفكـــرية معـــرفة عميقة، من خلال دراسة مواقفهم السياسية وتحليل إنتاجهم الفكرى، بالإضافة إلى المقابلات المباشرة التى يجرونها معهم. وهـــذا المشروع اليابانى الطموح لدراسة المجتمعات الإسلامية والذى شـــارك فـــيه أكثر من مائة باحث من مختلف الجنسيات، يكشف عن الموضـــوعات التى طرحت للنقاش والتى توزعت بين سبعة محاور. والمحور الأول عن "التيارات الإسلامية والعولمة فى العالم الإسلامى

المعاصـــر" والـــثانى عن "المجال العام والمجال الخاص فى المجتمع الإســـلامى اليوم: العلاقات بين الجنسين والميديا الجديدة" والثالث عن "الموانـــئ والـــتجار والعلاقات الثقافية العابرة للحدود" والرابعة عن " الحـــركات الصوفية والأولياء فى المجتمعات الإسلامية" والخامس عن "حـــركات الاحتجاج الاجتماعى وبناء الأمة فى المجتمعات الإسلامية" والسادسة عن "العقود والتوثيق: البحث التاريخى فى المحاكم الشرعية" والســـابع عـــن "الدراسات القطاعية الإسلامية والأساليب المعلوماتية الجغرافية الحديثة".

ومـــن اســـتعراض عناوين هذه المحاور يبدو حرص الاستشراق الـــيابانى علـــى الدخول فى حوار حضارى عميق مع العالم الإسلامى والعـــربى، إدراكا من الأكاديميين اليابانيين أنه لا يمكن تجاهل الدائرة الحضارية الإسلامية والعربية. ومن هنا أهمية التعمق فى دراساتها.

إستمر هذا المشروع الرائد أربع سنوات كاملة، عقد أثنائها ندوات علمية شتى فى بلاد مختلفة، ودعيت فى الجلسة الختامية للتعقيب عليه. وكانـــت أبـــرز ملاحظـــاتى الـــنقدية أن المشروع غلب عليه للأسف الإغراق فى التاريخ الحديث للعالم الإسلامى والعربى ولم يعر التاريخ المعاصـــر التفاتا كبيرا، مع أهميته البالغة لفهم التفاعلات المعقدة اليوم بين العالم الغربى والعالم الإسلامى والعربى كما أثبتت أحداث الحادى عشـــر من سبتمبر وما تلاها. فقد ثارت نعرات عنصرية فى خطابات الرؤســـاء الغربييـــن تكشـــف عـــن مكنون اللاشعور التاريخى لديهم بالإضـــافة إلـــى تصاعد وتيرة صراع الحضارات على ألسنة الساسة والكتاب. ومن ناحية أخرى كانت ملاحظتى النقدية الثانية أن المشروع يركـــز على البحوث التاريخية الجزئية micro ولكنه لا يزخر - كما كـــان ينبغى أن يكون عليه الحال - بالبحوث التاريخية الكلية macro الـــتى ترســـم الخـــريطة المعرفـــية والسياسية والاجتماعية والثقافية للمجـــتمعات الإســـلامية والعربـــية المعاصرة. بالإضافة إلى ذلك كله ذكرت أننا فى حاجة إلى تبنى منهج شامل فى كتابة التاريخ يقوم على أساس التفاعل بين متخلف مناهج العلوم الاجتماعية، كما فعل من قبل المـــؤرخ الفرنسى الكبير "برودل" فى كتابه الكلاسيكى "البحر الأبيض المتوســـط فـــى عصـــر فيليـــب الثانى". حيث تبرز الكتابة التاريخية

باعتـــبارها الوسيلة المثلى للكشف ليس فقط عن سطح المجتمعات بما يـــدور فـــيها من تفاعلات، ولكن عن أعماقها وأغوارها البعيدة، مما يجعل القارئ يدرك منطق تغيرات "الموجات الطويلة" التى تحكم مسار تطور المجتمع الإنسانى.

[٩]
الحداثة العالمية والأزمة الثقافية

فى المؤتمر الذى شاركت فيه والذى نظمه معهد اقتصاديات الدول النامية فى طوكيو وكان موضوعه "الحركات الاجتماعية والحيوية السياسية فى الشرق الأوسط فى عصر العولمة" فى التاسع من أكتوبر الماضى، قدم الباحث اليابانى إيجى ناجا ساوا بحثا لافتا للنظر عنوانه "أزمات الحداثة العالمية والحركات الاجتماعية الراديكالية: اليابان ومصر".

وترد أهمية هذا البحث إلى أنه يعقد مقارنة بين الحركات الإسلامية فى مصر والحركات الراديكالية لليمين المتطرف فى اليابان قبل الحرب العالمية الثانية فى الثلاثينات. وفى بداية بحثه تساءل: هل مشكلة الفقر فى صعيد مصر هى التى أدت إلى ظهور الحركات الإسلامية المتطرفة فى السبعينات، كما أن الفقر الذى ساد بعض مناطق اليابان أدى بالمثل إلى ظهور الحركات اليمينية المتطرفة فى الثلاثينات؟

ومع أنه قرر أن الفقر قد يكون له صلة بالتطرف إلا أنه تحفظ على المنهج الاختزالى الذى يرد الظاهرة فقط إلى الفقر، مقررا أن أعضاء الجماعات المتطرفة فى كلتا الحالتين، يشخصون أزمة المجتمع باعتبارها فى المقام الأول أزمة ثقافية، وذلك من خلال رؤيتهم المتحيزة للعالم والمنطق غير العقلانى لتفكيرهم. وهم يلجأون إلى القيام بأفعال سياسية راديكالية تتمثل فى الإرهاب بكل صوره المعنوى والمادى فى ضوء تفسيراتهم. وإن كان هذا لا ينفى أهمية إبراز الصلة بين الظروف الاقتصادية والحركات الدينية.

والواقع أنه سبق لى أن أعددت بحثا حين كنت أمينا عاما لمنتدى الفكر العربى فى عمان وكان عنوانه "الأزمة الثقافية ومستقبل المجتمع المدنـــى العربى: جدل التنوير والتحرر" ذهبت فيه إلى أهمية اصطناع منهجية التحليل الثقافى لتحليل أزمة المجتمع العربى المعاصر، انطلاقاً مـــن تشخيصـــى الأساسى من كون هذا المجتمع يمر بأزمة ثقافية لها تجلياتها البارزة، وأسبابها العميقة.

ومـــن أجـــل إظهار التشابهات والاختلافات بين الباحثين العرب والباحثيـــن اليابانيين فى تشخيص مشكلات المجتمع العربى المعاصر، رأيـــنا أنه من المناسب أن نستعيد الخطوط الأساسية لبحثنا القديم الذى كتب حوالى عام ١٩٩٠، قبل أن نعرض عرضا تحليليا شاملة للبحث الهام الذى قدمه فى المؤتمر الباحث اليابانى إيجى ناجا ساوا .

إطار نظرى لدراسة الظواهر الثقافية

وإذا كنا انطلقنا من فرضية أساسية مفادها أن المجتمع العربى يمر بأزمـــة ثقافـــية، فإنه من الضرورى منذ البداية أن نقدم تعريفا لمفهوم الأزمـــة. وفـــى هـــذا الصدد يمكننا أن نعتمد على تعريف الفيلسوف الألمانى الشهير هابرماس والذى يذهب إلى أن الأزمة "تظهر حين لا يعطـــى نســـق اجـــتماعى ســـوى إمكانيات قليلة لحل المشكلات التى تواجهه، بما لا يسمح باستمرار وجود النسق" وغنى عن البيان أن هذا التعريف العام للأزمة، لا يمنع من أن لكل أزمة ثقافية أسباب عامة قد تـــرد إلـــى تحـــولات عميقة فى النظام العالمى، وفى مجال الحضارة الإنسانية مثل الثورة العلمية والتكنولوجية، أو فى مجال إعادة صياغة الاقتصـــاد الكونى على أسس جديدة مثل العولمة، وأسباب خاصة لابد من البحث عنها فى كل مجتمع على حدة، وضعا فى الاعتبار تاريخه الاجتماعى الفريد بكل مكوناته.

وهـــناك منهجيات متعددة يزخر بها ميدان التحليل الثقافى، ولكننا آثرنا أن نتبنى منهجية خاصة "بالأزمة الثقافية"، لأنها هى التى تصلح لتطبـــيقها على الوضع الراهن للثقافة العربية. وهذه المنهجية سبق أن اقترحها وطبقها عالم الاجتماع الألمانى هانز بيتر درايتزل فى دراسة

لـــه بعــنوان "فى معنى الثقافة" نشرت عام ١٩٧٧ فى كتاب جماعى حرزه نورمان بيرنبوم بعنوان "اجتياز الأزمة".

فى الإطار النظرى المقترح مبدأ نظرى هام، ينطلق منه أى باحث نقدى فى علم الاجتماع، وهو ضرورة تحليل العلاقات بين الثقافة وبناء القــوة فـــى المجتمع Power Structure، ومن ناحية أخرى يحدد الإطـــار الوظــــائف المحددة للثقافة فى أى مجتمع، والتى تهدف أساسا للحفاظ على أنماط الإنتاج السائدة وعلى عملية إعادة الإنتاج.

وفى هذا الصدد هناك ثلاثة وظائف يمكن التمييز بينها:

– الوظـــيفة الأولـــى تتمـــثل فى أن ثقافة مجتمع ما تمد أعضاءه بتبريرات لشرعية نمط الإنتاج السائدة ونمط التوزيع.

– الوظـــيفة الثانـــية للثقافة، أنها تمد الفرد – من خلال إجراءات وطقـــوس التنشئة الاجتماعية المقبولة – ببنية دافعية تربط بين هويته والنمط السائد للإنتاج.

– الوظيفة الثالثة للثقافة أنها تمد أعضاء المجتمع بتفسيرات رمزية للحدود الطبيعية للحياة الإنسانية.

والفكـــرة الرئيســـية التى ننطلق منها فى بحثنا، هى أن المجتمع العربى قد وصل إلى نقطة ثبت منها أن النسق الثقافى عاجز عن القيام بهـــذه الوظـــائف، ومن هنا تأكيدنا بأننا نواجه فى الوقت الراهن أزمة ثقافية عربية.

تحلـــيل الأزمـــة إذن هـــو المدخل الذى يقترحه درايتزل للتحليل الـــثقافى، ولذلـــك نراه يتعمق فى مختلف جوانب الأزمة، فيتحدث عن ثلاثـــة أزمات: أزمة الشرعية، وأزمة الهوية، وأزمة العقلانية العملية. غـــير أن بعـــض علماء التحليل الثقافى يرون أن التركيز على مدخل الأزمة فقط، فيه قصور نظرى واضح، لأنه لا يستوفى شروط النظرية النقدية.

فالـــنظرية الـــنقدية – عـــند بـــريان فاى – فى كتابه الهام "العلم الاجتماعى النقدى" دار نشر جامعة كورنيل، ١٩٨٧، تهدف إلى تفسير الـــنظام الاجـــتماعى بطريقة تصبح هى ذاتها الفاعل الذى يؤدى إلى تغيـــيره. وبالتالى أى نظرية نقدية – لكى تستحق هذا الوصف – لابد أن تتضمن سلسلة مترابطة من النظريات الرئيسية والفرعية والتى لا

تقنع بوصف الأزمة أو تحليلها، وإنما ترتقى لمستوى رسم سبل تغيير النظام الاجتماعى من خلال تعليم الجماهير، وتحديد سبل ومسارات الأفعال القادرة على الخروج من الأزمة، والانتقال بالمجتمع إلى حالة مغايرة. فالهدف الأسمى من النظرية النقدية هو "التحرر" Emancipation، وهذا التحرر لن يتم سوى عبر سلسلة طويلة، أولى حلقاتها هى "التنوير" من خلال القضاء على "الوعى الزائف"، وثانى حلقاتها هى تدعيم قوى الجماهير. وفى ضوء هذه المسلمات جميعا يضع بريان فاى التخطيط التالى للنموذج الكامل للنظرية النقدية، والذى يتضمن أربع نظريات رئيسية:

أولا : نظرية عن الوعى الزائف:

١ – تبرز أن طرق فهم الذات بواسطة مجموعة من الناس هى زائفة (بمعنى عدم قدرتها على أن تضع فى الاعتبار خبرات الحياة لأعضاء الجماعة) أو لكونها غير متسقة (لأنها متناقضة داخليا)، أو للسببين معا. وهذا التحليل يشار إليه أحيانا "بالنقد الإيديولوجى".

٢ – تشرح النظرية كيف اكتسب أعضاء الجماعة هذه الأفهام السائدة وكيفية استمرارها.

٣ – معارضة هذه الافهام، بفهم مغاير للذات، واثبات أن هذا الفهم أرقى من الفهم السائد.

ثانيا : نظرية عن الأزمة:

٤ – تحدد ماهية الأزمة الاجتماعية.

٥ – تثبت كيف أن مجتمعا ما واقع فى مثل هذه الأزمة. وهذا قد يقتضى دراسة ضروب عدم الرضاء الاجتماعى، وأنه لا يمكن القضاء عليها، إذا ما استمر تنظيم المجتمع على ما هو عليه، وكذلك أفهام الناس السائدة.

٦ – تقدم عرضا تاريخيا لنمو هذه الأزمة فى ضوء سيادة الوعى الزائف، وبالنظر إلى الأسس البنيوية للمجتمع.

ثالثا: نظرية عن التعليم:

٧ – تقدم عرضا للشروط الضرورية والكافية لتحقيق التنوير الذى تهدف إليه النظرية.

٨ – تبرز كيف أنه بالنظر إلى الموقف الاجتماعى الراهن، فإن هذه الشروط تعد مستوفاة.

رابعا: نظرية عن فعل التغيير:

٩ – تعزل هذه الجوانب من المجتمع، التى ينبغى تغييرها، إذا ما أريد حل الأزمة الاجتماعية، والقضاء على ضروب عدم الرضاء لأعضاء الجماعة.

١٠ – تفصيل خطة للفعل، يحدد فيها من هم "الفاعلين" الذين سيتحملون مسؤولية التغيير الاجتماعى المأمول وعلى الأقل فكرة عامة عن الطريقة التى سيعملون بها.

وفى تقديرنا أن النموذج النظرى الذى يقدمه بريان فاى يتسم بالشمول، والترابط العضوى بين مختلف نظرياته، وأهم من ذلك أنه يؤكد على المسئولية السياسية للعالم الاجتماعى، والذى ينبغى أن يكون ناقدا اجتماعيا حتى يستحق هذا الوصف، وهو بهذه الصفة لا يقنع بوصف الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، وإنما يركز فى نفس الوقت على دور المثقف باعتباره "مثقفا عضويا"، إذا استخدمنا مصطلح المفكر الماركسى "جرامشى" المعروف، فى تنوير الجماهير من خلال خطابه الذى لابد له أن يكون قادرا على الوصول إليها، ليس ذلك فقط، بل عليه أن يقترح سبل العمل للتغيير.

وبناء على ذلك حين ندعو لنظام ثقافى عربى جديد، فهذه الدعوة فى حد ذاتها، لا قيمة لها، إن لم تحدد من هم "الفاعلون الاجتماعيون" الذى سيتولون مهمة صياغة هذا النظام الجديد، وأبعد من ذلك أهمية اقتراح وتحديد استراتيجيات العمل للتغيير الاجتماعى، لصالح الجماهير العريضة.

فى ضوء هذا الإطار النظرى، وبغير الالتزام بصياغته الصورية، نتقدم لتشخيص الأزمة الثقافية فى المجتمع العربى، قبل أن ننتقل إلى تحليلها مركزين على مدخل الأزمة، وإن كنا فى نفس الوقت سنلمس كافة الموضوعات التى يتعرض لها هذا الإطار.

[١٠]
الأزمة الثقافية العربية

أشرنا من قبل فى مقالنا "الحداثة العالمية والأزمة الثقافية" إلى أن هـناك اتجاها يسود بين عدد من الباحثين يركز على الصلة بين أزمة الحداثة العالمية والأزمة الثقافية فى مجتمعات متعددة. وفى تقديرنا أن المجـتمع العربى يمر فى الوقت الراهن بأزمة ثقافية. والأزمة الثقافية العربـية مـتعددة الجوانـب، فهى أزمة شرعية وأزمة هوية، وأزمة عقلانـية فى نفس الوقت. ومما يلفت النظر- من وجهة نظر مقارنة- أن هذه الأزمات سائدة أيضا فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة.

غـير أن ذلك لا يعنى أن أسباب هذه الأزمات فى الدول الغربية المتقدمة هى نفسها أسبابها فى المجتمع العربى. ومرد ذلك إلى التاريخ الاجـتماعى الفريد لكل منطقة ثقافية فى العالم، والذى يجعل الظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية لها أسبابها الخاصة. فى ضوء ذلك نبدأ بالحديث عن أزمة الشرعية فى الوطن العربى.

أزمة الشرعية

ركز الباحثون العرب فى العقد الأخير على الديمقراطية باعتبارها أحد المخارج الأساسية للخروج من أزمة الثقافة العربية، بالإضافة إلى أنهـا مـرغوبة لذاتهـا كنظام سياسى، بعد أن ظهرت الآثار المدمرة للحصـاد المـر للتسـلطية العربية بكل أشكالها، والتى سادت الوطن العربى فى العقود الأربعة الأخيرة.

ومن المظاهر البارزة لاهتمام الباحثين العرب بالموضوع، أعمال ندوة "أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى" التى نظمها مركز دراسات الوحـدة العربية فى قبرص، وذلك فى الفترة من ٢٥ نوفمبر إلى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٣. وتضمن المجلد الذى ضم أعمال الندوة مجموعة ممـتازة مـن البحوث التى حاولت أن تستكشف مختلف جوانب أزمة الديمقراطية.

وموضـوع شرعية النظم العربية موضوع يثير مشكلات نظرية ومنهجية وتاريخية متعددة، ليس هنا مجال الخوض فيها. غير أنه لابد مـن أن نتفق أولا على تعريف للشرعية، وتحديد لمصادرها، قبل أى حديـث على سيادة الدولة التسلطية فى الوطن العربى بأنماطها الملكية والجمهورية على السواء، وظاهرة تآكل شرعية هذه الدولة فى الوقت الراهن.

تعريف الشرعية- كما ورد فى بحوث الندوة- هى "قبول الأغلبية العظمى من المحكومين لحق الحاكم فى أن يحكم، وأن يمارس السلطة، بما فى ذلك استخدام القوة".

أمـا عـن مصادر الشرعية فهناك اتفاق بين العلماء الاجتماعيين علـى أن الـنموذج الـذى صاغه ماكس فيبر، يكاد يكون حتى اليوم الـنموذج الشـامل لمصـادر الشرعية، والتى حددها فى ثلاثة أنماط نموذجية: التقاليد، والزعامة الملهمة (الكاريزما)، والعقلانية القانونية.

وإذا تتبعنا التاريخ الحافل للنظام السياسى العربى منذ الخمسينات حـتى الـيوم، بما فيه أنظمة ملكية وأنظمة جمهورية، سنلاحظ تساقط بعـض الـنظم الملكية مثل النظم الملكية فى مصر (١٩٥٢) وتونس (١٩٥٦) والعـراق (١٩٥٨)، واليمن (١٩٦٢)، وليبيا (١٩٦٩) مما يعـنى فـى الواقع تآكل شرعيتها السياسية، ونشوء أنظمة جمهورية محلها مؤسسة على شرعية جديدة هى شرعية الثورة فى الغالب الأعم.

وهـذه النظم السياسية العربية الراديكالية، والتى أسست شرعيتها علـى أساس تحقيق الاستقلال الوطنى، والعدالة الاجتماعية، والتنمية الشـاملة، وخاضـت فـى سـبيل ذلك معارك شتى داخلية مع القوى السياسـية المنافسة انتهت بتصفيتها والقضاء عليها، هذه النظم نجدها مـنذ الثمانيـنات تواجـه مشكلة تآكل شرعيتها السياسية، والذى هو

حصيلة فشلها الذريع فى الحفاظ على الاستقلال الوطنى، ومواجهة تهديدات الأمن من قبل إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وفشلها فى التنمية، وعجزها عن تحقيق قيم الديمقراطية والمشاركة السياسية.

وكان رد فعل بعض هذه الأنظمة لإنقاذ شرعيتها المتهاوية تطبيق استراتيجيتين:

١ - النزوع إلى تعددية سياسية مقيدة لتخفيف الضغط عن النظام السياسى، وإتاحة الفرصة للأصوات المعارضة أن تعبر عن نفسها، وذلك فى حدود الدائرة الضيقة التى رسمتها للمشاركة، والتى لا تتضمن إمكانية تداول السلطة.

٢ - ممارسة القمع المباشر ضد الجماعات السياسية التى لم يعترف بحقها فى المشاركة السياسية، أو التى لم تقبل بفكرة التعددية السياسية المقيدة، وتهدف إلى الوصول إلى السلطة، وأهمها الجماعات الإسلامية الاحتجاجية، ومن أبرزها حركة النهضة فى تونس، وجبهة الإنقاذ الإسلامى فى الجزائر.

أما النظم الملكية فبعضها أدرك باقتدار تحول حركة التاريخ فى اتجاه التعددية السياسية، ففتح الباب واسعا أمامها، كما هو الحال فى الأردن، وبعضها ما زال يعتمد على شرعية "التقاليد"، وأبرزها النظام السعودى الذى بدأ فى توسيع دائرة المشاركة بإنشاء مجلس استشارى.

نحن إذن أمام سيادة نمط الدولة التسلطية فى الوطن العربى، بأنماطها الملكية والجمهورية على السواء، والتى تواجه ظاهرة تآكل شرعيتها فى الوقت الراهن.

وقد أدت ممارسات الدولة التسلطية العربية فى العقود الأربعة الأخيرة إلى مجموعة مترابطة من الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية والنفسية أبرزها:

- شيوع اللامبالاة السياسية بين الجماهير المقموعة، وبروز ظاهرة الاغتراب على المستوى المجتمعى والفردى.

- ظهور الثقافات المضادة للدولة التسلطية، وازدياد حركيتها السياسية، وخصوصا منذ بداية السبعينات، والممثل البارز لها على الإطلاق هى حركات الإسلام الاحتجاجى، التى تدعو إلى الرفض القاطع للدولة العلمانية الوضعية والعمل على قلبها لإنشاء الدولة

الإسلامية، بالإضافة إلى مهاجمة النموذج الثقافى الغربى، باعتباره لا يعبر عن تقاليد الأمة الإسلامية، والعمل على تسييد نموذج إسلامى متكامل فى الثقافة والاقتصاد والسياسة.

- بروز تيار علمانى ديمقراطى مضاد للتسلطية، يسعى إلى إحياء المجتمع المدنى، من خلال تشكيل الأحزاب السياسية المعارضة، وتكوين جمعيات حقوق الإنسان، وتفعيل المؤسسات الاجتماعية والثقافية المستقلة عن سلطة الدولة.

والواقع أنه يمكن القول أن النظام السياسى العربى يمر فى الوقت الراهن بمرحلة انتقالية بالغة الصعوبة، حافلة بالصراعات السياسية والاجتماعية والسياسية، ومفتوحة لاحتمالات مختلفة، وهذه المرحلة الانتقالية من السلطوية إلى التعددية السياسية تختلط فيها العوامل المؤثرة عليها، بين العوامل الدولية، والتأثيرات القادمة من النزوع العالمى نحو التعددية، والعوامل الداخلية المتعلقة بتركيب السلطة، ودرجة نضج الطبقات الاجتماعية، ودور المؤسسة العسكرية، ودور المثقفين والطلائع الديمقراطية والثورية فى إحداث التغيير.

غير أنه مما يلفت النظر أننا بازاء معركتين مزدوجتين فى الواقع. الأولى بين الدولة التسلطية والمجتمع المدنى البازغ بمختلف توجهاته وإيديولوجياته، والثانية داخل المجتمع المدنى ذاته بين التيار العلمانى الديمقراطى على تنوع اتجاهاته، وبين التيار الإسلامى الأصولى، الذى ظهر على الساحة السياسية أكثر تنظيما، وخصوصا فى مجال الاتصال بالجماهير وقدرته على تعبئتها.

والحقيقة أن عملية تأسيس مجتمع مدنى حديث تجابه مجموعة مترابطة من التحديات، التى إن لم تواجه بفاعلية، فإن العملية ستتعثر فى الأجل المتوسط.

وأبرز هذه التحديات هى ضرورة النظر للديمقراطية ليس باعتبارها مجرد نظام سياسى، بقدر ما هى أسلوب للحياة، ينبغى أن يبسط نطاقه على كل مجالات المجتمع، وفى كل المؤسسات، فى المدرسة والمصنع والنقابة والحزب السياسى، والنادى الفكرى والمؤسسة الثقافية.

ومــن ناحية أخرى، فهناك فجوة عميقة بين ثقافة النخبة، والثقافة الشعبية. هناك من قبل النخبة اتجاهات استعلائية إزاء الثقافة الشعبية، وجهل بها، وعجز عن التواصل معها، ورفض لشرعيتها الثقافية، وإذا لاحظنا سيادة الأمية في الوطن العربي، لأدركنا خطورة هذا التحدى، الذى يمكن أن يجعل النخبة منعزلة عن جماهيرها.

ولا شك أن دور المثقفين حاسم فى إحداث التغيير الاجتماعى، كما أثبتت ذلك الخبرة التاريخية فى العالم وفى الوطن العربى على السواء. غــير أن هذا الدور يقتضى تحول المثقف من مثقف منعزل إلى مثقف عضوى قادر على الالتحام مع الجماهير.

وفــى تقديــرنا أن هذه قضية بالغة الأهمية تحتاج منا إلى تفكير منهجى للوصول إلى حلول مناسبة لها. فقد لوحظ فى السنوات الأخيرة أن المثقفيــن العلمانييــن لم يستطيعوا - لأسباب شتى - الوصول إلى الجماهــير العريضة. ولابد أن نضع فى مقدمة هذه الأسباب العقبات الــتى تضــعها النظم السياسية العربية المختلفة أمام تواصل المثقفين عمومــا مــع الجماهــير مــن خلال تقييد حركة الأحزاب السياسية، والتضــييق على نشاطات مؤسسات المجتمع المدنى. وقد أدى ذلك فى الواقــع إلــى ترك الساحة خالية أمام الناشطين من الإسلاميين الذين نجحــوا فــى التواصل مع قطاعات جماهيرية واسعة بسبب انفرادهم بالســاحة ومخاطبــتهم للمخزون التراثى الكامن فى وجدان الجماهير. وربمــا أيضا لطرحهم شعارات مجملة قد تكون غامضة فى ذاتها مثل شعار "الإسلام هو الحل" اجتذب المخيلة الشعبية بوعود مزعومة للحل النهائى لمشكلاتهم الاقتصادية والروحية.

ولو تأملنا الموقف الراهن بعد أحداث ١١ سبتمبر، وسخط الشارع العــربى والإســلامى علــى الولايات المتحدة الأمريكية لحربها غير المشــروعة ضد أفغانستان، فإننا نلحظ صعودا فى شعارات الخطاب الإسلامى، الذى يريد تصوير الصراع وكأنه حرب دينية بين الإسلام والغــرب. وفى تقديرنا أنه إن لم تتحرك القوى الديمقراطية والعلمانية علــى إتســاع العالم العربى لممارسة النقد ضد السياسات الأمريكية، والتركيز على حوار الحضارات من ناحية، بدلا من الانجذاب الفج إلى

شعارات الصراع بين الحضارات، فإن مصير التقدم العربى الإسلامى فى عصر العولمة يصبح فى خطر.

لـــيس هـــناك حل لأزمة شرعية النظم السياسية العربية إلا بفتح المجال أمام المشاركة السياسية وتوسيع آفاق الديمقراطية.

[١١]

أزمة الهوية

يمكن القول إن من أبرز علامات أزمة الثقافة فى المجتمع العربى أزمة الهوية. ومن المعروف أن طرق التنشئة الاجتماعية تعد أساسية بالنسبة لأى ثقافة، ونعنى بها الطريقة التى تنتقل بها المعايير التقليدية والقيم فى مجتمع ما من جيل إلى جيل.

وتقوم التنشئة الاجتماعية بوظيفة إنتاج شعور بهوية الفرد وهوية الجماعــة، بالإضافة إلى تخليق بنية دافعية داخل الفرد، وظيفتها قبول الفــرد وتكــيفه مع النموذج السياسى والاقتصادى السائد فى المجتمع، (كالنموذج الرأسمالى أو الاشتراكى).

وفــى مجــال التنشئة الاجتماعية والهوية، هناك اتجاهات نظرية متصــارعة، حول غلبة العناصر المادية، وأهمها نوعية نمط الإنتاج السائد على غيره من العناصر. ويميل الاتجاه الماركسى التقليدى إلى التركيز على البناء التحتى (نمط الإنتاج وعلاقات الإنتاج) على حساب البناء الفوقى (القيم والأعراف والتقاليد والأفكار الفلسفية). وهذا الاتجاه بالرغم من تأكيده على الطابع الجدلى للعلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى، إلا انه فى صياغة ماركسية شهيرة يقرر ومع ذلك فى "التحليل النهائى" فإن البناء التحتى هو الذى يحدد البناء الفوقى.

وفــى مواجهة هذا الاتجاه المادى فى التفسير، نجد الاتجاه المثالى الــذى يعلى من شأن القيم والأعراف والعادات والأفكار على حساب العوامل المادية.

وقــد أدت خــبرات تاريخية متنوعة، وبروز ظواهر مثل الإحياء الديــنى فى مجتمعات تختلف اختلافات أساسية فى أبنيتها التحتية، إلى

إعطـاء الجوانب المعنوية أهمية قصوى، ويصل بعض ممثلى الاتجاه الـذى يعلـى مـن شأن هذا الجانب إلى أن البناء الفوقى فى لحظات تاريخـية معيـنة – ونتيجة لعوامل شتى– يكون هو الحاسم فى رسم مسيرة التطور الاجتماعى.

والحقـيقة أن الحديـث عن الهوية فى المجتمع، يحتاج إلى بلورة مفاهيم محددة قادرة على استكناه جوهر مشكلة الهوية. وفى تقديرنا أن المفهـوم الأقـدر علـى ذلـك هو مفهوم "رؤية العالم" Vision du monde. وسـنرى مـن خلال عرضنا أن هذا المفهوم يدور بشأن تحديـد معـناه نفـس المعـركة الـتى دارت بين الاتجاهات المثالية والاتجاهات المادية.

وأهـم الخصـائص النظرية للمفهوم كما حددها كينث بولدنج فى كتابه الهام "الصورة" The image، يمكن إجمالها فى النقاط التالية:-

١ – الصورة المكانية، وهى الصورة التى لدى الفرد عن وضعه أو موضعه فى المكان المحيط به.

٢ – الصـورة الزمانـية، وهـى الصورة التى يكونها الفرد عن مجرى الزمن ومكانه فيه.

٣ – الصورة العقلانية، وهى الصورة التى لدى الفرد عن الكون من حيث هو نسق من الانتظامات والعلاقات.

٤ – الصورة الشخصية، وتتعلق بمكان الفرد فى عالم الأفراد أو الأشخاص، والأدوار، والنظم التى تحيط به.

٥ – صـورة القـيمة، وتتألف من الأحكام المتعلقة بما هو خير وشر، وبالنسبة للعناصر والأجزاء المختلفة من رؤية العالم ككل.

٦ – الصـورة الوجدانية، وهى الصورة التى تصبغ فيها الأجزاء المتنوعة من رؤية العالم بصبغة عاطفية انفعالية. وهذه الصورة تتعلق بمـا نحب ولا نحب من أجزاء الكون، وتتعلق أيضا بمشاعر الخوف والرهبة والألم والسعادة ونحو ذلك.

٧ – الصـورة مـن حيـث هى مقسمة إلى جوانب شعورية ولا شعورية ودون شعورية. ومعنى ذلك أن الأفراد ليسوا على وعى كامل بكـل جوانب رؤى العالم التى لديهم، حيث توجد درجات متفاوتة من الشعور بتلك الجوانب.

٨ – الصــورة منظورا إليها من خلال بعد التأكد أو اليقين وعدم الــتأكد، والوضــوح والغمــوض. فهــناك بعض الجوانب، وخاصة الوجدانــية الانفعالــية من رؤى العالم والتى قد تكون غير مؤكدة أو واضــحة فــى ذهــن الأفــراد، بينما تمتاز بعض الجوانب الأخرى بالوضوح والتأكد.

٩ – الصــورة مــنظوراً إلــيها مــن خلال بعد الواقعية أو عدم الواقعــية، ويعــنى ذلك مدى اتفاق رؤية العالم أو الصورة الذهنية مع بعض جوانب العالم الخارجى، كما هى عليه فى الواقع.

١٠ – الصــورة مــنظوراً إلــيها من خلال بعد الخصوصية أو العمومــية، بمعــنى معرفة إذا ما كانت رؤية العالم تكون رؤية فردية ذاتية أو شخصية، أو جمعية يشترك فيها جميع الأفراد، ويذهب بولدنج إلــى أن الــرابطة الأساسية لاى مجتمع أو ثقافة فرعية أو نظام هى الصورة العامة Public image التى تشير إلى الخصائص الجوهرية لرؤية العالم أو الصورة العامة التى يشترك فيها أفراد ذلك المجتمع.

وفــى تقديــرنا أن ما ذكره "بولدنج" عن أبعاد المفهوم، تعد أشمل صياغة فى التراث العلمى المعاصر.

فى ضوء ذلك كله، ينبغى أن نلتفت إلى مجموعة من الملاحظات النظرية الهامة:-

١ – تــتعدد رؤى العالم فى أى مجتمع، بتعدد طبقاته الاجتماعية وثقافاته الفرعية، وجماعاته الإثنية.

ومن هنا تبرز ظاهرة الصراع الثقافى بين رؤى متعددة للعالم فى نفس المجتمع.

٢ – تــنجح الطبقات المسيطرة فى أى مجتمع- من خلال إشاعة الوعى الزائف- فى تسييد رؤيتها للعالم.

٣ – شــرعية مفهوم سائد للعالم قد تتآكل، نتيجة ضغوط خارجية أو داخلية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.

٤ – بالــرغم مــن أنه يمكن صياغة "نماذج مثالية" لرؤى العالم المتصارعة فى المجتمع، إلا أنه يمكن أن نشاهد اختلاطا بين عناصر مفهومين مضادين.

على سبيل المثال تسرب عناصر دينية إلى الرؤية العلمانية للعالم، أو تسرب عناصر وضعية إلى الرؤية الدينية للعالم.

٥ - يمكن لرؤية معينة للعالم أن تتحول عبر الزمن من المركز إلى الأطراف، بمعنى إقصاؤها من مركز الاهتمام لتصبح رؤية هامشية (مثلا تراجع الرؤية الدينية للعالم لحساب الرؤية العلمانية)، وذلك نتيجة لتطورات وعوامل تاريخية شتى، وقد تعود رؤية محددة للعالم، من الأطراف إلى المركز مرة أخرى. ويمكن أن نشير هنا إلى حركة الإسلام الاحتجاجي الذى عادت رؤيتها للعالم إلى قلب الساحة السياسية العربية نتيجة تآكل شرعية النظم السياسية المعاصرة.

وجدير بالإشارة إلى أن أزمة الهوية ظاهرة ملموسة فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة والمجتمعات الاشتراكية على السواء.

وترد المشكلة إلى أن ممارسة العقلانية العملية وبسطها إلى حدودها القصوى، ونعنى ارتفاع معدلات الضبط الاجتماعى فى المجتمع، ووضع القيود أمام حركة الفرد فى المجتمع، بحكم الصيغة التنظيمية للاقتصاد، ونمط النظام السياسى، قد أدت إلى نتائج سلبية، لأنها زادت معدلات الإحباطات الانفعالية العميقة الجذور، بدلا من أن تقلل منها، مما أدى إلى عدم الاستقرار النفسى لأعداد متزايدة من الناس، وإحساسهم بعدم اليقين. ومن ناحية أخرى، من أسباب أزمة الهوية، وجود الشباب كعامل اجتماعى واقتصادى وسياسى مستقل.

ومن المعروف تاريخيا أن الشباب كانوا دائما طليعة الحركات الاجتماعية والعنصر الفعال فى الانتفاضات والثورات.

واليوم نجد أن الشباب - حتى فى الأوقات "السوية" - يمثلون جماعة اجتماعية لها ثقافتها الفرعية الخاصة. وقد أدى طول فترة التعليم إلى أن يكون لدى الشباب وقت فراغ طويل، ما داموا متحللين من المسئوليات فى العمل والأسرة. وهذه المراهقة الممتدة تؤدى إلى ما أطلق عليه "إركسون" - "تشتت الهوية" Identity diffusion. وفى ظل تضاؤل الفرص لتحقيق الذات اقتصاديا نتيجة للأزمة الاقتصادية فى المجتمع، فإن أزمة الهوية لدى الشباب أصبحت مظهرا أساسيا من مظاهر المجتمع المعاصر.

وتتبلور أزمة الهوية فى المجتمع حين تتحول إلى حركات سياسية واجتماعية احتجاجية. وقد استطاعت المجتمعات الرأسمالية- بمقدرة فذة- على احتواء حركات الاحتجاج الراديكالية وتحويلها إلى حركات ثقافية من خلال ما أطلق عليه "ماركيوز" "التسامح القمعى" Repressive tolerance.

أما فى المجتمعات الاشتراكية والمجتمعات السلطوية عموما فهناك سبل القمع المباشر.

وإذا نظرنا إلى المجتمع العربى، فإننا سنجد الدولة التسلطية العربية تمارس كلتا الاستراتيجيتين: "التسامح القمعى" ما دامت حركات الاحتجاج لا تهدد شرعية النظام، ومن ثم تسمح لخطاب هذه الحركات أن يأخذ طريقه إلى المستهلكين الثقافيين، باعتباره يعبر عن رؤية خاصة للعالم تختلف مع رؤية العالم التى يصدر عنها النظام. ولا يخلو الحال من استخدام سلاح مصادرة الكتب لمنع تداول بعض الكتب "الخطرة" كما حدث فى مصر الناصرية، حين صودرت كتب سيد قطب وأهمها "معالم على الطريق" والذى كفر فيه المجتمع بأسره باعتباره مجتمعا جاهليا ودعا إلى الانقلاب عليه بالقوة المسلحة. ولكن فى أحوال أخرى إذا زادت ثورية الحركة المحتجة، وتبنت صراحة أساليب التعبئة الجماهيرية والعنف لقلب النظام، هنا يستخدم القمع المباشر. فى مصر الناصرية ثم القمع العنيف للإخوان المسلمين عامى ١٩٥٤، ١٩٦٥ والذى انتهى بإعدام عدد من قادة الإخوان على رأسهم سيد قطب، والذى خرجت من معطفه جماعات الجهاد والتكفير وغيرها من حركات الإسلام الاحتجاجى.

والواقع أن المجتمع العربى المعاصر يزخر بصراع رؤى العالم، والتى تكشف بجلاء عن أزمة الهوية. وتحديد مؤشرات هذا الصراع وأنماطه يحتاج إلى مناقشة أكثر تفصيلا.

[١٢]

البعد الثالث للأزمة الثقافية

بعد تشخيصنا للأزمة الثقافية العربية ذكرنا أنها أزمة مثلثة الأبعاد، أزمة شرعية وأزمة هوية وأزمة في مجال اتخاذ القرار أو ما يطلق عليه العقلانية العملية. ولا شك أن هناك علاقات وثيقة بين هذه الأبعاد الثلاثة. فأزمة شرعية النظم السياسية تؤدى إلى إحباط الجماهير فتتولد أزمة هوية، يفاقمها الخلل في اتخاذ القرار الذي يضاعف من دوره أزمتا الشرعية والهوية.

ولو ولينا وجوهنا إلى المجتمع العربي المعاصر لوجدناه يزخر برؤى متعارضة للعالم. ولعل أبرز هذه الرؤى على المستوى السياسي "الرؤية التسلطية للعالم" والتي تؤمن بالوحدانية أسلوبا في الحكم، من خلال الجماعة الانقلابية أو الحزب الواحد، وهي بذلك ترفض الصراع السياسي بل وتقمعه قمعا مباشرا، وترى أن التعددية من شأنها إضعاف الدولة والنظام، بل إنها على الصعيد الثقافي تحرص على تسييد رؤيتها للعالم ونفي كافة الرؤى المتعارضة معها، من خلال السيطرة الكاملة على أجهزة الثقافة والإعلام، والتي لا يتاح فيها لغير أنصار النظام التعبير عن آرائهم، من خلال خطاب دعائي تبريري وغوغائي.

وتناقض هذه الرؤية "الرؤية الليبرالية للعالم" والتي تؤمن بالحوار، والتعدد الفكري، والتعددية السياسية والحزبية، وتداول السلطة بين مختلف التيارات والأحزاب السياسية، وفقا لانتخابات حرة ونزيهة، وهي لذلك ترفض القمع السياسي، وتدين حكم الفرد المطلق، وترفض صيغة الحزب الواحد. وعلى الصعيد الثقافي ترى ضرورة تنوع

الآراء والـــرؤى وصراعها فى إطار سلمى، فهذا هو الضمان لازدياد ثراء التجربة الاجتماعية.

وإذا ركـــزنا علـــى الجانـــب الثقافى لوجدنا صراعا بين "الرؤية العلمانية" من ناحية والتى تنطلق من ضرورة فصل الدين عن السياسة، و "الـــرؤية الدينية السلفية" والتى ترى أن الإسلام دين دولة، وأن هذا الفصـــل المـــزعوم الذى تراه العلمانية، ليس سوى تعبير عن مجتمع غربى، ولا علاقة له بالمجتمع الإسلامى.

وهـــذا الصـــراع صراع سياسى داخل المجتمع العربى فى الوقت الراهـــن، ونتيجـــته ستحســـم إلى وقت طويل مستقبل المجتمع المدنى العربى.

ويمكـــن القـــول أن تعجل بعض الحركات الإسلامية الاحتجاجية الصـــدام مـــع الـــنظام السياســـى الذى يتحول ببطء من التسلطية إلى الـــتعددية، يمكن أن يوقف أو يبطئ المد الديمقراطى، مما من شأنه أن يعطل مسيرة إحياء المجتمع المدنى فى ظل الديمقراطية.

ولعـــل هـــذا يكشف عن الضعف فى ممارسة التيارات السياسية المعارضة، والتى تتعجل القضاء على النظام لاستلام السلطة، بغير أن يكون لها مشروع سياسى عصرى قادر على أن يخلق لها قاعدة شعبية جماهـــيرية تؤمن بمبادئها ومنطلقاتها. ويبدو أن هذه الممارسة تحتاج إلـــى وقت وإلى اتباع استراتيجية النفس الطويل، وهى قد لا تتفق مع اتجاهات زعماء هذه الحركات، الذين تغرهم أحيانا بعض الانتصارات الجزئية فى مجال الانتخابات هنا أو هناك، فيظنون أنهم قد اقتربوا من تحقيق الغاية، والتى هى استلام السلطة.

ولا نـــريد أن ننهى هذه الفقرة بغير العودة للسياسى مرة أخرى، فـــنركز علـــى الصراع بين "رؤية العالم القطرية" إن صح التعبير و "رؤيـــة العـــالم القومية". وتبدو أهمية هذا الصراع، لو ربطناه بحرب الخلـــيج، والـــتي قسمت المثقفين العرب بل والشعوب العربية، حول القضـــية الأساســـية وهى شرعية الغزو العراقى، وهل تتحقق الوحدة العربية بالقوة المسلحة، أم بالديمقراطية.

خلاصـــة القـــول أن أزمـــة الهوية فى المجتمع العربى لها أبعاد سياســـية وثقافـــية واجتماعية بالغة العمق، تستحق أن ندرس أصولها،

ومظاهرها وتجلياتها، ونستشرف آفاق حلها، وقد يساعد على حلها أصحاب الرؤى المتصارعة لخطابهم السياسى، أخذا فى الاعتبار حقائق العالم المعاصر، والتغيرات الاجتماعية والثقافية العميقة التى حدثت فى المجتمع العربى فى العقود الأخيرة.

فليس هناك مستقبل أمام الخطاب التسلطى الصريح، بعد أن سقطت الشمولية والتسلطية فى أبرز نماذجها العالمية، مخلية المجال للتعددية السياسية. كما أن الخطاب التعددى - فى صورته اليوتوبية - والتى تظن وهما أن الليبرالية تعنى أن تخلى الدولة مسؤوليتها من كل التزام إزاء المواطنين، وتركهم فريسة لآليات السوق، يحتاج إلى أن يتعلم حتى من خبرة الخطاب الليبرالى الرأسمالى، الذى أضاف بجسارة واقتدار بعد العدالة الاجتماعية إلى بعد الحرية السياسية، واعتبرهما ركيزتا العدل. ويمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى الفليسوف الأمريكى الذى حقق هذه الثورة النظرية فى مجال الفكر السياسى الليبرالى، وهو جون رولز، صاحب كتاب "نظرية فى العدل" والذى اعتبر أهم إنجاز نظرى منذ كتابات جون لوك وتوماس هوبز.

وإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى الخطاب العلمانى والخطاب الدينى السلفى، فسنجد أنهما مواجهان بمطلب ملح، هو إعادة تعريف ما يعد علمانيا من ناحية، وما يعد مقدسا من ناحية أخرى.

فالعلمانى الذى لا يضع القيم الروحية التى تحرك البشر فى استراتيجيته الثقافية، مقصر تقصيرا شديدا فى فهم الواقع، بل وفى احترام وجدان ومشاعر الجماهير، والإسلامى السلفى الذى يظن أنه يمكنه أن يقنع بالمطلقات، من خلال رفع الشعارات الغامضة، وبدون أن يركز على حل المشاكل الحياتية للجماهير العريضة، بطريقة تتسم بالواقعية والكفاءة، ستتآكل جماهيريته بعد أجل قصير، بعد أن تكتشف الجماهير الخديعة التى تتمثل فى إطلاق الوعود بغير القدرة على الإنجاز.

وأخيرا فالخطاب القومى الوحدوى يحتاج إلى إعادة صياغة شاملة ليدخل فيه بعد الديمقراطية، لكى يلتحم به التحاما عضويا، فقد مضى الزمن الذى كانت تقبل فيه فكرة تحقيق الوحدة بالقهر والقوة والغزو.

كمـــا أن الخطـــاب القطرى عليه أن يجدد نفسه ليدرك، أننا نعيش فى عصـــر التكـــتلات الكبرى لا الأقطار الشظايا. فلتتجدد هذه الخطابات ولتتصــــارع فـــى إطـــار ديمقراطى، فلعل ذلك يكون بداية حل أزمة الهوية.

أزمة العقلانية العملية

ومممـــا لا شـــك فيه أن أزمتى الشرعية والهوية تعكسان بوضوح أزمة العقلانية العملية.

العقلانـــية العملـــية Instrumental Rationalism هـــى من إفـــرازات العقلانية كمذهب فلسفى ومبدأ عملى لتنظيم الحياة والمجتمع فى المجتمعات الرأسمالية. ومن هنا يمكن القول أن العقلانية والفردية هما المبدآن اللذان يميزان الرأسمالية. ولذلك اهتم ماكـــس فيبر بشرح وتحليل العقلانية، من خلال تحليله الثقافى للرأسمالية، بحيث أصبحت بحوثه فى هذا المضمار مراجع أساسية حتى اليوم.

غير أن قدرة المجتمعات الرأسمالية على عمليات الضبط السياسى والاجـــتماعى والـــثقافى، تآكلـــت مع الزمن، ومن هنا ظهور أزمات الشرعية والهوية. وإذا أضفنا إلى ذلك سقوط الوهم الرأسمالى المتعلق بأنـــه لا حـــدود للـــنمو، وأنه يمكن استغلال الطبيعة إلى ما لا نهاية، لأدركـــنا كـــيف أن العقلانـــية العملـــية دخلت فى أزمة عميقة، تبدو مؤشـــراتها فى التحليل الثقافى النقدى لمقولات العقلانية العملية نفسها، كما يفعل الفيلسوف الألمانى هابرماس فى بحوثه المتعمقة، وفى ظهور الحركات الإيكولوجية النشطة، والتى من أبرز أمثلتها فى أوروبا حزب الخضر فى ألمانيا، داعية إلى إعادة صياغة علاقة الناس بالطبيعة وفق تفسيرات جديدة للحدود الطبيعية للحياة الإنسانية.

هـــذا الموضـــوع يثير مشكلات فلسفية واجتماعية وسياسية بالغة العمق، وليس هنا مجال الإحاطة بها. وما يعنينا هو أن النظم السياسية العربية وخصوصا التى أرادت القيام بعمليات تنمية بطريقة ثورية، لم تجـــد أمامها لكى تتبناه أساسا لقراراتها، سوى نموذج العقلانية العملية الغربى الرأسمالى أو الماركسى الاشتراكى، والذى هو تنويع آخر على نفـــس اللحن، بكل ما فى هذا النموذج من سلبيات بارزة، وخصوصا

فــيما يــتعلق بالــتعامل مع الموارد الطبيعية. وهكذا رأينا أن نموذج التحضــر الغــربى المرتبط بالتصنيع أصبح هو النموذج السائد على حســاب الــزراعة، فــى الوقت الذى تضيع فيه كل عام آلاف الافدنة الخصبة الصالحة للزراعة فى بلاد مثل مصر وسوريا والعراق، نتيجة اســتخدامها للبــناء، نجــد قــرارات تصــدر لاستصلاح الأراضى الصحراوية، التى تتكلف بلايين الجنيهات.

وإذا انتقلــنا من تبنى نموذج العقلانية العملية الغربى، إلى عملية صنع القرار، لاكتشفنا أن جانبا من سلبيات هذا النموذج يتم تحاشيه فى المجتمعات الغربية، نتيجة ديمقراطية عملية صنع القرار، وممارستها تحت رقابة الصحافة والرأى العام. وندرك أن هناك حدودا لهذه العملية وخصوصــا قوة جماعات الضغط، وتزييف الوعى من خلال الإعلام، ولكــن ما من قرار استراتيجى خطير فى مجال التنمية، يمكن مع ذلك تمريره بواسطة إرداة حاكم فرد مطلق كما هو الحال عندنا فى الوطن العــربى، أو بواسطة حزب واحد تتحكم فيه مجموعة قليلة العدد. وقد أدت عملــية الانفراد بإصدار القرار فى مجال التنمية إلى خلق تنمية مشــوهة وغــير مــتوازنة، لم تؤد فى النهاية إلا إلى إفقار الجماهير العريضــة، وسقوط اقتصاديات أغلب أقطار الوطن العربى فى حبائل الديــون، الــتى أصــبحت هى الصورة المثلى للاستعمار الاقتصادى والسياسى الجديد. ولا نحتاج إلى ضرب أمثلة على حالات تبديد الثروة العربــية ســواء بواســطة النظم السياسية "الثورية" أو بواسطة النظم السياسية المحافظة.

إن كل هذه الظواهر التى أوصلت النظام العربى إلى حالة فاضحة مــن حــالات العجز الاقتصادى والضعف السياسى، إنما هى انعكاس لأزمــة العقلانــية العملــية، والتى انعكست على احتكار عملية صنع القرار.

وفــى الــنهاية يمكن القول أن الترابط الوثيق بين أزمة العقلانية العملية وباقى الأزمات يبدو فى كون صياغة حلول خلاقة لمواجهتها لا يمكن أن تتم بغير حل أزمة الشرعية وأزمة الهوية. وهكذا فى مواجهة مطلــب تأسيس نظام ثقافى عربى جديد نجابه بأزمات ثلاث فى نفس الوقــت، تحــتاج فــى حلها إلى جهد تنويرى ثقافى وصراع سياسى

ديمقــراطى، مــن أجــل أن تســود فى المجتمع العربى رؤية للعالم: عصرية، وعلمانية، وديمقراطية، وقومية، وعالمية.

رؤيــة ينــبغى أن تأخذ فى الحسبان أن عهد الانغلاق الثقافى قد انتهى، وأن هناك الآن وعيا كونيا يتشكل، لن يؤدى إلى القضاء على التــنوع الــثقافى، ولكنه فى نفس الوقت لابد له أن يترك طابعه على مسار التاريخ فى كل الدوائر الحضارية فى العالم.

القسم الثانى

تشريح ظاهرة العداء
بين الإسلام والغرب

[١]

الأسئلة المفتوحة والإجابات الغائبة!

ليس هناك من شك فى أننا نعيش فى مرحلة تاريخية يمكن أن نطلق عليها بكل بساطة مرحلة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ . وهذه "الما بعد " تكشف عن عدم قدرتنا - كباحثين ومفكرين- على التوصيف الدقيق لسمات المرحلة، والتكييف الموضوعى لاتجاهاتها الراهنة، وبالتالى العجز عن التنبؤ بمساراتها. وهذا الاتجاه الفكرى يعكس فى الواقع بشكل بارز حكمة العبارة التقليدية التى شاعت عقب سقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية ونهاية الحرب الباردة، وانهيار النظام الثنائى القطبية، من أننا نعيش فى عالم يتسم بعدم اليقين وعدم قدرتنا على التنبؤ بمساره.

وقد بدأ تقليد استخدام "الما بعد "بكتاب عالم الاجتماع الأمريكى الشهير دانيل بل "المجتمع ما بعد الصناعى" والذى صدر منذ أكثر من ثلاثة عقود. كان هذا العالم يمتلك فى الواقع بصيرة نفاذة حين أدرك منذ وقت مبكر حقا، أن التحول الرئيسى فى بنية المجتمع العالمى، يتجه ببطء - وإن كان بثبات - من نموذج المجتمع الصناعى ، الذى هو النتاج الرئيسى للثورة الصناعية ، إلى نموذج لمجتمع جديد هو نتاج الثورة العلمية والتكنولوجية. غير أنه وإن كان أشار بعمق إلى السمات الرئيسية لهذا النموذج البازغ، إلا أنه لم يستطع أن يعطى له الاسم المناسب. وبالتدريج، ومع تعمق ثورة الاتصالات الكبرى، التى عبر عنها البث الفضائى بواسطة الأقمار الصناعية، ونشأة وذيوع شبكة الإنترنت، وبروز قدرة البشر فى كل أنحاء المعمورة على الاتصال الحر غير المقيد بالحدود ولا بالحواجز ولا بالقيود، برز اسم

هـذا النموذج المجتمعى الجديد والذى هو مجتمع المعلومات العالمى، والذى يتحول ببطء إلى نموذج مجتمع المعرفة.

وهكذا عبر حقبة زمنية كاملة، اكتشفنا - نتيجة التفاعلات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والمعرفية - أن النموذج الذى خلف المجتمع الصناعى هو مجتمع المعلومات العالمى.

غـير أن سـقوط النظام الثنائى القطبية وظهور النظام الأحادى القطبـية الذى تنفرد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بالمسرح العالمى، بحكم قوتها العسكرية الفائقة، ومبادراتها التكنولوجية، وقوة اقتصادها، أدى فـى الواقـع إلى بروز فراغات إيديولوجية وفكرية كبرى، بحكم سقوط النماذج القديمة فى السياسة والاقتصاد والفكر، ومرورنا بمرحلة أزمـة الـنموذج الـذى يستطيع تفسير الوقائع السياسية والاقتصادية والثقافية التى تقع كل يوم أمام أبصارنا. شهدنا ثورة الملل والأعراق، وبـروز الحروب الأهلية، وما دار فيها من دعوات للتطهير العرقى، ومـا أدت إلـيه من تدخل سياسى لوقفها بالقوة المسلحة، ورأينا كيف بـرزت ظاهرة العولمة بتجلياتها الاقتصادية والتى تشير إليها منظمة الـتجارة العالمـية، الـتى أصـبحت هى المعيار والمرجع فى مجال التبادلات الاقتصادية والتجارية، وما أحدثته من إجحاف بالدول النامية علـى يـد الـدول الصناعية المتقدمة التى تريد فرض هيمنتها على السوق، وتابعنا المعارك الفكرية الكبرى حول "نهاية التاريخ" التى بشر بهـا المفكر الأمريكى اليابانى الأصل فوكوياما، زاعما أن الرأسمالية سـتكون هـى دين الإنسانية إلى أبد الآبدين. ورأينا كيف أن صمويل هنتنجتون عكر المناخ الثقافى العالمى بنظرية عن "صدام الحضارات" والتى أراد منها التنظير للإدارة الأمريكية، بل والإيحاء لها أن تمارس مـا يمكـن أن نطلـق عليه "الحروب الثقافية"، للحفاظ على المصالح الأمريكـية، ضـد كل منافسيها، وأولهم الأوروبيون لو تجاسروا على تحدى هذه المصالح.

وفـى إطار التغيرات الكبرى التى لحقت بالعالم بعد انهيار عصر الحرب الباردة، ظهرت "ما بعديات" متعددة، منها على سبيل المثال - "مـا بعـد الماركسـية" وهى تعنى بكل بساطة أن الماركسية كنظرية معرفـية وكمذهـب سياسـى فات أوانها، وأنه آن أوان التفكير فى

الإيديولوجية التى ستخلفها. بل ظهرت عبارة "ما بعد الشيوعية"، وهى تشير إلى تحول المجتمعات التى كانت تطبق فيها الماركسية الستالينية إلى نمط جديد من المجتمعات، يصعب تحديد سماته ومعالمه فى الوقت الراهن.

ولعل خير ما يعبر فكريا عن تيار "ما بعد الماركسية" كتاب عالم الاجتماع الماركسى "أرونسون" والذى صدر بنفس العنوان، متضمنا نقدا ذاتيا باعتباره ماركسيا سابقا، وفى نفس الوقت يعرض فيه مشروعا راديكاليا جديدا لتغيير العالم. كما أن الكتابات التى تتحدث عن "ما بعد الشيوعية" ربما يعبر عنها مرجع نادر حقا هو كتاب عالم السياسة الاسترالى "لسلى هولمز" والذى صدر بنفس العنوان عام ١٩٩٧ عن دار نشر "بولتى برس" الإنجليزية وهو يدرس فيه بعمق التغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التى لحقت بالمجتمعات الشيوعية السابقة.

غير أنه من الطريف أنه – بالرغم من دعاوى فوكوياما عن نهاية التاريخ وزعمه أن الرأسمالية انتصرت انتصارا نهائيا وحاسما على الماركسية – رأينا مفكرين يتسمون ببصيرة نفاذة لم تخدعهم هذه الدعاوى، وتحدثوا بكل جسارة عن مرحلة "ما بعد الرأسمالية" على أساس أنها مجرد مرحلة مؤقتة فى تاريخ الإنسانية لابد أن تعقبها مراحل أخرى! وهكذا نشر المفكر الشهير "ليستر ثورو" كتابه "مستقبل الرأسمالية" عام ١٩٩٦ عن دار نشر بنجوين ليتحدث عن ما بعد الرأسمالية! وإذا تركنا كل هذه "الما بعديات" السياسية، نستطيع أن نقول أننا نعيش منذ ما يقرب من ثلاثة عقود فى عصر "ما بعد الحداثة". وهى هذه الحركة الفكرية النشطة التى وجهت سهام نقدها الحادة للحداثة الغربية التى قامت فى أوروبا منذ عصر التنوير، واستندت إلى عدة أسس أساسية هى الفردية والعقلانية والاعتماد على العلم والتكنولوجيا، وتبنى الوضعية فى مجالات البحث الاجتماعى، التى تعنى عدم بحث ما لا يمكن قياسه، والإيمان بحتمية تقدم التاريخ الإنسانى من مرحلة إلى مرحلة. هذه الحركة فندت كل مبدأ من هذه المبادئ فى ضوء التحليل التاريخى الدقيق الذى يثبت مساوئ الفردية وسلبيات العقلانية وسوء استخدام العلم والتكنولوجيا، مما أدى إلى

كوارث بشرية لا حدود لها، بالإضافة إلى عجز الوضعية عن استكناه الجوانب الروحية للإنسان، وسقوط مزاعم التقدم التاريخى، بعد نشوب الحــرب العالمــية الأولـــى والثانــية، وما شهدناه من ظهور النازية والفاشــية، ومـــا خبرناه مؤخرا من الحروب الأهلية، وبروز دعوات التطهــير العــرقى، ووضـــوح العنصــرية الإســرائيلية ضد الشعب الفلسطينى.

غير أن ما بعد الحداثة ليس مجرد حركة فكرية - كما يرى بعض الباحثيــن - بــل إن هــناك مجتمعات معاصرة يمكن أن نطلق عليها "مجــتمعات مـــا بعد الحداثة" بحكم الممارسات السياسية والاقتصادية والثقافــية الســائدة فــيها، والتى تكشف عن تحول الاتجاهات وتغير الأذواق وبــروز حساسيات جديدة، أصبحت تؤثر بعمق على السلوك الإنسانى، وتشكل بصورة جديدة الفضاءات الاجتماعية.

ما بعد ١١ سبتمبر

طــال بــنا الحديث عن بروز "الما بعديات" المتعددة ونحن بصدد تحلــيل مـــاذا حـــدث فـــى العالم بعد هذا التاريخ الذى سيؤرخ به فى المســـتقبل. وإذا كنا قد أشرنا عن عجزنا كباحثين ومفكرين عن رسم ملامـــح مـــا بعد ١١ سبتمبر، إلا انه بدأت بوادر التفكير المنهجى فى دوائـــر فكـــرية متعددة فى العالم، لتحليل الحدث ذاته، ونعنى الهجوم الإرهـــابى الســـاحق علـــى الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا اليوم، ومحاولـــة إلقاء الأضواء على بنية المجتمع الدولى فى الحقبة الماضية الـــتى أعقبـــت سقوط عصر الحرب الباردة، وانفراد الولايات المتحدة بالســـاحة العالمـــية، وكذلك تحليل الخطاب السياسى والحضارى الذى أعقـــب الحـــدث، وخصوصا على ألسنة القادة الغربيين وفى مقدمتهم الرئـــيس بوش ورئيس الوزراء بلير والرئيس الفرنسى جاك شيراك، بالإضـــافة إلى خطاب الباحثين والكتاب والإعلاميين الغربيين، وكذلك خطـــاب هـــذه الفـــئات جميعا من العرب فى إطار السجال الحضارى الدائر.

ولعـل مـن أبرز المحاولات الفكرية العربية الجادّة التى تصدت بموضوعية وجسارة فكرية لتحليل الحادى عشر من سبتمبر وما بعده، هـى الـندوة الـتى عقدها مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت بعنوان "التطورات الأخيرة فى الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية"، والتى ضمت مجموعة منتقاة من السياسيين والمفكرين العرب، ونشرت أعمالها فى العدد الأخير من مجلة "المستقبل العربى".

ويلفـت الـنظر أن إدارة الندوة أدارت النقاش حول ثلاثة محاور رئيسـية :المحور الأول "حول السلوك الخارجى الأمريكى قبل إعلان الحـرب" وضـم تسعة أسئلة. والمحور الثانى حول "مؤشرات بناء أو إقرار نظام دولى جديد" وتضمن ثمانية أسئلة، والمحور الثالث والأخير عن "الانعكاسات العربية" وضم عشرين سؤالا.

وحيـن نـتأمل هـذه الأسـئلة لابـد أن يتبادر إلى الذهن مسألة الموضـوعية فـى صياغتها. ذلك أنه فى المواقف التاريخية الحساسة التى يدور فيها صراع حاد وعنيف بين الثقافات، كما هو دائر الآن بعد أحـداث سبتمبر، تصبح الذاتية فى مجال رؤية الحدث وتحليل مختلف أبعاده مسألة بالغة الخطورة. لأن هذه الذاتية ليس من شأنها أن تسعى إلـى الفهـم المتعمق لأسباب وقوع الحدث، ولا لدلالاتها، ناهيك عن الإدراك الصحيح للمنطق الكامن وراءها.

وربمـا تصدق هذه الملاحظات - اكثر ما تصدق - على المحور الأول مـن الأسـئلة، الذى دار حول "السلوك الخارجى الأمريكى قبل إعلان الحرب.

وذلك أنه يمكن القول - إن شئنا أن ننظر للمسألة من وجهة النظر المنهجـية - أن الأسئلة صممت سلفا لكى تكون الإجابات عبارة عن إدانـة مطلقة للولايات المتحدة الأمريكية. وبذلك حرم واضعوا الأسئلة أنفسـهم من محاولة فهم دوافع السلوك الخارجى الأمريكى من مختلف زواياه وأقطاره.

وهذه الملاحظة المنهجية أبداها أحد الأساتذة المشاركين فى إجابته علـى المحـور الأول حيـن قرر أن طريقة السؤال تشير إلى صيغة الجواب.

وأيـا ما كان الأمر، يمكن القول أن هذه الندوة أطلقت فى الواقع عـددا من الأسئلة المفتوحة البالغة الأهمية، وهى تستحق منا التحليل

المـــتعمق، حـــتي لو غابت إجابات عديدة. لأننا فى الواقع مازلنا فى مـــرحلة طرح الأسئلة، التى قد يكون من الصعوبة بمكان العثور على إجابات لها!

[٢]
موضوعية الأسئلة وأحادية الرؤية

إذا كنا فى مقالنا الماضى "الأسئلة المفتوحة والإجابات الغائبة" قد ركـزنا علـى أحد جوانب محاور الأسئلة التى دارت حولها مناقشات ندوة "التطورات الأخيرة فى الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية" التى نظمها فى بيروت مركز دراسات الوحدة العربية فى الأول من أكتوبر ٢٠٠١، فإننـا نـريد اليوم أن نتوقف عند الإجابات البارزة لأعضاء الـندوة حـول السـلوك الخارجى الإمريكى قبل إعلان "الحرب" ضد الإرهاب.

وقـد بـادر أحد أعضاء الندوة (محمد الأطرش) الوزير السورى السابق والاقتصادى فى إجابته، بوضع الأساس الذى قامت عليه إدانة أعضاء الندوة للولايات المتحدة فى سلوكها الخارجى قبل الحادى عشر مـن سـبتمبر. وهو يقرر ابتداء أن الإرهاب الذى وجه إلى الولايات المـتحدة فى هذا التاريخ وراح ضحيته عدة آلاف من الأبرياء ينبغى إدانـته، غير أنه سارع بربط هذا الإرهاب - على سبيل المشابهة - بالإرهـاب الإسرائيلى الذى ينبغى إدانته أيضا لأن إسرائيل "قد قامت على الإرهاب والتطهير العرقى ومازالت تمارس الإرهاب حتى الوقت الراهن".

ويبدو صدق هذه المقولة من تتبع السلوك الإسرائيلى تجاه السلطة الفلسـطينية والشـعب الفلسطينى المستمر منذ بداية انتفاضة الأقصى وعقـب الزيارة المشئومة التى قام بها آريل شارون للمسجد الأقصى، وهـو فى حراسة ألف جندى إسرائيلى مدجج بالسلاح، قبل أن يتولى رئاسة الوزارة فى عهد باراك.

وهـذا السـلوك الإرهـابى طـوره شارون بعد أن أصبح رئيسا للـوزراء، معـبرا فى ذلك عن الاتجاه اليمينى المتطرف الغالب لدى الشـعب الإسرائيلى فى الوقت الراهن. وهذا التطور المدمر تمثل فى حرب مكشوفة تستخدم فيها الطائرات والدبابات ضد الشعب الفلسطينى الأعزل، بعد أن تم إعادة احتلال الضفة الغربية وغزة. يتم كل ذلك فى ضـوء صـمت أمـريكى مريب لا يقطعه سوى بعض الاحتجاجات الأمريكـية الرقـيقة، والـتى ليست سوى إعطاء العذر لشارون لكى يمضـى إلـى غايته بحجة "حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها"، ضد الهجمات الانتحارية الفلسطينية، والتى لم تقم إلا كرد فعل، حتى لو بلغ حـد الشطط، ضد القهر الإسرائيلى المنظم للشعب الفلسطينى. وقد بلغ النفاق الأمريكى مداه فى الامتناع عن إدانة "إرهاب الدولة الإسرائيلية" والـذى يتمـثل فـى الاغتـيال المخطط للقيادات السياسية والنضالية الفلسـطينية، بوصفها بأنها "قتل مستهدف"، وكأن هذه العبارة الملتوية من شأنها أن تلغى الحقيقة المتمثلة فى أن إرهاب الدولة الإسرائيلية هو أبشـع أنواع الإرهاب الذى ينبغى إدانته، لأنه لا يصدر عن جماعات مـتطرفة إسـرائيلية، بقدر ما يصدر عن الدولة الإسرائيلية ذاتها بكل أجهزتها.

لكـل ذلك لم يكن مستغربا أن يمضى (محمد الأطرش) فى إدانة لـيس الإرهـاب الإسـرائيلى فقـط، ولكـن للإرهاب الغربى بعامة والأمـريكى بخاصـة تجـاه العـراق. وهـو يركز نقده فى نقطتين جوهريتين. تتمثل الأولى فى كوننا نحن العرب تبدو مشكلتنا مع أمريكا فـى المعايـير المزدوجة التى تطبقها، فهى تفرض على العرب الذين يحاولون تحرير أراضيهم اقسى العقوبات، فى حين أنها تكافئ إسرائيل المحـتلة لأراضـى عربية والممارسة للإرهاب بكل أنواع الدعم. أما الـنقطة الجوهـرية الثانية فهى أن السلوك الخارجى للولايات المتحدة الأمريكـية قبل الحادى عشر من سبتمبر اتسم بتجاهل القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة.

ويؤكد محسن العينى السياسى اليمنى المعروف هذه النقطة، فيقرر أنـه "بعـد سـقوط جـدار برلين، وتفكك الاتحاد السوفيتى، أصبحت الولايـات المـتحدة القوة العظمى الوحيدة فى العالم، وتحدث الرئيس

الســابق بــوش عــن نظـــام عالمى جديد، ولكن العالم شهد الحروب الإقليمية والاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار فى أكثر من مكان، والأزمات الاقتصادية والمظاهرات المعادية للعولمة".

ويضـــيف العينى "تقدمت أمريكا على أساس أن العصر الأمريكى قــد بــدأ، فتجاهلت الأمم المتحدة وقلصت دور مجلس الأمن الدولى، وأضعفت مركز الأمين العام، واستهانت بالمجموعات الدولية، وتحللت من اتفاقيات سبق الالتزام لها" ويدلل على ذلك بموقف الولايات المتحدة الأمريكية من جدار الصواريخ وتجاهلها للمعاهدة التى سبق أن وقعتها بهــذا الصـــدد، وكذلك انسحابها من معاهدة كيوتو والخاصة بالمناخ، بالإضـــافة إلى موقفها فى مؤتمر ديربان الخاص بمناهضة العنصرية، وانسحابها منه مع إسرائيل دعما لمواقفها العنصرية.

ولم يفت العينى – من باب الموضوعية فى التقييم – أن يشير إلى أنـــه بالـــرغم من موقف أمريكا الظالم فى قضية فلسطين "فقد شهدنا مواقـــف خففـــت قلـــيلا من المرارة .. أيزنهاور وموقفه من العدوان الـــثلاثى على مصر .. بوش وبيكر وقبلهما كارتر وإظهار اهتمامهم بالمنطقة".

ويخلـــص فـــى الـــنهاية إلى "أن أمريكا كدولة عظمى تخلت عن مســئوليتها بـــل وحتى فى حالات كثيرة أصبحت طرفا مشجعا على رفـــض الشـــرعية الدولـــية، وقرارات الأمم المتحدة ومبادئ التعاون الدولى وأبسط ما تتطلبه العدالة والتعاون الدولى".

وتـــبرز على وجه الخصوص مداخلة غسان سلامة وزير الثقافة اللبـــنانى والمفكر العربى المعروف، بحرصه على التمييز الدقيق بين تحديـــد المشكلة سياسيا والبعد عن إدخال المفاهيم الحضارية والثقافية، مـــثل التركيز على موضوع صراع الحضارات الذى اهتممنا به نحن العـــرب أكـــثر من اهتمام الدوائر الفكرية الغربية ذاتها، بعد أن أسقط المفكـــرون الغربـــيون المستنيرون الفكرة وازدروها. وهو يشير إلى مجموعة من العلاقات البارزة لما حدث بعد الحادى عشر من سبتمبر. وأهم علاقة كما يقول هو "أننا الآن دخلنا بحزم وصرامة كما لم ندخل يومـــا فـــى نظـــام القطب الواحد" ذلك أن القرار الأول لمجلس الأمن

الدولى صدر خلال ساعات بعد ١١ سبتمبر، فقد اتخذ فى سبع ساعات وهذا لاسابقة له وبالإجماع.

ويقـــرر غســـان سلامة أنه مندهش لعدم اهتمام العالم بمنظومته وتفصيلاته، فهو يضع لائحة طويلة من الأسباب التى سمحت للولايات المتحدة الأمريكية باستخدام الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة فى أمـــور شـــتى، ويضع برنامجا زمنيا لا يتجاوز التسعين يوما، ويضع سلســـلة مـــن الأسباب المهمة والقابلة للاجتهاد إلى حد كبير لاستعمال القـــوة العســـكرية، وفق منظومة الفصل السابع. ويقرر سلامة أن هذا القرار لا سابقة له على الإطلاق، وهو يتجاوز القرارات الـــ ١٢ التى اتخذت بحق العراق عام ١٩٩٠ بكثير وبأشواط.

ومـــن العلامـــات الـــبارزة على دخولنا مرحلة القطب الواحد فى المـــدى القصـــير رضـــوخ مجلس الأمن الواضح والصريح لمنظومة الإدارة الأمريكـــية والاســـتعداد الواضح لدى دول مثل روسيا أو مثل الهـــند للتعاون والتعاطف مع الموقف الأمريكى، والتحول الملحوظ فى موقف باكستان باستعمال مجالها الجوى وتقديمها المساعدات فى حال الهجـــوم على أفغانستان. غير أن سلامة يلفت النظر إلى مسالة بالغة الأهمية هى أننا إذا أمعنا النظر وكان هدفنا التنبؤ بالأشهر أو بالسنوات القادمـــة فـــربما نصل إلى نتيجة معاكسة تماما، وهى أننا الآن أنهينا مرحلة القطب الواحد! والحجج التى تؤيد هذه النتيجة قوية، وهى تتمثل فى انه أولا للمرة الأولى تدخل أراضى الولايات المتحدة الأمريكية فى الكـــرة الأرضـــية وتصـــبح جـــزءا منها! ويقصد من ذلك أن الفكر الاســـتراتيجى الأمريكى لم يكن يقوم كأى فكر استراتيجى على فكرة الهجـــوم والدفاع، ولكن على ثنائية أخرى خاصة به وحده، وهى هل تـــتدخل الولايات المتحدة – بحكم بعدها عن مواقع الصراع فى العالم بالجغرافيا والسياسة – أو لا تتدخل فى الصراعات الدولية. حدث ذلك فـــى الحـــرب العالمية الأولى حين تساءل الرئيس ويلسون هل يتدخل لمصلحة الحلفاء أولا؟ وكان الاتجاه فى الحرب العالمية الثانية هو عدم الـــتدخل فـــى الصراع بين دول الحلفاء ودول المحور إلى أن حدثت واقعة بيرل هاربر الشهيرة.

يقـول غسان سلامة "الفكر الاستراتيجى الأمريكى كان قائما على فرضـية أن أراضـي الولايات المتحدة الأمريكية فيها مناعة، وكأنها تضعها خارج الكرة الأرضية. اليوم صارت الأرض الأمريكية جزءا مـن الكرة الأرضية. هناك تطبيع للأرض الأمريكية وتطبيع للمشاكل الأمريكية، وهذا أمر يحصل للمرة الأولى بهذا الوضع".

ويضـيف سـلامة فـي مرات سابقة كانت أطراف شتى تطالب الولايات المتحدة باعتبارها "المرجع" أن تتدخل، حدث ذلك من أطراف عربـية فى حالة الغزو العراقى للكويت، وحدث ذلك فى البلقان حين طالـب مسلموا البوسنة والهرسك وكوسوفو الولايات المتحدة للتدخل. بعبارة أخرى كانت الضحية "تطلب من المرجع" التدخل، اليوم أصبح "المـرجع" لأول مـرة وهـو الولايـات المتحدة الأمريكية هو بذاته "الضـحية"، بعد أن اقتحم الإرهاب فى الحادى عشر من سبتمبر عقر دارها لأول مرة فى التاريخ، فى نيويورك وواشنطن، وذلك من شأنه أن يغـير إلـى حد كبير من موازين القوى. ويصل غسان سلامة إلى ذروة تحلـيله العمـيق حين يقرر أنه ردا على الأسئلة التى تطرحها الـندوة "يجـب التميـيز بصـورة جذرية بين ما هو راهن، وبين ما سيحصـل فـى الأسابيع المقبلة وبين تحليل النظام الدولى على المدى الطويل. أنا فرضيتى أن أشكال القطبية المتفردة ستبرز بقوة جدا خلال الأسابيع والأشهر المقبلة. لكن إذا نظرنا إلى التحولات العميقة الضمنية فـى النظام الدولى، فإننا سنشهد على العكس تماما إعادة توزين للقوة الدولـية، ومستوى أعلى من استقلالية القرار عند القوى الأخرى فى المنظومة الدولية"

وفـى تقديرنا أن هذا التنبؤ من أهم ما قيل فى الندوة وهو يحتاج إلى مناقشة تفصيلية بعد أن نفرغ من جولة أخرى من جولات عرض وتحليل أعمال هذه الندوة الهامة.

وتـرجع أهمية هذا الرأى إلى أن هناك تحليلات بدأت تظهر عن شـكل العلاقـات الدولـية فى القرن الحادى والعشرين، والانتقال من مرحلة القطب الأوحد إلى عصر الإمبراطورية. وهذه ليست إشارة إلى الإمبراطورية الأمريكية القادمة كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكنها إشارة

إلـــى نظام عالمى لحكم العالم يتجاوز كل السيادات الوطنية، وتشترك فى إدارته قوى دولية متعددة.

هذا موضوع يحتاج إلى تحليل متعمق سنقوم به فى المستقبل.

[٣]

رؤية نقدية للسلوك الخارجى الأمريكى

كـيف تعـامل العقل العربى مع الأحداث الإرهابية المروعة التى ضـربت مواقع أمريكية مؤثرة فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١؟ سـؤال يـبدو أنـه من المبكر أن نطرحه، ذلك لأن العملية التاريخية الكبرى التى أعقبت هذا التاريخ مازالت تتشكل تحت أبصارنا، وتحمل الأيـام لنا كل صباح أنباء جديدة عن التطورات العسكرية والسياسية والاقتصـادية المثـيرة التى تحدث فى كل بلاد العالم. وذلك لأن آثار الحـدث الجلل لم تقف عند حدود الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها تجاوزتهـا لـتؤثر علـى الأوضاع السياسية والاقتصادية وبل وحتى المناخات الثقافية فى كل أنحاء المعمورة.

وقـد تعـددت المقالات الصحفية العربية المتسرعة والتى أعقبت الحـدث مباشرة، بكل حمولاتها العاطفية، واندفاعاتها السياسية مستندة إلـى مشـاعر العـداء المشـروعة ضـد سياسات الولايات المتحدة الأمريكـية، وخاصـة فـى دعمها للعدوان الإسرائيلى المستمر على الشعب الفلسطينى.

غـير أننا – بعد أن هدأ إلى حد ما الصخب المدوى الذى أعقب الحدث – نشعر بأننا فى حاجة شديدة إلى طرح الأسئلة الصحيحة عن الحـدث ووقائعـه ومـا تضمنته من أبعاد سياسية وأمنية وتكنولوجية وتخطيطـية وتعـبوية، وضعا فى الاعتبار التميز الفائق فى التخطيط والتنفـيذ، وعـن الخطاب السياسى الذى أعقب وقوع الحدث مباشرة، ونعنى أساسا الخطاب الأمريكى والبريطانى والفرنسى، بالإضافة إلى

الخطـــاب العربى والإسلامى. ولا شك أن دائرة الأسئلة لابد أن تمتد لتشمل نتائج الحدث الراهنة والمستقبلية.

وممـــا لا شـــك فيه أن الندوة التى عقدها مركز دراسات الوحدة العربـــية فى بيروت فى الأول من أكتوبر ٢٠٠١ وشاركت فيها نخبة مـــن المفكرين العرب، تكاد أن تكون أول جهد فكرى عربى حاول أن يقـــترب مـــن أحداث سبتمبر بطريقة منهجية. وقد تمت فى هذه الندوة مناقشـــة محـــاور ثلاثـــة رئيسية: المحور الأول ودارت أسئلته حول "الســـلوك الخـــارجى الأمـــريكى قبل إعلان الحرب"، والمحور الثانى ودارت أســـئلته حـــول "مؤشـــرات بناء أو إقرار نظام دولى جديد". والمحور الثالث ودارت أسئلته حول "الانعكاسات العربية".

السلوك الأمريكى قبل الحدث

كانت إدارة الندوة موفقة فى طرح مجموعة من الأسئلة المتنوعة حـــول السلوك الأمريكى الخارجى قبل الحدث. وذلك لأن الحدث وقع فى إطار جبهة واسعة وعريضة من الممارسات والقرارات والسياسات الأمريكـــية التى بدأت تتضح معالمها على وجه الخصوص بعد انهيار الاتحـــاد الســـوفيتى ونهاية عصر الحرب الباردة، وصاغتها الولايات المـــتحدة الأمريكـــية، باعتـــبارها القطب العالمى الأوحد، الذى انفرد بالساحة العالمية.

والواقـــع أن مســـألة القطب الواحد وممارساته تشير إلى الاتجاه الغالـــب على مداخلات أعضاء الندوة ردا على أسئلة المحور الأول، والـــتى تكاد هى بذاتها أن تكون تفكيكا للبنية الإمبراطورية الأمريكية فـــى جوانبها السياسية، وخصوصا فيما يتعلق بعلاقات أمريكا بالعالم. ويكفى أن نشير ونحن بصدد تحليل التوجهات الرئيسية لأسئلة المحور الأول إلى نص السؤال الأول كعينة لأسئلته.

يقـــول الســـؤال الأول: "هـــل كانـــت أمريكا تتجه نحو مزيد من الانفـــرادية فـــى اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الدولية أم نحو مزيد من المشاركة والتشاور؟"

وقبل أن نعرض لإجابات المشاركين على المحور الأول، يهمنا أن نشير إلى الملاحظات النقدية التى أبداها بعضهم سواء إزاء صياغة الأسئلة ذاتها، أو فيما يتعلق بالنظرة العربية للولايات المتحدة الأمريكية وكأنها كتلة واحدة صماء لا تتمايز فيها الاتجاهات السياسية، ولا تتنوع النظريات الفكرية.

ومن أبرز المداخلات النقدية مداخلة الدكتور فواز جرجس وهو أستاذ جامعي يدرس فى إحدى الجامعات الأمريكية. يقول فى مداخلته:

"يبدو أن هناك منهجا معينا أخذ فى عين الاعتبار بوعى أو بغير وعى فى صياغة الأسئلة. طبيعة الأسئلة تحدد طبيعة الأجوبة، هنا بالذات تكمن أهمية أن تكون الأسئلة أكثر شمولية وجدلية. اللافت أن لهجة الاتهام تغلب على الإطار العام لورقة الأسئلة وكأننا نريد التأكيد على أطروحات بديهية مازلنا نجترها. يشير الإطار العام لورقة الأسئلة إلى أن الولايات المتحدة لسياساتها الأحادية الجانب وغطرستها وعدائها للقضايا العربية الإسلامية خصوصا، جنت على نفسها هذه الكارثة الإنسانية. هناك إيحاء ضمنى أن ما حصل له أسبابه المبررة والمنطقية، وأن المسئولية اليوم ملقاة على عاتق الولايات المتحدة لكى تتفادى جر الشعوب الأخرى، وبخاصة الشعوب العربية الإسلامية، إلى مقاومة سياساتها الجائرة."

ويضيف فواز جرجس فى إشارة بالغة الأهمية لضرورة النقد الذاتى العربى "ليس هناك أى إشارة إلى مسئولية الاستبداد السياسى العربى عن تفريغ وإنتاج ظواهر التطرف والإرهاب.

ليس هناك إى إشارة إلى أن المجتمعات العربية الإسلامية هى الضحية الأولى لمثل هذه الظواهر وليس الغرب أو الولايات المتحدة."

ألا يجدر التذكير بأن تلك الظواهر تشكل الخطر الأكبر على المجتمعات العربية والتطور السياسى، وليس لها علاقة بالتفكير العقلانى لموازين القوى والصراع السياسى المعترف به؟

" هل تكمن المصلحة العربية للدول والشعوب العربية فى الانجرار وراء الأقلية التى تجرنا إلى الانتحار الجماعى؟ هل تكمن المصلحة العربية للدول والشعوب العربية فى إعطاء الأعذار للأصوات المعادية

لنا فى الخارج، أم فى التعاون الكلى والشامل مع الشرعية الدولية فى محاولة لتجفيف ينابيع التطرف؟

هل يمكن أن تشكل المجزرة الإنسانية فى الولايات المتحدة فرصة لـنا للدخول فى حوار عميق وصريح مع المجتمعات والدول الغربية، للتأكـيد علـى انخـراطها الكلـى فى العالم والحاجة إلى إيجاد بدائل وخـيارات أخـرى لصـياغة سياسـات غربـية أكثر عدلا وإنصافاً لقضايانا؟"

والواقـع أن أهمـية مداخلـة فـواز جـرجس أنها أثارت ثلاثة موضـوعات أساسية، هى أهمية الطرح الموضوعى للأسئلة حتى لا نحصـل علـى إدانات مسبقة للولايات المتحدة كأجوبة، مع أن هناك حاجـة قصـوى لتوسـيع دائرة شمول الأسئلة سعيا وراء فهم أعمق للسـلوك الأمريكى الخارجى، بالإضافة إلى إثارته أهمية ممارسة النقد الذاتـى العـربى، وأخـيرا ضـرورة ممارسـة حوار حضارى مع المجتمعات الغربية لصياغة نظام دولى أكثر عدلا وأنصافا لقضايانا.

أحادية النظرة العربية

غـير أنـه بالإضافة إلى هذه المداخلة الهامة، نجد مداخلة نقدية أخـرى للدكتور بول سالم أستاذ العلوم السياسية فى لبنان، والذى حذر من مخاطر الرؤية الأحادية الجانب للولايات المتحدة الأمريكية.

ويـبدأ بول سالم مداخلته بقوله "أريد أن أضئ ناحية مختلفة قليلا، أولا أننا نتصور خطأ الولايات المتحدة وكأنها شئ موحد وفيها سياسة موحـدة وقـرار واحد. والولايات المتحدة قارة والسياسة فى الولايات المتحدة حلبة أكثر مما هى قرار بمؤسسة أو بقيادة أو بشخص."

ويسترسل ليقول أننا نتوهم أن هناك شيئا موحدا وأن هناك سياسة واضحة كثيرا، مع أن هذا القول لا يتسم بالدقة وخصوصا فى المرحلة الـتى أعقبـت انهيار الاتحاد السوفيتى وقبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر. ذلك أن الولايات المتحدة ظلت عشر سنوات تبحث عن سياسة خارجـية وسياسـة أمنـية. ولا يعنى ذلك غياب الممارسات الدولية الأمريكـية والتى تتابعت عبر السنوات، ولكنه يعنى أنه لم تكن وحدة

فى الرؤية الأمريكية التى كانت ولم تزل فى الحادى عشر من سبتمبر مفقودة.

ويفسر بول سالم هذا الوضع على أساس أن الفلسفة الوحيدة التى اخترعتها أمريكا هى الفلسفة البراغماتية، التى تأخذ مجموعة من مواقف وأحداث ومصالح، وتتعاطى معها كمصالح متفرقة ومواقف متفرقة. ويمكن بعد ذلك أن تجمع كل هذه المواقف فى تصور سياسى ما وليس العكس. بعبارة أخرى - وفق بول سالم - ليست هناك سياسة موضوعة تترجم كل مواقف أمريكا.

وبالرغم من أن جورج بوش الأب أطلق أثناء حرب الخليج الدعوة لنظام عالمى جديد إلا أنه لم يصدر فى الواقع عن فكرة محددة لهذا النظام، ولا استطاع المفكرين الأمريكيين أن يضعوا ملامح واضحة لهذا النظام المقترح. وربما يفسر ذلك خفوت الدعوة لهذا النظام فى عهد كلينتون، مما يؤكد أنه لم تكن هناك سياسة خارجية واضحة.

وينهى بول سالم مداخلته الهامة بقوله "لا شك أن الولايات المتحدة فى التسعينات وبعد حدث ١١ سبتمبر غير ملتزمة بدور الأمم المتحدة، بل بشكل جذرى مهتمة بمصالحها المتفرقة حول العالم، فإذا تطابقت مع أجواء الأمم المتحدة واستطاعت أمريكا أن تخرج سياساتها من خلال الأمم المتحدة كان أجدى، وإلا فإن أمريكا كعملاق ستعمل ما هو فى مصلحتها. ما هو دور أمريكا؟ أمريكا لا تعرف ولم تكن تعرف فى التسعينات، أهى بوليس العالم، أهى دولة كبيرة بين الدول لها هموم التجارة العالمية والانكفاء إلى التسلية والحياة الترفيهية؟ أم هى إمبراطورية؟"

وإذا كنا نوافق على رأى بول سالم من أن الرؤية العربية لأمريكا رؤية أحادية الجانب، غير أننا لا نوافقه على أن أمريكا لا تعرف ما هو دورها فى العالم. ذلك أن الإدارات الأمريكية منذ عهد كلينتون وحتى عهد بوش عنيت عناية شديدة بصياغة المعالم الرئيسية لسياسة خارجية وأمنية أمريكية تضمنتها ووثائق رسمية هامة ومنشورة. وفى هذه الوثائق تحديد دقيق لمصادر التهديد للأمن الأمريكى وفى مقدمها خطورة الإرهاب العالمى، مع تحديد لكيفية مواجهة هذه التهديدات. وإذا كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد كشفت عن عمق الفجوة

بيـــن الإدراك الـــنظرى لخطورة التهديدات والمواجهة العملية لها كما ظهر من التقصير الأمنى، والمخابراتى الأمريكى الفادح، فذلك لا يمنع من التأكيد أن هناك خطاباً سياسياً أمريكياً رسمياً يحدد ملامح السياسة الأمريكـــية، ولا يمنع ذلك من وجود خطابات سياسية أمريكية أخرى معارضـــة أو مختلفة. ومعنى ذلك أنه على عاتق المفكرين والباحثين العـــرب رسم خريطة معرفية سياسية دقيقة تبرز التضاريس الحقيقية لـــبانوراما الفكـــر السياســـى والأمريكى، هذه الخريطة المعرفية هى الخطـــوة الأولى لصياغة سياسات عربية فعالة لمواجهة تحديات القرن الحادى والعشرين، وخصوصا فى عصر ما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، التى خلقت أوضاعا دولية جديدة وغير مسبوقة.

[٤]

تحليل ثقافى للسلوك الخارجى الأمريكى

حيـن نتابع قراءة أعمال الندوة الهامة التى نظمها مركز دراسات الوحـدة العربية فى بيروت وذلك فى أكتوبر الماضى عن "التطورات الأخـيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وانعكاساتها العربية"، لابد لنا أن نـتوقف أمام المداخلات العميقة لثلاثة ساسة مرموقين من أعضاء الـندوة. لدينا أولا مداخلة الأستاذة ليلى شرف وزيرة الإعلام الأردنية السـابقة، ومداخلـة الأستاذ طاهر المصرى رئيس الوزراء الأردنى السـابق، وأخـيرا مداخلـة الأستاذ سليم الحص رئيس وزراء لبنان السابق. وكلهم فى الواقع لديهم خبرات سياسية عميقة، وكان لكل منهم دور بارز فى إدارة شئون بلادهم.

ويلفت النظر فى مداخلة ليلى شرف قيامها بتحليل ثقافى للخطاب الأمـريكى وخصوصا فيما يتعلق بصراع الحضارات. وهى تبدأ أولا بتتـبع السـلوك الخارجى الأمريكى منذ بدء انحلال الاتحاد السوفيتى وصـعود الولايـات المـتحدة الأمريكية إلى صدارة المسرح الدولى وتصاعد دورها المهيمن فى السياسة الدولية، والذى عبر عنه الرئيس الأمـريكى السابق جورج بوش بالدعوة إلى تأسيس نظام عالمى جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كان صوت هذه الدعوة قد خفت لأسـباب متعددة، ربما تكون على رأسها غموض الفكرة وعدم امتلاك الولايـات المتحدة الأمريكية لخطة متكاملة تبين قيم هذا النظام الجديد وأسسـه، إلا أنها عادت - وإن كان بشكل عملى - فى عهد الرئيس الأمـريكى جـورج بوش الابن لهذه الدعوة، وربما كانت التطورات الدولـية الخطيرة التى حدثت بعد الحادى عشر من سبتمبر والسياسات

والممارســات الأمريكية التى أعقبت الأحداث خير معبر عن الصعود لخطاب الهيمنة الأمريكية الذى سبق لجورج بوش الأب أن عبر عنه.

وفى تحليل ليلى شرف لأطروحة عالم السياسة الأمريكى صمويل هنتنجــتون عــن صراع الحضارات فإنها ترى " أنها تحمل وجهين: الأول أنها تجد منطلقاتها من الوجدان الجمعى للمجتمع الأمريكى .. أما الوجه الثانى فيبدو وكأن هذه الأطروحة هى أسس نظرية ولكنها عملية أيضا لاستراتيجية أمريكية تتعامل عبرها مع العالم فى العصر الجديد وقــواه التقليدية والناشئة، أكثر منها دراسة نظرية فلسفية حول تطور المسار التاريخى أو رياضة فكرية فى التاريخ والاجتماع يتحاور فيها المثقفون والمختصون .."

وفـــى تقديرنا أن قراءة ليلى شرف لنظرية هنتنجتون تتسم بالدقة. وذلــك لأن صـــاحبها يخاطب بها فى الواقع صانع القرار الأمريكى، وكأنـــه يدعوه لتبنيها لتكون الأساس الأيديولوجى الذى يمكن للسياسة الأمريكـــية أن تســتند إليه فى نمط تعاملها مع دول العالم. ومما يلفت النظر حقا أنه ظهر مفهوم "الحروب الثقافية" عقب حرب الخليج على يد بعض المفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين، على أساس أنها ستكون هـــى سمة الحروب فى القرن الحادى والعشرين. غير أن الفكرة كانت غامضة حقا، إلى أن جاء هنتنجتون وقدم لها صياغة متكاملة وطرحها أولا فى مقال ثم وسعها فى كتاب، أصبح مثار جدل فكرى فى الدوائر الفكـــرية العلمية فى الشرق والغرب على السواء. وتركز ليلى شرف علـــى مشـــكلة الفراغ الإيديولوجى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى والذى كـــان يمـــثل "العـــدو" بالنسبة للعالم الغربى عموما والولايات المتحدة الأمريكية خصوصا. ولكن ماذا تفعل الولايات المتحدة الأمريكية بغير عدو؟

إن وجود "عدو" مسألة أساسية – كما تقرر ليلى شرف – بالنسبة للولايـــات المـــتحدة الأمريكـــية لأنه كما تقول "أمر ضرورى للحمة المجـــتمع الأمـــريكى القائمة على شحذ الوجدان الجماعى المستمر – ومـــنذ الطفولة – بأن النظام الأمريكى الذى يسمح للفرد بنعمة الحرية الشخصيه والحركة الاقتصادية والرفاه والعدل مهدد دائما بعدو ما يريد أن يقضى على ما يسمى بنوعية حياتنا Our way of life. ولم يكن

البحث عسيرا على ما يبدو، وكان الإسلام مرشحا بلا منازع، والمسلمون فى طليعتهم العرب الذين عملت الحركة الصهيونية طوال خمسين عاما على تشويه صورتهم وصورة حضارتهم فى الوجدان الغربى"

ويبدو صدق هذا التحليل الثقافى النافذ من تحليل مضمون الخطاب السياسى الأمريكى عقب الأحداث مباشرة. فقد ترددت فيها عبارات تكشف عن سيادة هذه النزعة المتضخمة عن الذات والتى تنظر فى نفس الوقت بطريقة دونية للآخر. ألم ترد عبارات فى هذا الخطاب مبناها أن الإرهابيين وما يمثلونه من ثقافة واتجاهات إزاء الغير، يحقدون على الأمريكيين لثرائهم، ويحاولون الاعتداء على أسلوب الحياة الأمريكى والقضاء عليه؟

ومن ناحية أخرى تلفت ليلى شرف النظر إلى تعاظم الكلام فى الخطاب السياسى عن "المصالح الأمريكية"، بل إن هناك تصريحات محددة فحواها أن المصالح الأمريكية لها أولوية المطلقة على باقى المصالح، حتى لو أدى ذلك إلى مصادمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم كله. ويبدو صحة هذا التحليل بالنسبة لموضوعين كانا مثار خلاف شديد.

الموضوع الأول يتعلق بمشروعية الدرع الصاروخى الذى رصدت له الولايات المتحدة الأمريكية ٨٠ بليون دولار. وهذا المشروع اعترضت عليه روسيا وغيرها من الدول الأوروبية، على أساس أن فيه مخالفة صريحة لأحكام المعاهدة الدولية الخاصة بخطر انتشار الصواريخ. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية أصرت على مشروعها، بل وصرحت أنها تستطيع - بكل بساطة - الانسحاب من المعاهدة.

أما الموضوع الثانى فهو انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة كيوتو الخاصة بضبط المناخ العالمى. ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية وقعت على المعاهدة بعد ضغوط دولية متعددة، باعتبار أنها المصدر الرئيسى لانبعاث الغازات الضارة فى العالم، ونتيجه لإحساسها بأنها ستتكلف نفقات باهظة فى مجال تكييف مصانعها حتى تتفق مع المعايير العالمية المرغوبة. غير أن الولايات

المـتحدة الأمريكية سرعان ما انسحبت من المعاهدة بعد تسلم الرئيس بوش الابن مقاليد الإدارة الأمريكية الجديدة. لقد كان الموقف الأمريكى فـى كلـتا القضيتين، درع الصواريخ ومعاهدة كيوتو، ترجمة عملية للاتجـاه السـائد فـى السياسة الخارجية الأمريكية، وهو أن المصالح الأمريكية لها الأسبقية الكاملة على كل المصالح.

ولا شـك أن إشارت ليلى شرف الموفقة حول ممارسة "غطرسة القـوة" بشكل مكشوف، مثل الكلام عن "تأديب "بعض الدول أو فرض العقوبـات علـيها، بالإضـافة إلى تهميش دور الأمم المتحدة والعمل الخـارجى خارج إطار الشرعية الدولية، كل ذلك يكشف عن مضامين السلوك الخارجى الأمريكى فى العقد الأخير.

ضد صراع الحضارات

وتمـيزت مداخلـة الأسـتاذ طاهر المصرى بدعوته القوية إلى ضـرورة عـدم الانـزلاق نحـو صراع جديد فى العالم هو صراع الحضارات، الذى تروج له العديد من الجهات اليمينية والصهيونية فى الغرب والولايات المتحدة بالذات. وصراع الحضارات له صبغة دينية أكـيدة، ويهـم الأطراف اليهودية والصهيونية إبراز تلك الصفة حتى يصـبح الغرب والمسيحية فى مواجهة الإسلام والعرب. وستكون فى صـف الغرب بطبيعة الحال وسترسخ نفسها بوصفها قاعدته الأساسية فى المنطقة".

ويشير الأستاذ المصرى إلى الهجمة على الإسلام والعروبة عقب أحـداث الحـادى عشر من سبتمبر والتى قادتها إسرائيل والمؤسسات اليهودية والصهيونية فى العالم. وقد أخذت هذه الحملة - كما يقول - أبعـادا خطـيرة تؤثـر على جاهزية الغرب فى الدخول فى صراع الحضارات.

ويخلـص المصرى من عرضه إلى عناصر الصراع بين الغرب والشـرق متفجره ومدمرة للجميع وقد تأخذ أشكالا متعددة. ويقرر "لنا فـى الـتاريخ عـبرة. فالقـرن التاسع عشر كان قرن الصراع بين القومـيات، وكان القرن العشرون قرن الصراع بين العقائديات، وليس

مستغربا أبداً أن يكون القرن الواحد والعشرون قرن الصراع بين الحضارات أو الأديان".

أما الأستاذ سليم الحص في مداخلته الهامة فقد قرر أولا أنه لا يعتقد أن السياسة الأمريكية تأخذ بأطروحة صدام الحضارات إلا فى قضية فلسطين. "أما فى القضايا الأخرى فكانت تحالفاتها ومصادماتها متنوعة ولا تقف عند حدود الفصل بين الحضارات المفترضة".

وهذه فكرة هامة لابد أن نتأملها. ذلك لأن كل الشواهد العملية تشير إلى أن الذى يوجه السياسة الأمريكية هو طابعها البراجماتى النفعى. ويدل على ذلك تحالفاتها مع دول إسلامية متعددة فى عصر الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى. ومن هنا قد لا تصلح فعلا أطروحة صراع الحضارات لتفسير السلوك الخارجى الأمريكى فى الحقبة القادمة. إن الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة لديها القدرة على تغيير أقنعتها بسرعة، بحيث تتحالف اليوم مع عدو الأمس، وبالعكس تتصادم في يوم آخر مع صديق الأمس. المسألة تتوقف على ادارك النخبة الحاكمة الأمريكية للمصالح الأمريكية فى لحظة تاريخية محددة.

غير أن سليم الحص يشير إلى مسألة أخرى هامة، هى الفجوة الواسعة بين المبادئ التى تنادى بها الولايات المتحدة داخليا وبين ممارساتها على الصعيد الدولى. "إنها ترفع شعارات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولا تطبقها خارجيا إلا حينما يناسبها ذلك وبالكيفية التي تتفق مع مصالحها الآنية. وتشهد بذلك المواقف الأمريكية من الصراع العربى الإسرائيلى فى تجلياته اللبنانية والسورية والفلسطينية حيث القرارات الدولية حبر على ورق وحيث القيم الإنسانية مطبقة بصورة انتقائية.

من العرض السابق يتضح أن شخصيات بارزة فى النخبة العربية المثقفة تجمع – من خلال ممارسة التحليل الثقافى – على إدانة السلوك الخارجى الأمريكى ليس فيما يتعلق بالوطن العربى فقط، ولكن حتى بالنسبة إلى حلفائها بل والعالم كله، تحت تأثير غطرسة القوة، والإحساس أنها كقوة عظمى وحيدة قد امتلكت إلى الأبد فضاء الساحة الدولية.

[٥]

قراءة استراتيجية للسلوك الخارجى الأمريكى

إذا كنا قدمنا فى مقالانا السابق ونحن بصدد تحليل مناقشات ندوة "التطورات الأخيرة فى الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية" التى نظمها فى بيروت مركز دراسات الوحدة العربية فى الأول من أكتوبر الماضى، الرؤية النقدية لأعضاء الندوة للسلوك الخارجى الأمريكى فى مرحلة ما قبل سبتمبر وكذلك تحليلهم الثقافى الناقد له، فإننا نريد اليوم أن نعرض للقراءة الاستراتيجية العميقة للسلوك الأمريكى التى قدمها بعض أعضاء الندوة البارزين.

ولعل مداخلة الدكتور عبد الله بلقزيز أستاذ الفلسفة فى جامعة الحسن الثانى بالمغرب تعد نموذجا لهذه القراءة الاستراتيجية اللافتة للنظر. وهو يبدأ بعبارة افتتاحية تحمل فى طياتها مفتاح تحليله للسلوك الأمريكى حين يقرر "لم تكن السنوات العشر الأخيرة التى أعقبت نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى هى اللحظة التاريخية الفارقة التى فضحت السياسة الأمريكية، وألقت ضوءا على رؤيتها للعالم وللعلاقات الدولية، ولموقعها الذى أرادته متميزا ورئيسا وحاكما فيها. لكن هذه السنوات كانت - بالتأكيد - أفضل حيز زمنى أفصحت فيه الغطرسة الأمريكية عن نفسها وعن تطلعاتها الإمبراطورية التى جاوزت - فى مطالبها - كل أهداف إمبراطورية أخرى فى التاريخ الإنسانى!".

بعبارة أخرى أراد الدكتور بلقزيز أن يؤكد أن السنوات التى أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتى هى التى كشفت عن عمق الهيمنة الأمريكية على العالم بأسره، والتى سبق أن مارستها فى عصر الحرب

الباردة، حين قادت العالم الغربى "الحر" كما كان يطلق عليه فى حملة شرسة ضد الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية. وقد فرضت الولايات المتحدة الأمريكية - كما يقرر الدكتور بلقزيز - "باسم الخطر الشيوعى.. هيمنتها على سائر دول المنظومة الرأسمالية، فى المراكز والأطراف، وصارت قراراها السياسى، وأجبرتها على أن تنضوى فى إطار استراتيجيتها الدولية، بل فرضت عليها تبعية مطلقة على صعيد سياساتها الدفاعية، سواء تحت مظلة "حلف شمال الأطلسى" أو فى صيغة اتفاقات تعاون" عسكرى، وضعت أراضى وقواعد دول عديدة من العالم تحت تصرف العسكرية الأمريكية! وباسم الدفاع عن "العالم الحر" خاضت أمريكا حروبها العدوانية فى كل العالم، إما مباشرة كما فى كوريا وفيتنام، أو بالوساطة كما فى الصين وكوبا ومصر وفلسطين وسوريا وأنغولا ونيكاراجوا والشيلى .. إلخ، وأطلقت يد أجهزتها الاستخباراتية لهندسة الانقلابات العسكرية ضد النظم الوطنية والتحررية، ولدعم وتكريس الديكتاتورية والفاشية فى دول الجنوب! وفى تقديرنا أن تركيز الدكتور بلقزيز على التاريخ الواقعى للممارسات الأمريكية السياسية والعسكرية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية مسألة بالغة الأهمية، لأنها ترصد المسيرة الأمريكية فى استمراريتها بالرغم من لحظات الانقطاع الخادعة والتى برزت فى بعض المراحل التاريخية. ويبدو مصداق ذلك فى انه حين انتهت الحرب الباردة، رفعت الولايات المتحدة الأمريكية على لسان الرئيس جورج بوش الأب الدعوة لنظام عالمى جديد "لتأسيس وضع طبيعى فى العلاقات الدولية تحكمه الشرعية وسلطة القانون الدولى، وتستند فيه هذه العلاقات إلى مرجعية الأمم المتحدة. ثم سرعان ما تبين - كما يقرر الدكتور بلقزيز - "أن الكوابح التى لجمت السياسة الأمريكية عن غرائزيتها فى حقب الحرب الباردة، انهارت تماما لتطلق تلك الغرائزية من كل عقال، ولترفع من معدل الشعور الظفراوى الأمريكى إلى حد جنونى!"

فى هذه الحقبة تصاعدت الاتهامات العربية للولايات المتحدة الأمريكية على أساسها أن تكيل بمكيالين وتطبق معايير مزدوجة فى مجال حقوق الإنسان، لأنها تتغاضى عامدة عن الخرق الإسرائيلى

المستمر واليومى لحقوق الإنسان الفلسطينى، فى حين أنها ترفع عقيرتها منددة بخرق حقوق الإنسان فى بعض بلاد العالم الثالث، وفى مجال الدول العربية على وجه الخصوص.

ومن هنا اكتشفت البشرية أن "النظام الدولى الجديد" ليس نظاما للتوازن فى المصالح، أو نظاما لقانون دولى ترعاه الأمم المتحدة أو نظاما للسلم والاستقرار، وإنما هو نظام هيمنة القطب الأمريكى الواحد على سائر الأقطاب، ونظام التسلط السياسى والعسكرى القائم على السلطة المرجعية للحلف الأطلسى، ونظام الحرب المفتوحة ضد أية قوة تعترض على مشيئة البيت الأبيض، أو حتى تضع علامة استفهام على سياساته" لكل ذلك - يخلص عبد الله بلقزيز - ليس عبثا أو مصادفة أن يلتئم إجماع دولى عفوى اعتراضى ضد السياسة الأمريكية يتخذ أحيانا صورا صريحة، ويتخفى أحيانا أخرى وراء أقنعة متعددة.

ويدعم التحليل السابق نواف الموسوى مسؤول العلاقات الدولية فى حزب الله بلبنان والذى يرى أن مفتاح فهم السلوك الخارجى الأمريكى يتمثل فى الهيمنة أو والانتقائية. وإن كان يلفت النظر بذكاء إلى أن ما يثار بين الفينة والأخرى من مقولات "صراع الحضارات" وما إلى لك من إثارة للعنصريات فى وسائل الإعلام، لا يعدو أن يكون جزءا من المناخ الذى تبثه الجهات المعنية بتنفيذ القرار الأمريكى. وهو يرى " أن تلك المقولات لا تعكس مناحى السياسات الأمريكية، فضلا عن أن تعكس حقائق الصراعات والنزاعات". وهو يحذر من الوقوع فى شراك تلك المقولات لأن الخوض فيها هو هدف الشرك المعد وهو إشغال النخب باهتمامات تصرف عن الاهتمام الرئيسى وإشاعة مناخات الضغط والتحريض فى الاتجاهين.

ويرصد معن بشور رئيس المنتدى القومى العربى فى لبنان صور ردود الفعل المختلفة لغطرسة القوة الأمريكية ويوجزها فى صورتين. فى الصورة الأولى ويقصد بها على مستوى الحكومات والأنظمة حيث نجد أن انصياعا كاملا للأوامر الأمريكية هو الطابع الرئيسى لموقف العديد منها ، وهو كما يقرر ".. وفر قوة استثنائية لواشنطن تفوق قوتها الناجمة عن انهيار الخصم الرئيسى لها فى مطلع التسعينات، كما

وفـر لهـذه الأنظمة والحكومات قدرات كبيرة لممارسة أعلى درجات القمع والاستبداد بحق شعوبها فى ظل غطاء أمريكى بالدرجة الأولى".

أما الصورة الثانية من ردود الفعل فتبرز اعتراض شعوب متعددة على السياسات الأمريكية وفى مقدمتها الشعوب والجماهير العربية التى تخـتزن أعلى مشاعر الاحتقان والإحساس بالقهر والرغبة بالتحدى.. وهذه المشاعر هى المصدر الرئيسى لكل أشكال العنف والتمرد".

الدوائر الحضارية

ومن ناحية أخرى يركز المفكر الفلسطينى المعروف الدكتور أحمد صدقى الدجانى - كما هو معروف - فى بحوثه المنشورة كلها - على الدوائر الحضارية فى العالم اليوم كنقطة انطلاق لتحليله الاستراتيجى للموقف العالمى.

وهو يركز عصارة فكره فى عدد من النقاط أبرزها:

١ - "اســتمرار أمريكا فى اعتماد استراتيجية عدائية تجاه الأمة العربية ومشروع إنهاضها تقوم على عرقلة هذا المشروع والعمل على إفشاله".

٢ - ويشير إلى تركيز هذه الاستراتيجية بعد نهاية عصر الحرب الـباردة علـى دائرة الحضارة الإسلامية باعتبارها العدو" بعد زوال حظر الشيوعية، وطرحت فكرة صدام الحضارات، وباشرت حملة ضد الإســلام بمساعدة الصهيونية، لدفعه بالإرهاب، وذلك فى إطار حملة لتشويه الحضارة الإسلامية.

٣ - تبـنى الإدارات الأمريكـية المتعاقـبة سياســة دعم الكيان الإسرائيلى ماديا ومعنويا.

٤ - الجهد الأمريكى المستمر لتحويل الكيان الإسرائيلى إلى أكبر قاعدة عسكرية خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

٥ - دعمــت أمــريكا السياسة الإسرائيلية تجاه الأراضى العربية المحتلة فى حرب عام ١٩٦٧.

٦ - عملت أمريكا تنفيذا لمتطلبات استراتيجيتها فى مرحلة ما بعد الحــرب الباردة على إقامة "نطاق الشرق الأوسط" الإقليمى فى دائرة

الحضـــارة الإســـلامية ضمن إقامة "النظام العالمى الجديد" الذى رفع شعاره جورج بوش عام ١٩٩٠.

٧ – حاولت الولايات المتحدة فى نطاق سعيها لإقامة نظام الشرق الأوسط إلى محاولة فرض حل عنصرى لقضية فلسطين ينهى الصراع العربى الصهيونى، وهكذا عملت على إبرام اتفاق أوسلو بين "إسرائيل" وقـــيادة منظمة التحرير الفلسطينية الخاص لإقامة حكم ذاتى مؤقت فى الضفة الغربية وقطاع غزة وذلك عام ١٩٩٣.

٨ – عملـــت الولايات المتحدة فى عهد الرئيس كلينتون لاستكمال خطوط هذا الحل العنصرى. وركزت فى عامها الأخير على الوصول لاتفاق بشأن الموضوعات الأربعة الخاصة بما سمى بالوضع النهائى، وهـــى الأرض بمـــياهها والمســـتعمرات الاستيطانية وعودة اللاجئين الفلسطينيين والقدس.

٩ – تبنـــت إدارة جورج بوش الجمهورية خطوطا سياسية تنطلق مـــن الاســـتراتيجية الأمريكـــية وتتفق مع سياسات الإدارات السابقة وأطلقت يد حكومة أريل شارون لإنهاء الانتفاضة بالقوة.

١٠ – تابعـــت بريطانيا القيام بدورها المساند للسياسة الأمريكية بالكامل.

١١ – تشـــهد أمـــريكا فى الوقت الحالى تحركا مكثفا لما يعرف بالصـــهيونية المســـيحية التى يؤمن بإقامة إسرائيل ودعوة اليهود إلى ارض الميعاد.

١٢ – تشـــهد الولايات المتحدة وبريطانيا على المستوى الشعبى فـــيهما بـــروز قـــوى تعارض استراتيجيتها الخاصة باعتماد القاعدة الاســـتعمارية الصـــهيوينة ركـــيزة لهما والسياسات المنبثقة عن هذه الاســـتراتيجية. ومـــن هـــذه القـــوى الأمريكـــيون من أصل عربى والأمريكيون المسلمون من أصول أقدام مسلمة آسيوية وأفريقية.

ويخلـــص الدكتور الدجانى من تحليله المركز إلى انه "نستنتج مما ســـبق أن الولايـــات المتحدة وبريطانيا تستهدفان الأمة العربية بالعداء وتعمـــلان على مواجهة مشروع إنهاضها. وهما فى هذه المرحلة من الصـــراع العـــربى الصـــهيونى تحاربان بقوة سعيها لتحقيق التحرير

والاستقلال، وتتبنيان سياسة دعم الكيان الإسرائيلى قاعدة استعمار استيطانى عنصرى لهما فى المنطقة".

ويختتم الأستاذ عصام نعمان الوزير اللبنانى السابق مداخلات أعضاء الندوة بصدد المحور الأول من محاورها بالتنبيه إلى أنه منذ الحادى عشر من سبتمبر فإن تحديات كبرى تواجه العرب والمسلمين فى مطالع القرن الحادى والعشرين، ويتساءل ترى كيف ستكون استجابتهم لها؟ ويشير فى تحليله للسلوك الأمريكى إلى المفكر الأمريكى المعروف نعوم شومسكى وخصوصا فى كتابه "إعاقة الديمقراطية" والذى يسرد فيه مسيرة الهيمنة الأمريكية من عام ١٩٥٠ حتى اليوم.

ما سبق خلاصات مركزة لأبرز مداخلات الندوة عن السلوك الخارجى الأمريكى، التى واصلت حواراتها حول مؤشرات بناء أو إقرار نظام دولى جديد. وقد تتاح لنا فرصة مقبلة لنطل على الرؤية العربية للمقولات النظرية لهذا النظام ولممارساته الفعلية بعد الحادى عشر من سبتمبر.

[٦]

الإسلام والغرب

دعتـــنى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى إطار موسمها الثقافى لإلقـــاء محاضرة يحضرها الأساتذة وطلبة الدراسات العليا موضوعها "الإســلام والغــرب: إشــكالية الموضوعية والنقد الذاتى" وقد رحبت بــالدعوة لأســباب مــتعددة، لعل أهمها أهمية الموضوع المطروح، وخصوصـــا بعــد أحــداث الحادى عشر من سبتمبر، بالإضافة إلى علاقـــاتى الوثيقة بعدد من أبرز أساتذة الكلية، والتى نشأت أساسا فى رحـــاب المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية منذ عام ١٩٥٧ حيث تزاملنا فى أنشطة بحثية متعددة.

وإذا كان الموضوع المقترح يمثل موضوعا للبحث والنقاش جرى الاهتمام به على أصعدة شتى وفى بلاد متعددة عربية وأجنبية، إلا أن التركيز على بعدى الموضوعية والنقد الذاتى يعد اهتماما جديدا فى هذا المجال.

وإذا حاولـــنا تفكيك هذا العنوان الفرعى لقلنا أن الموضوعية فى هــذا المجـــال تعنى أمرين متلازمين: موضوعية صورة الغرب عن الإسلام والمسلمين، ومن ناحية أخرى موضوعية صورة المسلمين عن الغــرب. بالنسبة للجانب الأول هناك مجالات متعددة للبحث التاريخى الــذى يحاول تعقب لحظات التفاعل الأولى بين الغربيين والمسلمين، ونــوع الإدراكات التى كونوها عن هؤلاء المسلمين، المختلفين عنهم ديانـــة وثقافـــة ولغة وعادات وتقاليد. وبالنسبة للجانب الثانى فإن هذه الدراســات التاريخــية ذاتهـــا لابد أن تدرس وتحلل إدراكات الأجيال الأولـــى مـــن المســلمين عن الغرب والغربيين الذين يختلفون عنهم اختلافات شتى.

ولعل السؤال الذى ينبغى إثارته هنا: ماذا تعنى موضوعية الصورة عن الآخر؟

المشكلة الحقيقية فى إجابة هذا السؤال أنه لابد أولا أن نتعرض لمعنى الموضوعية. وهذا موضوع معقد فى الواقع، لأنه يمثل مشكلة نظرية ومنهجية كبرى شغلت العلم الاجتماعى منذ بداياته فى منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن. لقد كان التوجيه الرئيسى للمدرسة الوضعية فى علم الاجتماع والتى كان علمها البارز فى فرنسا عالم الاجتماع الشهير دور كايم أنه على الباحث - حين يتصدى لبحث ظاهرة أو مشكلة اجتماعية - أن يتحرر من أهوائه ونزعاته ويتعامل مع الظاهرة أو المشكلة باعتبارها واقعة اجتماعية، عليه أن يدرسها بحياد تام. غير أن الممارسة الفعلية للعلم الاجتماعى فى بلاد غربية متعددة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن أهواء الباحث ونزعاته، أو بعبارة أدق إيديولوجيته غالبا ما كانت تؤثر على طريقة وضع المشكلة والمناهج التى استخدمها لدراسته، ووسائل جمع البيانات، ونوعية عيناته، وأخيرا طريقته فى تحليل البيانات وتفسيرها.

وهناك أمثلة صارخة على عدم الموضوعية فى مجال دراسة الطبقات الاجتماعية وخصوصا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك فى مجال علم الاجتماع، وفى مجال دراسة الذكاء فيما يتعلق بتأثير الوراثة أو التنشئة الاجتماعية من ناحية، وفيما يتعلق بارتفاع معدلات ذكاء البيض مقارنة بذكاء السود من ناحية أخرى، وذلك فى مجال علم النفس فى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية.

ولعل الذى يشهد على صعوبة تحلى الباحث العلمى الاجتماعى بالموضوعية الكاملة وخصوصا فى بحث الموضوعات الحساسة والشائكة، أن المسئولين فى الولايات المتحدة الأمريكية حين أرادوا تبنى سياسة اجتماعية رشيدة فيما يتعلق بالعلاقات بين البيض والسود فى المجتمع الأمريكى، والتى كانت عبر التاريخ الأمريكى الحديث علاقات متفجرة أدت إلى حرب أهلية فى لحظة من لحظات تطورها، لم يجدوا بدا سوى الاستعانة بباحث أجنبى لكى يقوم بدراسة شاملة لمشكلة السود الأمريكيين فى المجتمع الأمريكى، وذلك تقديرا منهم أن هذا الباحث الأجنبى لن يكون منخرطا فى دائرة التحيز السائدة فى

المجـــتمع، ولـــن يكـــون بالضرورة من أنصار البيض أو السود. وتم اختـــيار باحـــث اقتصـــادى سويدى شاب لهذه المهمة البحثية البالغة الأهمـــية، وهـــو جونار ميردال الذى أصبح من بعد من أشهر علماء الاجتماع فى العالم، بعد أن نشر تقريره البحثى عن المشكلة التى كلف ببحـــثها وصـــدرت فى كتاب بعنوان: "معضلة أمريكية" وقد طبع منه أكـــثر مـــن خمس وعشرين طبعة، لأنه فى الواقع يعد من كلاسيكيات البحـــث العلمى الاجتماعى فى القرن العشرين. ونشر ميردال بعد ذلك كتبا متعددة من أبرزها ثلاثيته الشهيرة: "دراما آسيوية" والتى تعد معينا لا ينضب فى مجال سوسيولوجيا التنمية فى العالم الثالث.

كيف حل جونار ميردال مشكلة الذاتية والموضوعية؟

اســـتطاع ومنذ وقت مبكر حقا أن يصل بحدسه العميق إلى الحل الـــذى قـــد يبدو غريبا للوهلة الأولى، إلا انه يتطابق فعلا مع الوضع الـــنظرى والمنهجى للعلم الاجتماعى الذى لا يتعامل مع مواد مصمتة شأن العلم الطبيعى، ولكنه على العكس من ذلك يتعامل مع البشر ومع المجتمعات والثقافات بكل ما تحفل به من تنوعات، وشرائح وطبقات، مـــن شـــأنها أن تخلق عديداً من التوجهات الإيديولوجية فى المجتمع وخصوصا فيما يتعلق بالحرية السياسية من جانب والعدالة الاجتماعية من جانب آخر – ولا نبالغ لو قلنا أن موضوعى الحرية والعدالة كانا همـــا المحـــركان لـــتاريخ البشـــرية منذ البدايات الأولى للمجتمعات الإنســـانية. ومـــن هنا كان من المنطقى أن يختلف الناس والمجتمعات اخـــتلافات جســـيمة فيما يتعلق بكيف يمكن ممارسة الحرية، وما هو السبيل لتحقيق العدالة.

لقد شهدنا فى مصر – على سبيل المثال – أن التحدى الأكبر الذى واجـــه الـــنظام الليـــبرالى والذى يمكن القول أنه بدأ مسيرة فعلية منذ صـــدور دستور عام ١٩٢٣ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ كان هو مشكلة الحـــرية والعدالـــة. الحـــرية بالمعنى الواسع للكلمة كان معناها أساسا التخلص من الاحتلال الإنجليزى، بالإضافة إلى تحقيق الحرية السياسية الكاملة لمختلف فئات الشعب بغير قيود ولا حدود، أما العدالة فقد كانت تعـــنى فى المقام الأول العدالة الاجتماعية فى مجتمع زادت فيه الفجوة

الطبقية بين من يملكون ومن لا يملكون إلى درجة هددت السلام الاجتماعى.

وكان من الطبيعى أن تختلف الأحزاب السياسية والمثقفين المصريين اختلافات شتى حول الحرية والعدالة وكيف يمكن الوصول إليهما. فى هذا الإطار يصبح الحديث عن موضوعية التناول السياسى أو العلمى لكل من أوضاع الحرية والعدالة فى المجتمع يحتاج إلى تحديد. فماذا تعنى الموضوعية فى موضوع العدالة الاجتماعية فى هذا السياق التاريخى المحدد على سبيل المثال؟

كانت هناك دعوات للقيام بإصلاح زراعى محدد لترميم النظام الاجتماعى القديم حتى لا ينفجر تحت وطأة الصراع الطبقى الذى احتدم فى مصر وخصوصا فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٢ ، وهناك على الطرف الآخر كانت هناك دعوات أكثر راديكالية تدعو للانقلاب الكامل على النظام القديم، والقيام بإصلاح زراعى شامل، وتأميم المصانع فى ضوء نظرية اشتراكية تعادى تطرف الملكية الفردية وتدعو إلى الملكية الاجتماعية.

فى ضوء هذه الأوضاع العملية التى يمكن أن تسود فى أى مجتمع وخصوصا فى لحظات التحول التاريخى، صاغ جونار ميردال نظريته البسيطة والنافذة معا "الموضوعية هى أن تعلن ذاتيتك منذ البداية!" وفى ضوء ذلك على الباحث العلمى الاجتماعى الذى يتبنى الماركسية كإطار معرفى له، أن يعلن ذلك منذ بداية بحثه، حتى يكون القارئ على بصيرة من انه سيطالع دراسة أو بحثا يتبنى المنظور الماركسى. وكذلك لو كان الباحث يتبنى الليبرالية كإطار مرجعى عليه أن يعلن ذلك منذ البداية.

غير أن الباحث حتى ولو لم يعلن عن "ذاتيته" بمعنى توجهه النظرى الأساسى منذ البداية، فإن القارئ المدرب صاحب النظرة الفاحصة يستطيع أن يكتشف المرجعيات الفكرية لصاحب الخطاب، وذلك فى ضوء تحليل المفاهيم والمصطلحات التى يستخدمها، بالإضافة إلى طريقة تفسير للبيانات التى يجمعها. فليس هناك باحث ماركسى - على سبيل المثال - لا يستخدم مصطلحات الصراع الطبقى، أو يتحاشى الحديث عن طبقة المستغلين وطبقة البروليتاريا

التى يقع عليها الاستغلال. وفى نفس الوقت يتحاشى الباحث الليبرالى غير الماركسى استخدام مفاهيم الطبقة والصراع، ويتحدث بدلا من ذلك عن الشرائح الاجتماعية وتقريب الفوارق بين الطبقات.

لكل باحث علمى اجتماعى لغته، وهذه اللغة يمكن كشف شفراتها من خلال التحليل النقدى للمفهوم والمصطلح والمنهج ونظرية التفسير.

فى ضوء هذه المقدمات جميعا التى نخشى أن تكون قد طالت أكثر مما ينبغى، يمكن القول أن على كل طرف من الأطراف، المسلمون من ناحية (بالرغم من تعدد انتماءاتهم) والغربيون من ناحية أخرى (الذين أيضا يتوزعون على جبهة عريضة من التنوع والاختلاف) أن يكشف عن "ذاتيته" منذ البداية، إذا أرادا الحوار عن العلاقات بين الإسلام والغرب. وهذه "الذاتية" تعنى ببساطة الكشف عن الأفكار الأساسية التى كونها كل طرف عن الآخر. لقد ساد فى الخطاب الاستشراقى الغربى على سبيل المثال ومنذ نشأة الاستشراق اتجاهات معادية للإسلام باعتباره دينا قام وانتشر بحد السيف. فهل مازال الغربيون يعتقدون فى صحة هذه المقولات القديمة أولا؟ وهل مازالوا يعتبرون الإسلام دينا يحض بطبيعة تعاليمه على العنف، أم أن نظرتهم له اختلفت الآن؟ وهل يعتقدون أن المسلمين المعاصرين ميالين للعنف والإرهاب؟

ومن ناحية أخرى هل مازال المسلمون المعاصرون يعتقدون أن الحضارة الغربية حضارة مادية تفتقر إلى الروحانيات، أو أنها كما يقول الخطاب الإسلامى المتطرف حضارة كافرة وملحدة؟ وهل مازالوا يعتبرون المجتمعات الغربية منحلة ويشيع فيها الفساد الأخلاقى؟

إن الكشف عن التوجهات الرئيسية لكل طرف من أطراف الحوار هو الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى موضوعية معقولة لصورة كل طرف عن الطرف الآخر، غير أن ذلك يستدعى بالإضافة إلى ذلك ضرورة ممارسة كل طرف للنقد الذاتى، الذى يبرز الشجاعة الأدبية المطلوبة فى مجال الاعتراف بالأخطاء الثقافية فى التعامل مع الآخر.

وفى هذا المجال لا يكفى الاعتراف بالأخطاء، كما قرر مرة جان بول سارتر فى كتابه "نقد العقد الجدلى"، وإنما ينبغى تكييفها وإعطاؤها الوصف الصحيح.

[٧]

اكتشاف الآخر

مـــنذ عصر الفتوحات الإسلامية الذى دفع بجيوش المسلمين إلى قلب أوروبا بدأت عملية اكتشاف الآخر تأخذ أبعادا متعددة، وتنتقل من المشاهدات السطحية والانطباعات السريعة إلى محاولة النفاذ إلى عمق ثقافـــة الآخـــر للكشـــف عن نسق القيم الذى يعتنقه، وانعكاساته على السلوك الإنسانى فى حالة الحرب وحالة السلم على السواء.

وتزخـــر المكتبة العلمية الغربية بمراجع موثقة عن ادراكات كل طـــرف للآخـــر، ونعـــنى إدراك المســـلمين للغرب وإدراك الغربيين للمسلمين.

وفـــى هـــذا المجال يبرز على وجه الخصوص كتاب المستشرق الـــيهودى الشـــهير برنارد لويس "الاكتشاف العربى لأوروبا" ويتميز باعتماده أساسا على ما ورد فى كتابات المؤرخين العرب الذين سجلوا بشكل دقيق إدراكاتهم للغربيين وقيمهم وسلوكهم. وفى الجانب المقابل تتمـــيز كتابات كلود كاهن المؤرخ الفرنسى والأستاذ بالسوربون، وله كـــتابات عميقة حقا عن إدراك الغربيين للمسلمين والذى تشكل نتيجة التفاعل الحضارى العميق.

غير أنه يمكن القول أن عملية اكتشاف الآخر تجددت فى العصر الحديـــث بمناسبة الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت، الـــذى لـــم يجـــئ باعتباره غازيا فقط، ولكن – بالإضافة إلى ذلك – باعتـــباره مستكشـــفا، فقد حضر إلى مصر ومعه مجموعة منتقاة من العلمـــاء فى كل فروع العلم، بالإضافة إلى إحضاره مطبعة لكى يطبع منشـــورات الحملة، بالإضافة إلى خطبه السياسية الموجهة للمصريين.

ويبدو أن نابليون خطط منذ البداية للقيام بأوسع وأعمق دراسة في عصره عن مصر، مما يدل على اهتمامه الشديد بوضعها الاستراتيجي الفريد وموقعها في خططه الاستعمارية للسيطرة على الشرق. وهكذا خرجت إلى العالم هذه الموسوعة الفريدة ونعني كتاب "وصف مصر" بأجزائه المتعددة، والتي تضمنت وصفا دقيقا للثقافة المصرية والمجتمع المصري آنذاك.

والحملة الفرنسية بما قامت به من جهود علمية "لاكتشاف الآخر" ونعني المسلمين والمصريين، أثارت في الواقع جدلا محتدما يتعلق بموضوع آخر وإن كان بالغ الأهمية، ويتعلق ببداية التحديث في المجتمع المصري. ذلك أن الحملة بالرغم من أنها لم تعمر سوى ثلاث سنوات، إلا أنها اعتبرت لدى عديد من المستشرقين بل ومؤرخي الفكر المصريين أنها هي التي حركت بحيرة المجتمع المصري المملوكي الراكدة، وأطلقت شرارة التحديث، بحكم خطابها العصري الذي يتحدث عن الجمهورية والدستور والقانون والمواطن. بالإضافة إلى انبهار النخبة المصرية ومن بينهم مشايخ الأزهر بالتقدم العلمي والتكنولوجي الفرنسي من خلال زياراتهم لمعامل الحملة الفرنسية، والتي حرص الفرنسيون أنفسهم على أن تتم بشكل دوري، لإبهار المصريين واثبات تقدمهم الحضاري.

كان التيار الغالب لدى المستشرقين ومؤرخي الفكر المصريين هو أن الحملة الفرنسية هي التي شكلت بداية التحديث في مصر والذي بدأ بالتدريج عقب رحيل الفرنسيين. غير أنه برز في العقود الأخيرة تيار آخر مضاد يتزعمه المؤرخ الماركسي الأمريكي بيتر جران، والذي دافع عن فكرة مضادة مفادها أن الحملة الفرنسية كانت إجهاضا في الواقع لموجة تحديثية وطنية مصرية وأصيلة نبعت من داخل المجتمع المصري. ويدلل على ذلك بدراسته للنصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث خلص من دراسة عدد كبير من المخطوطات، بالإضافة إلى الدراسة المتأنية للوقائع، إلى أنه حدث في مصر في هذا الوقت صعود لطبقة رأسمالية تجارية متنورة، ورافق هذا الظهور عملية إحياء فكري وعلمي وثقافي، كان من رموزها البارزة الزبيدي صاحب "تاج العروس" والشيخ حسن العطار والذي درس حياته دراسة

مستفيضـــة. ومما له دلالة أن الشيخ العطار الذى أصبح من بعد شيخا للأزهـــر هـــو أستاذ رفاعة رافع الطهطاوى، وهو الذى طلب منه أن يسجل ملاحظاته عن فرنسا والمجتمع الفرنسى حين أوفده محمد على لـــيكون إماما لبعثة الدارسين المصريين الذى ذهبوا لتلقى العلم، وهكذا ظفرنا بكتابه الثمين "تخليص الإبريز فى وصف باريز".

وهكذا فى مقابل كتاب وصف مصر الذى حاول فيه علماء الحملة بتكليف من نابليون "اكتشاف الآخر" جاء كتاب الطهطاوى محاولة وإن كانت فردية ولا يمكن أن تقارن بجهود كتيبة العلماء الفرنسيين من كل التخصصـــات لاكتشاف الآخر الفرنسى. ولا شك أن كتاب الطهطاوى كان له – بما زخر به من مشاهدات وملاحظات وتحليلات بالغة الذكاء – دورا أساســيا فـــى تعريف النخبة المصرية بالمجتمع الفرنسى، من زاويـــة الـــنموذج المعرفى الذى ينهض على أساسه، والذى استند فى الواقـــع إلـــى مشروع الحداثة الغربى، والذى كان شعاره الأساسى أن "العقـــل هـــو معيار الحكم على الأشياء". ذلك لأن فرنسا – مثلها مثل عديـــد مـــن الأقطار الأوروبية فى هذا الزمان – كانت قد قطعت مع الكنيســـة بكـــل تـــراثها فى الاستبداد والتحكم باسم النص الدينى على مصـــائر البشـــر، ورفعـــت شـــعار العلمانية بمعنى الفصل بين الدين والدولة. واهتم الطهطاوى بالإضافة إلى ذلك بوصف النظام الدستورى الفرنسى وتوقف طويلا أمام فكرة "الدستور" باعتبارها عقدا بين الحاكم والمحكوم، وركز على مبدأ سيادة القانون، والمواطنة من حيث الحقوق والواجبات الملقاة على عاتق المواطنين.

والتحليل النقدى الدقيق لكتاب الطهطاوى من شأنه أن يكشف عن استراتيجية الكتابة عنده، والتى تتمثل فى محاولة إلباس بعض الأفكار الفرنســية عمامـــة إسلامية تتمثل فى التدليل على صدق بعضها عن طـــريق المشـــابهة مع بعض المبادئ الإسلامية، ويسوق لذلك بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

كـــان الطهطاوى فى الواقع مضطرا إلى "تهريب" بعض المعانى لأنه كان مدركا أنه يكتب لمجتمع تقليدى ليس من السهل عليه أن يتقبل بعض الأفكار الفرنسية.

كانـت رحلـة الطهطـاوى فى الواقع علامة على تجديد عملية اكتشاف الآخر فى العصر الحديث من قبل المسلمين والعرب، والذين جعلـوا الغـرب قـبلة لهم، باعتبار أنه كان يمثل فى الوقع النموذج الحضارى المتكامل للتقدم.

ومما يلفت النظر أن هناك رحلة أخرى قام بها شيخ أزهرى آخر إلـى روسـيا فى ظروف معينة، بناء على طلب الدولة الروسية التى رغبت فى الاستعانة بجهود عالم أزهرى مصرى لتدريس اللغة العربية ومبادئ الإسلام فى المعاهد العلمية الروسية. وهكذا وقع الاختيار على الشيخ محمد عياد الطنطاوى والذى ولد فى إحدى القرى التابعة لطنطا، والـذى درس فـى القاهرة، واختلط بالأجانب وأصبح مشهورا بينهم. وحيـن تقـرر ذهابه إلى روسيا قابله محمد على وطلب منه أن يتعلم اللغة الروسية حتى يتعرف المصريين على جوانب التقدم عند الروس، وأعطاه خطابا ممهورا بإمضائه يتضمن موافقته على سفره.

ومن المهم أن نعرف أن الشيخ الطنطاوى كان صديقا للطهطاوى وبيـنهما رسـائل متبادلة. وقد كتب الشيخ الطنطاوى عن رحلته إلى روسـيا كتابا عنوانه "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، "رحلة الشيخ الطـنطاوى إلـى البلاد الروسية ١٨٤٠ ١٨٥٠". وقد نشر الكتاب وقـدم له أسـتاذ أردنى من جامعة اليرموك هو الدكتور محمد عيسى صالحية، وذلك فى عمان عام ١٩٩٢، ونشرته مؤسسة الرسالة.

غير أن كتاب الطنطاوى لا يرقى فى الواقع إلى كتاب الطهطاوى، بالإضافة إلى أنه ظل مجهولا لفترة طويلة، وهكذا لم يقدر له أن يلعب دورا فـى مجـال اكتشاف الآخر "الروسى" هذه المرة، ولم يؤثر فى إدراك النخبة المصرية.

لقـد حرصنا على الإشارة إلى جهود الطنطاوى لتأكيد أن عملية اكتشـاف الآخر كانت نشطة فى بداية النهضة العربية الحديثة، ويشهد علـى ذلـك أن أجيالا متتابعة من "الرحالة العرب" ذهبوا إلى الغرب وأقـاموا فى بلاده وعادوا وكتبوا عن مشاهداتهم وتحليلاتهم للمجتمع الغربى.

ولعل أفضل مرجع فى هذا الصدد هو كتاب الأستاذة اللبنانية نازك سـابا يـارد "الـرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية

الحديـــثة"، المنشور فى بيروت، مؤسسة نوفل، عام ١٩٧٩. والكتاب كان رسالتها للدكتوراه.

وقـــد طبقت الباحثة منهجا مبتكرا، لأنها اختارت أن تقسم عملية الاكتشـــاف العربى للآخر إلى حقب تاريخية متتابعة، وقررت دراسة خطـــاب هؤلاء الرحالة العرب الذين ينتمون إلى أجيال مختلفة وأديان مختلفة، فبينهم المسلم وفيهم المسيحى، وكان ذلك إدراكا ثاقبا منها أن نظرة الرحالة المسلم قد تختلف عن نظرة الرحالة المسيحى فى تركيزه على بعض قيم أو جوانب المجتمع الغربى.

وهكذا يمكن القول أن الغربيين من ناحية والمسلمين والعرب من ناحية أخرى حاول كل طرف منهما أن يكتشف الآخر بطرق متعددة، وبعـــض المحاولات كانت علمية خالصة كما كان الحال بالنسبة لكتاب وصـــف مصـــر، وهـــناك محـــاولات أخرى اعتمدت على الوصف والمشـــاهدة وتســـجيل الانطباعات، وفى أحسن حالاتها كانت تتضمن تحليلات رصينة مبنية على ثقافة جيدة. وقد يكون من المهم أن نعرف بشئ من التركيز المجالات المتعددة التى لفتت أنظار الرحالين العرب مـــن مخـــتلف الأجيال فى المجتمع الغربى المتقدم، والذى كان يمثل نمـــوذج الـــتقدم الحضارى، الذى طمح هؤلاء الرواد فى أن يصوغوا على غراره نموذجا حضاريا إسلاميا أو عربيا.

ولا شـــك أن الدراســـة النقدية لكتابات هؤلاء الرواد من شأنها أن تكشـــف عن مدى موضوعيتها فى الاقتراب من ثقافة الآخر. وفى هذا المجـــال نســـتطيع أن نرصد تأثير الخلفية الشخصية لكل رحالة على أحكامه عن الغرب.

ومـــن هنا تنبغى التفرقة بين الوقائع التى يسجلها الكاتب وأحكامه التقييمـــية. ومـــن ناحية أخرى من المهم رصد الصور النمطية الثابتة الـــتى يكونها الرحالة عن الغربيين ومقارنتها بمحكات واقعية للكشف عن جوانب التحيز وأبعاد الموضوعية.

ونفـــس هذه الملاحظات تنطبق على كتابات الرحالة الغربيين عن الـــبلاد العربـــية والإســـلامية والتى هى أيضا خليط من الموضوعية والتحيز.

[٨]

رؤى شرقية ومفاهيم غربية

تثبت الشواهد التاريخية والأعمال الفكرية والأدبية أن رحلة أجيال متعددة من المفكرين والساسة العرب إلى مختلف البلاد الغربية كانت هى أداتهم الرئيسية لاكتشاف الآخر. وتبدو أهمية الرحلة فى أنها تختلف اختلافا أساسيا عن مجرد "القراءة" عن أحوال الآخرين. فالرحلة بحسب التعريف تتضمن المشاهدة المباشرة بالإضافة إلى القراءة فى مصادر الفكر الأوربى بلغاته الأصلية، وليس عن طريق الترجمة التى قد تكون أحيانا تشويها للنص، أو انتقائية لا تقدم النصوص كما كانت فى الأصل.

وقد ذكرنا فى مقالنا الماضى "اكتشاف الآخر" أن الباحثة اللبنانية الدكتورة نازك سابا يارد وكتابها الهام "الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة" (بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٧٩) هى المرجع الفريد الذى رصد وحلل الصراع بين رؤى الرحالة العرب، والنظريات والممارسات الغربية التى كانت سائدة فى الحقب التاريخية التى قاموا فيها برحلتهم إلى الغرب.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الباحثة قسمت الرحالين العرب حسب الحقب التاريخية التى قاموا فيها برحلاتهم إلى الغرب. الحقبة الأولى من عام ١٨٢٦ حتى عام ١٨٨٠، والحقبة الثانية من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩١٨، والحقبة الثالثة والأخيرة ما بين الحربين العالميتين. وحرصت فى اختيارها للرحالين فى كل حقبة على أن يضموا بين صفوفهم رحالين مسلمين ورحالين مسيحيين، على أساس أن نظرة الرحالة المسلم قد تختلف - نتيجة لأسباب شتى - عن نظرة الرحالة المسيحى.

وقد اختارت نازك سابا يارد أربعة رحالين فى الحقبة الأولى وهم: رفاعــة رافــع الطهطاوى المصرى (١٨٠١ - ١٨٧٣)، وخير الدين التونسى (١٨١٠ - ١٨٩٠) وأحمد فارس الشدياق اللبنانى (١٨٠٤ - ١٨٨٧) وفرنسيس مراش الحلبى (١٨٣٦ - ١٨٧٣).

ويضيق المقام بطبيعة الحال عن التعريف المفصل لكل شخصية. ولذلك نقنع ببعض الإشارات الضرورية. رفاعة الطهطاوى غنى عن التعريف فهو رائد الفكر العربى الحديث، الذى أوفده محمد على إماما لبعــثة الدارســين فــى فرنسا، وكتب ملاحظاته عن الغرب فى كتابه الشــهير "تخلــيص الإبريــز فى وصف باريز" (للكتاب تحقيق ممتاز ودراسة هامة للدكتور محمود فهمى حجازى).

أمـــا خير الدين التونسى فهو من رجال الدولة التونسية البارزين، وطــوف فى آفاق الغرب وزار بلاداً غربية متعددة بتكليف من أحمد باى تونس (١٨٣٧ - ١٨٥٥) وسجل ملاحظاته عن الغرب فى كتابه الشهير "أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك".

أمـــا أحمــد فــارس الشــدياق فهو أديب فى المقام الأول سجل ملاحظاته عن الغرب فى كتابه "المخبأ فى فنون أوروبا" كما أنه سجل فصــولا عــدة من سيرته الذاتية فى كتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق".

أمـــا فرنســيس بن فتح الله مراش فهو كاثوليكى حلبى، سافر عام ١٨٦٦ لــيدرس الطب وأقام فيها حوالى سنتين، ثم عاد إلى حلب وفى هــذه المرحلة كتب "رحلة إلى باريس" التى سجل فيها ملاحظاته عن الغرب.

العيون الشرقية والحضارة الغربية

التفتت نازك سابا يارد بذكاء إلى أن جميع هؤلاء الرحالين العرب نظــروا إلــى الحضارة الغربية بعيون شرقية، مستندين فى ذلك إلى موروثهم التاريخى الحضارى والفكرى والدينى، مما أدى إلى صراع فكــرى وحضـــارى بين أفكارهم والأفكار الغربية فى بعض الأحيان. وهذا الصراع مرده أحيانا إلى عدم قدرتهم على تقديم النموذج المعرفى الغربى كما هو، والذى كان يقوم أساسا على أن العقل هو محك الحكم

علـــى الأشـــياء وليس النص الدينى، لأنهم كانوا يوجهون خطابهم إلى مجتمعات عربية تقليدية مازالت سطوة الدين فيها بالغة القوة. وقد عمد بعضـــهم – كما فعل الطهطاوى – إلى "أسلمة" بعض الأفكار الغربية، إن صح التعبير، من خلال التقريب بينها وبين بعض المبادئ الإسلامية حتى ييسر قبول مواطنيه لهذه الأفكار. وأحيانا قام الصراع لأن التراث الديـــنى الإســـلامى والمسيحى كان يقف أحيانا حائلا بينهم وبين قبول بعض الأفكار الغربية.

وأيـــا ما كان الأمر فإن نازك سابا يارد تفرد فقرتين لتحليل رؤية الرحاليـــن الأربعـــة للغرب، الفقرة الأولى عن بوادر اتصالهم بمبادئ الثورة الفرنسية، والثانية عن صراعهم مع أفكار الحرية والمساواة.

وفى تقديرنا أن تأثير مبادئ الثورة الفرنسية على المفكرين العرب عمومـــا من قام بالرحلة منهم إلى الغرب ومن لم يقم كان قويا غلابا. فقـــد فتحت لهم هذه المبادئ آفاقا واسعة للتفكير فى مبادئ جديدة من شـــأن الأخذ بها نقل مجتمعاتهم الراسفة فى أغلال الاستبداد إلى آفاق الحـــرية والتقدم. وسنعتمد فى عرضنا لهذين الموضوعين أساسا على كتاب الباحثة اللبنانية المرموقة.

تقـــرر نازك سابا يارد أن الفكر الإسلامى الكلاسيكى سبق له أن بحث فى الحرية بمعناها الفردى والاجتماعى والميتافيزيقى والصوفى. وتشـــير إلـــى أن بعض الفلاسفة أمثال الفارابى والغزالى بحثا معنى الحرية، ولكن هذه الحرية كانت مختلفة عن الحرية السياسية والمدنية بالمفهوم الغربى الحديث. وتقرر أن الفكر الإسلامى لم يتعرف إلى هذه الحـــرية علـــى الأرجح إلا بعد الثورة الفرنسية. وتستدل على ذلك أنه يتضح من مؤلفات الجبرتى وعبد الله الشرقاوى والأمير حيدر الشهابى ونقـــولا الـــترك، أنهـــم جميعا عرفوا مبادئ الثورة الفرنسية وطابعها العلمانى العقلانى.

أما الجيل اللاحق، جيل الطهطاوى وخير الدين والشدياق ومراش فقـــد شاهدوا عن كثب ما حققته هذه الثورة، بل وقرأوا بعض مؤلفات فلاسفتها الفرنسيين.

وقـــد وضـــحت المؤثرات الغربية فى موقف الرحالين من الحرية والمســـاواة فـــى مؤلفـــاتهم عـــن رحلاتهـــم إلى الغرب. فقد وصف

الطهطـــاوى مثلا ثورة الشعب الفرنسى على الملك شارل العاشر سنة ١٨٣٠ لأنـــه خالف الدستور، وترجم مواد هذا الدستور مبينا ما تنص عليه من تساوى المواطنين جميعاً إزاء القانون وفى الحقوق والوظائف والرتب. وأوضح أنها تكفل حرية الفرد وحرية الملكية الفردية وحرية العــبادة، والقـــول والكـــتابة، والطبع والنشر "بشرط ألا يضر ما فى القانون".

ومـــن ناحية أخرى أبرز خير الدين التونسى أن الثورة الفرنسية نقلـــت الإنســـان إلـــى مجتمع جديد زالت فيه العبودية وحقق الحرية والمساواة إزاء القانون.

وقـــد حاول الطهطاوى وخير الدين أن يثبتا أن الحرية والمساواة ليســـتا غريبتيـــن عـــن الغـــرب والإسلام. وحاول رفاعة على وجه الخصـــوص أن يقرب فكرة الحرية السياسية والاجتماعية الغربية فى فكرة "العدل" التى نصت عليها الشريعة.

غير أنهما من ناحية أخرى، أغفلا كل ما يناقض الحرية والمساواة فـــى الإسلام، ولذلك لم يتعرضا على الإطلاق لقضية الرق، ولم ينتقدا بيع الرقيق الذى كان شائعا فى عصرهما.

غـــير أن الشـــدياق ومراش هاجما الرق هجوما عنيفا. وهنا يبدو الاختلاف بين رؤية الرحالة المسلمين والرحالة المسيحيين. وفى نفس الوقـــت رفض كلا من الطهطاوى وخير الدين مفهوم الحرية الغربى الـــذى لا تحده حدود، وبذلك لم يقبلا الأسس الفلسفية التى تستند إليها حـــرية الثورة الفرنسية. فالإسلام - كما تقرر نازك - يؤكد أن حرية الإنسان محدودة، ولا سلطة حقيقية إلا عليه وحده. ولذلك رفضا سيادة الإنسان وإحلال سلطة العقل البشرى محل السلطة الإلهية.

ومـــن هنا تخلص الباحثة إلى حكم هام حين تقرر أن الطهطاوى وخـــير الديـــن المســـلمان بالرغم من أنهما "عرفا الحقائق التاريخية والاجتماعـــية والسياســـية التى سببت الثورة الفرنسية، لم يبينا أساسها الفلســـفى ولا إلام ترمز أو دلالتها بالنسبة لمجرى التاريخ العالمى، إذ ينافى هذا مبادئ الإسلام الدينية والاجتماعية والسياسية، فضلا عن أن ثقافتهما لم تؤهلهما لتحليل التاريخ تحليلا فلسفيا".

أما مراش المسيحى فلم يختلف موقفه من الحرية عن موقف أدباء الثورة الفرنسية. إلا أنه أيضا أراد أن يوفق بين دينه والحرية التى آمن بهـــا، فقرر فى كتابه "غابة الحق" أن مملكة الحرية لم تقم إلا منذ قيام مملكـــة الـــروح القديمـــة، والدين يحتل مكانة أساسية فى هذه المملكة الروحية".

أمـــا الشـــدياق فقد إتخذ صراعه الفكرى من فكرة الحرية الغربية صـــورة تخـــتلف عـــن الرحالة الثلاثة، إذ قرر أن "الحرية إنما تكون حميدة مفيدة إذا ما روعى فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بـــالعكس". وأفاض فى شرح أن مساوئ الحرية قد تكون أكثر من حسناتها.

من العرض السابق الذى اعتمدنا فيه أساسا على كتاب نازك سابا يـــارد يتبيـــن أن رحالـــة الحقبة الأولى سواء كانوا من المسلمين أو المســـيحيين، قـــد تأثـــروا جمـــيعا بمبادئ الثورة الفرنسية من خلال مشاهداتهم الواقعية وقراءاتهم المباشرة فى مصادرها الفكرية فى لغاتها الأصلية.

ومـــن الطبيعى أن يختلف تأثر كل رحالة منهم عن الآخر، وضعا فـــى الاعتـــبار خلفيـــته الثقافية، ودرجة انفتاحه الفكرى على الآخر، وقدرته على استيعاب الأفكار الغربية، والتى نشأت فى سياق اجتماعى وتـــاريخى مغاير للسياق الذى جاء منه. ومن هنا - كما أشرنا - إن كانوا جميعا تأثروا بهذه المبادئ الثورية فى عصرها والتى أثرت فى مجمـــل بلاد العالم الغربى، إلا أنه كان لكل منهم تحفظاته على بعض المبادئ، أو على اتساع نطاقها بصورة رأوها غير مقبولة فى ثقافتهم، أو فـــى المعارضة الصريحة لبعضها مع مبادئ دينية مستقرة، وسواء كانت هذه المبادئ إسلامية أو مسيحية.

أردنـــا مـــن هذا العرض الوجيز أن نتبين أن اكتشاف الآخر ليس عملـــية سهلة ميسورة، بل إنها تنطوى على إشكاليات معرفية كبرى، وعلى مشكلات واقعية جسيمة.

ينطـبق ذلـك على بداية عصر النهضة العربية، كما ينطبق على اكتشـاف الآخـر الآن. وكـأن مـرور الـتاريخ لم يقض بعد على العواطـف المـتأججة، ولا على جوانب التحيز فى رؤية الآخر. هذا التحـيز الـذى يشـترك فيه – للأسف الشديد – الغرب والشرق على السواء.

[٩]

تشكيل الوعى القومى وبلورة الحس الوطنى

هــل يمكن أن تتطور الحضارات فى انعزال عن بعضها البعض، أم أن التفاعلات الثقافية العميقة بينها شرط أساسى للتطور؟

تقول سجلات التاريخ إجابة على هذا السؤال المحورى أنه ليست هــناك حضارة تطورت أساليبها، وأعادت تشكيل رؤاها عن العالم بما يتناسب مع إيقاع العصر، وما يتطابق مع منطق الحقبة التاريخية، إلا مــن خــلال تواصلها الإيجابى مع حضارات الآخرين. ولعل المثال الأبرز فى العصر الحديث هو تجربة اليابان، التى لم يتح لها أن تسعى فــى مضــمار الــتقدم إلا مــن خلال تفاعلها مع الحضارة الغربية، واقتباســها أساليبها، واستخدامها أدواتها، وإن كان فى سياق حرصت فيه النخبة اليابانية على أن توفق توفيقا خلاقا بين الأصالة والمعاصرة.

وإذا ذكــرنا الــيابان فلابد أن نذكر مصر بالضرورة، ذلك لأنها سبقت اليابان فى مجال التحديث بأكثر من عقدين من السنين، غير أن الــيابان أكملت الشوط، وأصبحت رائدة حقا فى عديد من ميادين العلم وحقول التكنولوجيا، غير أن مصر تعثرت نتيجة أسباب شتى ليس هنا مقام الإفاضة فيها.

غــير أن حالــة مصر تستحق التوقف عندها فى هذا المقام قليلا، نظــرا للجــدل الذى أثير حول بدايات التحديث فيها، وهل كان للحملة الفرنسية بقيادة نابليون دور حاسم فيه، أم أن الحملة – كما قال بعض المؤرخيــن – أجهضــت نهضة وطنية اقتصادية وثقافية قادتها طبقة رأســمالية تجارية مصرية متنورة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر؟

وفــى تقديرنا أن هذا الحكم السلبى على التأثيرات الثقافية للحملة الفرنسية قد يتناقض مع القانون الحضارى العام الذى صغناه فى صدر المقال، وأكدنا فيه أن الحضارات لا تتقدم بغير التفاعل الثقافى العميق مــع حضــارات أخــرى. وفى ضوء ذلك نذهب إلى أن تأثير الحملة الفرنســية وإن بــدا خافــتا فى البداية لم يلبث أن تعمق بعد الاحتكاك المباشــر للنخــبة الفكــرية المصــرية مع ثقافة الغرب. ولعل رفاعة الطهطــاوى يعــد الــنموذج البارز للتفاعل الحى الخلاق بين الثقافة الإســلامية والــثقافة الغربية. ليس الطهطاوى فقط، ولكن معه أيضا كوكبه من المفكرين والأدباء، ذكرنا منهم من قبل خير الدين التونسى، وفرنسيس مراش، وأحمد فارس الشدياق.

الأمة والوطن والقومية

وفــى مجــال الصراع فى الفكر السياسى بين المفاهيم التى كان يعتــنقها الــرحالة الأربعــة وما شاهدوه فى الغرب من مفاهيم أخرى وممارســات ثرية ومتنوعة، فقد لفت نظر هؤلاء الرحالة الرواد ثلاث قضــايا رئيســية فى مجال الفكر السياسى وهى قضية الأمة والوطن والقومــية. غير أنهم اهتموا أيضا بقضية الدولة ونظام الحكم وأخيرا قضية القانون والشريعة.

وقــبل أن نخــوض فــى التحولات الفكرية التى أصابت الرحالة الأربعــة بعــد احــتكاكهم بالمفاهــيم الغربية ومشاهداتهم للممارسات الواقعــية، ينبغى أن نلفت النظر إلى أن الحديث والنقاش والجدل حول مفاهيم الأمة والوطن والقومية لم يتوقف منذ عهد الطهطاوى وزملائه حتى الآن! فمازلنا فى الوطن العربى نختلف اختلافات شتى حول هذه المفاهــيم وفقــا للإيديولوجــيات التى يتبناها كل واحد منا. فالعروبى يتشــبث بمفهوم الأمة العربية الواحدة، غير أن الإسلامى لا يقبل هذا الانــتماء الضــيق، ويركز على أننا أمة إسلامية واحدة، وقد يتطرف بعــض الإســلاميين ويدعون إلى استعادة نظام الخلافة الإسلامية من جديد، وتنصيب خليفة إسلامى واحد يحكم المسلمين جميعا المتوزعين على قارات العالم. ويرفض الإسلاميون أيضا فكرة الوطن ويعتبرونها

أضيق من أن تسع مفهوم الأمة الإسلامية. ويجاريهم فى ذلك العروبيون الذين يضيقون ذرعا بما يطلقون عليه "الدولة القطرية"، ويعتبرونها هى أس المصائب والعقبة أمام تحقق الوحدة العربية!

ومعنى ذلك أن مرور أكثر من قرن من الزمان لم يحسم خلافاتنا حول الأمة والوطن والقومية، ولذلك لا ينبغى أن نندهش كثيرا لتخلف المسيرة العربية فى مجال التقدم، مادمنا مازلنا نختلف حول الأساسيات التى ينبغى أن تشكل الوعى السياسى العربى الإيجابى الفعال الذى لا بديل له إن أردنا أن نخوض معركة التقدم، وهى فعلا معركة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى. إذ أنها تفترض حشد القوى الحية فى الأمة وفق رؤية استراتيجية واضحة، والنزول إلى ميدان الممارسة فى ضوء "تكتيكات" فعالة، قادرة على تحقيق الأهداف القومية التى تم الاتفاق عليها سلفا.

وإذا رجعنا إلى كتاب "الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة" للباحثة اللبنانية نازك سابا يارد الذى نعتبره فى هذا المجال المتن الذى نهمش عليه، لوجدناها تعرض عرضا مشوقا ودقيقا لعمليات الصراع الفكرى التى دارت فى أذهان الطهطاوى وخير الدين التونسى وفرنسيس مراش وأحمد فارس الشدياق، فيما يتعلق بالمفاهيم الغربية الجديدة التى احتكوا بها، وهى مفاهيم الأمة والوطن والقومية.

وذلك - كما تقول - لأن الإسلام والذى كان نظامه هو السائد فى عصر الخلافة العثمانية لا يفصل بين الدينى والدنيوى، لأنه نظام مدنى جامع لأفراد الأمة الإسلامية. وقد استمرت نظرة المسلمين التقليدية إلى الدولة حتى القرن التاسع عشر، على أن الدولة هى الأمة الإسلامية. وتقول نازك أنه يلوح أنهم لم يعرفوا "القومية" أو "الوطنية" بالمفهوم الغربى الذى كان شائعا فى بلاد أوروبا التى زاروها.

لكل ذلك واجه الجيل الأول من الرحالة وعلى رأسهم الطهطاوى وخير الدين التونسى، مشكلة التنازع بين مفهومى الأمة الإسلامية والوطن. ولم يكن التخلى عن الإيمان بالأمة الإسلامية والإيمان بالوطن مسألة هينة ميسورة، ومن هنا ما نلاحظه من تذبذب

لـدى الطهطـاوى فـى مؤلفاتـه المتعددة بين المفهومين الإسلامى والوطنى.

ونجـد أيضـا فى كتابات خير الدين التونسى إيمانا عميقا بالأمة الإسلامية التى تجمع بين أبنائها وحدة الدين وبالخلافة الإسلامية، ولعل موقفـه مـن تأيـيد الخلافـة الإسلامية يرجع إلى تقديره أنها تحمى المسـلمين مـن مطـامع الدول الغربية. غير أنه فى مواضع أخرى يعترف بأن الدين قد لا يكون الرابط الأوحد بين أفراد الرعية، إذ لابد من رابطة الجنس أيضا.

وتقـول نازك " أما مراش والشدياق المسيحيان فمن المستبعد أن يكـون مفهومهما للوطن مبنيا على الإيمان بالأمة الإسلامية الموحدة" وهـى تصل إلى نتيجة هامة حين تقرر "ولكن فكرة" الوطن "بالمعنى الـذى كان شائعا فى أوروبا القرن التاسع عشر بدأت تتكون فى ذهن رحالينا، وتزاحم فكرة الأمة الإسلامية فى كتابة المسلمين منهم، وذلك على أثر ما شاهدوه فى الغرب وقرأوه من كتب" "وبدأ يتبلور فى ذهن الطهطـاوى تحديـد الوطـن بالمفهوم السياسى القومى وعلى غرار المفكريـن الأوروبيين فى عصره، أوضح أن بين أفراد الوطن الواحد روابـط البنـية والقريحة وروابط اللغة والأرض والعادات والأخلاق والمصلحة والحقوق والواجبات المشتركة فضلا عن الرابط الدينى".

وفـى تقديـرنا أن هـذه الإشـارة البالغة الأهمية لتحول إدراك الطهطاوى إزاء "الوطن" وتحديده بالمفهوم السياسى القومى، تؤكد أنه إقـترب اقترابا مباشراً من فكرة "الشخصية القومية" التى لم تتبلور فى العلم الاجتماعى المعاصر إلا منذ عقود قليلة. والشخصية القومية كما حددنا تعريفها فى كتابنا "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخـر" (القاهرة، ١٩٧٣) هى السمات الأساسية التى تميز شعبا من الشعوب والتى تتسم بثبات نسبى".

وهـذا الـتعريف كمـا نـرى يقـترب اقترابا واضحا مما ذكره الطهطـاوى عـن روابط البنية والقريحة التى تربط بين أفراد الوطن الواحد، بالإضافة إلى روابط اللغة والأرض والعادات والأخلاق.

وتنتفـت نازك سابا يارد بذكاء إلى أنه إذا كان الطهطاوى وخير الدين قد انتقدا التعصب الدينى واضطهاد من يخالف دين الملك، تأثرا

بالممارسات الغربية، إلا أنهما على الرغم من ذلك لم يؤمنا بمنح غير المسلمين ما للمسلمين من حقوق مدنية وسياسية، أى أنهما – كما تقول – لم يؤمنا بوطنية علمانية إذ يناقض ذلك الإسلام، ويقتضى فصل الدين عن الدولة.

ولا نعتقد أن نازك كانت موفقة فى هذا الحكم. لأن "الإسلام" إذا قرئ قراءة صحيحة لا يميز فى التعامل بين المسلم وغير المسلم، كما أن الحقوق السياسية والمدنية أصبحت فى الوقت الراهن ثابتة لكل مواطن. فقد أصبحت "المواطنة" فى العصر الحديث وفى كافة الدول، هى أساس منح الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأساس تحديد الواجبات الملقاة على المواطن أيضا.

وإذا تتبعنا الجدل المعاصر الذى دار بين أنصار الإسلام السياسى والمثقفين العلمانيين حول هذا الموضوع، لعرفنا أن الاتجاه المتطرف الذى كان ما يزال يتشبث بمفاهيم "أهل الذمة" قد خضع بعد طول ممانعة إلى أن هذا المفهوم كان يتعلق بعصور إسلامية ماضية، وأنه لا يصلح للتطبيق فى العصر الحاضر.

ومن هنا اتفق الجميع على أن مفهوم المواطنة هو الذى ينبغى أن يسود ويكون هو الأساس فى منح الحقوق المتساوية لكل المواطنين وتحميلهم بالواجبات فى حدود الدستور والقانون، كما بينا بوضوح فى كتابنا الذى صدر مؤخرا عن دار نشر المركز القبطى للدراسات الاجتماعية "المواطنة فى زمن العولمة".

أما بالنسبة لمراش والشدياق فقد أضحت "الوطنية" علمانية. فقد أكد الشدياق أن وحدة اللغة والجنس والأرض شرط أساسى للإحساس برابطة وطنية، وأن وحدة الدين لا تكفى. ومن ناحية أخرى افتخر مراش بعروبته وأكد أن نصرانيته لا تجعله أقل عروبة من المسلم.

غير انه إذا طالعنا كتابات هؤلاء الرحالة الرواد لأدركنا أنهم يتراوحون بين الإعجاب بالنموذج الحضارى الغربى والسخط الشديد على السياسة الغربية فى نفس الوقت لمواقفها العدائية إزاء الشعوب الإسلامية والعربية على وجه الخصوص. وهى تماما نفس المشكلة التى واجهت أجيالا من الساسة والمفكرين العرب فى المراحل التاريخية التى أعقبت عصر هؤلاء الرحالة، والتى عبرنا عنها فى

بحث سبق أن قدمناه لمؤتمر دولى عقد فى روما منذ سنوات بعيدة وكان موضوعه "اللقاء بين الحضارة الغربية والحضارة العربية" وكان عنوان البحث "الغرب باعتباره النموذج والعقبة" فى نفس الوقت !

ترى ألم نزل نمارس نفس المشاعر إزاء الغرب فى الوقت الراهن؟ إعجاب لا شك فيه بمظاهر التقدم الغربى، ورفض قاطع للهيمنة الغربية فى نفس الوقت، وبحث دؤوب الخلاص من التبعية وسعى إلى الاستقلال بكل صوره وأنماطه؟

[١٠]

من رفاعة الطهطاوى إلى فرد هاليداى!

اكتشاف الآخر عملية ممتدة فى الزمان، وهى لا تتوقف أبدا، وذلك لسبب بسيط هو التفاعل الإنسانى بين الأمم والشعوب والثقافات فى أوقات السلم ومعارك الحرب على السواء. غير أن ذلك لا ينفى أن هناك لحظات تاريخية فاصلة تشتد فيها الحاجة إلى الاكتشاف المكثف للآخر إن صح التعبير.

لقد برزت الحاجة إلى اكتشاف الغرب لدى المفكرين العرب فى بداية النهضة العربية الحديثة، عقب غزو نابليون لمصر فى حملته المعروفة، وبروز تقدم النموذج الحضارى الغربى إذا ما قورن بوضع التخلف الذى كانت ترسف فيه المجتمعات العربية فى هذا الحين. ولهذا كان سؤال النهضة الأولى لماذا التخلف وكيف نكتسب أسباب التقدم. وهذا هو الذى يفسر التراث الخصب لأدب الرحلة فى الفكر العربى الحديث. وهو إن بدأ فى رحلة رفاعة رافع الطهطاوى حين أوفده محمد على حاكم مصر إلى فرنسا إماما للبعثة العلمية التى أرسلها لاكتساب أعضائها أسرار الفنون والعلوم والصنائع الغربية، إلا أنه سرعان ما أصبحت تقليدا شارك فى ترسيخ قواعده أجيال من الرحالة العرب، الذين ينتمون إلى المشرق والمغرب على السواء، كما سبق أن بينا فى مقالاتنا الماضية، استنادا إلى الدراسة الرائدة للباحثة اللبنانية نازك سابا يارد فى كتابها المرجع "الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة" (بيروت: مؤسسة نوفل، ١٩٧٩).

كانــت هــذه اللحظة التاريخية التى اشتدت فيها رغبة العرب فى اكتشــاف الآخــر، لأسباب حضارية تتعلق بالبحث عن أسباب التقدم والقضاء على جذور التخلف.

ونحــن نمر فى الوقت الراهن – على المستوى العالمى – بلحظة تاريخــية مثــيرة نحــاول – مسلمين وغربيين – أن نكتشف الآخر. الغربيون معنيون عناية شديدة باكتشاف الإسلام كدين، واستكناه طبيعة المســلمين كبشر، واستطلاع ماهية الثقافة الإسلامية وسماتها البارزة، وتحليل دوافع البشر الذين يسلكون فى ضوء قيمها وتوجيهاتها.

والمسلمون المعاصرون معنيون أيضا – بحكم المعارك الضالعين فــيها – ســواء كان ذلك فى فلسطين مع الدولة الإسرائيلية المدعومة أمريكيا، أو فى إيران أو فى لبنان أو حتى فى كشمير، باكتشاف الآخر الغربى وتحليل طبيعة الإيديولوجيات التى يتبناها، ودوافع السلوك التى تصوغ الاستراتيجية الغربية إزاء العالم الإسلامى.

وإذا كــان الطهطاوى يمثل رمزا فى لحظة تاريخية ماضية على عملية الاكتشاف العربى والإسلامى للغرب، فيمكن القول أنه فى الحقبة التاريخية المعاصرة هناك طابور طويل من المستشرقين الغربيين الذين ينــتمون إلــى تخصصات شتى فى العلم الاجتماعى كالتاريخ واللغة والسياســة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والاقتصاد، تصدوا لعملية اكتشــاف الآخــر الإســلامى والعــربى. بل إن هناك أدباء حرصوا باســتخدام الأسلوب الأدبى الحديث الذى يجمع بين التحقيق الصحفى والعــرض الأدبى، على الدخول فى معمعة اكتشاف الآخر، ولعل من أبــرزهم الــروائى القــادم من ترينداد "نايبول" الذى حصل فى العام الماضــى علــى جائزة نوبل فى الآداب، وخصوصا فى كتابه الشهير "بيــن المؤمنيــن"، والذى خصصه لعرض ثقافة وأحوال المسلمين فى رحلة طويلة قام بها فى عديد من البلاد الإسلامية.

غــير أنــنا نختار من بين من تصدوا لاكتشاف الآخر الإسلامى باحثا بارزا هو "فرد هاليداى" الأيرلندى الأصل أستاذ العلاقات الدولية فــى مدرســة لندن للاقتصاد، وذلك لأسباب شتى. أولها أن له خبرة طويلة بالعالم العربى والإسلامى، ولعل ما يؤكد هذا كتابه القديم الذى جلــب له شهرة ذائعة وهو "الجزيرة العربية بغير سلاطين". غير أن

أهــم مــن ذلك كله روح الموضوعية التى يتسم بها فى كتاباته والتى تتمثل فى قدرته الفذة على ممارسة النقد الذاتى نيابة عن الفكر الغربى، وعــدم تردده فى إدانة السياسات الغربية المتحيزة ضد العالم العربى والإسلامى، بالإضافة إلى عدم تردده فى الإشارة إلى السلبيات البارزة فى أداء المجتمعات العربية الإسلامية.

غــير أن السبب الرئيسى فى اختيارنا له كرمز لمحاولة اكتشاف الآخــر فــى الوقــت الراهن هو أنه أول باحث غربى ألف كتابا عن أحــداث الحادى عشر من سبتمبر، والتى تمثلت فى الهجوم الإرهابى الخطــير علــى الــرموز الاقتصادية والعسكرية والسياسية للولايات المــتحدة الأمريكية. ونحن نعرف جميعا أن هذا الحدث الإرهابى فجر مشاعر عدائية صارخة ضد المسلمين والعرب، تجلت فى لغة الخطاب السياســى والثقافى الغربى، بالإضافة إلى إساءة معاملة المواطنين من أصل عربى أو إسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومــن هنا تكتسب تحليلات هاليداى عن طبيعة العداء بين الإسلام والغرب أهمية خاصة لأنها تأتى بعد حدث تاريخى له طبيعة استثنائية. وقد ضمن هاليداى هذه التحليلات فى كتابه المثير "ساعتان هزتا العالم" وله عنوان فرعى: ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الأسباب والنتائج" الذى نشرته دار "الســاقى" الشــهر الماضــى، وتقوم حاليا بعرض فصوله جريدة "الشرق الأوسط". وإذا تصفحنا الكتاب بعناية لأدركنا أن هاليداى يعتمد فيه فى الواقع على سابق دراساته عن العالم العربى والإسلامى، لذلك اهتممــنا – فى مجال الاكتشاف المعاصر للآخر – على الفصل الثانى عشــر مــن كــتابه وعــنوانه "الإسلام والغرب: الصراعات الثقافية والعلاقات الدولية" لأنه يكاد أن يكون أهم فصول الكتاب قاطبة.

مقولة الصراع بين الإسلام والغرب

يحــاول هاليداى منذ البداية أن يتفحص نقديا مقولة الصراع بين الإســلام والغرب باعتبارها من سمات الحقبة التى تلت نهاية الحرب الــباردة، والتى أثرت فى مجال العلاقات الدولية والسياسات الداخلية للــدول علــى السواء. وهو يقرر أنه منذ عام ١٩٩٠ بدأ يتبلور فيها

خطـــاب سواء فى الشرق الأوسط أو فى الغرب، يذهب إلى أن هناك كتلـــتان متصــــادمتان، ويعنى الإسلام والغرب. وفيما يتعلق بالجانب الإســـلامى فإن هذا الخطاب سائد فى الشرق الأوسط وكذلك فى الدول الإسلامية الأخرى ويمكن سماعه فى أندونيسيا ونيجيريا وبنجلاديش، وموضوعه الأساسى هو المجابهة مع الغرب. وتختلط فى هذا الخطاب أوصـــاف تديـــن الغـــرب مثل الاستعمار أو الإمبريالية أو العولمة أو جاهلـــية المجـــتمع الغربى، مع موضوعات صراع محددة مثل قضية فلســطين أو مشكلة كشمير. أما فى الغرب فالخطاب يشير إلى التهديد والخطـــر الـــذى يمـــثله ما يطلق عليه الإسلام، سواء كان ذلك دولاً إسلامية بعينها، أو ما يحدث داخلها على الغرب.

والملاحظة الهامة التى يؤكدها هاليداى أن منطلقات كلا الخطابين الإســـلامى والغربى على السواء تقوم على أسس زائفة. ولكن ذلك لا يمنع من تأثير الخطاب على السياسة بالرغم من زيف منطلقاته، ومن هــنا أهمية دراسة موضوعاته وأسبابه. ولعل ما يدفع إلى ذلك أن من يتبنون الخطاب فى كلا الجانبين، وسواء كانوا شخصيات مثل الخمينى فـــى إيران أو مؤسسات سياسية مثل حزب الله فى الشرق الوسط، أو الأوســـاط اليمينـــية فى دوائر صنع القرار الاستراتيجى، فإن المواقع الهامـــة التى يشغلونها هنا وهناك، والتى تتيح لهم التأثير العميق على عملـــيات صـــنع القـــرار السياسى، تجعل من الأهمية بمكان ضرورة التحليل النقدى لخطاب العداء المتبادل.

والســـؤال الأساســـى هـــنا: هل يستطيع الباحث الغربى أن يكون موضـــوعيا ومحـــايداً وهـــو يحـــاول نقد الخطاب الغربى والخطاب الإســـلامى علـــى السواء؟ ويجيب هاليداى على هذا السؤال أن تبنى موقـــف وسط حافل بالمخاطر، ويستند إلى مثل أمريكى طريف مبناه أنـــك إذا ســـرت فى منتصف الطريق فأنت معرض لأن يكتسحك من علـــى يمينك ومن على يسارك على السواء ! وهو يشير بذلك إلى دقة موقعه كباحث غربى يسعى حقا إلى التناول الموضوعى لظاهرة العداء المتبادل بين الإسلام والغرب.

وأيا ما كان الأمر فإن هذا العداء بين ما يسمى "الإسلام" وما يطلق علـــيه "الغرب" وكأن كل منهما وحدة واحدة صماء لا تمايز فيها، يرد

إلـــى موضـــوع أهم هو جزء من المناخ الثقافى لعصرنا وهو علاقة الماضـــى بالحاضر، وقوة الثقافة والقيم المستمدة من حضارات قديمة على العلاقات المعاصرة بين الشعوب والأمم.

ولا شـــك فـــى أن هذه الإشارة الذكية لها مصداقية وخصوصا لو حللنا الخطاب السياسى والثقافى المعاصر فى كل من البلاد الإسلامية والـــبلاد الغربـــية. فـــى العالم الإسلامى هناك ميل لاجترار الأمجاد الماضـــية للحضـــارة الإسلامية فى عصر ازدهارها، حين كانت هى المنـــبع الـــذى اســـتقى مـــنه الغرب أسباب التقدم فى العلوم والفلسفة والفـــنون. وهـــذا المـــيل إلـــى تذكر الفردوس المفقود، محاولة يائسة لـــتعويض الإحســـاس بالإحـــباط من الواقع الاقتصادى والاجتماعى والثقافى المزرى فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة. ومن جانب آخر فإن الغرب المتقدم تكنولوجيا وعلميا، والمزدهر اقتصاديا، يلجأ أحيانا لتفســـير مـــا يعتبره من السلوك المتطرف للمسلمين أو بعض أحزابهم وحركاتهم وفصائلهم على الأقل، إلى الذاكرة التاريخية التى تشير إلى تأثير ذكرياتهم عن الحروب الصليبية على اللاشعور السياسى الغربى. ألـــم يشـــر الرئـــيس جورج بوش فى خطابه بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلـــى أن الحملة ضد الإرهاب ستكون حملة "صليبية"؟ وهو إذا كـــان قد اعتذر من بعد عن هذا التوصيف المؤسف الذى يثير ذكريات العداء بين الغرب المسيحى والشرق المسلم أيام الحروب الصليبية، إلا أن زلات اللســـان لهـــا دلالاتها النفسية، كما تؤكد ذلك مبادئ التحليل النفسى، على أساس أنها تكشف عن مكنونات اللاشعور.

غـــير أن هـــناك حجة أخرى فى خطاب العداء كما يقرر هاليداى وهى زائفة فى نظره، مبناها أننا نشهد تحولا فى طبيعة الصراع، ذلك أن العلاقـــات بين الدول كانت فى الماضى – كما تذهب هذه الحجة – تـــتحدد على أساس القوة أو فى ضوء المصالح الاقتصادية أو بحسب الاعتبارات الإقليمية، إلا أنه فى الوقت الراهن، فإن الخطاب والأفكار والميديا من ناحية، وصراع الحضارات من ناحية أخرى، أصبحت لها قوة جديدة غير مسبوقة. ويرد أنصار هذه الحجة ذلك إلى أسباب شتى أهمها سقوط الشيوعية، والعولمة، وصعود أهمية شبكه الإنترنت. وهذه الظواهر جميعا هى ما يطلق عليها "التحول الثقافى".

وإذا أضـفنا إلـى ذلـك حججـا أخرى مستمدة من بحوث العلم الاجـتماعى المعاصر، وأهمها ما يتعلق بالتأثير الحاسم للثقافات على العلاقـات الدولـية، وخصوصا فى نظرية "صراع الحضارات" التى صاغها هنتنجتون، لأصبحت خريطة العداء بين الإسلام والغرب تجد تفسيراتها فى هذه العوامل التى سبق أن أشرنا إليها.

وفـى تقديرنا أن خطاب العداء بهذه المنطلقات التى يصدر عنها سواء فى ذلك الخطاب الإسلامى عن الغرب، أو الخطاب الغربى عن الإسلام، يستحق وقفة نقدية متكاملة.

[١١]

أوهام العداء بين الإسلام والغرب

يـنطلق فـرد هاليداى فى كتابه الهام " ساعتان هزتا العالم: ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، الأسـباب والنتائج" فى مجال تفنيد أوهام العداء بين الإسـلام والغـرب من عدة منطلقات نقدية. ولعل أهم هذه المنطلقات ضـرورة التقيـيم الموضـوعى للـدور التاريخى الذى تلعبه الأفكار والـثقافات والحضارات. ولعل ما يؤكد هذا الدور المتعاظم فى أبحاث العلاقـات الدولية المعاصرة بالتحليل الثقافى للظواهر السياسية، بعدما تبيـن أن المـناهج التقليدية فى علوم السياسة والاقتصاد لم تعد قادرة علـى وصف وتفسير عديد من المشكلات الدولية، نظرا لكونها محملة بأبعـاد ثقافـية ينـبغى سبر غورها، وإبراز علاقاتها المتشابكة بهذه المشكلات .

ولـنأخذ علـى سـبيل المثال الظواهر التى أعقبت انهيار الاتحاد السـوفيتى والكتلة الاشتراكية، ونزعات الانفصال عن الدول القومية سـواء فـى نطـاق الاتحـاد السـوفيتى السابق، أو فى مجال الدول الاشـتراكية. فبعض هذه النزعات اتجهت الى تأكيد الهوية الثقافية فى سـعيها الـى الانفصال أو الاستقلال عن الدولة الأم ، كما أن نزعات أخرى فى سعيها لتأكيد هذه الهوية قدمت مطالب سياسية لتحقيق الحكم الذاتى.

ومن ناحية أخرى، يمكن القول أن العولمة باعتبارها أبرز ظواهر العصر لا يمكن فهم مختلف أبعادها، بغير تحليل ثقافى عميق، ويشهد علـى ذلـك سـيل من الدراسات العلمية التى تناولت موضوع ثقافة العولمة من جانب وعولمة الثقافة من جانب آخر، وتأثير ذلك كله على

الجوانـــب السياســـية للعولمة. والتحليل الثقافى لم تعد أهميته مقصورة علـــى دراســـة الظواهر السياسية أو الدولية، بل إنه أصبح أحد أدوات البحـــث فـــى عالم الاقتصاد الجديد، الذى يتحول لكى يصبح "اقتصاد المعـــرفة". ويشهد على ذلك دراسات عميقة قام بها المفكر الأمريكى الشهير فوكوياما صاحب كتاب "نهاية التاريخ" الشهير فى كتاب أساسى عـــنوانه "الثقة" يحلل فيه بعمق شديد تأثير القيم الأخلاقية على السلوك الاقتصـــادى، بالإضـــافة الـــى كتاب لعالم الاجتماع الأمريكى البارز "إتزيونى" يعالج فيه نفس الموضوع، ونقصد علاقة الأخلاق بالاقتصاد.

وأيا ما كان الأمر فإن هاليداى يشير الى أن التحليل الثقافى اكتسب أهمية استثنائية بعدما نشر صمويل هنتنجتون كتابه الذائع الصيت الذى أثار جدلا عالميا وهو "صراع الحضارات". ويقرر أن فكرته الأساسية التى يصدر عنها وإن كانت تبدو فى الظاهر فكرة وجيهة ، إلا أنها فى الواقع مختلف بشأن صوابها بشدة. وهذه الفكرة مبناها أن الصراع بين الـــدول أمر لا يمكن تجنبه فى عالم يضم بين جنباته دولا ذات سيادة. والـــثقافة – مـــن وجهـــة نظـــره – هى الشئ الوحيد الذى ينبغى أن نتناقش حوله فى مجال هذا الصراع. وقد وجدت طروحات هنتنجتون قـــبولا لدى فئات سياسية متعددة فى دول شتى من أول السعودية حتى اليابان، وخصوصا لدى التيارات المعادية للحداثة، وعند الذين يركزون تركـــيزا مـــبالغا فـــيه على الخصوصيات الثقافية المغلقة، ولدى دعاة القومية المتطرفة بالإضافة الى أصحاب النزعات الأصولية. ويتساءل هاليداى لماذا وجدت هذه الطروحات هذا الاستقبال الايجابى ؟ ويجيب لأن هنتنجـــتون يقـــول أن الشـــرق منفصل عن الغرب، ويتميز عنه وبالتالى لابد أن يحدث صراع بينهما .

ولعل فى هذه المعادلة التبسيطية ترديد لصدى بيت الشعر الشهير للشـــاعر الإنجليزى روديارد كبلنج "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان أبدا" !

وهالـــيداى محـــق فـــى قوله أن من يريد معادلة جاهزة لتفسير "الصـــراع الأبـــدى" بين الشرق والغرب لن يجد أفضل من طروحات هنتنجتون! غير أن البديل لهذه التعميمات الزائفة عن التاريخ والثقافة، هـــو التحليل الرصين للظواهر المتعددة التى تحدث داخل المجتمعات،

وللعلاقات التى تنشأ بين الدول. بعبارة أخرى المهمة الأولى هى عزل الظواهـــر المتشابكة عن بعضها البعض، والسعى للتفسير الموضوعى لنشـــأتها وتطورهـــا وزوالهـــا. وليس معنى ذلك أننا نستطيع صياغة تفسيرات وحيدة لظواهر متعددة، ذلك أن خبرة العلم الاجتماعى تقرر أن التفســـيرات عادة ما تتعدد بصدد أحداث تاريخية بارزة أو ظواهر عالمـــية مشهودة. ينطبق ذلك على الثورة الصناعية، كما ينطبق على الـــثورة المعلوماتية ، التى تتعدد التفسيرات بصدد نشوئها وتطورها، وتتنوع التنبؤات فيما يخص مستقبلها، سواء فى المستقبل المنظور أو فى المدى البعيد . ونفس الاعتبارات تنطبق فى مجال الشرق الأوسط علـــى ثـــورة الاستقلال التركية، أو فى مثال قريب لنا الغزو العراقى للكويت.

غـــير أن أهم ما ينبغى أن نركز عليه فى التحليل العلمى الرصين هـــو عدم القناعة برصد ما يقوله الناس، ولكن التركيز أيضا على ما يفعلونه، وقد نكتشف أن هناك فجوات واسعة بين القول والفعل!

ولكـــى يدلل هاليداى على مقولاته المنهجية التى تتمثل أساسا فى رصـــد ســـلوك الناس لمعرفة ماذا يفعلون فى الواقع، بدلا من تحليل النصوص الإيديولوجية سواء كانت ماركسية لينينية أو إسلامية ، فهو يحلل حالتين نموذجيتين. الحالة الأولى قيام الثورة الإيرانية (١٩٧٨ – ١٩٧٩) والحالة الثانية الغزو العراقى للكويت.

بالنسبة لحالة الثورة الإيرانية كان هناك حديث كثير عن الإسلام، وارتفعـــت شـــعارات الله أكبر، وتم الاستناد فى الخطاب السياسى الى آيـــات القـــرآن. ولكن – يتساءل هاليداى – ماذا حدث بالفعل؟ يقول هالـــيداى اســـتطاع قادة الثورة دفع أكثر من ثمانية ملايين إيرانى الى الشـــوارع، ممـــا مثل أكبر مظاهرات معارضة فى التاريخ، ولم يلبث الجيش الإيرانى الذى كان تعداده فى هذا الوقت ٤٠٠,٠٠٠ ألف ضابط وجـــندى أن انهـــار، واستطاعت مجموعة من رجال الدين أن تسيطر علـــى الدولـــة. وقد رفعت الثورة ثلاث شعارات رئيسية: الاستقلال، والحـــرية، والجمهوريـــة الإسلامية. الشعارين الأول والثانى شعارات علمانـــية فـــى الواقع، والشعار الأخير خليط من الفكر العلمانى (فكرة الجمهورية أساسا) والفكر الدينى وذلك فى صفها بالإسلامية.

ويـــبقى السؤال الرئيسى: بغض النظر عن الشعارات،، ماذا فعلت الـــثورة بنقابات العمال؟ وماذا فعلت بأوضاع النساء ؟ وما الذى فعلته بالنســـبة للأقلـــيات العرقية ؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات الهامة لا يمكـــن إطلاقـــا التماســـها من تحليل النصوص ولكن من خلال تحليل الأفعـــال الملموسة. ومن الطبيعى أن بعض الفئات والتيارات يمكن أن تصوغ هذه الأسئلة وتحدد الإجابات بطريقة إسلامية ، غير أن الأفعال ذاتها قد لا يكون لها أى علاقة بالمعانى والمدلولات الإسلامية.

ويصـــل هالـــيداى الى نتيجته الرئيسية حين يقرر أنه مهما كانت طبـــيعة الخطاب، وسواء كان ماركسيا لينينيا أو حداثيا أو سلطويا أو ليبراليا، فليس المهم ما يقوله أصحاب الخطاب على تنوعهم، ولكن ما يفعلونه على أرض الواقع.

وهـــو ينـــتقل الـــى الحالة النموذجية الثانية وهى الغزو العراقى للكويـــت عـــام ١٩٩٠، ويقـــرر أن هناك أصواتا متعددة وصفت هذا الصـــراع باعتـــباره صراعا بين الإسلام والغرب. ولو حللنا خطاب صـــدام حســـين لوجدناه فى بعض المواضع يستخدم مصطلحات لينين فـــيهاجم الامبريالـــية، غـــير أنه فى موضع آخر يستخدم لغة إسلامية ويشـــير الـــى الرسول عليه السلام، ويصف المعركة بأنها "جهاد" فى سبيل الله !

وبعـــيدا عن هذا الصخب فى الخطاب العراقى، يبقى السؤال لماذا غزا صدام الكويت ؟ يقرر هاليداى لأنه ببساطة أراد أن يختطف ثروة جـــيرانه لأن الدولـــة العراقية كانت تمر – فى هذا الوقت – بمرحلة إفـــلاس حادة، نتيجة تورطها فى الحرب الإيرانية – العراقية العقيمة والمدمـــرة. ويقرر هاليداى لمثل هذا السلوك أشباه متعددة فى التاريخ الحديـــث. فقد احتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢ لكى يساعدها ذلك فى مواجهـــة مشكلة ديونها. وفى عام ١٩٠٢ قصفت إنجلترا وغيرها من الدول فنزويلا لنفس السبب. وليس فى مثل هذا السلوك طابع عرقى أو إســـلامى أو ماركســـى أو غير ماركسى بالذات ، فدوافعه بكل بساطة مباشـــرة وعلمانـــية، والفعل تحركه فى هذه الحالات وغيرها عقلانية عادة ما تنبعث من دوافع نفعية بحتة وأحيانا انتهازية.

ويشير هاليداى بإعجاب الى كتاب الباحث الأنثروبولوجى الشهير "مايكل جليسنان" "التعرف على الإسلام" الصادر عام ١٩٨٢. ذلك أن هــذا الباحث المرموق اهتم أساسا بدراسة سلوك المسلمين الفعلى ولم يحفــل كثيرا بتحليل النصوص. وبناء على هذه الملاحظة يقرر أنه لا يمكن فهم ديناميات الاقتصاد السعودى أو الماليزى على سبيل المثال، علـــى أساس الرجوع للكتب الخاصة بالاقتصاد الإسلامى التى ملأت رفــوف المكتبات أو الاقتصاد التوحيدى، والمصطلح الأخير يفترض وحده مقدسة فى الأسواق المالية، مع أن هذه الأسواق فى الممارسات الفعلــية لا علاقة لها البتة بهذه الكتابات الإيديولوجية، وإنما هى تعمل بدقة بالغة وفق مفاهيم وآليات الاقتصاد الرأسمالى العالمى!

والحقــيقة أن هــذه الملاحظات النقدية التى يسوقها هاليداى تتسم بــالعمق. وقــد سبق لى فى مجال "التحليل الثقافى" لحرب الخليج أن نشــرت دراسة فى الموضوع ضمها كتابى "الوعى التاريخى والثورة الكونــية" الصـــادر عـــام ١٩٩٥ عـــن مركـــز الدراسات السياسية والاســـتراتيجية بالأهرام، ركزت فيها فى تحليل خطاب صدام حسين على ما أطلقنا عليه "البعد الإعلامى فى حرب الخليج: احتكار الصورة واغتصاب اللغة !" وقررنا فيه أنه إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد استطاعت بحكم تفوقها التكنولوجى وهيمنتها احتكار صورة الحرب وإذاعـــتها على العالم أساسا من خلال محطة سى. إن. إن، فإن صدام حسين قد اغتصب اللغة العربية، واصطنع خطابا إسلاميا للتغطية على دوافعـــه الحقيقية لغزو الكويت، بالإضافة الى اصطناعه خطابا قوميا يثير فيه أهمية تحقيق الوحدة العربية ولو بالقوة المسلحة!

وختمـــت هـــذه الدراسة بعبارة دالة مفادها أننا فى الواقع "وقعنا بيـــن الاحـــتكار الغـــربى للصـــورة، والاغتصاب السلطوى العربى للغة !"

وفـــى تقديرنا أن الملاحظات السابقة بصدد أولوية رصد السلوك الفعلـــى على تحليل النصوص لها أهمية بالغة وخصوصا بعد أحداث ١١ ســـبتمبر ٢٠٠١. ذلـــك أنه تصاعدت صيحات فى الوطن العربى تدعـــو لإرســـال بعثات ثقافية للغرب لشرح مبادئ الإسلام السمحة، وبيان أنها تستنكر العنف والإرهاب. وفات أصحاب هذه الدعوات أن

الغرب لا يهتم بالنصوص حتى لو كانت مقدسة، ولكنه يركز أساسا – خطأ أو صوابا – على سلوك المسلمين الفعلى!

مـــا سبق كان بدايات النقد الموضوعى لأوهام العداء بين الإسلام والغــرب، بقى أن ننتقل من تحليل الخطاب إلى دراسة السلوك الفعلى للدول !

[١٢]

تحليل السلوك الدولى

إذا كـنا قد خلصنا فى مجال فهم العلاقة بين الإسلام والغرب إلى أن تحليل الخطاب الإيديولوجى أو السياسى الذى تتبناه الدول لا يصلح بمفرده أساساً لفهم العلاقات بين الدول أيا كانت توجهاتها، فإن التركيز علـى السلوك الفعلى للدول قد يكون هو السبيل الأمثل لفهم السياسات الدولية بكل تعقيداتها السياسية والاقتصادية والثقافية.

وفـى تقديرنا أن التركيز على بعد واحد فى محاولة فهم العلاقات بين الإسلام والغرب، ونعنى الخطاب من ناحية أو السلوك الفعلى من ناحـية أخـرى، لـن يكون مجديا فى بناء نظرية متماسكة تؤدى إلى التفسـير الحقيقى لهذا التفاعل المتشابك. فليس هناك سلوك فعلى لأى دولـة – فـى مجـال السلم أو فى مجال الحرب على السواء – بغير خطـاب مصـاحب، يحاول أن يشرح الأسباب والدوافع، ويقدم الدولة للعـالم باعتبارها كيانا عقلانيا يصدر فى تصرفاته عن منطق متماسك كامـن فـى خطـاب مـا. كمـا انه من ناحية أخرى فإن الخطابات الإيديولوجـية أو السياسـية – مهما كانت صحة منطلقاتها– والتى لا يمارس أصحابها سلوكا فعليا مؤثرا فى البنية الاجتماعية أو فى البيئة العالمـية، تفقـد مـع الزمـن كثيرا من فاعليتها، وقد يؤثر ذلك على مصداقيتها الفعلية.

فـى ضـوء هذه الملاحظات النظرية علينا – إذا أردنا أن ندرس العلاقـات بيـن الإسـلام والغـرب – سواء كانت علاقات تعاون أو صـراع، أن نخـوض فـى غمار الخطابات الإيديولوجية والسياسية الصاخبة التى عادة ما تصدر عن الدول، لكى نصل إلى رصد السلوك

الفعلـــى للـــدول، وتشـــريح دوافعهـــا الحقيقـــية بعـــيدا عن صخب الخطاب.

ولنأخذ على سبيل المثال الخطاب الأمريكى المهيمن الذى صاغته الإدارة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. هذا الخطاب اتخذ له عنوانا مدويـــا هو محاربة "الإرهاب العالمى" وتجفيف منابعه ووقف نموه فى كـــل ركـــن من أركان الكرة الأرضية، بالوسائل العسكرية والسياسية والاقتصادية، وأبعد من ذلك من خلال التدخل الثقافى فى مجال تعديل السياســـات التعليمـــية فى بعض الدول. وخصصت الولايات المتحدة بلايين الدولارات لشن الحملة ضد الإرهاب، وتدخلت عسكريا بالفعل فـــى أفغانستان، ونجحت فى القضاء على نظام طالبان. غير أن العالم ســـرعان ما اكتشف أن الحرب ضد الإرهاب والذى هو العنوان الدال للخطـــاب السياســـى الأمـــريكى منذ ١١ سبتمبر، ليست سوى خطاب إيديولوجى يخفى الدوافع الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية، وهو مد خطـــوط الأمن القومى الأمريكى – كما تتصوره الإدارة الأمريكية – إلى أعماق آسيا تحقيقا لأهداف الاستراتيجية الأمريكية التى ترمى فى الواقـــع إلى تحييد الصين باعتبارها قوة صاعدة فى النظام الدولى قد تهدد فى المستقبل الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى بناء قواعد عســـكرية لها فى أعماق الدول التى كانت مندمجة من قبل فى الاتحاد الســـوفيتى، حـــتى تكـــون أشـــبه بأبراج مراقبة ثابتة لتتبع التحركات الروسية.

ولـــو حللـــنا خطاب الرئيس بوش الأخير المتعلق بحالة الاتحاد، لوجدنـــاه يـــبلور شعارا إيديولوجيا له حمولات أخلاقية زاعقة، حين تحدث عن "محور الشر" الذى ينبغى مواجهته ولو بالوسائل العسكرية فى الوقت الملائم، والذى يضم كوريا الشمالية والعراق وإيران. ويلفت الـــنظر بشدة التصريحات الإسرائيلية المصاحبة والموجهة ضد إيران باعتـــبارها خطرا محتملا على الأمن الإسرائيلى وكذلك ضد العراق، ولا تخـــرج كوريا الشمالية من الدائرة لأنها متهمة بإمداد دول عربية وإسلامية بتسليح صاروخى متقدم.

وهـــذا التحلـــيل الذى قدمناه، كمجرد مثال لأهمية تجاوز الخطاب السياسى للدول ورصد وتحليل سلوكها الفعلى يؤكد ما قدمناه من قبل،

عـن أولويـة تحليل السلوك لفهم طبيعة العلاقات المعقدة فى المجتمع الدولى فى حالات السلم وفى فترات الحرب على السواء.

أى إسلام وأى غرب؟

وإذا انتقلـنا مـن مجال تحليل الخطاب إلى ميدان تحليل السلوك، فلابد لنا من تفكيك كل من مفهومى "الإسلام" و"الغرب" لكى نصل إلى فهم متعمق لسلوك الدول الإسلامية والغربية بعيدا عن صخب خطاباتها السياسية التى تتبناها.

وفـى هذا المجال ينطلق فرد هاليداى من ضرورة التركيز – فى مجـال تحليل السلوك الواقعى – على الفاعلين الرئيسيين فى العلاقات الدولية وهى الدول. ذلك أنه وإن كنا نعيش فى عصر العولمة بكل ما يتضـمنه ذلك من الحركات الطليقة للأفكار عبر الحدود بفضل الثورة الاتصـالية الكـبرى وفى قلبها شبكة الإنترنت، بالإضافة إلى تدفقات رؤوس الأموال، وحركة السكان والهجرة، فنحن مازلنا فى عالم تهيمن علـيه الـدول التى تلعب دورا مركزيا فى صياغة السياسات المختلفة وتطبـيقها. وحيـن نتحدث عن الدول فنحن لا نشير فقط إلى كيانات قانونية، ولكن أيضا إلى هياكل إدارية لها جيوش ووزارات وسياسات عمالـة ومـا إلـى ذلـك، وهذه الدول تقتسم العالم. ولدينا فى الوقت الحاضر حوالى ١٩٥ دولة، وكل دولة من هذه الدول لها نسق خاص من القيم وتاريخ محدد، وهو ما يشار إليه عادة بالقومية.

وهكـذا نخلـص إلى نتيجة أساسية مفادها أننا حين نحلل سلوك الـدول فـى مجال العلاقات الدولية، فليس هناك لا "إسلام" واحد ولا "غرب" واحد.

هـناك ٥٥ دولـة إسلامية أعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى. وهـناك دول مـثل أثيوبـيا والهند توجد فيها جاليات إسلامية كبيرة. وهـناك حوالـى ١٦ مليون مسلم فى روسيا. وهناك حوالى ٦٠ دولة المسـلمون فـيها يمثلون أقلية. وكل دولة من هذه الدول لها مصالحها المسـتقلة، كمـا أن لها تعريفاتها الخاصة لتقاليدها القومية. وبالتـالى لكـل مـنها طريقتها فى الارتباط بالتقاليد الإسلامية، وذلك فيما يتعلق

بمجـــالات الواقـــع ولـــيس بطنين الخطاب. ولكل منها أيضا سياساتها الخاصة فى مجال العمالة، وبالبنية السياسية، ووضع المرأة، ومعاملة الأقلـــيات. بعبارة أخرى كل دولة كيان مستقل له ذاتيته الخاصة التى اكتســبها مـــن تاريخه الاجتماعى الفريد. وتلك مسألة واضحة وجلية. فالـــتاريخ الاجـــتماعى للسعودية مثلا يختلف اختلافا بينا عن التاريخ الاجتماعى لمصر، وهو بذاته الذى يؤدى إلى اختلافات جسيمة فى كل مـــن البنـــية السياســـية والاجتماعية لهما، بالرغم من أن كليهما بلدان إسلاميان. ومن هنا فالحديث المطلق عن "الإسلام" وكأنه كتلة واحدة لا يغنى فى مجال فهم العلاقات الدولية " ونفس المسألة تنطبق فى الحديث عـــن "الغرب" وكأنه كتلة واحدة صماء. ولعله مما يؤكد ذلك أن دولا إسلامية حاربت بعضها كما حدث فى الحرب العراقية والإيرانية التى امـــتدت مـــن عـــام ١٩٨٠ حـــتى عام ١٩٨٨. كما أنه كانت هناك صـــراعات بين مصر والسودان، ومصر وليبيا، والمغرب والجزائر. ومـــن هـــنا فالانتماء إلى أمة إسلامية واحدة، لا يعنى بذاته وحدة فى التوجهات، ولا انسجاما فى السلوك.

وينطـــبق ذلك على الغرب أيضا، كما يؤكد هاليداى. فليس هناك "غـــرب" واحد لا من زاوية العلاقات الدولية، ولا من جانب المفاهيم السياســـية، وأهم من ذلك ليس هناك غرب واحد لو ركزنا على مجال القيم السياسية، وهى أهم المتغيرات فى مجال المقارنة بين الدول.

وإذا كان الناس يقولون أن مفاهيم "حقوق الإنسان" و "السيادة" هى مفاهـــيم غربـــية، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أنها نبعت من "الغرب" باعتـــباره كتلة صماء لا يمكن التمييز بين مكوناتها. على العكس من ذلك فقد نبعت هذه المفاهيم من الصراعات التى دارت بين دول غربية مـــتعددة، وهـــى تـــتعلق بالحـــركات الـــتى دعت إلى حق الناس فى التصـــويت، وحق النساء فى المشاركة السياسية، وحق إنشاء النقابات العمالية للدفاع عن مصالح أعضائها.

فـــى ضـــوء ذلك كله لابد من تفكيك ما يطلق عليه "الإسلام" من ناحـــية و "الغـــرب" مـــن ناحـــية أخرى، سعيا إلى فهم أعمق لطبيعة التفاعلات المتشابكة بينهما.

وإذا أردنـــا تدلـــيلا إضافيا على ذلك، يمكن لنا أن نناقش قضيتين جوهريتين هما الديمقراطية وحقوق الإنسان.

فيما يتعلق بالديمقراطية يمكن التأكيد أنه ليست هناك نظرية غربية مقننة ومتكاملة عن الديمقراطية الغربية، وإن كان هذا لا ينفى أن هناك مثالا ديمقراطيا تسعى كل دولة غربية إلى تطبيقه على أرض الواقع. بعـــبارة أخـــرى هناك سمات أساسية للديمقراطية الغربية لعل أبرزها تـــداول الســـلطة، وإجراء انتخابات دورية منظمة للمجالس التشريعية والمحلية، وضمان حرية التفكير وحرية التعبير. غير أن ذلك لا يعنى أن الممارســـات الديمقراطية متماثلة فى كل البلاد الغربية. وذلك لأن الـــتاريخ الاجـــتماعى الفـــريد لكـــل قطر غربى غالبا ما يكسب هذه الممارسات سمات فريدة لا تتكرر. فالديمقراطية الإنجليزية تختلف فى التطبـــيق عن الديمقراطية الفرنسية، وكذلك الحال بالنسبة للديمقراطية الأمريكية.

ولـــو وليـــنا وجوهنا للممارسات الديمقراطية فى البلاد الإسلامية لوجدنـــا تفاوتات لا نهاية لها. فقد نجد بلادا إسلامية تحاول أن تطبق نمـــوذج الديمقراطية الغربية بدرجة كبيرة أو صغيرة بحسب الظروف والمراحل التاريخية وطبيعة البناء السياسى، فى حين نجد دولا إسلامية أخـــرى تتشـــبث بصـــيغة الشـــورى بحســـبانها المفهـــوم الإسلامى للديمقراطـــية. غـــير أن الاختلافات القليلة أو الجسيمة بين دول العالم المخـــتلفة، وســـواء كانـــت تنتمى إلى الدائرة الغربية أو إلى الدائرة الإســـلامية، لا تنفى أن هناك فى الوقت الراهن مجموعة قيم أساسية ســـائدة فـــى المجتمع الدولى تركز فى المقام الأول على الديمقراطية والـــتعددية واحـــترام حقـــوق الإنسان. وذلك لدرجة أن شرعية النظم السياسية فى المستقبل المنظور ستتحدد بالنظر إلى مدى احترامها لهذه القيم. ومما لا شك فيه أن تعميق موجات العولمة سيكون له آثاره فى مجال بلورة قيم سياسية وثقافية عالمية لا تنزع بالضرورة إلى القضاء علـــى الهويات الثقافية أو على التباين فى مجال القيم السياسية، ولكن تـــتجه إلـــى محاولة صياغة نسق عالمى. هل هذا هدف مثالى؟ نعم.

ويصـــعب تطبيقه فى مجال السلوك الفعلى للدول التى تحكمها رؤاها الخاصـــة لكيفـــية تحقـــيق أمنها القومى، ولكن هذا الاتجاه يؤكد سعى الإنسانية الدؤوب لتحقيق الحرية والعدل فى عالم تسوده الآن موجات الفوضى والاضطراب.

[١٣]

نظريات متصارعة ولغات متعددة

إذا كان المشهد الأول من مشاهد المواجهة بين الإسلام والغرب قد كشـف الستر عن هذا الصراع الحضارى الموهوم، حيث خلصنا إلى أن الصـراع فى الواقع هو بين دول لها مصالح متعارضة، وذلك بعد أن أثبتـنا أنـه لـيس هناك كيان مطلق اسمه الإسلام، ولا وحدة كلية اسـمها الغرب، فإن المشهد الثانى أكثر إثارة. ذلك لأنه يتضمن تفكيكا لعديد من النظريات التى تتعلق بالقومية والدين والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية والصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين، كما أنه يكشف عـن تعـدد اللغـات وتضارب الاستعارات التى توظف عادة لإذكاء الصراع بين الدول والجماعات السياسية.

ويـنطلق فرد هاليداى فى فصل من أعمق فصول كتابه "ساعتان هزتا العالم: ١١ سبتمبر الأسباب والنتائج" من حقيقة أساسية مفادها أننا لا نستطيع أن نخوض فى مجال تحليل الأفكار أو كشف الغموض عن الـرموز، إلا إذا حددنا على وجه الدقة المصالح المتضاربة للدول فى صـراع مـا. بعد ذلك يمكن أن نمارس عملية تفكيك الإيديولوجيات السياسية سواء فى منطقة الشرق الأوسط، أو فى أى منطقة أخرى فى العالم.

غـير أنه ليس هناك نهج وحيد يمكن تبنيه للقيام بعملية التفكيك. وإذا أخذنـا – علـى سـبيل المثال – موضوع القومية فسنجد بصدده اتجاهـات نظـرية شـتى فى مجال رصد نشأتها التاريخية وبنيتها، والوظائف التى تقوم بها فى الوقت الراهن.

ومــع ذلك يمكن القول أن ميدان البحث فى القومية يسيطر عليه اتجاهان أساسيان متعارضان. والجدل الذى يدور بين أنصار كل اتجاه من هذين الاتجاهين يمكن أن يضئ لنا الجوانب المعتمة فى المواجهة بين الإسلام والغرب.

هناك أولا الاتجاه الذى يتبناه أغلب دعاة القومية وحوالى ٩٩,٩% مــن مجمــوع الإنســانية المعاصــرة، ويتضمن ذلك بعض العلماء الاجتماعيين وعدد كبير من المؤرخين. وهذا الاتجاه مفاده أن القومية وجدت منذ مئات السنين وقد يكون منذ آلاف السنين. وهذه الوجهة من النظر يطلق عليها النظرة المبدئية Primordialism.

ونقطة الانطلاق هنا أن الأمم وجدت منذ آلاف السنين، ولكل منها هوية وثقافة متميزة ولغة محددة. والقومية هى الحركة والإيديولوجية الــتى تحــدد مصير الأمة، والتى وجدت من قبل، وهذه هى النظرية البدائــية عــن القومية. والغرض من القومية – وفق هذا النظر – هو تقديــم التــبرير الــتاريخى لنشوء ودوام الأمة، وحراسة نقاء لغتها، والدفاع عنها ضد كل أنواع العدوان ضدها.

وهــناك مــن ناحية أخرى وجهة النظر المضادة التى يطلق عليه الاتجــاه "الحداثى" Modernist ، وهذا الاتجاه يذهب إلى أن القومية بحســبانها حركة وأيديولوجية هى فى الحقيقة نتاج الثورات الصناعية والسياســية فى القرنين الآخرين. بل وأبعد ذلك يذهب إلى أن التأكيد الــذى يمارسه الاتجاه الأول عن النشأة التاريخية القديمة للأمم مسألة خادعــة، ذلــك أنـــه يحاول قراءة الماضى ليعالج مشكلات الحاضر، بالإضــافة إلى توظيفه لتحديد الأصول العرقية للأمة، وتعريف لغتها وتحديــد إقليمها وحدودها، بالإضافة طبعا إلى إنشاء وتكوين تاريخها. ويضــرب هالــيداى مــثلا "بقطر" الذى يقول – مع احترامى للشعب القطــرى – هــى ليست سوى نقطة من الرمال على شاطئ الجزيرة العربــية، غــير أنهــا اليوم كدولة أصبح لها تاريخها القومى الخاص وهويتها الوطنية والتى صيغت لتحقيق أهداف حديثة ومعاصرة.

ولكن من المهم أن نؤكد أن "الاتجاه الحداثى" لا ينكر التاريخ، بل إنــه يؤكــد على أهمية كتابة تاريخ دقيق لوصف كيف تكونت ونمت الأمم، غير أنه ينكر التاريخ باعتباره معطى، وكأنه كتب من قبل بدون

تحقـيق وبـدون تدقيق. وذلك لأنه فى منطق أنصار هذا الاتجاه ليس التاريخ هو الذى يحدد هوية الدولة ولكن الاهتمامات المعاصرة للدول وخصـومها هـى الـتى تحدد الهوية، وبعد ذلك يمكن زيارة التاريخ للتحقق.

ونفـس الاتجـاه فيما يتعلق بالقومية يمكن تطبيقه على الدين. إن النقطة الجوهرية فى هذا المجال بالنسبة لكل الأديان، أن الماضى ليس مجموعـة مـن التوصيات التى يمكن تطبيقها لإدارة شئون الحاضر، وذلـك لأن أى ديـن ليس كتابا توجيهيا لتسيير شئون الحياة الحديثة. ويمكن القول أنه وراء مجموعة من المبادئ والرموز الرئيسية فى كل ديـن، فإن الماضى يمثل مجالا كبيرا لخيارات متعددة، يمكن للإنسان أن يخـتار منها لمواجهة المطالب الحديثة. ويشبه هاليداى الاتجاهات المتعارضـة فى النظر للدين تشبيها طريفاً، فيقرر أن أصحاب الاتجاه "المـبدئى" ينظرون للدين وكأنه قائمة طعام تم اختيار أصنافها بشكل ثابـت ونهائى ولا يتغير، فى حين أن أنصار الاتجاه الحداثى ينظرون للموضـوع وكأنـه ليست هناك قائمة جاهزة للطعام، وإنما عليك أن تطلـب ما تريد من مجموعة متنوعة من الأصناف، ولا قيد عليك فى عملية الاختيار.

وأيـا كان تخصصك العلمى والمهنى وسواء فى مجال الإدارة أو ضـوابط الـتعامل مع البيئة، تستطيع أن تستشير "القائمة" الموضوعة سـلفا، فـإن لم تجد ما تريد يمكنك أن تلجأ إلى "القارئ الأيديولوجى" لـيجده لـك. وأنـت دائما تستطيع أن تختار فإن لم تجد تستطيع أن تخـترع. وفى هذا المجال يمكن أن نشير إشارة مباشرة إلى محاولات بعـض المجتهدين الإسلاميين التعسف فى تأويل النصوص الإسلامية لإثـبات إنهـا تحتوى على كل شئ. ويكفى أن نشير إلى كتب عديدة تتحدث عن "الإدارة فى الإسلام" و "الاقتصاد فى الإسلام" و "البيئة فى الإسلام" بل وهناك كتب عن الإحصاء الإسلامى تذهب إلى أن وظيفته الأساسية هي إحصاء عدد الحجاج إلى بيت الله الحرام سنويا!

ونظـرا لموضـوعية هالـيداى البارزة ضرب مثلا ليس من بلد إسـلامية ولكـن مـن بريطانيا ذاتها، لبيان هذا المنحى فى الرجوع للماضى لتبرير مواقف سياسية راهنة، مما يؤكد ما قررناه من قبل فى

دراسة لنا عن "وحدة المنهج فى دراسة المجتمعات المعاصرة" نشرت فى كتابنا الأخير "الحوار الحضارى فى عصر العولمة" (نهضة مصر، ٢٠٠٢). وفــى هــذه الدراســة أكدنــا أنــه على عكس رأى بعض المستشــرقين – نســتطيع أن نطــبق نفــس المــنهج العلمى لدراسة المجتمعات المختلفة متقدمة كانت أو نامية. فليست هناك مناهج خاصة لدراســة المجتمعات العربية والإسلامية تختلف عن تلك التى تستخدم لدراسة المجتمعات الغربية المتقدمة.

يقــرر هاليداى أنه منذ عام ١٩٩٠ بدأ الناس علانية فى الاحتفال بعــيد ســان جورج (القديس جورج) فى يوم ٢٣ أبريل من كل عام. ويعرف الناس جميعا أن هذا القديس يعتبر هو الحامى لإنجلترا، وأخذ الناس منذ هذا الوقت يعبرون عن احتفالهم به برفع الإعلام التى ترمز إلــيه علــى سياراتهم، وبتصميم الملصقات التى تعبر عن مشاعرهم الفياضــة، وكان لهذا السلوك أكثر من سبب. ويرى هاليداى أنه ربما كــان ذلك تعبيرا عن معارضة الجمهور الإنجليزى للاتحاد الأوروبى وعــدم رغبــتهم فــى الانضمام إليه، ومن هنا هرعوا لتأكيد هويتهم الخاصــة مســتندين فــى ذلك إلى سانت جورج. وبغض النظر عن الأســباب، فــإن المجــتمع الإنجليزى كله من القمة إلى القاع لجأ إلى اصطناع رمز وهى عملية حداثية تتمثل فى إعادة اختراع هوية قديمة تحقــيقا لأهــداف سياســية راهنة، وإن كانت تحت ستار العودة إلى الماضــى. ويســخر هاليداى من هذا الأسلوب فى العودة إلى الماضى لتبرير موقف معين فى الحاضر، مقررا أن سان جورج تقليديا كان هو القديس الذى يحمى "الرعاة" (رعاة الأبقار والأغنام) وهؤلاء كادوا أن ينقرضوا فى إنجلترا اليوم!

ويقرر هاليداى أنه يمكن النظر إلى الدين من نفس المنظار. وليس لهــذا أى علاقة بموضوع العقيدة. فمبادئ الإسلام – على سبيل المثال – كما يشير – خمس هى الإيمان بالــله وبالرسول، وصوم رمضان، والزكاة، والحج والصلاة. غير أن الاتجاه الحداثى لا ينظر إلى العقائد إطلاقا، ولكنه يحلل التوظيفات السياسية والاجتماعية للدين. ويقرر أن هــذه العملــية تــتم فى الوقت الراهن فى كافة الأديان السماوية، فى اليهودية والمسيحية والإسلام، ذلك أن هناك حركات تحاول تأويل هذه

الأديان لتحقيق أغراض سياسية واجتماعية. فهذه الحركات تغوص فى غمـار الأديان، كما يفعل دعاة القومية، ويصوغون سياسات للتطبيق علـى الحاضـر، وهذه الاتجاهات لها تفسير حداثى قد لا يقبله غالبية الناس.

هـذا التفسـير يذهـب إلى أنك إذا نظرت إلى المبادئ السياسية والاجتماعـية الرئيسـية التى يقال أن للدين علاقة بها، فإنك لن تجد نموذجـا وحـيدا للتفسير، بل ستجد نماذج شتى، يمكن أن تختار من بينها، وفقا لنمط التأويل ونوع القراءة التى ستقوم بها للنصوص.

وبالـتالى يمكن القول أن شعاراً مثل "الإسلام هو الحل" فارغ من المضـمون فـى الحقيقة، لأن الإسلام - بعيدا عن العقائد الثابتة - له قراءات شتى.

ويقـرر هاليداى أنه تطبيقا لهذا النهج فى التحليل، لو أخذنا النظم السياسـية المطـبقة فـى الـدول الإسلامية سنجد بعضها عبارة عن ديكـتاتوريات عسكرية كما هو الحال فى ليبيا والباكستان، وهناك نظم ملكـية كالنظام الأردنى والنظام المغربى تزعم انحدارها مباشرة من صـلب الرسـول علـيه الصلاة والسلام، وهناك نظم أخرى كالنظام السعودى والعمانى لا تذهب هذا المذهب. وهناك نظام دينى فى إيران يقـوم على أساس مذهب "ولاية الفقيه" الذى يستطيع تفسير كلمات الله سبحانه وتعالى.

وهكـذا يمكـن القـول أن قضية التأويل الدينى فى كافة الأديان السـماوية تحـتاج إلـى تحليل نقدى نظرا لاتجاه عديد من الحركات السياسـية والاجتماعية لتوظيف قراءات معينة للنص الدينى فى سبيل تحقـيق أغراضـها، حتى ولو كانت مضادة للمجتمع، ومخالفة لمسار التقدم الإنسانى.

ونستطيع أن نطبق هذا التفسير على الإنتاج الفكرى لزعماء بعض الجماعات الإسلامية. والقراءة الفاحصة لهذا الإنتاج تكشف على الفور عـن التأثير المدمر للقراءات المنحرفة للنصوص الدينية، والتى كانت أساسـا لعمليات الإرهاب. ولعل ما نشره بعض زعماء هذه الجماعات مؤخـرا من كتب تتضمن نقداً ذاتيا لهذه القراءات المضللة دليل على خطورة الأفكار فى مجال التأثير على السلوك الفعلى للجماهير.

[١٤]

مشكلة الفجوة بين القول والفعل

يبدو أن حديثنا المتصل عن أوهام العداء بين الإسلام هكذا على الإطلاق والغرب هكذا بالتعميم، قد أثار ردود أفعال متعددة لدى كثير من القراء. بعضهم يوافق على أن تعميم القول عن هذا العداء لا يصمد للتحليل الدقيق ولا للنقد الصارم، على أساس أن تعارض المصالح بين الدول هو الذى ينبغى أن نلتفت إليه وندرسه، بغض النظر عن الخطاب الذى تتبناه دولة ما. ذلك أنه من اليسير رصد الفجوة الواسعة بين القول والفعل فى مجال السلوك الدولى. وقد سبق لنا أن ضربنا مثلا للخطاب السياسى الأمريكى الراهن وخصوصا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وعنوانه الدال "الحرب ضد الإرهاب على مستوى الكون".

والحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تتفرد بهذا السلوك. ذلك أن عديدا من الدول ومن بينها الدول العربية تسلك هذا السلوك وخصوصا فى مجال السياسات الداخلية فيها. وعلينا أن نقارن مثلا خطاب عديد من هذه الدول عن الديمقراطية ونقارنه بالممارسة الفعلية البائسة، أو لنأخذ خطاب حقوق الإنسان الذى تتبناه بعض الدول، ونقارنه بالتطبيق الذى يزخر بمخالفات عديدة لحقوق الإنسان العربى السياسية والاقتصادية والثقافية.

غير أن هناك قراء فى مجال الحديث عن العداء بين الإسلام والغرب، لا يوافقون على رأينا فى كون هذا العداء – بهذه الصورة الإطلاقية – عداء وهمى، بل إن بعضهم يجتهدون لتفنيد هذا الرأى.

وقد اعتدت منذ زمن طويل أن اهتم اهتماما خاصا بردود أفعال القراء، وخاصة من يوجهون ملاحظات نقدية لما أكتب. وفى هذا

المجـال تلقيـت خطابـا مـن القارئ الكريم "هيمن أحمد يونس" من كليوباترا بالإسكندرية، تعود أن يراسلنى بين الحين والحين. وقد آثرت اليوم أن اتـرك له المجال بنشر خطابه كاملا مع تعقيب وجيز على ملاحظاته النقدية الأساسية.

"الأستاذ الفاضل.. تحت عنوان أوهام العداء بين الإسلام والغرب، كانـت مقالـتكم الأسبوعية بجريدة الأهرام بتاريخ ٧ فبراير الجارى. وحـول ما جاء بمقالتكم أرجو أن يسمح لنا أستاذنا الفاضل، بالتعليق، وسوف أحاول الاختصار ما أمكننى الأمر من ذلك.

أولا: - كـان عـنوان المقال أوهام العداء بين الإسلام والغرب. ويحـق لى أن أسأل أستاذنا الفاضل هل هناك عداء بالفعل أم أن ذلك وهم كما كان عنوان المقال؟ وما هو الدليل على كون ذلك الرأى السائد بيـن العامة من الناس أمثال كاتب هذه الكلمات أن ذلك العداء موجوداً بالفعل؟

الأمـر الـثانى الذى نشير إليه هل عادى المسلم الغرب؟ وما هى مظاهر ذلك العداء وأسبابه؟ وما هو المعيار الذى نحدد به ذلك العداء إن كـان وهماً أم حقيقة؟ وإذا أخذنا نفس المعيار هل يمكن القول بأن الغرب قد عادى الإسلام؟

ثانـياً:- لقد أورد أستاذنا رأى "هاليداى" فى تحليل الفعل بدلاً من القول. وإن كان الفعل أو السلوك الإنسانى له أسبابه العديدة التى يعلمها أستاذنا جيداً. وأن الفعل أو السلوك الإنسانى لا ينتج من فراغ! فهل إذا طبقـنا ذلـك المـنهج على علاته لنرى فعل المسلم الحديث والغربى الحديث، سنجد أن هناك عداءاً أو وهماً؟

ثالثاً:- لقد كان هناك مثال الثورة الإيرانية وغزو العراق للكويت عام ١٩٨٩. ويمكن لنا القول أن هناك إغضاء لا ندرى ما سببه للعديد مـن العوامل أو الأسس التى تكون السلوك لدى الإنسان المسلم. يمكن أن نذكـر مـنها الأسس أو العناصر التالية التى يمكن أن تكون مكوناً للفعل كما ذكر أستاذنا الفاضل فى مقاله:

١ - إن مـن الأمـور الـتى تلفت نظرنا نحن العامة هى بعض الشـعارات الـتى يصر أصحاب الأقلام التى ندين لها بالاحترام على وضـع الـبعض مـنها فى مربع العلمانية والبعض الآخر فى مربع

الإسلامية أو الدينية. ومن تلك الشعارات شعارات الثورة الإسلامية في إيـــران. لأنه في تصور كاتب هذه السطور الشخصي أن نظام الحكم الـــذي يمكن أن يطلق عليه إسلامي أو غير إسلامي يتحدد في أمرين: أولـهمـــا مدى قرب أو بعد ذلك النظام من حيث أسسه الفكرية عن ما أجمع عليه علماء الدين قديمهم وحديثهم، وثانيهما التطبيق العملي لتلك الأســس علـــى أرض الواقـــع. هل سعى من يطبق تلك الأسس إلى وضعها على أرض الواقع أم أن هناك انفصالاً حاداً بين القول والفعل!

ولقـــد ظهر ذلك الانفصال في كثير من نظم الحكم التي استقر لها الأمـــر بعد نجاح ثورتها على النظم السابقة لها، نذكر منها على سبيل المـــثال لا الحصر الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي السابق، وثورة يوليو بمصر.

٢ – اســـتبعاد أثر العامل الديني في سلوك الإنسان المسلم. ولعلنا نحـــن العامة لا نجد لذلك الاستبعاد تفسيراً أو تبريراً. ولقد ظهر ذلك بوضوح تام في المسألة الإيرانية حيث ثار الشعب الإيراني ضد الشاه رغـــم محاولته للإصلاح من القمة إلى القاعدة وليس العكس، واستبعد العامل الديني وأثره في سلوك المواطن الإيراني. وكان أكثر وضوحاً فـــي المحاولـــة الفجة التي حاول بها الإعلام العراقي استخدام العامل الديـــني فـــي تحريك الشارع العربي ضد وجود القوات الأجنبية الغير مســـلمة فـــي الأراضـــي الســـعودية، رغم أن ذلك النظام الذي اتسم بالعلمانية المفرطة والمتشددة، قد استخدم أقسى درجات العنف في كبح والقضـــاء علـــى أي معارضـــة لـــه. نذكر مذبحة قرية حلبجاه التي اســـتخدمت فيها الغازات السامة، ومحاولته الفاشلة في التبرير الديني للغـــزو، وللحرب المدمرة مع إيران (قادسية صدام ... وإطلاق لقب عبد الله المؤمن).

٣ – تطبيق الأسس والمعايير التي لا تنطبق على بعض الثقافات والمجـــتمعات دون تفريق بين الموروث الثقافي لتلك المجتمعات. ومن تلك الأسس معيار العلمانية رغم أنه معيار نشأ في الدول الغربية وكان نتيجة لمقدمات عديدة نتج عنها فصل الدين عن الدولة.

رابعـــاً:– إذا أخذنـــا معيار الفعل بدلاً من القول وتم تطبيقه على سياســـات الدول الغربية عامة تجاه الدول العربية، فهل لنا أن نقول أن

ذلـــك العـــداء وهماً أم حقيقة. رغم أن هناك المقولة الشهيرة للسياسى الـــبريطانى المعروف أن لا توجد صداقات دائمة ولكن توجد مصالح دائمة! والقاعدة المعروفة أن الغاية تبرر الوسيلة، وكل ذلك قد نشأ فى الغـــرب وكـــان نـــتاج الموروث الثقافى الغربى. سنجد بعض الأمثلة الصارخة نذكر منها التالى:

أ – وعد بلفور الشهير بين القول والفعل وتفسيره!

ب – التدخل الأوروبى المتأخر فى مذابح البوسنة والهرسك! بين حـــرية الإرادة وشـــعارات الحرية وحقوق الإنسان وما تم على أرض الواقع. ومقولة الرئيس بوش الأب بعدم وجود بترول فى تلك المنطقة!

ج – الحـــروب الـــتى نـــتج عنها احتلال الدول الأوروبية لمعظم أجـــزاء العالم ومنها العالم العربى والإسلامى، وما نتج عنها، ونذكر مـــنها دخول القوات الفرنسية إلى الأزهر الشريف إبان ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية.

وأخـــيراً يمكـــن لنا القول لأستاذنا الكريم أن ذلك المقياس لم يكن صائباً لأنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل فصل القول عن الفعل أو العكس، لأن الفعل قد يكون قد تم تحت غطاء غير حقيقى أو شعار غير حقيقى. ولكن ذلك لا ينفى مطلقاً أن هناك اتصالاً بينهما. ولعل ما يحـــدث الآن فـــى أفغانستان من محاربة للإرهاب رغم أن هناك فى الـــدول الأوروبـــية من يقيم فيها من زعماء للإرهاب المعروفين لدى الجميع لدليلاً على ما نقوله.

ويتـــبقى فى هذه الرسالة الطويلة أن نتقدم لكم بوافر الشكر على تقبلكم للرأى الآخر.

ولكم وافر الشكر والتقدير"

وفى تقديرى أن بعض الملاحظات النقدية التى وردت فى خطاب الأخ هيمن أحمد يونس يحتاج إلى مناقشة، لأنه فقط عن طريق الحوار نســـتطيع أن نصل إلى جلاء الحقيقة، مع اعترافى أن الحقيقة نسبية، وليست هناك حقيقة مطلقة.

ويهمنى فى المقام الأول أن أحيى منهج القارئ فى خطابه، والذى يقـــوم فـــى المقـــام الأول على إثارة التساؤلات، ويطلب التدقيق فى

التعرف على مظاهر العداء بين الإسلام والغرب لو كان موجودا، قبل التأكيد أنه واقع أو مجرد وهم من الأوهام.

ولقد حرصنا على فكرة أساسية مبناها انه لا يجوز التعميم على "الإسلام" أو "الغرب" لأن الدول الإسلامية لكل منها سياسة داخلية وخارجية تختلف اختلافات جسيمة فيما بينها، فبعضها يتحالف تحالفا عضويا مع عدد من أبرز الدول الغربية، فأين العداء هنا؟ وبعضها يعادى بعض الدول الغربية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب سياسية واعتبارات دولية معروفة.

وقد تكون العراق نموذجا بارزا لذلك. فى لحظة تاريخية معينة وخصوصا أثناء الحرب العراقية الإيرانية كانت هناك علاقات تعاون وثيقة بين العراق وعديد من الدول الغربية على رأسها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. غير انه حين غزا العراق الكويت، انقلبت العلاقة إلى عداء سافر.

وهكذا يمكن القول، وأن العلاقات بين الدول قد تنتقل من التعاون الإيجابى إلى العداء السافر وفق تغير المصالح كما يدركها كل طرف من أطراف العلاقة.

[١٥]

جذور العداء ضد المسلمين

هــل سادت فى أوروبا موجة عداء ضد الإسلام باعتباره دينا، أو ضــد جماعات محددة من المسلمين وفى ظروف معينة ينبغى تجليتها وإبرازها؟ هذا هو السؤال المحورى الذى يضعه فرد هاليداى فى بداية مناقشته النقدية المثيرة لجذور العداء ضد المسلمين.

لقــد ســبق لـــنا أن أشرنا إلى أن الخطاب الغربى عن "التهديد" الإسلامى حافل بالزيف والمبالغة والافتقار إلى الحقائق. ومن هنا يحق الســؤال إذا كان هذا هو الوضع الحقيقى، فلماذا إذن ساد هذا الخطاب واتسعت دوائره إلى الولايات المتحدة الأمريكية وخصوصا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟

يطبق هاليداى منهج التحليل الثقافى لكى يصل إلى إجابات سليمة. وهو من ثم يرتد ببصره إلى الإنتاج الفكرى والأدبى الغربى القديم لكى يبحــث عــن الإشــارات الأولى التى تكشف عن العداء المبكر إزاء الإسلام والمسلمين. ويضرب مثلا بالشاعر الكبير دانتى وخصوصا فى إشـــارته إلـــى "التركى الفظيع". ولا ننسى أن الإمبراطورية العثمانية بحكــم زحفهــا علــى مــناطق شاسعة من أوروبا تركت من خلال ممارســات نظام حكمها السلطوى جراحا غائرة فى الذاكرة التاريخية الأوروبية. وقد ذهب بعض المنظرين الثقافــيين – من خلال فحصهم للكــتابات الــتى تلــت كتابات دانتى – إلى أن الغرب دائما كان يكره المسلمين. غير أن هذا – حتى لو كان صحيحا – لا يقدم تفسيرا لهذه الاتجاهات العدائية كما يؤكد هاليداى.

ذلـــك أنـــنا لا نستطيع الزعم بأن ما حدث فى الماضى يحدث فى الحاضـــر، إلا إذا حدثت عملية "إعادة إنتاج" لهذه الاتجاهات العدائية. وإعادة الإنتاج هنا تعنى بكل بساطة أن الناس يلقنون من خلال وسائل التنشـــئة الاجتماعية المختلفة، بالإضافة إلى التأثير الغلاب لكل أجهزة المـــيديا (الصحف والإذاعة والتليفزيون) هذا العداء. ذلك أن الناس فى الغـــرب لا يولـــدون ومعهم هذا التحيز ضد المسلمين، ويعنى ذلك أن مفـــردات خطاب العداء ومنطقه الكامن يتسرب إليهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة من قبل الأجهزة الأيديولوجية والدوائر السياسية والثقافية التى لها مصلحة مؤكدة فى تأجيج هذا العداء ضد المسلمين.

ولكن لماذا يعاد إنتاج هذه الاتجاهات المعادية للمسلمين؟

يمكـــن القـــول أن القوالـــب النمطـــية الثابـــتة عـــن المســـلمين Stereotypes فـــى الغرب ليست وحيدة البعد، ولكنها تتميز بالتعدد والتنوع.

وهـــناك تفســـير يتسم بالسذاجة المفرطة يرد جذور هذه المشاعر العدائـــية فـــى الوقت الحاضر إلى نهاية الحرب الباردة. ويذهب هذا التفســـير السائد إلى أن الغرب كان يجابه عدوا رئيسيا هو الشيوعية، وحيـــن ســـقط الاتحاد السوفيتى الممثل البارز لهذه الإيديولوجية ومعه بـــلاد الكـــتلة الاشـــتراكية، فقد احتاج إلى عدو يحل محل العدو الذى اخـــتفى، ومـــن هـــنا تم التركيز على الإسلام باعتباره العدو الجديد. ويحاول هاليداى تفنيد هذا التفسير على أساس أن الشيوعية كانت عدوا فعـــلا للغرب، على أساس التهديد الحقيقى الذى مثله الاتحاد السوفيتى له. وذلك لأن الشيوعية أرادت فعلا كما يظهر من كتابات وممارسات لينين وستالين غزو العالم والقضاء على النظام الرأسمالى. ويشهد على ذلـــك أن خلفاؤهما صنعوا خمسة وأربعين ألف سلاحا ذريا، بالإضافة إلـــى حشـــد جيش بالغ الضخامة لتحقيق هذا الهدف. وبالرغم من أن الشيوعية فشلت فى تحقيق أهدافها، فقد كانت تمثل تحديا للغرب، ومن ثم يمكن القول أن التهديد الشيوعى كان حقيقيا.

غـــير أنـــه لا يمكـــن إجراء مشابهة بين التهديد الشيوعى للغرب والذى كان تهديدا ملموسا وما يقال عن التهديد الإسلامى. ولعل السؤال الذى يطرحه هاليداى بذكاء قبل التصدى لتفنيد تهمة التهديد الإسلامى

للغرب هو: هل حقا تحتاج كل المجتمعات الى اصطناع تهديدات معينة موجهة الى أمنها حتى تمارس النظم التى تحكمها سياساتها ؟

وهو يضرب مثلا بغزو الأسبانيين والأوربيين لأمريكا. ويتساءل حين قام هؤلاء بالغزو هل كانوا مهددين حقا، من قبل منافسين لهم، أم أنهم بكل بساطة كان سعيهم مرده الى الرغبة العارمة فى تحقيق التراكم الرأسمالى ، من خلال بسط الفضاء الأوربى عن طريق زرع المستوطنات الأوربية فى أرض العالم الجديد خلاصا من المشكلات السكانية فى العالم القديم ؟ وهل هناك فى الغرب الراهن ما يشير الى أنه بحاجة حقا الى اختلاق عدو ؟

يقرر هاليداى ساخرا أن الغرب ليس بحاجة الى اختلاق عدو بقدر حاجته العارمة الى جنى الأرباح ! ويدلل على ذلك بأن العولمة ليست فى حقيقتها إلا تحويل العالم كله الى سوق شامل للبيع والشراء على أساس أن الدول الغربية الصناعية المتقدمة هى التى من خلال تفوقها التكنولوجى الكاسح الكاسب الأكبر من هذه العملية الكونية الواسعة النطاق.

وتبلغ سخرية هاليداى الذروة حين يقتبس – للتدليل على صدق تفسيره – عبارة وردت فى الخطابات الفلسفية لفولتير نصا تضمنه الخطاب السادس يقول "فى السوق ليس هناك محمديا (يقصد مسلما) ولا مسيحيا ولا يهوديا. إن الكافر الوحيد فى السوق هو المفلس !".

أما بالنسبة لمصطلح كراهية الإسلام Islamophobia فهو أيضا – فى نظر هاليداى – مضلل. لأن الخطاب يقصد المسلمين ولا يقصد الإسلام. غير أن هذا التوضيح لن يحلل المشكلة، لأن السؤال يبقى ولماذا هذا العداء ضد المسلمين؟ إذا حاولنا أن نلقى ببصرنا فى أرجاء المعمورة، لاكتشفنا أنه فى صربيا على وجه التحديد نجد أشد الاتجاهات عداوة وتطرفا ضد المسلمين أكثر من أى بلد آخر فى أوربا. ويرد ذلك الى أزمة الإيديولوجية الشيوعية وحاجة الحكومة الصربية السلطوية وزعمائها المستبدين الى طريقة لتعبئة الناس. ومن هنا لجأ الصرب الى النظريات التآمرية لإشباع الحاجات السياسية للناس.

ويمكن أن يرد جزءا من حملة العداء للمسلمين الى الأحداث والوقائع التى تمت فى الثمانينات والتسعينيات. ففى إسرائيل – على سبيل المثال – صعد اليمين الصهيونى المتطرف الذى واجهت سياساته العدوانية والاستعمارية مقاومة شرسة من "حزب الله" فى لبنان ومن منظمة "حماس" فى فلسطين، كانت له مصلحة فى التغطية على جرائمه ضد الشعب اللبنانى والشعب الفلسطينى، بإدعاء أن هناك تطرفا إسلاميا، تمارسه منظمات المقاومة .

وإذا انتقلنا الى فرنسا لوجدنا أن الخطاب المعادى للمسلمين يمكن رده الى مشكلات الهجرة الواسعة المدى التى قام بها المسلمون وخصوصا من بلاد المغرب العربى بحيث وصل عددهم الآن الى خمسة ملايين مسلم. والواقع أن الإسلام فى فرنسا يعد هو أكبر الأديان بعد المسيحية. وهناك مشكلات متعددة مردها الى انتشار البطالة بين الفرنسيين واعتبارهم أن المسلمين هم المنافسون لهم فى سوق العمل. ولابد فى هذا المجال أن نربط صعود العنصرية الجديدة فى أوربا عموما، وفى فرنسا خصوصا الى هذه الاعتبارات المتعلقة بسوق العمل. ولعل الحزب الذى يمثله "لوبن" والذى يدعو الى طرد المهاجرين المسلمين من فرنسا، والإيقاف النهائى لحركة الهجرة ، يمثل الأساس التحتى – إن صح التعبير – لهذا التيار العنصرى المعادى للمسلمين.

غير أن لظاهرة العداء ضد المسلمين أسبابا أخرى ثقافية تضاف الى الأسباب الاقتصادية. ولعل أهمها أن المسلمين المهاجرين فى أنحاء متعددة من العالم، أخذوا فى العقود الأخيرة يعبرون عن نفسهم ثقافيا، ويمارسون طقوسهم الدينية بشكل علنى ملفت، ويحيون طبقا لتقاليدهم، مما جعل سكان عديد من هذه البلاد يمارسون اتجاهات عدائية ضدهم، لأنهم لم يتعودوا العيش مع الذين يعبرون بوضوح عن تمايزهم الثقافى. وقد يعتبرون أن بعض عاداتهم تتسم بالغرابة بل وبالشذوذ والخروج عن مألوف حياتهم. ولعل المعركة التى دارت حول الحجاب فى فرنسا ومحاولة منع بعض الطالبات المسلمات المحجبات من دخول المدارس الفرنسية دليل على ما نقول.

ويمكـــن القول أنه فى عديد من البلاد الأوربية ترد مشاعر العداء ضـــد المســـلمين الى مشكلات الهجرة والبطالة، غير أن هناك أسبابا بـــرزت فـــى العقود الأخيرة، تتعلق بالإرهاب الذى مارسته جماعات متعددة ، ليست كلها إسلامية التوجه، غير أنها مع ذلك جمعت كلها فى سلة واحدة باعتبارها موجة إرهابية إسلامية. وللتدليل على ذلك يذهب هالـــيداى إلى أن الموجات الإرهابية التى قامت بها جماعات فلسطينية وخصوصـــا فـــى مجال اختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن،، كانت توجهاتهـــا علمانـــية وليســـت إسلامية، بل إن بعضها كانت توجهاتها ماركسية.

ومـــن ناحية أخرى فإن هذه الاتجاهات المعادية للمسلمين تجاهلت بتعمد أن هناك جماعات إرهابية أوربية مثل الألوية الحمراء الإيطالية وغـــيرها لا علاقـــة لها البتة بالإسلام. ويظل السؤال إذا كان الوضع هكـــذا لمـــاذا إذن ينســـب الإرهاب للمسلمين وكأنهم هم وحدهم الذين يمارسون الإرهاب فى العالم؟

وإذا انتقلـــنا الـــى الدعاية المضادة للمسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكـــية وخصوصـــا بعد الحادى عشر من سبتمبر، لوجدنا تجاهلا للإرهـــاب الأمـــريكى الذى مارسته طوال العقود الماضية ميليشيات اليميـــن الأمـــريكى. لماذا إذن لم تتهم المسيحية التى يدين بها هؤلاء الإرهابيون أنها باعثة على الإرهاب ؟

وأيـــا مـــا كـــان الأمر، يمكن القول أن وراء الاتجاهات المعادية للمســـلمين بواعـــث وأســـباب شتى تختلف باختلاف وضع كل دولة أوربـــية، وهـــذه الأسباب ليست كلها فى الواقع أسبابا اقتصاديا تتعلق بالمنافسة فى سوق العمل.

ولكـــن بعضـــها على الأقل له علاقة بعدم قبول التنوع الإنسانى الخـــلاق الذى يكشف عنه تعدد الديانات ، واختلاف الثقافات. ولايعنى ذلك بالضرورة أن سلوك المسلمين سواء داخل بلادهم أو فى المهاجر التى نزحوا إليها يتسم بالكمال. ذلك أن هناك مواضع عديدة للنقد الذى ينـــبغى أن يوجه لهم سواء على الصعيد السياسى أو الصعيد الثقافى، ولكن تلك قصة أخرى.

[١٦]

تشريح ظاهرة العداء للغرب

إذا كنا فى المقال الماضى قد حللنا جذور العداء ضد المسلمين فى المجتمعات الأوروبية، والحملة الدعائية الضخمة ضدهم فى الولايات المتحدة الأمريكية وخصوصا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فإن الوجه الآخر من العملة يتمثل فى ظاهرة العداء ضد الغرب السائدة فى البلاد الإسلامية والعربية.

وينبغى منذ البداية أن نسجل مفارقة بارزة تتمثل فى أن سلوك الحكومات العربية والإسلامية مع الغرب يختلف أحيانا اختلافات عميقة مع المشاعر الشعبية الغالبة. فعديد من هذه الحكومات لها علاقات سياسية واقتصادية وثقافية واسعة مع بلاد غربية متعددة. بل إن بعض البلاد العربية عقدت تحالفات رسمية مع الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلاد الأوروبية وخصوصا بعد الغزو العراقى للكويت.

ومن ناحية أخرى يمكن لنا أن نرصد عديداً من برامج المعونة الاقتصادية التى وجهتها دول غربية لكثير من البلاد العربية التى هى فى حاجة شديدة لتمويل برامجها الطموحة فى مجال التنمية.

فلماذا إذن هذه الفجوة بين السلوك الفعلى للحكومات العربية والاتجاهات الشعبية العدائية السائدة ضد الغرب وخصوصا ضد سياساته، وأحيانا ضد قيمه الثقافية التى ترى تيارات عربية وإسلامية متعددة أن من شأنها تخريب النسق الأخلاقى وإضعاف الهوية العربية والإسلامية، والقضاء على الخصوصية الثقافية خصوصا بعد زحف موجات العولمة؟

يتصدى فرد هاليداى لتشريح ظاهرة العداء للغرب من خلال تحليل الخطابات العربية والإسلامية التى تتناول الغرب من زاوية هيمنته السياسية واستغلاله الاقتصادى وغزوه الثقافى.

وابتداء يطرح هاليداى سؤالا رئيسيا: متى بدأت الأصولية الإسلامية؟ ولنلاحظ أولا أن لفظ "الأصولية"، ابتدعه الخطاب الغربى لوصف حالات التطرف الفكرى الإسلامى والتى انقلبت فى حالات متعددة لتصبح إرهابا صريحا موجها لبعض الدول الإسلامية بغرض إسقاط نظمها التى توصف بأنها علمانية أو بأنها لا تطبق شرع الله. وبعض صور هذا الإرهاب وجه لأهداف محددة فى بعض الدول الغربية، انتقاما من سياساتها التى رأت فيها جماعات إسلامية متطرفة أنها موجهة ضد المصالح الإسلامية.

غير أن هذه التسمية "الأصولية" باعتبارها مرادفة للتطرف والإرهاب لا يوافق عليها مفكرون إسلاميون متعددون وخصوصا من أنصار تيار الإسلام السياسى، على أساس أنها إساءة استخدام توصيف أصيل ومرغوب فى ذاته من وجهة النظر الإسلامية الصحيحة. فما الأصولية فى نظرهم سوى العودة إلى منابع الدين الصحيحة بعيدا عن الشروح عن المتون التى سادت فى عصور الانحطاط، وذلك للاستلهام المباشر من قيم الدين الأصيلة.

وبغض النظر عن هذه الملاحظة الهامة فى ذاتها والتى تكشف عن خلاف شديد فى الرأى حول مصطلح "الأصولية" بين الغربيين والإسلاميين، فإن هاليداى يجتهد فى التأصيل التاريخى لنشأة الفكر الأصولى ويتساءل متى بدأ ؟ هل عام ١٩٢٨ مع تأسيس الشيخ حسن البنا لجماعة الإخوان المسلمين، أو مع بزوغ الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب؟ ويقرر أنه بغض النظر عن تاريخ نشوء هذا الفكر الأصولى، فأهم من ذلك أن هذا الفكر وتجلياته العملية وإفرازاته فى مجال سلوك بعض الجماعات الإسلامية أصبح ظاهرة لها دلالة فى الربع قرن الأخير، وربما يمكن تحديد عام ١٩٧٠ وما تلاه، كتاريخ هام، يتفق مع بزوغ الثورة الإيرانية وما بعدها.

ويعدد هاليداى التهم التى يوجهها المسلمون للغرب والتى تكون فى الواقــع مفردات خطاب العداء للغرب، أو هى بعبارة أخرى الأسباب الكامنة وراء هذا العداء.

ولعــل أول هذه الأسباب أن الغرب سبق له أن هيمن على العالم الإســلامى سواء بصورة رسمية من خلال الاستعمار أو بصورة غير رسمية. وفى غير حالات الهيمنة والسيطرة المباشرة فهو يتدخل لغير صــالح الشــعوب الإســلامية والعربية، كما حدث فى الخليج وشمال العــراق والجزائر. والسبب الثانى الذى لعله من أهم أسباب العداء هو أن الغــرب يحاول تقسيم العالم الإسلامى. ويقرر هاليداى أم من أكثر الكلمــات الــتى تعطى مضمونا سلبيا فى الخطاب العربى هو كلمتى التقســيم والانفصــال. أما التقسيم فهو يشير إلى ما فعله الإمبرياليون الغربــيون بعد الحرب العالمية الأولى، فى الوقت الذى كان يسعى فيه العــرب للوحــدة. فقد عمدت الدول الغربية الاستعمارية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا إلى منع قيام الوحدة العربية عن طريق اتفاقية سايكس بــيكو التى كرست فى الواقع التجزئة العربية. أما الانفصال فهى كلمة تشير إلى انفصال جزء ما من دولة معينة، ولعل أهم ظاهرة انفصالية حدثت هى انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١. ويــرى هاليداى أن مشكلة الانفصال تؤرق بال القوميين العرب، وهم يــرون أن مــنطقة الحكم الذاتى للأكراد فى شمال العراق عبارة عن تقسيم وانفصال فى نفس الوقت.

وســبب آخر من أسباب العداء يتمثل فى الإدراك الإسلامى الذى مبناه أن الغرب ينظر بلا مبالاة لمعاناة المسلمين فى فلسطين والشيشان والبوسنة وكشمير وغيرها من البلاد.

ومن بين أبرز أسباب العداء للغرب هو ازدواجية المعايير الخاصة بتطبــيق مــبادئ حقوق الإنسان، فيما يتعلق بالسلوك الإسرائيلى إزاء الشــعب الفلسطينى، والذى يمثل خرقا فاضحا لكل قيم ومعايير حقوق الإنسان. ولا ترد مشاعر العداء هذه إلى مجرد التأييد الغربى لتأسيس دولة إسرائيلية عام ١٩٤٨ وما تلاها من إنكار حق الشعب الفلسطينى فــى العودة إلى أرضه التاريخية، بل إنها ترجع أيضا إلى التطورات الحديــثة فى مجال حل الصراع العربى الإسرائيلى. ذلك أنه إذا كان

الفلسطينيون قد تنازلوا – من وجهة نظر كثير من العرب والمسلمين – عن عديد من حقوقهم التاريخية فى اتفاقية أوسلو، فحتى هذه الاتفاقية التى لم تعط للفلسطينيين كامل حقولهم لم تجد طريقها إلى التنفيذ نتيجة للتعنت الإسرائيلى من ناحية، ولعدم ممارسة الدول الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى للضغوط المناسبة على إسرائيل لإجبارها على التنفيذ.

وإذا انتقلنا من جانب السياسة إلى زاوية القيم فسنجد اتهاما يتعلق بفساد القيم الغربية التى تحاول الدول الغربية بحكم قوتها التكنولوجية والاتصالية أن تغزو بها المجال الثقافى العربى من خلال الفضائيات وشبكة الاتصالات الحديثة. وإذا أضفنا إلى ذلك موجات السياح الغربيين الذين يهبطون إلى الأرض العربية بما يصاحب ذلك من سلوكيات غير مقبولة إسلامياً لأدركنا حجم المشاعر العدائية التى تكنها بعض الشعوب العربية ضد هذا النمط من أنماط التفاعل الثقافى. ويضاف إلى كل ذلك إشاعة الدول الغربية الرأسمالية لأنماط الاستهلاك الغربية التى تؤثر على قطاعات جماهيرية متعددة وفى مقدمتها الشباب، ومعنى ذلك أن العداء يكاد يتوجه إلى أسلوب الحياة الغربى ذاته، والذى يراد – لأسباب تتعلق بالهيمنة الاقتصادية والثقافية – نشره فى عديد من البلاد الإسلامية والعربية.

وأخيراً يبرز سبب خاص من أسباب العداء للغرب تتبناه على وجه الخصوص بعض جماعات الإسلام السياسى والتى ترى أن الدول الغربية تدعم النظم الديكتاتورية فى العالم الإسلامى.

ويحاول هاليداى فى مناقشته لأسباب العداء الإسلامى للغرب، أن يوضح أولا أن بعض هذه الأسباب يستند فى الواقع إلى وقائع تاريخية لا جدال بشأنها. غير أنه يقرر أن بعض هذه الأسباب وخصوصا ما يتعلق بالهيمنة السياسية ليست موجهة للمسلمين باعتبارهم مسلمين، ولكنه اتجاه عام كان يعكس منطق الاستعمار الغربى فى قارات متعددة وبلاد متنوعة تنتمى إلى ثقافات شتى وتعتنق أديانا مختلفة. ولذلك نجد أنه فى بلد مثل الصين نجد نفس الاتهامات الموجهة إلى الدول الغربية على أساس أنها تريد من خلال إشاعة النمط الاستهلاكى الغربى القيام بضرب من ضروب الغزو الثقافى الذى من شأنه إفساد القيم الصينية

الأصـــيلة. ونفس الانتقادات نجدها فى بلاد تدين بالمسيحية، بالإضافة إلى بلاد أمريكا اللاتينية.

ويشـــير هاليداى إلى أن ظاهرة الاستعمار الغربى بما صحبه من غــزو واحـــتلال طـــوال القرنين الماضيين لم يكن موجها على وجه الخصـــوص إلـــى البلاد الإسلامية، ولكن هذه البلاد وقعت فى الدائرة الاســتعمارية، بحســب أهداف الاستعمار فى كل مرحلة تاريخية. أن ظاهـــرة الاستعمار – إن أردنا أن نعطي لها الوصف الصحيح – هى التعبير البليغ عن عدم العدالة على المستوى الكونى والذى تم فى إطار النظام العالمى الحديث.

وفى النهاية يلقى هاليداى بالمسئولية علي عاتق المثقفين فى العالم الإسلامى وفى الغرب علي السواء. ويقرر أن عليهم أن يناضلوا فكريا ضد اتجاهات التطرف سواء فى ذلك أنصار التشدد الإسلامى من اتباع الخوميـــنى، وأنصـــار العـــداء للإسلام من اتباع صمويل هنتنجتون، صاحب نظرية صراع الحضارات الشهيرة.

وتـــبدو أهمـــية عمل الباحثين فى العلم الاجتماعي في مجال نقد التعميمـــيات الجازمـــة التى لا تميز بين فكر وفكر وجماعة وأخرى. فليس كل المسلمين إرهابيين، لمجرد أن جماعات ترفع شعار الإسلام قامـــت بأعمـــال إرهابية، كما انه ينبغى إبراز الحقيقة التي مؤداها أنه لـــيس كـــل الإرهابيين مسلمين. بعبارة أخرى هناك جماعات إرهابية غربـــية تعمـــل لـــتقويض نظم الدول الغربية ذاتها، فلماذا فى مجال الإرهاب لا يركز سوى على ما يطلق عليه "الإرهاب الإسلامى"؟

وأيا ما كان الأمر، يمكن القول أن الحكمة التى يمكن استخلاصها مـــن تحلـــيل العـــداء الغـــربي ضد المسلمين، والعداء الإسلامى ضد الغربيين، أن المسلمين – مثلهم في ذلك مثل غيرهم – يفعلون ما يفعله أبناء شعوب العالم جميعا.

فبعض الجماعات تحاول الحصول على السلطة، والشعوب جميعا تـــرنو إلـــي الـــنجاح فـــي مضـــمار التنمية، والتقدم فى مجال الرقى الحضارى بكل قيمه المعاصرة، وإن اختلفت نماذج التنمية هنا وهناك، وتنوعـــت معايـــير التقدم الإنسانى، وفق رؤى العالم المتنوعة، والتى تحـــاول الـــيوم مؤسسات عالمية جعلها تتناغم في إطار رؤية موحدة للعالم.

القسم الثالث

خطاب المثقفين

بين تبرير الحرب ومعارضتها

[١]

خيانة الكتبة الأمريكيين!

منذ أكثر من خمسين عاما أصدر الكاتب الفرنسى المعروف جوليان بندا كتابا اكتسب شهرة ذائعة عنوانه "خيانة الكتبة".

وفيه يفرق المؤلف اللامع بين الكتاب والكتبة ! الكتاب الحقيقيون فى نظره هم هؤلاء المثقفين الذين لا يتخلون إطلاقا عن منظورهم النقدى إزاء والمجتمع بكل ما يزخر به من ظواهر سياسية واقتصادية وثقافية. أما الكتبة فهم هؤلاء المثقفين الذين تخلوا عن دورهم النقدى، وتحولوا لكى يكونوا مبررين للسلطة فيما يتعلق بخياراتها وسياساتها فى لحظات الحرب وفى أوقات السلم.

وإذا طبقنا هذه التفرقة الذكية بين الكتاب والكتبة على المثقفين الأمريكيين فيمكن القول أنه كان هناك بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر بكل هولها ووقعها العنيف على الشعب الأمريكى، مثقفين حقيقيين رفعوا صوتهم عاليا ضد هستريا الحرب ضد الإرهاب التى شنتها الإدارة الأمريكية بقيادة الرئيس بوش.

وقد حرصنا فى متابعتنا لأصداء أحداث سبتمبر على أن نفرد مقالة خاصة لعرض آراء هؤلاء المثقفين الأمريكيين الذين لم يتوانوا عن نقد نزعات الانتقام البدائية التى حفل بها الخطاب السياسى الأمريكى، ممثلا فى الرئيس الأمريكى وأركان إدارته، أو فى الخطاب الثقافى الأمريكى ذاته ممثلا فى أصوات عدد من المثقفين والإعلاميين الأمريكيين. وعبرنا عن هذا التيار بأنه فى الواقع يمثل "صوت العقلانية الأمريكية" (راجع الأهرام فى الأول من أكتوبر ٢٠٠١) وقد بدأنا هذا المقال بعبارة افتتاحية توجز وجهة نظرنا فى عدم جواز

التعميم على المجتمع الأمريكي ولا على الشعب الأمريكي ولا على المثقفين الأمريكيين حين قررنا أنه "لا يمكن الحكم بصورة إطلاقية على حضارة ما والإدعاء أنها متقدمة أو متخلفة. كما أنه لا يجوز – إن أردنا أن نكون موضوعيين ونلتزم بقواعد المنهج العلمي في التفكير – أن نعمم الحديث عن شعب معين ونصفه بالسلبية المطلقة، أو بالإيجابية الفاعلة! فكل حضارة إنسانية كما تعلمنا دروس التاريخ، فيها الإيجابي والسلبي، وكل شعب عادة ما يضم بين جنباته تيارات فكرية وقوى اجتماعية تؤمن بالتقدم، وتيارات وقوى تنطلق من رؤى تقليدية ومحافظة وأحيانا بدائية".

غير أن الأصوات النقدية لبعض المثقفين الأمريكيين سرعان ما ضاعت في صخب الخطاب السياسي الأمريكي الرسمي الذي سيطر على الميديا الأمريكية بكل فروعها، حيث أصبحت هي لسان حال الإدارة الأمريكية، بدون أدنى مراجعة نقدية للمنطلقات الإيديولوجية والسياسات المطبقة للإدارة الأمريكية.

وقد فاجأتنا مجموعة لامعة من أبرز الأكاديميين والمثقفين الأمريكيين بإصدار خطاب موجه إلى الأمريكيين وإلى المجتمع الدولي، يتضمن تبريرهم للحرب التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإرهاب ويصفونها بأنها "حرب عادلة". وقد وقع على هذا الخطاب البالغ الأهمية ستون أكاديميا أمريكيا بارزا على رأسهم فرانسيس فوكوياما صاحب كتاب "نهاية التاريخ" الشهير، وصمويل هنتنجتون صاحب نظرية "صراع الحضارات" والتي أثارت جدلا عالميا واسعا، وأميتاي اتزيوني عالم الاجتماع الشهير وهو إسرائيلي الأصل صاحب المؤلفات العديدة عن الأخلاقيات الاجتماعية، بالإضافة إلى أسماء علماء اجتماعيين بارزين مثل تيدا سكوبول وجيمس ولسون، وغيرهم عشرات من أكبر الأسماء في العلوم الاجتماعية.

ويلفت النظر بشدة – كما وضح في مقال إدوار سعيد في جريدة "الحياة" – أن هذا الخطاب الهام الموجه للشعب الأمريكي وللمجتمع العالمي لم ينشر إطلاقا في الولايات المتحدة الأمريكية في الصحف والمجلات المطبوعة، ولكنه نشر فقط على شبكة الإنترنت. ويفسر سعيد ذلك بأنه ربما كان ذلك خوفا من موقعيه بأن يتم تناول آرائهم

بصـــورة نقدية عنيفة من قبل زملائهم فى المحيط الأكاديمي. وأيا ما كـــان الأمـــر، فـــإن هذا الخطاب فى الواقع يؤكد التفرقة التى وصفها جولـــيان بندا بين الكتاب والكتبة ! وإذا كان المثقفين الأمريكيين الذين مثلوا صوت العقلانية الأمريكية قاموا بالفعل بدور الكتاب، فإن الستين أكاديمـــيا أمريكيا الذين أصدروا هذا الخطاب قد تحولوا فى الواقع إلى "كتـــبة" كـــل همهم هو تبرير سلوك السلطة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

أبرز ملامح الخطاب

عنوان الخطاب هو "من أجل ماذا نحارب: خطاب من أمريكا" وقد أصـــدره فـــى ١٢ فبراير ٢٠٠١ "معهد القيم الأمريكية" وهو يصف الخطاب بأنه يتضمن "تحليلا دقيقا لمبادئ "الحرب العادلة" الدولية، وقد صـــادق علـــى هـــذا التحلـــيل المنظرين البارزين للحرب العادلة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

والخطاب يصف هؤلاء المسئولون عن هجمات ١١ سبتمبر على الولايـــات المـــتحدة الأمريكية أنهم ينتمون إلى "الإسلامية الراديكالية" والـــتى هى – حسب ما جاء فى الخطاب – "حركة دينية سياسية تتسم بكونهـــا عنيفة ومتطرفة وغير متسامحة والتى تهدد العالم الآن بما فى ذلك العالم الإسلامى". ويضيف الخطاب أن الحركة "تزعم أنها تتحدث باســـم الإسلام غير أنها فى الواقع تخون المبادئ الإسلامية الأساسية والـــتى تمنع القتل العمدى لغير المحاربين. ويقرر الخطاب أن الحرب ضـــد الإرهاب من شأنها أن توقف هذا الشر الكونى، وبالتالى تساعد على إقامة مجتمع عالمى مبنى على العدل".

ويتوجه أصحاب الخطاب إلى ما يطلقون عليه "إخوانهم وأخواتهم فى المجتمعات الإسلامية ويقولون لهم: بكل الوضوح نحن لسنا أعداء بل أصدقاء ونأمل أن نشترك معا وكل الشعوب صاحبة الإرادة الطيبة لكـــى نبنى سلاما عادلا ودائما. غير أن هذه الأوصاف العامة لملامح الخطاب لا تغنى عن العرض الدقيق للأفكار التى تضمنها.

ويبدأ الخطاب بمقدمة يذكر فيها أنه فى بعض الأوقات فإن أمة ما من الأمم قد تجد من الضرورى أن تدافع عن نفسها بقوة السلاح. ونظرا لأن الحرب مسألة بالغة الخطورة، لأنها تتضمن التضحية بالأرواح الإنسانية الثمينة، فإن الضمير يملى على هؤلاء الذين يأمرون بشن الحرب أن يبينوا بوضوح الأساسى الأخلاقى الذى يبنون على أساسه قراراتهم ويقومون بأفعالهم، حتى يتضح لهم وللمجتمع العالمى المبادئ التى يدافعون عنها.

ويقرر أصحاب الخطاب بعد هذه المقدمة، التى ليس هناك أى خلاف حولها، أن هناك خمسة حقائق أساسية تصدق على كل شعوب العالم بغير تمييز وهى:

١ - أن كل الناس يولدون أحراراً ومتساوين فى الكرامة والحقوق.

٢ - أن الفاعل الرئيسى فى المجتمع هو الشخص الإنسانى، والدور المشروع للحكومة هى حماية الشروط التى تؤدى إلى ازدهار الظروف الإنسانية وتدعيمها.

٣ - ينزع الناس بصورة طبيعية للبحث عن الحقيقة فى فيما يتعلق بالهدف من الحياة.

٤ - حرية الضمير والحرية الدينية هى حقوق لا يمكن خرقها بالنسبة لأى شخص.

٥ - القتل باسم الله يخالف الإيمان بالله وهو يعد الخيانة العظمى لعالمية القواعد الدينية.

ويقرر أصحاب الخطاب "أننا نحارب للدفاع عن أنفسنا والدفاع عن هذه القيم العالمية". ثم ما يلبث هؤلاء الكتبة الأمريكيين أن يطرحوا سؤالا جوهريا مبناه ما هى القيم الأمريكية؟

ويبدءون الإجابة بتقرير واقعة مؤداها أنه منذ الحادى عشر من سبتمبر فإن ملايين الأمريكيين باتوا يسألون أنفسهم ويسألون بعضهم بعضا لماذا حدث ما حدث؟ ولماذا كنا ضحايا هذه الهجمات التى تعبر عن كراهية عميقة؟ ولماذا نزع هؤلاء الذين يخططون لقتلنا إلى قتلنا؟

ويقررون - من باب النقد الذاتى حتى يسوغون شن الحرب العادلة المزعومة من بعد - "أننا نعترف بأننا فى بعض الأوقات فإن

أمتـــنا قـــد تصرفت بعنجهية وجهل مع مجتمعات أخرى. وفى بعض الأحـــيان فإن أمتنا قد طبقت سياسات خاطئة وغير عادلة. وكثيرا ما فشلت أمتنا فى أن تعيش وفقا للمثل العليا التى تؤمن بها. ولا يمكن لنا أن نشجع مجتمعات أخرى أن تطبق المبادئ الأخلاقية بغير أن نعترف فـــى نفـــس الوقـــت بفشل مجتمعنا فى بعض الأوقات أن يطبق نفس المـــبادئ. غير أننا قد اجمعنا الرأى – ونثق فى أن كل الشعوب ذات الإرادة الخـــيرة فى العالم ستتفق على أنه لا يمكن بالاستناد إلى تعداد مـــزايا أو عـــيوب سياســـات خارجية معينة، تبرير المذابح الجماعية لأشخاص أبرياء، ناهيك عن العجز عن فهم هذا السلوك.

وبالإضـــافة إلـــى ذلـــك فإنه فى نظام ديمقراطى كالذى يسود فى الولايـــات المـــتحدة الأمريكية، حيث تستمد الحكومة قوتها من رضاء المحكومين عنها، فإن السياسات تشتق فى جانب منها – أو هكذا ينبغى أن يكـــون الأمـــر – من الثقافة، أى من القيم والأسبقيات التى يضعها المجتمع ككل لنفسه.

ويقـــرر أصحاب الخطاب أنه بالرغم من أنهم لا يمتلكون المعرفة الكاملـــة عن دوافع المهاجمين فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر هم والمتعاطفيـــن معهـــم، فإن قدر المعرفة الذى حصلوا عليه يسمح لهم بإدراك أن معاناة هؤلاء المهاجمين وأسباب شكواهم تتجاوز فيما يبدو سياســـة أمريكية معنية أو مجموعة ما من السياسات. وتتمثل المشكلة فى أن القتلة فى أحداث سبتمبر لم يصدروا أى بيان يتضمن طلباتهم، أو يعكســـوا أســـباب معاناتهم، ومعنى ذلك – يقرر أصحاب الخطاب بـــبراءة مـــزعومة وسذاجة بارزة فى نفس الوقت – أن هؤلاء القتلة مارسوا القتل من اجل القتل!

ثم يضيفون أن قائد تنظيم القاعدة (أسامة بن لادن) وصف أحداث ســـبتمبر بالضربات المباركة التى وجهت ضد أمريكا باعتبارها "رأس الكفـــر فـــى العـــالم". ويعقـــب أصحاب الخطاب أنه من الواضح أن المهاجمين لا يحتقرون فقط حكومتنا ولكن مجتمعنا بالكامل، وأسلوب حياتـــنا. ومعنى ذلك أنهم لا ينتقدون حكامنا فقط، ولكن ينتقدون القيم التى نعتنقها كشعب ومجتمع.

ويخلص أصحاب الخطاب فى نهاية هذه البداية إلى سؤال هام: إذا كـــان هذا صحيحا فعلينا أن نسأل أنفسنا: من نحن وما هى القيم التى نؤمن بها؟

سؤال هام يستحق أن نتابع إجابته فى مرة قادمة.

[٢]

التصور الذاتى للقيم الأمريكية

طـــرح المثقفون الأمريكيون فى خطابهم الذى وجهوه للأمريكيين وللعالم والذى عرضنا لأبرز قسماته فى المقال الماضى (خيانة الكتبة الأمريكيين، الأهرام، ٢١ مارس) سؤالا بالغ الأهمية هو من نحن وما هى القيم التى نؤمن بها؟

وحيـــن يطـــرح السؤال بهذه الصيغة فهو يمسّ مباشرة ما يطلق عليه فى علم النفس الاجتماعى "مفهوم الذات" Self Concept وهو يعـــنى التصـــور الذى قد يقدمه فرد معين أو مجتمع محدد عن نفسه، وأحـــيانا مـــا قـــد تقدمـــه ثقافة ما عن إطارها القيمى من تصورات ذاتية.

ومفهـــوم الذات يثير مشكلات نظرية وتطبيقية متعددة. فلدينا أولا مشكلة مدى تطابق النظرة الذاتية مع الواقع الموضوعى. فكثيرا ما يقع الفـــرد أو المجـــتمع أو الـــثقافة فـــى صياغة صورة الذات فى شرك الـــتهويل، بمعـــنى نســـبة مجموعة سامية من القيم تدل على الإكتمال الإنسانى للفرد أو المجتمع أو الثقافة. وأحيانا – نتيجه عوامل تاريخية متعددة – قد يقع الفرد أو المجتمع أو الثقافة فى فخ التهوين من الذات. يحـــدث ذلك أحيانا فى لحظات الهزيمة أو فى عصور التخلف الثقافى. وربما نجد فى الأدبيات العربية التى صدرت عقب هزيمة حرب يونيو ١٩٦٧ والتى كانت زاخرة بنقد الذات والتى وصلت فى بعض الأحيان إلى جلدها، تعبيرات متعددة تنزع إلى التهوين من الذات نتيجة مشاعر الإحباط واليأس.

والمشـــكلة الثانية فى مجال مفهوم الذات هو قدرة الفرد والجماعة والمجتمع على تجاوز حدود "الذاتية" وممارسة النقد الذاتى الذى يكشف السـلبيات ويعـترف بجوانـب القصور، سواء فى مجال بعض القيم السائدة، أو فى نطاق السلوك الاجتماعى الممارس.

لـنر فـى ضـوء هذه الملاحظات النظرية كيف أجاب المثقفون الأمريكـيون الـبارزون وفى مقدمتهم فوكوياما وهنتنجتون واتزيونى على سؤال من نحن وما هى القيم التى نؤمن بها؟

يقـرر الموقعون على هذا الخطاب التاريخى الذى صدر بعد ١١ سـبتمبر لتبرير "الحرب العادلة" التى شنتها أمريكا ضد الإرهاب، أن عديـدا مـن البشر ومن بينهم أمريكيون كثيرون من بينهم بعض من وقعـوا الخطـاب، يرون أن بعض القيم السائدة فى أمريكا غير جذابة وأخطـر مـن هـذا أنهـا ضارة. ولعل أبرزها "النزعة الاستهلاكية" Consumerism كأسـلوب للحياة، وكذلك فكرة "الحرية" التى تفهم أحـيانا وكأنـه ليست هناك قواعد تضبط سلوك البشر، بالإضافة إلى القـيمة التى تذهب إلى تصور "الفرد" وكأنه صنع ذاته بذاته، ويسلك بحسبانه كائنا مستقلا استقلالا تاما لا يدين فى إنجازه إلا بالقليل سواء بالنسبة للآخرين أو المجتمع ذاته. وإذا أضفنا إلى ذلك ظواهر ضعف مؤسســة الزواج وتدهور الحياة العائلية، وغزارة إنتاج أجهزة الترفيه والاتصـال التى تمجد بعض هذه القيم السلبية والتى يصل آثارها إلى كـل ركـن من أركان المعمورة، لأدركنا لماذا يتبنى الناس سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى العالم اتجاهات سلبية إزاء مثل هذه القيم.

ولقـد كان أمرا بالغ الأهمية – هكذا يقرر المثقفون الأمريكيون – "بالنسـبة لـنا فى أمريكا وذلك قبل أحداث ١١ سبتمبر أن نبذل الجهد الكـافى لكى نتصدى بأمانة لهذه القيم السلبية وما ينتج عنها من سلوك اجتماعى وثقافى لتعديلها وتصويب مساراتها إلى الأفضل".

غـير أنه هناك – كما يرى المثقفون الأمريكيون – بالإضافة إلى هـذه القـيم السـلبية قيم أمريكية إيجابية تعتبر فى نظرهم المثاليات الأساسية والتى تحدد الأسلوب الأمريكى فى الحياة. ويضيفون إلى ذلك

أن هذه القيم لها صفة الجاذبية ليس للأمريكيين فقط ولكن بالنسبة لكل البشر فى العالم. وهذه القيم أربعة وهى:

أولا الاعتقاد فى أن كل الناس يمتلكون غريزيا إحساسا بالكرامة الإنسانية يولد معهم، ومن ثم ينبغى – كنتيجة لازمة – أن يعامل كل شخص باعتباره غاية فى ذاته وليس وسيلة لتحقيق غرض من الأغراض. ويقرر الموقعون على الخطاب أن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية استندوا إلى أفكار القانون الطبيعى وكذلك على الدعاوى الدينية الأساسية والتى تذهب إلى أن الناس جميعا خلقوا على صورة الرب، ومن ثم أسسوا على ذلك نتيجة هامة مفادها فكرة اعتبرت واضحة ولا تحتاج إلى دليل، وهى أن جميع الناس يمتلكون الإحساس بالكرامة بنفس القدر.

ولعل التعبير السياسى البليغ الذى يترجم هذه الفكرة هو الديمقراطية كنظام سياسى. ويقرر المثقفون الأمريكيون أنه فى الولايات المتحدة الأمريكية – وخصوصا فى العقود الأخيرة – فإن من أوضح التعبيرات الثقافية عن هذه القيمة الفكرة التى مؤداها ضرورة تحقيق الكرامة المتساوية للرجال والنساء والناس جميعا بدون تمييز بسبب السلالة أو اللون.

والقيمة الثانية المستخلصة من القيمة الأولى الاعتقاد فى أن الحقائق الأخلاقية العالمية، وما أطلق عليه الآباء المؤسسون قوانين الطبيعة وطبيعة الله موجودة ويعرفها جميع الناس.

ومن أبلغ التعبيرات فى مجال الاعتماد على هذه الحقائق موجودة فى إعلان الاستقلال وفى خطاب الوداع لجورج واشنطن، وفى الخطاب الذى أرسله من سجنه الدكتور مارتن لوثر كنج.

أما القيمة الثالثة فهى الاعتقاد أن الطرق الفردية والجماعية للوصول إلى الحقيقة ليست معبدة دائما، ولذلك فإن أغلب الاختلافات حول القيم تدعو إلى اصطناع طرق متحضرة، بما فى ذلك الانفتاح على الآراء الأخرى، واتباع الجدل العقلانى للبحث عن الحقيقة.

وتبقى القيمة الرابعة ومفادها حرية الضمير وحرية الدين. وهاتين الحريتين المرتبطتين ببعضهما بصورة عضوية، معترف بهما على نطاق واسع سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى غيرها من

البلاد، باعتبارهما ترجمة للكرامة الإنسانية وكشرط مسبق فى نفس الوقت للحريات الفردية والأخرى.

القيم الأمريكية فى التطبيق

وبعد أن فرغ المثقفون الأمريكيون فى خطابهم من سرد هذه القيم الأمريكية الأساسية علقوا على ذلك بأن أبرز ما يتعلق بها هو أنها تنطبق على جميع الأشخاص بغير تمييز، ولا يمكن أن تستخدم لاستبعاد أى فرد من مجال الاعتراف به وحقوقه أيا كان وضعه سواء بالنسبة للسلالة التى ينتمى إليها أو لغته أو دينه. ولعل ذلك يفسر - كما يقررون - أن أى شخص من ناحية المبدأ يمكن أن يكون أمريكيا بالتجنس. والواقع يؤكد ذلك لأن عديدا من البشر اكتسبوا الجنسية الأمريكية وهم ينتمون إلى سلالات وأديان شتى. وفى تقدير هؤلاء المثقفين الأمريكيين أصحاب الخطاب الذى نعرض له، أنه ليست هناك أمة فى العالم أسست هويتها الجوهرية ودستورها وكذلك وثائقها الأخرى المؤسسة لها وكذلك مفهومها عن ذاتها بطريقة مباشرة وواضحة وصريحة على أساس القيم الإنسانية العالمية غير الأمة الأمريكية. وهذه بالنسبة لهم - كما يقرون - هى أهم سمة تميز الولايات المتحدة الأمريكية.

ويقرر المثقفون الأمريكيون فى خطابهم أن بعض الناس يؤكدون أن القيم الأمريكية التى تم بيانها ليست عالمية إطلاقا، وإنما هى مشتقة على وجه الخصوص من الحضارة الغربية والتى هى مسيحية إلى حد كبير. وينتهون بالتالى إلى أن الزعم بعالمية هذه القيم لا أساس له، لأن فى ذلك إنكار لخصوصية الثقافات الأخرى، وردا على هذا الاعتراض يقررون أنهم لا يتفقون معه. ففى الوقت الذى يعترفون به بإنجازات الحضارات الأخرى، فهم يقررون أنهم يعتقدون فى عالمية الحرية الإنسانية وإمكانية تحققها، وأن هناك حقائق أخلاقية أساسية معترف بها فى كل أرجاء العالم. وهم يتفقون مع المجموعة العالمية التى تشكلت من الفلاسفة البارزين والذين ساعدوا فى أواخر الأربعينات على صياغة الإعلان العالمى عن حقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم

المتحدة، والذى قرر فى ختامه أن هناك عددا محدودا من الأفكار الأخلاقية الأساسية واسعة الانتشار لدرجة "يمكن اعتبارها متضمنة فى طبيعة الإنسان ذاته باعتباره عضوا فى المجتمع".

ويقرر المثقفون الأمريكيون فى ختام هذه الفقرة الهامة من خطابهم الموجه للأمريكيين وللعالم، أنهم إذا نظروا إلى مجتمعهم فإنهم يدركون أن هناك فجوات متعددة تبدو بين القيم المعلنة والسلوك الفعلى. غير أنهم – وخصوصا فى زمن الحرب والأزمة الكونية – يرون كأمريكيين أن أفضل ما فى هذه القيم الأمريكية لا ينتسب فقط إلى أمريكا، ولكنه فى الواقع تراث مشترك للإنسانية، ومن ثم يمكن أن تصبح هذه القيم أساساً ممكنا للأمل فى تأسيس مجتمع عالمى يقوم على السلام والعدل.

وإذا كانت هذه هى النظرة الذاتية للقيم الأمريكية كما عرضتها مجموعة من المثقفين الأمريكيين فى خطابهم التاريخى، فالواقع أنه تنطبق عليها كل الملاحظات التى سجلناها فى صدر المقال عن مشكلات مفهوم الذات حين يصوغه فرد أو مجتمع ما عن نفسه. وإذا كان من الإنصاف أن نذكر أنه ليس هناك على وجه الإطلاق مجتمع إنسانى كامل، ولا ثقافة معاصرة مثالية، لأنه ستوجد دائما – بسبب قصور البشر – فجوات بين المثال والواقع، إلا أن محك التقييم الموضوعى هو مدى اتساع الفجوة بين القيم والسلوك، سواء بالنسبة لأداء المجتمع نفسه فى الداخل، أو بالنسبة لعلاقة الدولة بغيرها من الدول فى مجال السياسة الخارجية.

ولعل ما يلفت الانتباه بالنسبة للحالة الأمريكية أن الفجوة كانت واسعة وعميقة حقا بين القيم والسلوك فى مجال إنكار حق المساواة بين البيض والسود، الذين خاضوا معركة بطولية لنيل حقوقهم وفقا للدستور الأمريكى ذاته، وكذلك الأمر، بالنسبة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية التى مارست تجاوزات غير ديمقراطية فاضحة فى عديد من بلاد أمريكا اللاتينية من زاوية دعمها للنظم الديكتاتورية، بالإضافة إلى حربها غير العادلة ضد فيتنام والتى مارست فيها جرائم متعددة ضد المدنيين.

وهاهى الولايات المتحدة الأمريكية تعود اليوم لممارسة حرب غير عادلة ضد ما تطلق عليه الإرهاب، موجهة لعديد من دول العالم بغير سند من الشرعية الدولية، أو من قواعد العدل، فكيف لهؤلاء الكتبة الأمريكيين أن يصدروا خطابهم لتبرير ما يطلقون عليه الحرب الأمريكية العادلة؟

[٣]

هل العقيدة الدينية مشكلة أم هى جزء من الحل؟

هناك إجماع بين الباحثين فى مجال الدراسات الثقافية على أنه لا ينبغى على الإطلاق استخدام كلمة "المثقفين" هكذا على وجه الإجمال وبدون التمييز الضرورى بين فئاتهم. وهكذا حين ميزنا – فى مجال عرض وتحليل ونقد خطاب المثقفين والأكاديميين الأمريكيين إلى الشعب الأمريكى والمجتمع العالمى بصدد أحداث الحادى من سبتمبر – بين الكتاب والكتبة كنا فى الواقع نحترم تقليداً علميا مستقرا فى سوسيولوجيا الثقافة. فالكتاب هم المثقفون النقديون الذين لا يتخلون إطلاقا فى التعرض لأى ظاهرة عن المساءلة، أما الكتبة فهم المثقفون المبررون للسلطة سواء فى مجال السياسة الداخلية أو فى ميدان السياسة الخارجية. وحين تتبرى مجموعة من أبرز العلماء الاجتماعيين الأمريكيين لتبرير الحرب الأمريكية ضد الإرهاب والموجهة فى الواقع لعشرات الدول والمؤسسات بدون أى تمييز، وبغير أى ضوابط وينعتونها بأنها "حرب عادلة" فهم فى الواقع يقومون بالدور التقليدى الذى قام به "الكتبة" عبر التاريخ، ونعنى التخلى عن ضمائرهم المهنية والاجتماعية، ووضع أنفسهم فى خدمة السلطة المستبدة لتبرير جرائمها ضد الإنسانية أو ضد المجتمع.

ولسنا فى حاجة لمن يذكرنا بضرورة الحوار مع هؤلاء، فنحن من أنصار الحوار حتى مع الشيطان، مع إدراكنا المسبق أن مثل هذا الحوار عقيم وغير منتج، نظرا للتحيز المسبق للكتبة لقرارات السلطة الأمريكية غير الشرعية. وهو تماما مثل الحوار مع مجرم الحرب شارون الذى بيت النية على إبادة الشعب الفلسطينى، وتصفية السلطة

الفلسطينية. أى حوار يجرى مع شارون؟ اللهم إلا إذا كان حوارا تصادميا لا تغنى فيه الكلمة عن استخدام حق المقاومة المشروع.

دور الدين فى المجتمع

ولأن الذين قاموا بالأعمال الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر - كما تقرر المصادر الأمريكية الرسمية - هم مجموعة من المسلمين الذين رفعوا شعارات الدين لتبرير أفعالهم، فقد كان منطقيا أن يتعرض خطاب المثقفين الأمريكيين فى فقرة هامة منه إلى دور الدين فى تشكيل اتجاهات الناس، وفى تحديد أنماط سلوكهم الفعلى.

وفى تقديرنا أن الخطاب حين ذكر واقعة هامة مفادها أن الأمريكيين بعد الحادى عشر من سبتمبر طرحوا تساؤلات خاصة بالله وبالدين، وهذا اتجاه طبيعى ينزع إليه الناس فى أوقات الأزمات الكبرى، قد وفق تماما حين طرح السؤال: هل العقيدة الدينية - أيا كانت - جزء من الحل أم هى جزء من المشكلة؟

بعبارة أخرى هل العقائد الدينية والتشبث بها والدفاع المستميت عنها يمثل حلا من الحلول الناجعة للمشكلات السياسية والاجتماعية، أم أن هذه الممارسة تعد سببا من أسباب المشكلات التى تواجه المجتمع المحلى أو المجتمع العالمى؟

وينطلق المثقفون الموقعون على الخطاب من تقرير حقيقة مفادها أنهم ينحدرون من تقاليد مختلفة دينية وأخلاقية بما فى ذلك التقاليد العلمانية. ومع ذلك - كما يقررون - فهم مجمعون على الإيمان بأن استدعاء كلمة الله لتبرير قتل آدميين مسألة لا أخلاقية ومضادة فى نفس الوقت للإيمان بالله. ويقررون أن كثيرا من بينهم يؤمنون بالله ويعتقدون أنهم يسلكون تحت رقابته. غير أنهم جميعا لا يعتقدون بأن الله أوحى إلى بعض الناس لكى يقتلوا الأبرياء أو يقهروهم باسمه. ذلك أن هذا المسلك وسواء تم تحت شعار "الحرب المقدسة" أو "الحرب الصليبية"، لا تمثل فقط خرقا للمبادئ الأساسية للعدل، وإنما هى فى الواقع إنكار للعقيدة الدينية ذاتها، لأنها تحول الله سبحانه وتعالى إلى أداة تستخدم لتحقيق أهداف البشر. ويقرر هؤلاء المثقفون أصحاب

الخطــاب أن الأمة الأمريكية سبق لها أن خاضت حربا أهلية عظمى، وادعى كل طرف من أطرافها أن الله يقف فى صفه، غير أن الرئيس العاشر للولايات المتحدة الأمريكية ابراهام لنكولن قرر بهذا الصدد فى خطابه عام ١٨٦٥ "أن الله بعيداً عن البشر له أهدافه الخاصة".

ويقرر الموقعون على الخطاب أن الذين هاجموا الولايات المتحدة الأمريكية فى الحادى عشر من سبتمبر زعموا صراحة أنهم منغمسون فى حرب مقدسة. وعديد من الذين أيدوهم أو تعاطفوا معهم يبدو أنهم تبــنوا مــنطق "الحرب المقدسة". غير أنه لإبراز الطابع الكارثى لهذا النمط من التفكير يقرر أصحاب الخطاب أنهم كأمريكيين ينبغى عليهم أن يســتدعوا الذاكــرة التاريخية الغربية لكى يتذكروا الحروب الدينية المســيحية التى وقعت، والعنف الانفصالى المسيحى الذى فرق أوروبا طــوال قرن كامل تقريبا. ويضيفون - من باب النزاهة الفكرية - أنه فــى الولايــات المتحدة الأمريكية هناك جماعات مارست القتل باسم العقــيدة الدينية جزئيا على الأقل. ويؤكدون أنه بالنسبة لهذا النمط من أنماط الشر، فإنه ليست هناك حضارة يمكن أن تبرئ نفسها تماما منه، وكذلك ليس هناك دين أيا كان أفلت من هذه الدائرة الشريرة.

ويطــرح أصحاب الخطاب مجموعة من التأملات تتعلق بالإنسان بحســبانه إنسانا. ويقررون أن الإنسان عادة لديه دافع أساسى للتساؤل بغــرض المعرفة. ومن ثم فالتقييم والاختيار والتماس المبررات لتأكيد ما نقدره ونحبه من قيم، مسيرة فكرية تميز الإنسان. ولعل أحد الأسئلة الهامــة الــتى تطرحها هذه النزعة للتساؤل هو لماذا ولدنا وما الذى ســيحدث لنا حين نموت، مما يدفعنا للبحث عن الأهداف القصوى من الحــياة، وهــو ما يدفع بكثير من الناس إلى التساؤل عن الله ومحاولة معرفة الحكمة الإلهية.

وبعــض الموقعيــن علــى الخطاب يعتقدون أن الناس "متدينين" بطبيعــتهم، بمعنى أن كل شخص- حتى هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا يــؤدون الطقوس الدينية- لابد لهم أن يتأملوا فى القيم العليا التى تحكــم الوجود، وهم بصدد تحديد اختياراتهم الهامة فى الحياة. وجميع الموقعين يعترفون أنه عبر العالم فإن العقيدة الدينية والمؤسسات الدينية أعمــدة هامة للمجتمع المدنى، وهى غالبا ما تنتج ثمارا طيبة بالنسبة للمجتمع، وإن كانت فى مراحل معينة قد تؤدى إلى الانقسام والعنف.

ويطرحون سؤالا هاما: كيف يمكن للحكومات والقادة الاجتماعيين أن يستجيبوا لهذه الحقائق الإنسانية والوقائع الاجتماعية؟

ويجيبون أن أحد الحلول المحتملة هو تحريم الممارسات الدينية أو قهر الدين. وهناك حل آخر يتمثل فى تبنى علمانية إيديولوجية، بمعنى تبنى اتجاه قوى ينزع للتشكك الاجتماعى فى الدين أو يمارس نزعة عدائية له، وذلك على أساس أن الدين بذاته وخصوصا التعبيرات العلنية عنه يمثل مشكلة. وهناك اتجاه ثالث هو أن ينظر لدين معين باعتباره الدين الحق الوحيد واعتباره عقيدة رسمية تفرض على كل أعضاء المجتمع، ومن ثم تتبناه الدولة وتدعمه بكل الوسائل والطرق.

ويقرر المثقفون الأمريكيون أنهم مختلفون مع كل هذه الاتجاهات الثلاثة. ذلك لأن القمع القانونى فى مجال الدين يخرق الحريات المدنية والدينية، وهو يتعارض مع مبادئ المجتمع المدنى الديموقراطى. وبالرغم من أن العلمانية الإيديولوجية قد انتشرت – كما يقررون – فى المجتمع الأمريكى فى العقود الأخيرة، إلا انهم يختلفون معها لأنها تنكر الشرعية العامة لجزء هام من المجتمع المدنى، إلى جانب أنها بذلك تنزع إلى قمع أو إنكار وجود بعد هام من أبعاد الشخصية الإنسانية ذاتها.

وبالرغم من أن النظم الثيوقراطية (حكم رجال الدين) ساد فى التاريخ الغربى (وإن لم يحدث فى التاريخ الأمريكى) فى مراحل تاريخية معينة، إلا أن أصحاب الخطاب يختلفون معه لأسباب اجتماعية ولاهوتية فى نفس الوقت. من الناحية الاجتماعية هذه النظم التى تؤسس على دين معين يمكن أن تصطدم بمبدأ الحرية الدينية، وهو حق إنسانى أساسى. ومن ناحية أخرى فإن السيطرة الحكومية على الدين يمكن أن تؤدى إلى صراعات دينية لا نهاية لها، مما قد يؤدى إلى تهديد حيوية وأصالة المؤسسات الدينية ذاتها. أما من الناحية اللاهوتية، فإن الذين يؤمنون بقوة بحقيقة عقيدتهم الدينية، فإنهم حين يقهرون الآخرين فى مجال الاعتقاد الدينى، فإنهم فى الواقع يخالفون مبادئ الدين الصحيحة، حين يكرهونهم على الاعتقاد بمذهب دينى معين.

ويخلص أصحاب الخطاب إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية فى أحسـن حالاتهـا تحاول أن تكون مجتمعا يوفق بين العقيدة والحرية، بحيث يسند أحدهما الآخر. والدولة الأمريكية دولة علمانية، بمعنى أن الموظفين الرسميين ليسوا موظفين دينيين، وإن كانوا يقررون – بتأكيد مـبالغ فـيه فى الواقع – أن المجتمع الأمريكى أكثر مجتمعات العالم الغـربى تدينا. والأمة الأمريكية – كما يرون – تحترم بعمق الحرية الدينـية وحـق الاختلاف، بما ذلك حقوق غير المؤمنين، وذلك تحت شـعار "أمـة واحدة فى ظل الله". ويؤكد ذلك أن الشعار المرفوع فى المحاكم والمنقوش على عملتها هو "نثق بالله". أما من الناحية السياسية فـإن الفصل بين الكنيسة والدولة يهدف إلى تحديد السياسة فى مجالها الصـحيح، على أساس تحديد قوة الدولة فى مجال السيطرة على الدين مـن ناحـية، ودفع الحكومة نفسها إلى أن تلتمس الشرعية وتعمل فى ضوء معايير أخلاقية ليست من صنعها.

أما من الناحية الروحية، فإن الفصل بين الكنيسة والدولة، هو الذى يسـمح للديـن بـأن يكـون دينا حقا، وذلك بفصله من القوة القامعة للحكومة. بعبارة أخرى الفصل بينهما يؤدى إلى حماية كل منهما حتى لا يجور على الآخر، وفى ذلك ضمان لإبقاء الحيوية فاعلة فى كل من الكنيسة والدولة.

ويقـرر أصحاب الخطاب أخيرا أنه بالنسبة للأمريكيين المؤمنين بالعقـيدة الدينـية فإن تحدى الجمع بين العقيدة الدينية واحترام الحرية الدينية فى نفس الوقت لم تكن مجابهة سهلة على الإطلاق. غير أنه فى المجـتمع الأمريكى الذى يقوم على أساس منظمات دستورية ومتعددة، فـإن مجابهـة هـذا الـتحدى يحتاج إلى التساؤل والمناقشة والتكيف والوصـول إلـى حلـول وسط. وهو يحتاج إلى إنتاج نمط معين من المزاج يؤدى بهؤلاء المؤمنين بعقائدهم الدينية إلى أن يؤمنوا بالحرية الدينية للآخرين فى نفس الوقت.

ويطـرح أصحاب الخطاب سؤالا أخيرا وهو : ما الذى يمكن أن يساعد على تقليل الشك وعدم الثقة فى مجال الدين، وتخفيض معدلات الكراهـية والعـنف فى القرن الحادى والعشرين؟ والإجابة لديهم هى تعمـيق الاعـتراف بدور الدين فى المجتمع من خلال احترام الحرية الدينية بحسبانها حقا أساسيا لجميع الناس فى كل أمة من الأمم.

[٤]

أوهام الحرب العادلة !

كل ما عرضنا له من قبل من أفكار بسطها خطاب المثقفين الأمريكيين الذى وجهوه للشعب الأمريكى وللعالم عن أحداث الحادى عشر من سبتمبر عن القيم الأمريكية ودور العقيدة الدينية، لم يكن سوى تمهيد لتبرير نظرية الحرب "العادلة" التى تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإرهاب. وينبغى أن نلتفت منذ البداية إلى أن هذه الحرب بدأت أولا بتوجيه الاتهام – بغير دليل يقينى – إلى أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة، ومن ثم وجهت آلة الحرب ضده مباشرة، ثم ما لبثت أن اتسعت الدائرة لتشمل دولة طالبان على أساس أنها آوت بن لادن ورفضت تسليمه، وحين بدأت الحرب فسرعان ما تحولت لتضرب فى عمق أفغانستان بغير تمييز بين مقاتلى طالبان والمدنيين، وهكذا وقعت فئات متعددة من الشعب الأفغانى ضحية هذه الحرب العادلة!

غير أن أخطر من هذا كله، التصريحات التى انطلقت من الرئيس بوش وأركان أدارته والتى مفادها أن الحرب ضد الإرهاب مستمرة ولن تتوقف، وأنها ستوجه فى مراحل لاحقة إلى "محور الشر" والذى يتمثل فى كوريا الشمالية وإيران والعراق وقد يشمل أيضا سوريا وليبيا. وهكذا انطلقت الحرب ضد الإرهاب لتصبح هى بذاتها إرهابا عالميا ولا تستند إلى أى شرعية دولية ولا إلى أى معيار قانونى. وهكذا رأينا نائب الرئيس الأمريكى تشينى يقوم بجولة على الدول العربية لإقناعها بضرورة ضرب العراق فى الوقت الذى تحاول فيه الدولة الإسرائيلية العنصرية المجرمة إبادة الشعب الفلسطينى. وقد عاد

تشيني من جولته خاسرا بعد أن رفضت كل الدول العربية بدون استثناء مشروع ضرب العراق بما فيها الكويت.

ويأتي هؤلاء المثقفون الأمريكيون الانتهازيون لكي يبرروا ما أطلقوا عليها الحرب العادلة. وهم يبدأون دفاعهم بتقرير أن الحرب عموما في نظرهم مسألة فظيعة وهي تكشف عن الفشل السياسي الإنساني في تجنبها ويضيفون أنهم يعرفون أن الخط الفاصل بين الخير والشر لا يمكن تحديده بين مجتمع وآخر، ولا بين دين وآخر، ذلك أنه يجري داخل كل قلب إنساني. ويقولون أن اليهود والمسيحيون والمسلمون وغيرهم من المؤمنين يعترفون بأن عليهم مسئولية منصوص عليها في النصوص المقدسة وهي أن يجنحوا في أفعالهم إلى الرحمة ويفعلون كل ما في قوتهم لمنع الحرب والعيش في سلام.

غير أن العقل والتأمل الأخلاقي العميق – كما يقول هؤلاء المثقفون الأمريكيون – يؤديان إلى نتيجة مفادها انه في أوقات معينة لابد لمواجهة الشر من وقفه. وهكذا فإنه في بعض الحالات فإن شن الحرب ليس فقط مبررا أخلاقيا، بل إنه يعد ضرورة أخلاقية وذلك كرد فعل لأفعال كارثية من العنف والكراهية والظلم، والوقت الراهن يعد من هذه الأوقات التي تبرر شن الحرب.

نظرية الحرب العادلة

وينطلق المثقفون الأمريكيون في خطابهم من بعد إلى عرض أصول الحرب العادلة. ويقولون أنها بشكل عام لها جذور في عديد من الأديان المختلفة السائدة في العالم بالإضافة إلى التقاليد الأخلاقية والعلمانية. ويقولون أن كلا من التعاليم اليهودية والمسيحية والإسلامية تتضمن أفكارا عميقة عن تعريف الحرب العادلة. بل إنه يمكن القول أن بعض الناس يؤكدون – باسم الواقعية – أن الحرب ضرورة لتحقيق المصالح الذاتية، ويضربون بالقيم الأخلاقية عرض الحائط.

ولإظهار اتجاههم الإنساني المزعوم فهم يختلفون مع هذا الرأي على أساس أن القبول به – ونعني تبرير الحرب في أي حالة لتحقيق مصلحة ذاتية لمن يشنها – يعد تنازلا عن إمكانية استعمال العقل لحل

الصــراعات وقبولا بسيادة انتقاء المعايير فى سجل العلاقات الدولية، وفــى ذلك مخاطر متعددة. ومن هنا أهمية تطبيق التفكير الموضوعى الأخلاقــى، فــى مجال تبرير الحرب، لأن فى ذلك دفاعا عن إمكانية تأسيس مجتمع مدنى، ومجتمع عالمى مبنى على العدل.

ومــبادئ الحــرب العادلة تذهب - كما يقولون - إلى أن حروب العدوان والتوسع ليست مقبولة إطلاقا. ذلك لأن الحروب لا ينبغى أن تشــن لتحقــيق أمجاد قومية، أو للانتقام من أخطاء سابقة، أو لتحقيق مكاســب فى مجال غزو أراضى الغير، أو لأى غرض آخر لا يكون هدفه هو الدفاع عن النفس.

ويصل أصحاب الخطاب إلى جوهر فكرتهم فى تبرير ما يطلقون علــيها الحرب "العادلة" إلى أن التبرير الأخلاقى الأساسى للحرب هو حمايــة الأبــرياء من وقوع الأذى عليهم. ويسوقون لشرح هذا المبدأ اقتباسات من أوغسطين الذى قرر فى كتابه "مدينة الله" وذلك فى بداية القرن الخامس متبعا فى ذلك أقوال سقراط مبناها أنه أفضل للمسيحى كفــرد أن يعــانى من الأذى بدلا من أن يقوم بإيقاع الأذى على الغير ولكن هذا لا يعنى إطلاقا من الناحية الأخلاقية أن الفرد ينبغى أن يمتنع عــن الدفاع عن ذاته. وعلى ذلك فالحرب مبررة فى حالة الدفاع عن الــذات. وقد لا تكون الحرب مبررة فى حالة الأخطار البسيطة والتى يمكن مواجهتها من خلال التفاوض واللجوء إلى العقل. غير أنه إذا ما كــان الخطــر محدقــا بالأبرياء واقعا ومؤكدا وخصوصا إذا ما كان المعــتدى تحــركه دوافع العداء، مما يدفعه إلى محاولة إفناء الخصم وتدمــيره كلــيا، فــإن اللجوء إلى القوة فى هذه الحالة يصبح مبررا أخلاقيا.

والحــرب العادلة فى نظر أصحاب الخطاب لا يمكن أن تشن إلا بواسطة سلطة شرعية مسئولة عن النظام العام. وهكذا فالعنف المطلق السراح، والذى يتسم بالانتهازية وبالفردية فى اتخاذ القرار ليس مبررا أخلاقــيا والحــرب العادلة يمكن شنها ضد الأشخاص المحاربين. وقد اســتقرت الســلطات المســئولة عن الحرب حول العالم وسواء كانت يهودية أو مسيحية أو إسلامية على أن غير المحاربين ينبغوا أن يبقوا بعيدا عن الهجوم المباشر وهكذا فإن قتل المدنيين بغرض الانتقام، أو

حتى باعتباره وسيلة لردع العدوان عن طريق إيذاء المتعاطفين مع من قاموا بالعدوان يعد خطأ أخلاقيا. غير أن المثقفين الأمريكيين أصحاب الخطـــاب – فى محاولة مفتوحة منهم لتبرير ضرب المدنيين من أبناء الشعب الأفغانى – يتحفظون على المبدأ السابق، ويقولون أنه فى بعض الظــروف، وفـــى حـــدود ضيقة، يعد مبررا أخلاقيا فى مجال توجيه الضـــربات العســـكرية أن تمتد دائرتها مما يؤدى إلى موت أو إيذاء المدنيين بغير قصد مسبق. ويعنى ذلك أنه لا يجوز أن يكون قتل غير المحاربيـــن هدفا من أهداف أى فعل عسكرى. وتذهب قواعد الحرب العادلـــة أيضـــا إلى ضرورة احترام الغير مهما كان مختلفا عرقيا أو دينـــيا، ذلـــك لأن الناس جميعا لهم الحق فى الحياة وفى الحفاظ على كبريائهم الإنسانية.

وبعـــد هذه المقدمات الطويلة المملة يصل أصحاب الخطاب أخيرا إلى هدفهم وهو تبرر الحرب الأمريكية ضد الإرهاب بكل ما دار فيها مـــن أحـــداث تتنافى فى الواقع مع قواعد الحرب العادلة التى افاضوا نســـبيا فـــى شـــرحها. فيقررون أنه فى الحادى عشر من سبتمبر فإن مجموعـــة مـــن الأفـــراد هاجموا الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة عمديـــة، مستخدمين فى ذلك طائرات مدنية مخطوفة كأسلحة أدت إلى قتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص من المواطنين الأمريكيين فى أقل من ساعتين فى مدينة نيويورك وبنسلفانيا وواشنطن. وأغلب الضحايا كانوا مدنييـــن ولـــم يكونـــوا محاربيـــن، ولم يكن المعتدون يعرفونهم، إلا باعتـــبارهم أمريكييـــن والذيـــن ماتوا فى هذا اليوم قتلوا بطريقة غير قانونـــية وبـــنزعة شريرة متعمدة، وهو نوع من القتل لا يمكن وصفه بأقل من أنه كان جريمة.

وهـــؤلاء الذيـــن مـــاتوا كـــانوا ينتمون إلى أجناس شتى، وأديان متـــنوعة. والأفراد الذين قاموا بهذه الأفعال لم يتصرفوا منفردين، أو بغـــير عون ومساعدة، أو لأسباب مجهولة لقد كانوا – يؤكد أصحاب الخطاب بغير دليل – أعضاء فى شبكة دولية إسلامية، ينتشر أعضائها فـــى ٤٠ دولة، أصبحت معروفة الآن للعالم باسم تنظيم القاعدة وهذه الجماعـــة تمـــثل جناحا واحدا من حركة إسلامية راديكالية، نمت عبر العقـــود الأخـــيرة، وفـــى بعض الأحيان تسامحت معها بل وشجعتها

حكومات معينة لم تتردد فى الإفصاح عن رغبتها فى استخدام القتل كوسيلة لتحقيق أغراضها.

وحتى لا يقع أصحاب الخطاب فى مزلق التعميم على المسلمين فإنهم يقررون أن مصطلحات "الإسلام" و"الإسلامى" ترتبط بأحد أديان العالم العظيمة التى يؤمن بها أكثر من بليون شخص فى العالم، من بينهم عدة ملايين من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية. وغالبية هؤلاء من المواطنين المسالمين.

وهكذا فهم يستخدمون مصطلحات "التأسلم" Islamicism والإسلام الراديكالى لوصف هؤلاء المتطرفين الذين يلجأون إلى العنف، وهم الذين يهددون العالم الآن، بما فيه العالم الإسلامى نفسه.

وهؤلاء المتطرفون لا يعارضون فقط بعض سياسات الولايات المتحدة الأمريكية والتى يعارضها أيضا - بعض الموقعين على الخطاب - ولكنهم - يعنى أصحاب الخطاب - يهددون قواعد الحياة فى العالم الحديث، والتسامح الدينى، وكذلك حقوق الإنسان الأساسية وخصوصا حرية الضمير والحرية الدينية والتى تضمها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والتى ينبغى أن تكون الأساس لأى حضارة هدفها ازدهار الشخصية الإنسانية.

وهؤلاء المتطرفون الذين يزعمون أنهم يتكلمون باسم الإسلام، يخالفون فى الواقع مبادئ الإسلام الأساسية. غير أنه أهم من ذلك كله - وبغض النظر عن الدوافع والأسباب التى أدت بهؤلاء إلى تبنى هذا الفكر المتطرف - فإنه قد يثبت يقينا من أحداث الحادى عشر من سبتمبر، أنهم يمتلكون القدرة والخبرة بما فى ذلك إمكانية استخدام أسلحة كيميائية وبيولوجية وذرية. وقد أعلن هؤلاء نيتهم فى تكرار أفعالهم مما يعد نموذجا للعدوان الصريح ضد الحياة الإنسانية، مما يمثل شرا لابد من استخدام القوة لإزالته.

وينتهى الخطاب إلى هدفه الرئيسى فيقرر "إن القتلة المنظمين الذين يملكون القدرة على الوصول إلى أى مكان يهددونا جميعا ولذلك فباسم الأخلاقيات الإنسانية العالمية، وبوعى منا بالقيود التى ينبغى أن تحيط بشن الحرب العادلة، فإننا نؤيد القرار الذى اتخذته حكومتنا وتجمعنا لاستخدام قوة السلاح ضدهم".

وفـــى نهايــة الخطاب يخاطب موقعوه أخواتهم وإخوانهم – كما يقولـــون – فى المجتمعات الإسلامية ويقولون لهم: "نحن لسنا أعداء، ولكـــن أصـــدقاء، ولا ينبغى أن نكون أعداء، لأن بيننا أشياء مشتركة كثـــيرة. وحقكـــم وفرصتكم فى حياة طيبة يماثل حقنا تماما، وهذا هو الهدف الذى نقاتل من أجله. ونعلم أن مشاعر الشك فينا التى يمارسها بعـــض مـــنهم عميقة، ونعلم نحن الأمريكيون أننا مسئولون عن ذلك جزئيا. غير أنه لا ينبغى أن نكون أعداء. ونأمل فى أن نشترك معكم ومع كل شعوب العالم من ذوى البنية الطيبة لبناء سلام عادل ودائم".

هكذا تكلم المثقفون الأمريكيون فى خطابهم الهام الذى وقعه أكثر مـــن ســـتين أكاديمـــيا بارزا، لتبرير الحرب "العادلة" الأمريكية. وهو خطاب يستحق منا أن نتناوله بالتقييم النقدى كخطوة أولى نحو ممارسة حوار حضارى مع المثقفين الغربيين.

[٥]

نهاية التاريخ وصراع الحضارات !

لم يكن من قبيل الصدفة أن يتصدر فرانسيس فوكوياما وصمويل هنتنجتون أسماء الأكاديميين البارزين الذين بلغ عددهم ٦٠ أكاديميا قائمة الموقعين على الخطاب الذى وجهوه للشعب الأمريكى وللمجتمع العالمى، بصدد تبرير الحرب "العادلة" التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على الإرهاب بعد الحادى عشر من سبتمبر.

ويرد ذلك إلى أن كلا من فوكوياما وهنتنجتون يمثلان "الكتبة" أصدق تمثيل. و"الكتبة" فى ضوء تفرقتنا السابقة بينهم وبين "الكتاب" هم هؤلاء المثقفون الذين تخلوا عن دورهم النقدى ووضعوا خبراتهم فى خدمة السلطة، وتحولوا لكى يصبحوا مبررين لها ولسياساتها مهما انحرفت عن القيم الأصلية والتوجهات الصائبة، سواء فى مجال السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية.

وقد برز دور فوكوياما على وجه الخصوص وهى أمريكى من اصل يابانى، حين كان يشغل منصب مدير دائرة التخطيط فى وزارة الخارجية الأمريكية. فقد كتب مقالته الشهيرة عن "نهاية التاريخ" والتى أصبحت مثاراً لجدل عالمى، وما لبث أن حولها إلى كتاب ترجم لعشرات اللغات.

وقد قام فوكوياما بدور المبشر ببزوغ عصر العولمة، حيث ستسود الرأسمالية فى كل أنحاء العالم، وخصوصا بعد سقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية، بالإضافة إلى انتصار الليبرالية التى ستصبح هى بذاتها عقيدة العالم السياسية، وذلك بعد انهيار النظم الشمولية، وتهاوى

مقـــولات الماركســـية، وعجزها عن صياغة مشروع راديكالى لتغيير العالم.

ومعـــنى ذلك أن فوكوياما وضع ثقافته فى خدمة الدولة الأمريكية التى أصبحت هى القوة الأوحد بعد انهيار النظام الثنائى القطبية.

وتقـــدم صـــفوف "الكتـــبة" من بعد عالم السياسة الأشهر صمويل هنتنجـــتون، الـــذى نشر هو أيضاً فى مجلة "الشئون الخارجية" مقالته الشـــهيرة عن "صراع الحضارات"، والتى أثارت بدورها جدلا عالميا فـــى الغرب والشرق على السواء، ثم سرعان ما حولها إلى كتاب لقى نفـــس ذيـــوع كتاب فوكوياما. وقد وضع هنتنجتون خبرته العميقة فى خدمة الدولة الأمريكية التى كانت تبحث عن "عدو" توجه إليه سياساتها الاستعمارية وتسمح للمركب الصناعى العسكرى، وهو المصطلح الذى أطلقه على صناع الأسلحة الأمريكيين الرئيس أيزنهاور، أن يخصص مديروه بلايين الدولارات لصنع أسلحة جديدة ومتطورة لمواجهة العدو الجديد.

واخترع لهم هنتنجتون هذا العدو وصوره لهم فى صورة الحضارة الإســـلامية الـــتى يمكن أن تخوض حربا ثقافية مدمرة ضد الحضارة الغربية، وقدم لهم "عدواً" احتياطيا هو الحضارة الكونفشيوسية.

أى غـــرابة إذن فى أن يتصدر أسمى فوكوياما وهنتنجتون قائمة "الكتـــبة" الذين تصدوا لتبرير السياسات الإرهابية التى تتبنها الولايات المتحدة الأمريكية لمحاربة ما يطلق عليه "الحرب ضد الإرهاب" هكذا بدون تحديد، وبدون مدى زمنى معين تقف عنده؟ بل إن التصريحات الأمريكـــية تؤكد أنها حرب بلا نهاية، ويمكن أن تمتد إلى محور الشر الذى يضم كوريا الشمالية وإيران وسوريا ولبنان فيما يخص حزب الله وليبيا، وقد تضيف إليها – حسب أهوائها الاستعمارية – دولا أخرى.

خداع الذات

حـــرص الكتـــبة الأمريكـــيون أصحاب الخطاب على سرد للقيم الأمريكـــية الأساســـية الـــتى يعتقدون أن مجتمعهم يصدر عنها، وأن ثقافـــتهم تقـــوم على أساسها. وإذا طالعنا جوهر هذه القيم، لأدركنا أن

النخبة السياسية الحاكمة الأمريكية قد خانتها جميعا وبطريقة منهجية فـي مجال التطبيق. والأدلة الثابتة على ذلك متوافرة بالنسبة للسياسة الأمريكية فـي عديد من القارات. فقد دأبت الإدارات الأمريكية على استخدام أساليب المخابرات لدعم النظم الديكتاتورية فى عديد من بلدان أمريكا اللاتينية، لدرجة أنها تآمرت لاغتيال الرئيس الليندى فى شيلى لأنه أسس حكما ديمقراطيا نزيها، غير أنه كان معاديا للمصالح الاستعمارية الأمريكية. ولا ننسى فى هذا الصدد أيضا حرب فيتنام التى شنت على فيتنام الشمالية لكون نظامها السياسى تبنى الماركسية نظرياً وتطبيقيا، وقد ارتكبت الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الحرب مذابح ومجازر تعد جرائم ضد الإنسانية. ولم تتورع عن إلقاء القنابل بطريقة "مسحية" بمعنى تدمير مساحات كاملة من الأراضى بكل ما عليها من بشر وشجر وحجر.

ولو راجعنا قائمة القيم الأمريكية التى يزعم هؤلاء "الكتبة" أنها تقود مسارات العمل السياسى فى المجتمع الأمريكى، وقارنا بين نصوصها والممارسات الأمريكية الفعلية، لأدركنا الفجوة الهائلة بين القول والفعل.

وهذه القيم – فيما يزعمون – هى أربع قيم أساسية. أولها الاعتقاد أن كل الناس يمتلكون إحساسا غريزيا بالكرامة الإنسانية يولد معهم، ومن ثم ينبغى – كنتيجة لازمة – أن يعامل كل شخص باعتباره غاية فـي ذاته وليس وسيلة لتحقيق غرض من الأغراض. ويضيفون أن التعبير السياسى البليغ الذى يترجم هذه الفكرة هو الديمقراطية كنظام سياسى.

ونريد أن نختبر هذه القيمة المعلنة فى ضوء السياسة الأمريكية إزاء الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وخصوصا فيما يتعلق بمواقفها إزاء الشعب الفلسطينى وقيادته المنتخبة التى تتمثل فى الرئيس ياسر عرفات.

لماذا لم تبادر السياسة الأمريكية – فى إطار انحيازها الأعمى للسياسة الإسرائيلية العنصرية بل والنازية – أن تتولى مسئوليتها السياسية كراعية لعملية السلام وتحافظ على الكرامة الإنسانية لأفراد الشعب الفلسطينى، الذين تسحقهم هذه الأيام الدبابات الإسرائيلية وتهدم

بيوتهم على من فيها، وتعتقل المئات من الفلسطينيين فى ظروف غير آدمية، بل وتمارس على الكوادر الفلسطينية عقوبات الإعدام الجماعى بغير تطبيق أى إجراءات قانونية؟

وهـل ممـا يحفظ الكرامة الإنسانية ختم المعتقلين على أجسادهم بأختـام تمـيزهم عـن غـيرهم، فى مسعى خائب يعيد إلى الأذهان الممارسـات الـنازية التى برع فيها هتلر وأركان نظامه من مجرمى الحرب، التى تمت محاكمتهم فى نورمبرج؟

وإذا كانت القيمة الثانية المستخلصة من القيمة الأولى هى الاعتقاد فـى أن الحقـائق الأخلاقية العالمية وما أطلق عليه الآباء المؤسسون قوانين الطبيعة وطبيعة الله موجودة ويعرفها جميع الناس، فلماذا وافقت الولايـات المـتحدة الأمريكية على إرهاب الدولة الإسرائيلية، وأكدت بكـل صـفاقة وتـبجح أنهـا تعـترف بحق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها؟

وهـل الدفاع عن النفس يستدعى هدم المنازل بالجرافات، وإفساد المزارع وقتل المدنيين، واعتقال الرجال والنساء والأطفال، واستخدام الطائرات بكل أنواعها لقصف شعب أعزل؟

أما القيمة الثالثة التى يزعم هؤلاء الكتبة الأمريكيون أن مجتمعهم الديمقراطى يصدر عنها فهى الاعتقاد في أن الطرق الفردية والجماعية للوصـول إلى الحقيقة ليست معبدة دائما، ولذلك فإن أغلب الاختلافات حـول القـيم يدعـو إلـى اصـطناع طـرق متحضرة بما فى ذلك الانفـتاح علـى الآراء الأخـرى، واتباع الجدل العقلانى للبحث عن الحقيقة.

تـرى هـل طبقـت الإدارة الأمريكية التى يدافع هؤلاء المثقفون الأمريكيون الانتهازيون عن حربها ضد الإرهاب هذه المعايير للبحث عن الحقيقة فى مجال الصراع الفلسطيني والإسرائيلى؟

وأليسـت الحقـيقة واضـحة تمـام الوضـوح، بحكم أن الدولة الإسـرائيلية العنصـرية احتلـت بـدون سند قانونى أراضى السلطة الفلسـطينية، ومارسـت تدمـير المدن والقرى بدون أدنى تمييز، مما يجعلها حرب إبادة ضد الشعب الفلسطينى.

وهل مما يتفق مع القيم الأمريكية المساواة بين المقاومة المشروعة التى تكفلها المواثيق الدولية للشعوب الخاضعة للاحتلال، وبين الإرهاب الخالص الموجه ضد المدنيين؟ وهل المشابهة الفاسدة التى استخدمها المجرم العنصرى شارون فى تصريحاته الأخيرة وفى حضور الوزير باول من أن "حرب" إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى إنما هى حرب ضد الإرهاب تماما مثل حرب الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإرهاب بعد ١١ سبتمبر مشابهة صحيحة؟ ولماذا لم يعترض السيد / باول على هذا التزييف الصريح للحقائق؟ ولماذا يذهب بعيدا فى مجال الانصياع الأمريكى الذليل للسياسة الإجرامية الإسرائيلية، فيقرر فى المؤتمر الصحفى أنه لم يستطع أن يحصل من شارون على موعد ينتهى فيه من حربه ضد الإرهاب الفلسطينى (ويقصد حرب الإبادة) ضد الشعب الفلسطينى؟ وهل من باب تطبيق القيم الأمريكية المزعومة الاعتراف علنا بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعترف بحق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها؟ وماذا عن حق الشعب الفلسطينى فى مقاومة الاحتلال، بل والوقوف بكل بطولة ضد حرب الإبادة التى شنتها عليه الدولة المجرمة؟

والقيمة الرابعة التى يزعم الكتبة الأمريكيون أنها تسم ثقافتهم هى حرية الضمير وحرية الدين. وهل من حرية الضمير التعتيم الإعلامى الذى مارسته وسائل الإعلام الأمريكية على مجزرة جنين، التى فاقت فى فظاعتها المجازر النازية، بما تضمنته من اعتقالات بالآلاف، وإعدام جماعى، ومقابر جماعية، وتدمير كامل للمعسكر بكل منازله بالإضافة إلى تدمير المدينة القديمة فى نابلس.

إن كانت حرية الضمير الأمريكى قائمة فعلا، لاعترضت الإدارة الأمريكية بكل قوة أولا على الممارسات الإجرامية لشارون. ولو كانت هناك حرية للضمير فى المجتمع الغربى كله، لاتخذت الإجراءات الفورية لمحاكمة مجرم الحرب شارون وأركان حكومته أمام المحكمة الجنائية الدولية التى قامت فعلا وستمارس أعمالها في يوليو القادم، بالرغم من الاعتراض الشديد على قيامها من قبيل الولايات المتحدة الأمريكية راعية القيم وراعية السلام!

ينبغى أن تبادر الشعوب العربية من خلال مؤسسات المجتمع المدنى العربى بالحوار مع مؤسسات المجتمع المدنى العالمى لاتخاذ الإجراءات القانونية لمحاكمة مجرم الحرب شارون الذى تدعمه الولايات المتحدة الأمريكية، وهى بذلك تخون كل القيم التى يدعى الكتبة الأمريكيون أن الثقافة الأمريكية تقوم على أساسها.

[٦]

رد الفعل السياسى والبهلوانية الفكرية!

حرصت منذ بداية معالجتى للأصداء العميقة التى أحدثتها هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة الأمريكية فى الفضاء الفكرى الأمريكى، على أن أميز بوضوح بين مفردات الخريطة المعرفية الأمريكية، حتى لا نستسهل الحكم عليها بصورة إجمالية.

وقررت فى مقالى " صوت العقلانية الأمريكية" أنه "لا يمكن الحكم بصورة اطلاقية على حضارة ما والإدعاء بأنها متقدمة أو متخلفة، كما أنه لا يجوز – إن أردنا أن نكون موضوعيين، ونلتزم بقواعد المنهج العلمى فى التفكير – أن نعمم الحديث عن شعب معين وننعته بالسلبية المطلقة أو بالإيجابية الفاعلة ! فكل حضارة إنسانية – كما تعلمنا دروس التاريخ – فيها الإيجابى والسلبى، وكل شعب عادة ما يضم بين جنباته تيارات فكرية، وقوى اجتماعية تؤمن بالتقدم، وتيارات تنطلق من رؤى تقليدية ومحافظة وأحيانا بدائية".

ومصداقا لهذه الملاحظة الهامة حرصت على أن أعرض عرضا عاما لأصوات بعض الكتاب الأمريكيين الذين عارضوا حرب الإرهاب الأمريكية، منذ اللحظة الأولى التى أعلن عنها الرئيس بوش بكل ما تضمنه هذا الإعلان من نزعات انتقامية بدائية وغموض حول من هو العدو، وضبابية كثيفة حول أهداف الحرب. والحقيقة أننى لم أدرك وقتها – وربما كان ذلك لأننا كنا فى بداية عملية تاريخية واسعة المدى – عمق الصراع الفكرى الذى دار فى المجتمع الأمريكى بين من أطلقنا عليهم من قبل "الكتبة " الذين برروا للإدارة الأمريكية قراراتها الخاصة بالحرب "والكتاب" ونعنى بهم المثقفون النقديون الذين

عارضــوا حــرب الإرهــاب منذ اللحظة الأولى باعتبارها هى ذاتها ضرب من ضروب إرهاب الدولة!

غــير أن ملامــح الصــراع الفكرى الضارى برزت حين أصدر ستون أكاديميا أمريكيا بارزا خطابا موجها للشعب الأمريكى وللمجتمع العالمى، يبررون فيها الحرب "العادلة" الأمريكية بكل ما حفلت به من أهــوال، واعتداء على حق المدنيين الأفغان فى الحياة الآمنة. وقد قمنا بالتحليل النقدى لهذا الخطاب فى سلسلة مقالاتنا الماضية. غير أنه فى العاشــر مــن إبــريل الجــارى، والذى سيسجل فى التاريخ الفكرى الأمــريكى علــى أساس انه تاريخ الجسارة الفكرية والشجاعة الأدبية والنزاهة المعرفية للكتاب الأمريكيين ، أصدر أكثر من ١٢٠ أكاديميا أمريكــيا بــارزا خطابــا مضــادا لخطاب "الكتبة الأمريكيين" موجها للأوروبييــن عنوانه "خطاب من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأصدقاء فى أوروبا" داعيا إياهم إلى تشكيل جبهة واحدة للنضال ضد حرب الإرهاب الأمريكية الظالمة.

ويلفــت الــنظر بشدة أنه على رأس الموقعين المؤرخ الأمريكى الشــهير هوارد زن الذى سبق له أن أعاد كتابه التاريخ الأمريكى من زاويــة المقهورين فى كتابه "تاريخ شعبى للولايات المتحدة الأمريكية" مــن عام ١٤٩٢ حتى الآن" (الطبعة الثانية ١٩٩٥)، وهو يمثل تيار الــتاريخ المضــاد، الذى يكشف وجه الحقيقة من خلال التوثيق الدقيق لكل الفظائع التى صاحبت إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية. وهوارد زن أكــاديمى رفــيع المســتوى وهو أستاذ شرف العلوم السياسية فى جامعة بوسطن.

أما الاسم اللامع الثانى فهو للروائى الأمريكى الأشهر جور فيدال. وفــيدال شخصــية مثيرة، فهو روائى وكاتب مقالات ومؤلف قصص ســينمائية وسياسى ومؤرخ وممثل، وهو – فى نظر فرد كابلان الذى أصدر كتابا عن سيرته – يمثل ضمير أمريكا. ويلفت النظر أن فيدال أبــرز معارضــته التامة لحرب الإرهاب الأمريكية فور إعلانها، بل ونشر كتابا كاملا يتضمن نقده العنيف للسياسة الأمريكية عموما عنوانه "حــرب دائمــة مــن اجــل سلام دائم: لماذا أصبحنا مكروهين لهذه الدرجة؟"

وإذا استعرضنا قائمة الموقعين على خطاب الاعتراض على حرب الإرهاب الأمريكية، لاكتشفنا من بينهم عدداً من أبرز الأسماء اللامعة فـــى مجالات علم الاجتماع والتحليل الثقافى وعلم السياسة والعلاقات الدولية والطبيعة والكيمياء والتكنولوجيا والإعلام.

وهكـــذا يمكـــن القول أن خريطة الصراع الفكرى داخل المجتمع الأمـــريكى حول شرعية وعدالة حرب الإرهاب الأمريكية قد اتضحت معالمهـــا، فلدينا خطاب "الكتبة" الذى يبرر قرارات الإدارة الأمريكية، ولدينا خطاب "الكتاب" الذى يعارض ويفند الأسباب التى استندت إليها هذه الإدارة.

ويمكـــن القول أن إرهاصات هذا الخطاب المعارض بدأت مبكرا فـــى الواقـــع وبالتحديد فى ١٨ فبراير ٢٠٠٢، حين نشر الكاتب دافيد نورث مقاله الهام "رد الفعل السياسى والبهلوانية الفكرية: الأكاديميون فى الولايات المتحدة الأمريكية يصدرون بيانا لتأييد الحرب".

تفنيد دعاوى الكتبة الأمريكيين

ويـــبدأ دافـــيد نـــورث مقالته العاصفة بالإشارة إلى خطاب الكتبة الأمريكيين الذين سعوا إلى تقديم دفاع فلسفى وأخلاقى عن قرار إدارة بـــوش بشـــن الحرب على الإرهاب، ويقرر بكل قطع "أن مؤلفى هذا الخطـــاب والموقعين عليه وفى مقدمتهم فرانسيس فوكوياما وصمويل هنتنجون لم ينجحوا سوى فى الكشف الفاضح والتعرية الذاتية لنفاقهم وعدم أمانتهم، ومعارضتهم للمبادئ الديموقراطية الأساسية".

ويقـــرر ساخرا أن جريدة الواشنطن بوست قد وصفت من وقعوا هـــذا البـــيان أنهم "مثقفون بارزون" وإذا كان هذا صحيحا فمعناه بكل بســـاطة أن الحياة الفكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية قد هوت إلى الحضـــيض! ويتســـاءل نـــورث أنه تثور عدة أسئلة فور قراءة البيان وأهمهـــا: لمـــاذا كتب؟ ولأى جمهور؟ وذلك أنه فى الولايات المتحدة الأمريكـــية فإن المؤسسة السياسية أجمعت عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر على تأييد تعطش الحكومة لشن الحرب، بحيث أصبح من المســـتحيل بروز نقد موجه للعسكرية الأمريكية فى الميديا. ومن هنا

يصح التساؤل: ما الحاجة لإصدار بيان خاص لتأييد الحرب بواسطة هؤلاء المثقفين أصحاب الأسماء الرنانة؟ ولعل هذا ما دفع بجريدة الواشنطن بوست نفسها أن تلاحظ أنه إذا كان البيان موجها إلى أمريكا، بصدد تأييد استخدام القوة العسكرية بعد الحادى عشر من سبتمبر، فإن ما يدعو للاستغراب أن هذا هو الاتجاه السائد فى المجتمع، ولذلك فإن مقاصد أصحاب البيان غير واضحة كما أن الجمهور الموجه إليه غير محدد.

ومن هنا يحاول نورث أن يجد تفسيرا، وهو أن الموقعين على البيان ربما بالحس والخوف من خلال مواجهتهم مع طلبتهم فى قاعات الدراسة، شعروا أن الجمهور الأمريكى ليس مصفوفا وراء الإدارة الأمريكية لتأييد قرار الحرب كما تزعم وسائل الإعلام. وقد يكون تولد لديهم شعور أن الإدارة الأمريكية فشلت فعلا فى تقديم حجج مقنعة لقرار شن الحرب.

غير أن البيان – فى نظر نورث – لم يضف أى شئ ذا بال لتأييد مبررات شن الحرب كما ذهبت إلى ذلك الدعاية الحكومية، التى زعمت أن الحرب هى للدفاع عن أمريكا وعن الحضارة ضد الإرهاب. ولم يبذل البيان أى جهد لاختبار شرعية هذه المقولة. على العكس من ذلك لجأ البيان إلى استعراض عدد من المبادئ الأخلاقية سعيا وراء تأييد أفعال المؤسسة العسكرية الأمريكية.

إن عنوان الخطاب نفسه "لماذا نحارب؟" هو إعادة إنتاج للشعار الشهير الذى رفعه الرئيس روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية "لماذا نحارب؟" غير أن المشابهة بين الشعارين – كما يقرر نورث – تقف عند حدود الصياغات اللفظية، لأنه ليس هناك أى مشابهة بين موقف أمريكا فى الحرب العالمية الثانية وموقفها اليوم ضد الإرهاب.

ذلك أن بيان "الكتبة" الأمريكيين المبرر لحرب الإرهاب قد فشل فشلا ذريعا فى بيان الخلفية التاريخية والسياسية للحرب فى آسيا الوسطى، بالإضافة إلى تجاهل المصالح الاقتصادية التى سعت إلى تحقيقها إدارة الرئيس بوش من شن الحرب. وبدلا من ذلك سرد البيان قائمة بالقيم الأمريكية الأربع الأساسية (عرضناها فى مقالاتنا الماضية) وانتقاها من مصادر شتى متنوعة، من أول ميثاق الأمم المتحدة إلى

أرسطو والبابا جون بول الثانى! وبناء على هذه القيم زعم البيان أن الولايات المتحدة الأمريكية تخوض حربا عادلة! ويتساءل نورث ما هذه الخفة فى إصدار الأحكام والتبسيط فى عرض القضايا؟ وقد لجا نورث فى تفنيده لحجج أصحاب البيان من المثقفين الانتهازيين إلى نفس المنهج الذى اتبعناه فى مقالنا الماضى "نهاية التاريخ وصراع الحضارات"، إذ أخذ كل قيمة من القيم الأمريكية وعارضها بالسلوك الأمريكى الفعلى، الذى يثبت بلا أدنى جدال أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة قد خانت هذه القيم جميعا! غير أن نورث يرى أهمية للأسئلة التى طرحها البيان وهى: لماذا كنا الأهداف لهذه الهجمات التى تعبر عن كراهية عميقة؟ ولماذا يريد هؤلاء "من ارتكبوا الأفعال الإرهابية" يريدون قتلنا؟"

ويجيب تكفى للإجابة على هذه الأسئلة مراجعة سجل السياسة الخارجية منذ الرئيس كارتر ومستشاره للأمن القومى برزنسكى اللذان حرضا على تنظيم نضال إسلامى أصولى ضد الحكم الأفغانى الموالى للسوفيت، ويكفى مراجعة سجل الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط طوال النصف قرن الماضى. ومنه تبين ما يلى:

- الانقلاب الذى دبرته المخابرات المركزية الأمريكية فى إيران ضد مصدق وإعادة الشاه إلى الحكم.
- غزو لبنان عام ١٩٨٧، التسليح الكثيف لإسرائيل وتجاهل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى.
- قصف بيروت بواسطة السفن للحربية الأمريكية عام ١٩٨٣.
- شن الحرب ضد العراق عام ١٩٩١، وفرض العقوبات والحصار عليه والتى أدت إلى ضياع آلاف الأرواح.

ويخلص نورث إلى أن أى محاولة للإجابة على سؤال "لماذا يكرهوننا" ينبغى أن يبحث هذه السياسات والأفعال للإدارات الأمريكية المتعاقبة.

ويبقى السؤال هل كان ممكنا لهؤلاء "الكتبة" الانتهازيون ممارسة النقد الذاتى السياسى المطلوب؟

[٧]
تصحيح النقد الذاتى الأمريكى

لم يمر خطاب " الكتبة" الأمريكيين الذين وجهوه للشعب الأمريكى وللعالم لتبرير الحرب ضد الإرهاب التى أعلنها الرئيس بوش ببساطة. فقد تكفل عدد من "الكتاب" الأمريكيين الذين لم يتخلوا عن دورهم النقدى بمهاجمة الخطاب وما احتواه من "بهلوانية فكرية" كما عبر عن ذلك دافيد نورث فى مقاله العاصفة التى ركزت رسالتها فى تفنيد دعاوى هذا الخطاب التبريرى لسياسات الحرب الأمريكية، والتى هى فى الواقع نوع من إرهاب الدولة.

كانت مقالة نورث فاتحة النقد العنيف لسياسة إدارة الرئيس بوش والتى بلغت ذروتها فى الخطاب المضاد الذى وقعه مائة وعشرين أكاديميا بارزا ونشروه فى العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٢. وقبل أن نعرض لهذا الخطاب لاستكمال صورة الصراع الفكرى العنيف داخل المجتمع الأمريكى بين أنصار الحرب ومعارضيها، نريد أن نستكمل النقد الذى وجهه دافيد نورث لخطاب المبررين والذى أنهى فقرته الأولى بتساؤله: لقد حاول أصحاب الخطاب ممارسة نوع من النقد الذاتى بتقريرهم أن الأمة الأمريكية فشلت فى بعض الأحيان أن ترقى ممارساتها فى مجال السياسة الخارجية إلى مستوى القيم والمثل العليا التى تؤمن بها. غير أن نورث يقرر بوضوح أن هذا النقد الذاتى المزعوم يتسم بالسطحية، وبالتجريد، لأنه لا يتركز على وجه التحديد الحالات التى فشلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية فى أن تتطابق فيها ممارساتها مع قيمها، وكان من شأن هذا التحديد أن يكشف عن السمات الإمبريالية لمتوجهات الولايات المتحدة الأمريكية. غير أن هؤلاء

"الكتبة" لم يتجاسروا فى الواقع على ممارسة النقد الذاتى الحقيقى والأصيل.

لقد آثر هؤلاء الكتبة أن يبتعدوا عن دائرة النقد الحقيقية للسياسة الخارجية الأمريكية وولوا وجوههم – هروبا متعمدا – تجاه ظواهر هامشية مثل الإسراف فى اتباع "الاستهلاكية" كأسلوب للحياة، أو ضعف مؤسسة الزواج والأسرة، ويؤكد هذا الاتجاه أنهم زعموا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر لم تكن رد فعل لسياسة محددة أتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية أو لحزمة من هذه السياسات، ولكنها كانت موجهة ضد الأمريكيين – كما يقول الخطاب – "باعتبار ما نحن عليه" ويقصد القيم الأمريكية.

ومن هنا يتساءل أصحاب الخطاب إذا كان صحيحا فمن نحن حقيقة؟

يلتمس الخطاب الإجابة من أدبيات اليمين المسيحى، التى تبدأ من مسلمات مبنية على الدين والتى هى فى الواقع معادية للمبادئ الديمقراطية الأساسية التى بنى عليها دستور الولايات المتحدة الأمريكية.

ويشدد نورث على أن أمريكا لا تتكون من "نحن" التى يزعم الخطاب أنها موجودة كهوية جمعية مبنية على أساس معايير أخلاقية ومسلمات أدبية تقوم على الدين. ذلك أن هذا الزعم يتعارض مع الدستور ومع التطور التاريخى للحقوق الديمقراطية. وأصحاب الخطاب حين يعلنون رفضهم "للعلمانية الإيديولوجية"، فهم فى الواقع يعنون التفرقة التى أقرها الدستور الأمريكى بين الكنيسة والدولة.

واستخدامهم كلمة "الإيديولوجية" فى وصف العلمانية تهدف إلى الإيجاز. فإن العلمانية ليست سوى رأى بين آراء متعددة، أو بحسبانها مجرد دعوة من الدعوات الفكرية. مع أن العلمانية فى الواقع هى أساس كل ما يمكن اعتباره تقدميا تاريخيا فى المبادئ البورجوازية الديمقراطية.

وأهم نقد يوجهه دافيد نورث "للكتبة الأمريكيين" الذين يبررون الحرب الأمريكية ضد الإرهاب بكل مخاطرها على السلام العالمى، أنهم لا يتسمون بالأمانة الفكرية، لأنهم لم يكشفوا صراحة عن وجهة

نظــرهم السياســية، وانعكــس ذلك على طريقتهم الملتوية فى النقاش وعــرض الحجج. فهم لم يكونوا – فى معرض نقدهم العنيف للعلمانية – يدافعــون عــن الحرية الدينية فى إطار سياق أوسع عن الدفاع عن الحقوق الديمقراطية. ولكنهم كانوا فى الواقع يدافعون عن توسيع إطار الــنفوذ الديــنى داخــل الولايات المتحدة الأمريكية، وحصار الحقوق الديمقراطية عمليا.

ولمــا تم لهم تشويه العلاقة بين "العقيدة" و"الحرية" طرحوا سؤالا هــو: مــا العوامــل التى تساعد على تقليل الشك والكراهية والعدوان المبــنى على أسس دينية وذلك فى القرن الحاى والعشرين؟ ولما كانوا يعارضــون العلمانــية الديمقراطية والتى تجد تعبيرا عنها فى الفصل الحاســم بين الكنيسة والدولة، فإن الإجابة التى صاغوها على السؤال الذى طرحوه تتسم بالرجعية المفرطة. وتتمثل تلك الإجابة فى مطالبتهم "تعميق وتجديد تقديرنا للدين وذلك بالاعتراف بالحرية الدينية باعتبارها حقا أساسيا لكل الناس فى كل أمة". ويرى نورث أن هذه إجابة خاطئة تماما، فقد أثبتت الخبرة التاريخية الواسعة أن الذى وقف ضد النزعات الدينــية المتطرفة وضد العنف الطائفة لم يكن سوى التشبث بالمبادئ الديمقراطــية والعلمانــية، والسعى الدؤوب لاستبعاد – كلما كان ذلك ممكنا – التأثير الاجتماعى الرجعى للدين على الحياة السياسية العامة.

ومــن ناحية أخرى، فالزعم أن أحداث الحادى من سبتمبر لم تقع بسبب معارضة سياسات أمريكية محددة، ولكنها وقعت بسبب كراهية المبادئ الأخلاقية التى يزعم أصحاب الخطاب أنها الأساس الذى تقوم عليه الهوية الأمريكية، يقود منطقيا إلى نتائج سياسية يمكن أن توظف كتبرير القمع الداخلى فى المجتمع الأمريكى، ذلك أنه إذا كان الأعداء الأجانــب فى للقيم الأمريكية كانوا مستعدين لمهاجمة الولايات المتحدة الأمريكية بسبب هذه القيم، فإنه من باب أولى يمكن القول أن المجتمع الأمــريكى مهدد من داخله بواسطة المواطنين وغير المواطنين الذين يرفضون أيضا هذه القيم. ومعنى ذلك أن أصحاب الخطاب لا يبررون فقط الحرب ولكنهم أيضا يبررون القمع الداخلى أيضا.

والقســم الأخــير من خطاب "الكتبة" الأمريكيين مخصص لتبرير الحرب "العادلة" الأمريكية. والمسلمة الرئيسية التى يصدرون عنها أن

الحـــرب وإن كانت وسيلة مستهجنة لحل الصراعات إلا أن شنها فى بعــض الأحـــيان يكون مبررا أخلاقيا، بل قد تكون الحرب ضرورة أخلاقـــية فـــى حالات رد الفعل على أفعال عنف كارثية تنطوى على الكراهـــية والظلـــم، وأحـــداث الحادى عشر من سبتمبر هى من تلك الأفعال التى ينطبق عليها هذا التبرير الأخلاقى.

ويقـــرر دافـــيد نورث فى تفنيده لهذا التبرير، أن تبرير الحروب الإمبرياليـــية علـــى أساس القيم الأخلاقية مسألة قديمة قدم الإمبريالية ذاتهـــا! ومن هنا لابد من التشديد على أن الولايات المتحدة الأمريكية دأبت على اللجوء إلى الحجج الأخلاقية لتبرير حروبها الإمبريالية. وقد ســـبق للباحـــث الأمريكى الأستاذ ويليام كيلور فى كتابه "عالم القرن العشـــرين" أن قـــرر: "أن تحقيق المصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكـــية فـــى مـــنطقة الكاريبى على وجه الخصوص وفى أمريكا اللاتينـــية على وجه العموم، كانت تبرر – كما هو الحال بالنسبة لكل الممارســـات الأمريكية فى مجال السياسة الخارجية – بمبادئ أخلاقية لها رنين".

ولجوء أصحاب الخطاب التبريرى للأخلاقيات المجردة فى مجال تـــبرير شن الحرب ليس سوى استمرار فى ممارسة نفس هذا التقليد. وكـــان أجدر بهم – بدلا من اصطناع التحليل الأخلاقى – أن يحددوا المصـــالح الاســـتراتيجية والاقتصـــادية التى تحدد مسارات السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية.

وقد تكفل بكشف القناع عن انتهازية أصحاب الخطاب الفكرية عدد من أبرز المستشارين لشئون الأمن القومى الأمريكى.

فقـــد كتـــب الأستاذ جون ميرشيمر والذى كان مستشارا نافذا فى إدارة الرئيســـين السابقين ريجان وبوش أنه بغض النظر عن المبادئ الأخلاقـــية للسياســـة الأمريكية التى برع الأكاديميون الأمريكيون فى صياغتها فإن "أعضاء النخب السياسة الذين يصوغون سياسات الأمن القومـــى لا يتحدثون وراء الأبواب المغلقة سوى عن القوة وليس عن المـــبادئ الأخلاقـــية. ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تسلك فى مجـــال الـــنظام الدولى إلا على أساس ما عليه عليها المنطق الواقعى. وفـــى الجوهـــر فـــإن هناك فجوة عميقة "تفصل بين الخطاب العلنى

والسلوك الواقعي للسياسة الخارجية الأمريكية" ويكشف عن هذه الحقائق ما صرح به بريزنسكى مستشار الأمن القومى الأمريكى السابق منذ سنوات من أن الرئيس الأمريكى السابق كارتر قد كذب على الشعب الأمريكى والعالم حين زعم أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتدخل فى أفغانستان إلا بعد الغزو السوفيتى لهذا البلد فى ديسمبر عام ١٩٧٩. وقد شن كارتر حملة عالمية ضد الاتحاد السوفيتى مؤكدا أن التدخل الأمريكى لم يكن إلا للدفاع عن حقوق الإنسان ضد العدوان السوفيتى.

وقد ظهر بعد ذلك أن كارتر سبق له أن وقع توجيها رئاسيا سريا فى ٣ يوليو ١٩٧٩ أى قبل ستة شهور من الغزو السوفيتى لأفغانستان لتقديم مدد غير معلن لدعم المعارضة الإسلامية الراديكالية ضد الحكم الأفغانى فى كابول والذى كان مواليا للسوفيت. وقد صرح بريزنسكى بهذه الحقيقة فى مقابلة صحفية أجرتها معه مجلة "لانوفيل أوبز راتير "الفرنسية ونشرت فى يناير عام ١٩٩٨ وقرر بها أنه قال للرئيس كارتر أن تنفيذ هذا التوجيه الرئاسى السرى من شأنه أن يثير استجابة سوفيتية عميقة وهو ما كانت تسعى إليه إدارة الرئيس كارتر. وحين سألت المجلة بريزنسكى والآن بعدما حدث فى أفغانستان ألست آسفا على هذا السلوك الأمريكى؟ إلا أنه أجاب قائلا: "آسف على ماذا؟ لقد كانت هذه العملية السرية فكرة ممتازة. فقد أدت بالسوفيت للوقوع فى الفخ الأفغانى. ولذلك ما أن عبرت القوات السوفيتية حدود أفغانستان حتى كتب للرئيس كارتر مذكرة قال فيها: لقد أعطينا السوفيت فرصة لتكون لهم حربهم الفيتنامية! وبعد عشر سنوات كانت هذه الحرب أحد أسباب انهيار الإمبراطورية السوفيتية".

هكذا تحدث دافيد نورث فى مجال كشفه للانتهازية الفكرية للكتبة الأمريكيين الذين وقعوا خطاب تبرير الحرب "العادلة" الأمريكية، والذين بسلوكهم المعيب يساعدون فى الواقع على تردى الحياة الفكرية الأمريكية، حيث يعلو صوت الأكاذيب ولا يجسر أحد على كشفها، وتشوه الحقيقة ولا تجد فى الواقع من يدافع عنها إلا قلة من الكتاب الذين يتسمون بالشجاعة الأدبية والجسارة الفكرية.

[٨]

نص خطاب المعارضة الأمريكى

إذا كان ستون أكاديميا أمريكيا بارزا على رأسهم فرانسيس فوكوياما وصموئيل هنتنجتون قد نشروا من قبل خطابا يبررون فيه "الحرب العادلة " التى تشنها الولايات المتحدة ضد الإرهاب، ومثلوا بذلك أصدق تمثيل دور " الكتبة " الذين يقدمون علمهم وخبراتهم لخدمة السلطة المنحرفة، فإن صوت المعارضة لهؤلاء ولإدارة الرئيس بوش على السواء لم يلبث أن ارتفع عاليا بعد أن أصدر حوالى ١٢٠ أكاديميا ومثقفا أمريكيا بارزا خطابا يفند فيه دعاوى" الكتبة " من ناحية، ويفضح فيه السياسات العدوانية للإدارة الأمريكية من ناحية أخرى، وكانوا بذلك نموذجا " للكتاب" الذين لم يتخلوا عن رسالتهم النقدية. وعلى رأس الموقعين على هذا الخطاب الهام هوارد زين المؤرج الأمريكى الشهير والأستاذ في جامعة بوسطن والذى سبق له أن نشر كتابا شهيرا يمثل تاريخاً مضادا للتاريخ الرسمى لتشويه وتطور الولايات المتحدة الأمريكية كشف فيه عن تزييف التاريخ، وكذلك الروائى الأمريكى المعروف جور فيدال الذى نشر كتابا هاما عن أحداث سبتمبر .

وخطاب المعارضة الأمريكى عنوانه " خطاب من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأصدقاء فى أوروبا " وسيضتح من سياق عرضنا لأبرز أفكار الخطاب لماذا وجهوا الخطاب الى المثقفين الأوروبيين على وجه الخصوص.

مقدمة الخطاب

يتصدر الخطاب عبارة موجزة ترد على خطاب الكتبة الأمريكيين تقرر أن " الفكرة الأساسية الباطلة التى تبناها مؤيدى الحرب هى إقامة الـتعادل بين " القيم الأمريكية " كما هى مفهومة فى الوطن، وممارسة الولايـات المتحدة قوتها الاقتصادية والعسكرية على وجه الخصوص خارج الوطن"

ثم يبدأ الخطاب بعد ذلك فى تفنيد منطق الإدارة الأمريكية فى شن الحرب ضد الإرهاب من ناحية، والرد على " الكتبة " الأمريكيين من ناحـية أخرى ، بالإضافة إلى حث الأصدقاء الأوروبيين بين المثقفين والسياسيين للوقوف معهم صفا واحداً لنقد التوجهات المنحرفة للإدارة الأمريكية .

ونفصل فى عرض الأفكار الرئيسية لهذا الخطاب الهام أن نترجمه بالكامل حتى يتضح الترابط المنطقى بين أجزائه المختلفة .

يقول الخطاب :

" عقـب الهجمـات الانتحارية فى الحادى عشر من سبتمبر على مركـز الـتجارة العـالمى فى نيوريورك وعلى مبنى البنتاجون فى واشـنطن، أعلـن الرئيس الأمريكى جورج بوش حربا مفتوحة ضد الإرهاب.

وهذه الحرب ليست لها حدود ظاهرة، سواء فى المكان أو الزمان أو حـتى فـى التخريب الذى يمكن أن تحدثه. وليس هناك تحديد لأى دولـة يمكـن أن يشتبه فى كونها تخبئ الإرهابيين " فى أراضيها، أو يعلن عنها باعتبارها جزءا من محور الشر. 'إن إزالة الشر قد يستمر مـدة أطـول من تلك التى يمكن للعالم أن يتحمل القوة التخريبية التى ستسـتخدم. إن البنـتاجون شـرع يقذف قنابل وصفت بأن لها تأثيرا كالـزلازل، وهو رسميا يفكر فى استخدام أسلحة ذرية، وذلك من بين الأسلحة المرعبة التى يطورها بانتظام فى ترسانة أسلحته .

إن الخراب المادى المستهدف لا يمكن قياسه،وكذلك الأضرار الإنسانية ليس فقط فى مجال فقدان الحياة للبشر، بل أيضا من الزاوية السياسية والمعـنوية والكراهـية الـتى لابـد أن يحسها ملايين الناس الذين لا

يملكـــون ســـوى أن يراقبوا وهم عاجزون عالمهم وهو ينهار بواسطة دولة هى الولايات المتحدة الأمريكية التى تفترض أن سلطتها الأخلاقية مطلقة ولايمكن تحديها مثلها مثل قوتها العسكرية .

ونحن باعتبارنا مواطنين أمريكيين علينا مسئولية خاصة لمعارضة هـــذا الاندفاع المجنون تجاه الحرب. وأنتم كأوروبيين أيضا تقع عليكم مســـئولية خاصـــة. فأغلب أقطاركم حلفاء للولايات المتحدة تزعم أنها تســـلك دفاعـــا عـــن نفسها، ولكن أيضا للدفاع عن مصالح " حلفائها وأصـــدقائها". ان بلادكـــم لابـــد بالضرورة أن تتورط فى المغامرات العسكرية الأمريكية. ان مستقبلكم أيضا مهدد.

إن عديـــدا مـــن الناس الواعين سواء داخل حكوماتهم أو خارجها علـــى وعـــى بالجنون الخطر لطريق الحرب الذى تتبعه إدارة بوش. ولكـــن قلة منهم يتجاسرون على الحديث بأمانة. انهم يخشون مختلف صـــور الـــردع التى يمكن اتخاذها قبل " الأصدقاء" و" الحلفاء" الذين يقصرون فى تقديم المساعدة غير المشروطة.

انهم يخشون أن يوصفوا بأن لديهم مشاعر مضادة لأمريكا، وهو نفس التوصيف الذى يطلق بشكل عبثى على الأمريكيين أنفسهم الذين يعارضون سياسات الحرب والذين يتم اغراق احتجاجاتهم بسهولة فى خضـــم " كـــورس" الوطنية المتطرفة التى تهيمن على وسائل الإعلام الأمريكـــية . ان نقـــدا أوروبيا رصينا وصريحا لسياسة إدارة الرئيس بـــوش يمكـــن أن تساعد الأمريكيين المعارضين للحرب فى أن يسمع صوتهم .

إن الاحـــتفال بالقوة وتمجيدها قد يكون أقدم مهنة فى العالم أقدم علـــى ممارستها الشعراء ورجال الأدب. ولاشك أن الولايات المتحدة الأمريكـــية باعتـــبارها القوة العالمية العظمى تجذب بالطبع المشاهير الأمريكييـــن الذيـــن يدفعون بقادة الأمة السياسيين أن يذهبوا بعيدا فى مجال استخدام القوة العسكرية لفرض الفضيلة على عالم منحل. ان هذا موضوع قديم جديد فى نفس الوقت، وهو أن الخير الذى يمتلكه القوى ينبغى أن يبسط للضعيف باستخدام القوة .

إن الفكـــرة الأساسية الباطلة التى يتبناها أنصار الحرب هى اقامة الـــتعادل بين " القيم الأمريكية" كما هى مفهومة فى الوطن، وممارسة

الولايـــات المتحدة لقوتها الاقتصادية والعسكرية على وجه الخصوص خارج الوطن .

إن الاحـــتفال بـــالذات وتمجـــيدها ملمـــح شهير من ملامح ثقافة الولايـــات المـــتحدة، وربمـــا نظـــر إليها باعتبارها أداة نافعة لتحقيق الاندماج فى مجتمع مهاجر. غير أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد دفعت بهذا الاتجاه للأسف الى آفاق جديدة متطرفة . وتأثيره يتمثل فـــى تدعيم وهم ذائع بين مواطنى الولايات المتحدة هو أن العالم كله يركـــز بصـــره، إعجابا أو حسدا على الولايات المتحدة الأمريكية كما ترى هى نفسها : يسودها الرخاء، وديمقراطية، وكريمة، ومرحبة بمن يأتى إليها ، ومفتوحة لكل الأجناس والأديان، وهى تمثل القيم الإنسانية العالمية، وأنها آخر أفضل أمل للإنسانية .

وفى هذا السياق الإيديولوجي فإن السؤال الذى ثار بعد ١١ سبتمبر هـــو : لمـــاذا يكرهونـــنا ؟ " وكانت الإجابة الوحيدة " يكرهوننا لأننا متمـــيزون فى كل شئ بشكل بارز، أو بعبارة أخرى يذيع استخدامها، يكرهوننا بسبب " قيمنا".

إن عديـــداً من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية لا يدركون أن تأثير الولايات المتحدة الأمريكية فى الخارج لا علاقة له " بالقيم " التى يـــتم تمجـــيدها فـــى الوطن، بل ان هذا التأثير يسهم غالبا فى حرمان الشعوب من أفكار أخرى من فرضية التمتع بها إذا كانوا مهتمين بذلك.

ولـــو نظـــرنا إلى أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، لوجدنا أن قوة الولايـــات المـــتحدة استخدمت غالبا لتدعيم بقايا الأنظمة الاستعمارية والحكـــام المستبدين الذين لا شعبية لهم ، كما استخدمت لتدعيم القوات المســـلحة القمعـــية وتنظيم انقلابات للحكومات المستقلة أو تشل حركة بعضـــها من خلال استخدام العقوبات، وأخيرا تستخدم القوة الأمريكية لإرسال قاذفات القنابل وصواريخ كروز لتمطر الموت والخراب.

(الحق فى الدفاع عن النفس)

١ - حق من؟

منذ الحادى عشر من سبتمبر تحس الولايات المتحدة أنها مهددة . ومن هنا زعمت الحكومة الأمريكية أن لها حقا فى الدفاع عن النفس "

يسـمح لها بشن الحرب بشروطها، وكما تختار، ضد أى قطر تحدده باعتـباره عـدوا، بغير دليل على إدانة، وبدون استخدام أى إجراءات قانونـية. ومن الواضح أن هذا " الحق فى الدفاع عن النفس" لم يكفل أبدا لبلاد مثل فيتنام ولاوس وكمبوديا ولبيبا والسودان أو يوغوسلافيا حيـن ضربت بالقنابل بواسطة الولايات المتحدة. ولنَ يتوفر هذا الحق بالنسـبة لأى بلـد سـتقذفه الولايـات المتحدة الأمريكية بالقنابل فى المسـتقبل. إن هذا الحق هو بكل بساطة حق الأقوى، أو بعبارة أخرى هو قانون الغابة ان ممارسة هذا الحق " وإنكار حقوق الآخرين جميعا لايمكن أن يخدم " القيم العالمية" بل أنه يهدم جوهر النظام العالمى الذى يسـتند الـى قيم عالمية تكفل حق اللجوء الى القانون، وهو حق متاح للجميع على أساس المساواة . إن حقاً يتمتع به طرف واحد فقط، وهو الأقوى، ليس حقا ولكنه امتياز يمارس فقط للإضرار بحقوق الآخرين.

٢ - كيف يمكن للولايات المتحدة أن " تدافع عن نفسها؟

افترضـت الولايـات المـتحدة الأمريكية أنها فى حالة دفاع عن الـنفس، ومـن ثم شنت حربا ضد أفغانستان ولم يكن ذلك فعلا صمم خصيصا لكى يستجيب للأحداث الفريدة فى الحادى عشر من سبتمبر . ذلـك أن الولايـات المـتحدة على العكس مارست ما كانت تمارسه، ونفـذت الخطط التى وضعها البنتاجون وهى قصف الأقطار الأخرى، وإرسـال القـوات العسـكرية الى الأراضى الأجنبية وقلب حكوماتها بـالقوة. ان الولايات المتحدة الأمريكية تخطط بشكل علنى لشن حرب شاملة- بدون استبعاد استخدام الأسلحة النووية- ضد العراق، وهى بلد ظلت الولايات المتحدة تقصفه بالقنابل لعقد كامل، فى ظل هدفها المعلن وهو إحلال حكومة العراق بقادة من اختيار واشنطن ".

هـذه هـى الـترجمة الحرفية للجزء الأكبر من خطاب المثقفين الأمريكيين المعارضين للحرب " العادلة " الأمريكية ضد الإرهاب التى بررها فريق من " الكتبة " الأمريكيين .

ومن بين الموقعين على الخطاب أسماء علماء ومفكرين معروفين مـن بيـنهم ستانلى آرونز وتورمان بيرنباوم ودوجلاس كلنر وهارى

مـــاجدوف وجـــيمس بـــتراس وهم مؤرخون وعلماء اجتماع وفلاسفة وأساتذة علوم سياسية وعلاقات دولية.

وستتابع فى فرصة قادمة ترجمة الجزء الأخير من الخطاب والذى يتضـــمن تشريحا للأهداف الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية فى حربها ضد الإرهاب.

[٩]

إعلاء للقيم أم دفاع عن المصالح؟

نشـرنا فـى مقالـنا الأسـبوع الماضى "نص خطاب المعارضة الأمـريكى"، وهو الخطاب الذى وجهه للأوربيين ١٢٠ أكاديميا ومثقفا أمريكيا ممن وقفوا بجسارة فكرية نادرة، ونزاهة أخلاقية متميزة ضد دعاوى "الحرب العادلة" التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد ما تطلـق علـيه "الإرهاب". وهى الحرب التى سبق لستين مثقفا أمريكيا علـى رأسـهم فرانسـيس فوكوياما وصمويل هنتنجتون أن انبروا لتـبريرها فى خطابهم الشهير الموجه للشعب الأمريكى وللعالم. وهم بذلـك قـاموا - كمـا أكدنا أكثر من مرة - بدور "الكتبة" المبررين لسياسات السلطة المحترفة.

ونواصـل الـيوم ترجمة النص الحرفى للفقرة الأخيرة والحاسمة لخطاب "الكتاب" الموجه للأوربيين.

ما الذى يتم الدفاع عنه بالضبط؟

الدفـاع " كمـا يسـتخدم المفهوم بطريقة تقليدية يعنى الدفاع عن الأرض الوطنـية. والهجوم الذى حدث فى الحادى عشر من سبتمبر كـان هجوما وقع على الولايات المتحدة الأمريكية وضد أرضها. ولم يكـن هـذا الهجوم تقليديا مارسته قوة كبرى بغرض احتلال الأرض. ولكـنه كـان ضـربة وجهتها جهة مجهولة ضد مؤسسات معينة تم استهدافها. وفى غيبة تصريح صدر بالمسئولية عن الهجوم، فإن الطابع الرمـزى للأهـداف التى هوجمت قد يكون فيها نفسها تفسير الهجوم.

ذلك أن برج التجارة العالمى يرمز بوضوح للقوة الاقتصادية الأمريكية العالمــية، فى حين أن البنتاجون مثل القوة العسكرية الأمريكية. ومن هــنا يمكــن القول أنه بعيد عن الاحتمال أن يكون الهجوم فى الحادى عشــر من سبتمبر كان موجها بشكل رمزى ضد "القيم الأمريكية" كما يتم تمجيدها فى الولايات المتحدة.

بــل إن الأهداف الحقيقية – على العكس – يبدو أنها وجهت ضد القوة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية كما تعلن عن نفسها فى الخارج. ووفقا للتقارير فإن ١٥ من ١٩ من المتختطفين الذين تم التعرف على شخصياتهم كانوا سعوديين معادين لوجود القواعد العسكرية الأمريكية على الأرض السعودية.

إن أحــداث الحــادى عشــر من سبتمبر تشير إلى أن الأمة التى تســتعرض قوتهــا فــى الخارج هشة فى الداخل، غير أن الموضوع الرئيســى هــو التدخل الأمريكى فى الخارج. ومن المؤكد أن حروب بــوش تهــدف إلــى الدفاع عن القوة الأمريكية فى الخارج وتقويتها. ومعنى ذلك أن الذى يتم الدفاع عنه هو الحشد العالمى الأمريكى للقوة، وليست الحريات فى الداخل أو أسلوب الحياة الأمريكى.

والواقــع أن الحــروب فى الخارج من شأنها أن تهدم أسس القيم المدنــية الــتى يسعى المدنيون إلى تبنيها فى داخل الوطن، أكثر من كونهــا دفاعا عنها أو نشرها. غير أن الحكومات التى تشن الحروب العدوانــية دائما ما تسعى إلى كسب التأييد فى داخل الوطن، من خلال إقناع الناس البسطاء أن الحرب ضرورية للدفاع عن الأفكار النبيلة أو توسيع دائرة تطبيقها.

إن الاخــتلاف الجوهــرى بين الحروب الإمبريالية فى الماضى والممارســة العنيفة للقوة التى تطبقها الولايات المتحدة الأمريكية، هى فى أدوات التدمير الهائلة المتاحة فى الوقت الراهن.

ولــم يحدث من قبل هذه الدرجة من عدم التناسب الخطر بين قوة التدمير المادية والقوة البناءة للحكمة الإنسانية.

والمثقفون اليوم عليهم أن يختاروا بين الانضمام "لكورس" هؤلاء الذيــن يمجــدون استخدام القوة الخالصة من خلال صيغهم الخطابية لربطها بالدفاع عن "القيم الروحية"، أو القيام بالدور الأساسى والصعب

والذى يتمثل فى تعرية الاستخدام المجنون للقوة، والعمل مع الإنسانية كلهـا لخلق وسائل للحوار العقلانى، وإقامة علاقات اقتصادية عادلة، وتحقيق العدل بالنسبة للكل.

إن حق الدفاع عن النفس ينبغى أن يكون حقا إنسانيا جماعيا. إن الإنسانية جميعا من حقها أن تدافع عن حقها فى البقاء ضد "حق الدفاع عـن الـنفس" لقـوة عظمى لا مجال لمراجعة قراراتها. إن الولايات المـتحدة الأمريكـية أظهرت لمدة نصف قرن وبشكل متكرر، أنها لا تبالى بالموت الجماعى والتخريب الذى تحدثه عملياتها التى تزعم أنها بغرض تحسين أوضاع العالم. وليس هناك طريق سوى ضم الصفوف بالتضـامن مع ضحايا القوة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية لكى نستطيع نحن فى البلاد الغنية أن ندافع عن القيم العالمية التى نزعم أننا نتبناها"

تحليل لعناصر الخطاب

بهذه الفقرة النقدية لسلوك الولايات المتحدة الأمريكية فى ممارسة قوتها الاقتصادية وتفوقها العسكرى، ينتهى خطاب "الكتاب" الأمريكيين المعارضين لسياسات "الحرب العادلة" الأمريكية. غير أنهم فى الواقع لم يقنعوا بنقد سياسات الإدارات الأمريكية المتعاقبة، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك تعرضوا بالنقد العنيف للمثقفين الذين يضعون علمهم وخبرتهم بـل وشهرتهم الجماهيرية لتبرير قرارات السلطة الأمريكية المنحرفة. ولا يجدون حلا إلا فى التضامن الإنسانى مع ضحايا سياسات الولايات المتحدة الأمريكية للدفاع عن القيم الإنسانية الرفيعة التى تدعو للحرية، وتحض على تحقيق العدل بالنسبة لكافة الشعوب.

ويمكـن القـول أن الأفكـار الرئيسية التى تضمنها خطاب كتاب المعارضة الأمريكيين تتمثل أساسا فى كشف الغطاء عن أهداف حرب الإرهـاب الأمريكـية التى زعم خطاب "الكتبة" أنها للدفاع عن "القيم الأمريكـية" بإبـراز أنهـا فـى الواقع للدفاع عن المصالح الأمريكية الاقتصـادية والاستراتيجية. وليست مزاعم الدفاع عن القيم إلا ذريعة لتـبرير مـنطق الحرب ضد الإرهاب، والتى يقرر خطاب المعارضة أنهـا لا يحدها زمان ولا مكان، وبالتالى هى حرب فريدة فى التاريخ.

وإذا أضـــفنا إلـــى ذلك البعد الأخلاقى الذى أعطى للحرب على لسان الرئـــيس بوش وأركان إدارته ووصف محور الشر الذى أطلقه بدون أدنـــى دلـــيل علـــى مجموعة متنوعة من الدول، برغم أنها إما تساند الإرهـــاب أو تؤوى إرهابيين، لأدركنا المخاطر القصوى على السلام العالمى من شن هذه الحرب "العادلة" المزعومة.

وقد لمس خطاب المعارضة الوضع الراهن للتوازن الدولى، حيث تهيمن الولايات المتحدة الأمريكية على الساحة العالمية عسكريا بدون أن توجـد أى قـــوة أخرى يمكن أن تردعها. وإذا نظرنا إلى الاتحاد الأوروبـــى لوجدنا أن دوله تصرح أحيانا علنا بأنها عاجزة عن وضع حـــد لانفراد الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ القرارات الاستراتيجية فـــى مجـــال الحرب أو الاقتصاد. فى مجال الحرب وتحت شعار "من لـــيس معنا فهو ضدنا" نجحت الولايات المتحدة الأمريكية فى استدراج الدول الأوروبية للاشتراك معها فى الحرب التى شنتها ضد الإرهاب. وظنـــت الـــدول الأوروبـــية أنهـــا سيكون لها دور فى تقرير مسار واتجاهـــات الحـــرب، غير أن الولايات المتحدة الأمريكية سرعان ما انفـــردت بإصدار القرار، وجعلت كافة القوات الأوروبية – وإن كانت أســـهمت فى الحرب بشكل رمزى – تحت القيادة العسكرية الأمريكية المباشـــرة. كمـــا أنها لا تلقى بالا إلى استشارة حلفائها الأوروبيين فى اتخاذ القرارات.

وهـــذه الاتجاهات الإمبراطورية الأمريكية المغالية، لا تظهر فقط فـــى مجـــال الحـــرب ضد الإرهاب، بل إنها برزت بشكل واضح فى مجاليـــن أساسيين. المجال الأول هو حماية البيئة العالمية التى هدفت معـــاهدة كيوتو إلى ضمانها، والتى وقعت عليها الولايات المتحدة بعد ممانعة شديدة. – غير أنها سرعان – فى ظل إدارة الرئيس بوش – ما انســـحبت منها تماما، مع أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أكثر بلاد العـــالم تعريضـــا للمـــناخ الكونـــى للتلوث. وقد أحدث هذا الانسحاب اعتراضات شديدة من قبل دول العالم وفى مقدمتها الدول الأوروبية.

وقد أظهرت استطلاعات الرأى العام فى دول أوروبية متعددة أن الجمهـــور العام الأوروبى يتبنى اتجاهات بالغة السلبية إزاء الولايات المتحدة لانسحابها من معاهدة كيوتو.

وإذا أضفنا إلى ذلك انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة حظر انتشار الصواريخ، وإصرارها على المضى قدما فى مشروع الدرع الصاروخى الذى سيتكلف ثمانين بليون دولار، لأدركنا مدى استخفاف الولايات المتحدة الأمريكية بقضية حفظ السلام العالمى، وضرورة الالتزام بالمعاهدات الدولية التى وقعت عليها.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وقعت على معاهدة منظمة التجارة العالمية، بما يعنى – وهى دولة عظمى – ضرورة الالتزام بأحكامها، إلا أنها فى ظل إدارة الرئيس بوش خرجت على نصوص المعاهدة، حين فرضت الحماية غير الشرعية على الصلب الأمريكى لتحميه من المنافسة العالمية. وفى هذا السلوك ما فيه من استهتار شديد بالمعاهدات الدولية، بل وبمبدأ حرية التجارة ذاته التى ما قامت منظمة التجارة العالمية إلا لحمايته.

وتبقى أخيرا وقد يكون أولا الانتهازية السياسية البارزة للولايات المتحدة الأمريكية فى مجال ازدواجية المعايير، ليس فقط فى حقوق الإنسان، ولكن فى مجال دولة السلام العالمى. فهى تتغاضى عن السياسات العنصرية وجرائم الحرب التى تمارسها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، فى الوقت الذى تنعت فيه أعمال المقاومة الفلسطينية المشروعة بحكم المواثيق الدولية بالإرهاب.

وبعد ذلك كله تتساءل الولايات المتحدة الأمريكية على لسان "الكتبة" الأمريكيين "لماذا يكرهوننا".

والإجابة واضحة، فهذه الكراهية المنتشرة فى كل أنحاء العالم ليست موجهة إطلاقا للشعب الأمريكى، بل إلى الإدارات الأمريكية المتعاقبة التى مارست وتمارس سياسة الهيمنة العالمية فى ضوء تحقيق المصالح الأمريكية على حساب شعوب العالم جميعا.

[١٠]

استجابة المثقفين فى العالم

لم يكن غريبا أن يضع الكتاب الأمريكيون المعارضون للحرب "العادلة" التى شنتها إدارة الرئيس بوش على الإرهاب فى العالم عنوانا لخطابهم هو "خطاب إلى الأوربيين". ومنطق هذا التوجه هو أن الأوربيون هم حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فالمثقفين الأوربيين إذا ضموا أصواتهم إلى أصوات المثقفين الأمريكيين فى مجال معارضة الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، فإن هذا من شأنه أن يشكل حلفا ثقافيا فعالا يؤدى إلى رفع الوعى العام للنخبة والجماهير على السواء فى أمريكا وأوروبا لإدانة الحرب، والدعوة إلى حل الصراعات بين الأمم والشعوب فى ضوء الشرعية الدولية ومبادئ العدالة.

وجه خطاب المثقفين الأمريكيين لأوربا والعالم فى العاشر من شهر أبريل الماضى، وسرعان ما تمت الاستجابة له، ليس من قبل المثقفين الأوربيين وحدهم وإنما من مثقفى العالم فى الثالث والعشرين من أبريل، أى بعد ثلاثة عشر يوما فقط من صدور الخطاب الأول. وسرعة الاستجابة هنا لها دلالات عميقة. فهى تعنى أولا أن الإحساس المرهف للمثقفين، وإيمانهم بحق الشعوب فى الحرية والعدل، يسود فى كل مكان من أرجاء العالم. وإذا كان خطاب المثقفين العالميين قد ركز أساسا - على عكس خطاب المثقفين الأمريكيين - على حل القضية الفلسطينية حلا عادلا، فقد كان ذلك منطقيا لسببين. السبب الأول أن الانحياز الأمريكى للدولة الإسرائيلية العنصرية أحد مصادر الكراهية العميقة للشعوب الإسلامية والعربية لسياسات الولايات المتحدة

الأمريكيــية، والـــتى كانت أحد أسباب العنف المدمر الذى وجه لها فى الحــادى عشــر من سبتمبر. وقد يكون ذلك ردا مناسبا على السؤال الشهير الذى وجهه عدد من الساسة والكتبة الأمريكيين عندما صاحوا: "لماذا يكرهوننا؟ والسبب الثانى أن المثقفين العالميين – عكس المثقفين الأمريكييــن – تــابعوا بدقــة لأسباب شتى تحولات الصراع العربى الإســرائيلى. وبــادر عدد من أبرزهم للكتابة فى الموضوع من زوايا شـــتى. من أبرزهم جان بول سارتر الذى شارك منذ سنوات بعيدة فى تحريــر عدد خاص مجلة "الأزمنة الحديثة" عن الصراع وطرق حله، ولـــو أن سارتر كان مذبذبا فى موقفه، غامضا فى إبراز وجهة نظره. غـــير أن كاتــبا فرنسيا شهيرا هو جان جينيه كتب كتابا عن الصراع أدان فـــيه الصـــهيونية وإسرائيل صراحة، وانتصر فيها لوجهة النظر العربية.

خطاب المثقفين والكتاب

وجه المثقفون والكتاب من كل أنحاء العالم خطابا إلى كوفى عنان السكرتير العام للأمم المتحدة. وهم ينتمون إلى ٢٠ دولة.

ومن بين الموقعين عدد من أبرز المفكرين والفلاسفة والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين، والذين لهم شهرة عالمية وترجمت أعمالهم إلى لغات متعددة. من بين هؤلاء إرنستو لاكلو من الأرجنتين وإتيين باليبار المفكــر الماركســى المعروف، وجاك ديريدا فليسوف التفكيكية، وبير ماشــرى وجاك رانسيير من مفكرى اليسار المشاهير، ورشدى راشد المصــرى وهو من أبرز مؤرخى العلوم فى العالم من فرنسا، وجاك جودى وشانتال موف من إنجلترا، وموكيا هاربانز من الهند، وآهارون شـــاباتى ومعـــه ثمانـــية من أبرز العلماء الاجتماعيين من إسرائيل، ودومينيكو باسيلو من إيطاليا وجونزاليس كازانوقا من المكسيك وإيرنيا كابونوقا من روسيا وجوزيد باكشيكيو من السويد، ودنيز كاندبيتو من تركـــيا ومارتن برنال صاحب الكتاب الشهير "أثينا السوداء" وإيمانويل فالرتشـــتين صاحب نظرية "النظام العالمى" ومعهما أربعة آخرين من

أبــرز العلمـــاء الاجتماعيين فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرا ريناتا ساليسل من يوغوسلافيا.

ونفضـــل أن نـــترجم فيما يلى نص الخطاب الموجه لكوفى عنان لأهميـــته القصوى، ونظراً لأن موقعيه هم من أبرز المثقفين والكتاب من كل أنحاء العالم .

صاحب السعادة

كما لاحظتم عدة مرات فى التصريحات الأخيرة، وآخرها بمناسبة اجتماع لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان التى انعقدت فى جنيف فى الـــثانى عشـــر مـــن أبريل ٢٠٠٢، فإن الصراع الدموى فى فلسطين وإسرائيل قد وصل إلى أبعاد تراجيدية. لقد تم خرق المعاهدات الدولية الخاصـــة بحقـــوق الإنسان، ومن المحتمل أيضا أنه تم ارتكاب جرائم حـــرب وجرائم ضد الإنسانية يوما بعد يوم. والشعب الفلسطينى أجبر لكـــى يعيش فى ظروف بالغة المشقة لدرجة لا يمكن حساب نتائجها، وأخضع المجتمع الإسرائيلى لعسكرة متزايدة بغير أن يتحقق له الأمن أو يتحسن. وقد منعت الجمعيات التطوعية ومنظمات الأمم المتحدة من القيام بوظائفها الإنسانية.

وقـــد منع مستشار الأمم المتحدة لحقوق الإنسان من دخول المدن المدمـــرة ومعسكرات اللاجئين بالرغم من تكرار طلبات الدخول. كما أنه تم تجاهل قرارات متعددة ملزمة لمجلس الأمن (بما فى ذلك القرار الذى اتخذ بالإجماع فى الرابع من أبريل عام ٢٠٠٢).

ومـــن الجلـــى أن الـــتوتر يزداد مما من شأنه أن يهدد السلام فى المنطقة كلها.

وقـــد ثبت الآن أن المقترحات المتعددة للتفاوض والوساطات التى اقترحـــت لم تكن فعالة. ولذلك لابد للأمم المتحدة من أن تأخذ المبادرة مـــرة أخرى. إن الأمم المتحدة بمفردها هى التى يمكن أن تقدم الإطار المناســـب لـــتدخل دولى من شأنه أن ينهى القتال والعمليات القمعية، ويضـــمن حمايـــة كاملـــة للسكان المدنيين على كلا الجانبين، ويرفع العقـــبات من أمام مسار التفاوض، ويفتح آفاقا جديدة لحل عادل على أساس القرارات التى تم اتخاذها من قبل.

وأولا وفـــى البداية. فإن الأمم المتحدة ينبغى أن تعيد التأكيد على أنـــه من الضرورى وبغير أدنى تأخير تواجد دولتين مستقلتين بحقوق متساوية وباحترام متساو لكل من الشعبين، والتى عليهما أن يعيشا جنبا إلـــى جنب فى أرض فلسطين التاريخية. ومن الناحية العملية فإن ذلك يعـــنى الاعتراف بالسيادة الفلسطينية داخل الحدود التى كانت موجودة قبل الرابع من يونيو عام ١٩٦٧ (بما فى ذلك القدس الشرقية). وذلك الحل ينبغى أن يحترم ويتم الإلزام به بواسطة المجتمع الدولى.

وهـــذا الاعـــتراف، والـــذى لم تعد تقف دونه عقبات قانونية، تم التخطـــيط له ســـلفا بواســـطة اتفاقيات أوسلو كعمل مشترك بين دولة إسرائيل والسلطة الفلسطينية. ومن المعروف الظروف التى دمرت هذه الإمكانية وأقامت بدلا منها منطقا للعنف. وهناك الآن طريق واحد من شـــأن الســـير فيه وقف شلال الدم وإعادة خلق إمكانيات السلام، وهو الذى يتمثل فى تغيير الاتجاه والبدء من جديد على هدى أساس قانونى وواضح وغير متنازع بشأنه.

إن تأسيس دولة فلسطينية لم يعد يمكن النظر إليه باعتباره جائزة تمنحها القوة المحتلة، ذلك لأن علامات "النية الحسنة" كان من المحتمل دائما الإعلان بأنها غير كافية. وعلى العكس من ذلك كله، فإن تأسيس الدولـــة هـــى الخطـــوة الأولى، وهى الشرط المبدئى الذى يمثل الحد الأدنـــى، والـــذى سيجعل من الممكن من بعد الانخراط فى مفاوضات ثنائية وتقديم ضمانات متبادلة.

"إن الفلسطينيين قد اعترفوا بالوجود الشرعى لدولة إسرائيل. وقد وافقوا بالفعل على التنازل عن ٧٨% من الأرض التاريخية التى عاش فـــيها آبـــاؤهم، أو الـــتى ولدوا هم أنفسهم على ترابها. وإن لهم الحق المطلـــق أن يـــتحرروا كليا من الاحتلال، وأن يتمتعوا فورا بدولتهم المعترف بها دوليا ونعنى دولة فلسطين المستقلة.

إن الدولة المستقلة هى بمفردها التى يمكن أن تعقد مسئوليتها عن أفعـــال مواطنيها، داخل وعبر حدودها. الدولة الفلسطينية المستقلة هى فقـــط التى تستطيع ضمان أمن الشعب الإسرائيلى، والذى هو فى حد ذاته حقه المطلق.

فقط في هذه الدولة يمكن تنمية وتطوير المؤسسات الديموقراطية، والتي ستسمح لنفسها ولمواطنيها أن يسلكوا طريقا تاريخيا جديدا، والتغلب على مرارات وصدمات الماضي.

وهذه الدولة هي فقط التي يمكن أن تدخل بشكل شرعي في مفاوضات مع جيرانها، وفي مقدمتهم إسرائيل لحل المشكلات المزمنة المتعلقة بالسكان والموارد الطبيعية، والأمن المتبادل والتعويضات، وإدارة الأماكن المقدسة. وهذه الدولة يمكنها أن تجد حلا للصعوبات التي منعت هذين الشعبين من العيش معا بسلام، وهذه الشعوب التي تفصلها اليوم مشاعر الكراهية العميقة والشك، بالرغم من ضرورة تواجد كل منهما بالنسبة للآخر، ومن أجل مستقبل حضارتنا.

وهما لا يستطيعان الانتظار لتحقق عملية "التسوية" والتي تقطعها بشكل دائم اعتبارات عدم توازن القوى، والحسابات السياسية الداخلية، وسوء استخدام مشاعر المعاناة والخوف، وازدواجية الخطاب بالإضافة إلى الضغوط الأجنبية.

إن العملية ينبغي أن تبدأ من قاعدة معلنة هي المساواة في الحقوق والتي ينبغي أن تلزم كل إنسان.

إن هذه اللحظة التي يبدو فيها أن الحل بعيد عن المنال، هي بذاتها التي ينبغي فيها التأكيد على أن العدل والحق ينبغي إعادة تأكيدهما وتطبيقهما. ولكن لكي يتحقق ذلك لابد من مبادرة سياسية.

"يا صاحب السعادة، إن هذه حالة تستدعي التدخل السريع. وإننا نعلم أنك ملم تماما بالموقف، ولذلك فإنه باسم الإنسانية ومن أجل مصلحة الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني، فإننا نطلب منك أن تبدأ عملية الاعتراف الرسمي بالدولة الفلسطينية على الفور، ولو كان ذلك ضروريا من خلال عقد جلسة استثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة. ونحن ندعو حكومتنا في كل قطر من أقطارنا وباسم التحالفات والمعاهدات التي وقعتها، أن تساند بشكل كامل مبادرتك في هذا الصدد".

هكذا تكلم مثقفوا العالم وكتابه من كل الأقطار دفاعا عن حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة، وحثا للأمم المتحدة لكي تنفذ قراراتها بشأن الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية.

[١١]

كتابة التاريخ من القمم إلى السفوح!

اهتممت بدراسة التاريخ منذ أمد بعيد، باعتبار هذه الدراسة جزءا رئيسيا من مكونات إعداد الباحث فى العلم الاجتماعى. وكنت منذ منتصف الخمسينات حين التحقت بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية قد تلقيت الدرس الأساسى من أستاذى المرحوم الدكتور أحمد خليفة من أن هناك علما اجتماعيا واحدا وتخصصات متعددة فى نفس الوقت. بمعنى أن الظواهر الاجتماعية تحتاج إلى منهج شامل فى دراستها، ومن هنا لابد أن يخوض الباحث العلمى الاجتماعى الناشئ فى التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الانثربولوجيا وعلم السياسة، إن كان يريد حقا أن يكون إنتاجه العلمى يتسم بتكامل المعرفة، مما يعطيه سمة التميز والتفرد فى بعض الأحيان، حين يصل إلى ذروة من ذرى الإبداع العلمى، والذى يكشف عنه التوفيق فى الوضع الدقيق لمشكلات البحث، والاختيار المناسب للمنهج، والقدرة على صياغة النظريات العامة.

وإذا كنت عنيت بدراسة التاريخ المصرى فى حقبه المتوالية، إلا أننى اهتممت على وجه الخصوص بنتاج مدرسة التاريخ الاجتماعى المصرية التى كان من أقطابها المؤرخ المعروف الدكتور محمد أنيس وتلاميذه العديدين. وهكذا تابعنا بدقة - نحن الباحثين فى العلم الاجتماعى - بحوث رؤوف عباس وعاصم الدسوقى وعلى بركات وغيرهم، الذين طرقوا ميادين جديدة، وأضاءوا دروبا معتمة فى التاريخ المصرى، وخصوصا فى مجال دراسة تاريخ الطبقة العاملة المصرية، وتكوين طبقة كبار الملاك. ولا ينبغى أن ننسى فى هذا

المقـــام أن ننوه بالكتاب الفريد "فى أصول المسألة المصرية" للدكتور صــبحى وحـــيدة، والذى يمثل فى الواقع نموذجا فذا للتاريخ التأويلى بحكم الثقافة الموسوعية النادرة لمؤلفه.

غير أن اهتمامى بالتاريخ تطور بشكل ملحوظ أثناء بعثتى العلمية إلـــى فرنســـا (١٩٦٤ - ١٩٦٧) حيـــن اكتشــفت مدرسة "الحوليات الفرنســـية" الـــتى قدمت مناهج مستحدثة فى كتابه التاريخ، وفى قلبها المـــؤرخ المـــبدع "بـــروديل" صاحب الكتاب الشهير "البحر الأبيض المتوســـط فى عهد فيليب الثانى" والذى صاغ فيه المنهج التكاملى فى الدراســـة التاريخـــية، والذى لا يفرق بين الجوانب المادية والجوانب المعنوية فى تطور المجتمعات الإنسانية. ولذلك ليس غريبا أن نجد فى هـــذا الكـــتاب النادر فصلا بعنوان "تاريخ العقليات فى البحر الأبيض المتوسط"، جنبا إلى جنب مع تاريخ العلاقات الاقتصادية والتجارية بين شعوب المتوسط.

كيف يكتب التاريخ؟

ظلت كتابة التاريخ لآماد طويلة تركز على تاريخ النخب السياسية والاقتصـــادية والفكرية، أى تاريخ "القمم" بحيث أنها نادرا ما تطرقت إلى تاريخ الناس العاديين الذى يقبعون فى "سفوح المجتمعات" إن صح التعبير.

غير أنه حدثت فى العقود الأخيرة ثورة نظرية ومنهجية فى كتابة الـــتاريخ، بحيـــث أخذ يشتد الاهتمام بتاريخ المواطنين العاديين الذى تجاهلـــتهم الكتابات التاريخية التقليدية ردحا طويلاً من الزمان. وهذه الكـــتابة الجديدة أصبح يطلق عليها منذ منتصف الستينات "التاريخ من أسفل" History from below وقد تكفل الباحث "جيم شارب" فى فصل بنفس العنوان بالتأريخ لصعود هذه الكتابة الجديدة فى كتاب هام صـــدر عـــام ٢٠٠١، عنوانه "منظورات جديدة فى الكتابة التاريخية" أشرف على تحريره بيتر بيرك ونشرته دار نشر "بوليتى".

ويـــؤرخ جيم شارب بدقة لصعود هذا التاريخ الجديد. ويقرر أنه ربما كانت من أولى الإشارات إلى أهمية ممارسته قصيدة كتبها الكاتب

المسرحى الألمانى الشهير برتولد برخت ونشرها بعنوان "أسئلة يطرحها عامل يمارس القراءة" والتى ورد فيها أهمية كتابة تواريخ الناس العاديين بدلا من الانغلاق فى التأريخ للأشخاص الذين يقبعون فى القمة. غير أن المعالجة المتكاملة للموضوع جاءت فى مقالة للمؤرخ الإنجليزى إداورد تومبسون الذى كتب هو نفسه كتابه المعروف "تاريخ الطبقة العاملة الإنجليزية" وذلك فى مقال له نشر عام ١٩٦٦ فى الملحق الأدبى لجريدة التيمز بعنوان "التاريخ من أسفل". ومنذ هذا التاريخ دخل هذا المفهوم فى إطار اللغة التى يستخدمها المؤرخون. وفى عام ١٩٨٥ نشر كتاب بعنوان "التاريخ من أسفل: دراسات فى الاحتجاج الشعبى والإيديولوجية الشعبية" حرره فردريك كرانتز وحفل بفصول شتى فى الموضوع. وتوالت بعد ذلك الدراسات والكتب التى حاولت أن تؤصل الموضوع وترسخ المفهوم.

وأصبح هذا المنظور التاريخى له جاذبية خاصة وخصوصا لشباب المؤرخين الذى يطمحون إلى فتح آفاق جديدة لعلم التاريخ، وطرق ميادين بحث مستحدثة، وقبل ذلك حكاية تاريخ الناس البسطاء من النساء والرجال الذين تم تجاهلهم فى الكتابات التاريخية التقليدية. ولا يعنى ذلك أن هذا المنظور الجديد لا يواجه مشكلات متعددة فى التطبيق، فالعكس هو الصحيح. ولعل أهم هذه المشكلات هى مدى صحة الأدلة التى يتوصل إليها المؤرخ الجديد فى ضوء المادة التاريخية الأصلية.

غير أنه إذا كان توميسون فى عرضه لتاريخ الطبقة العاملة الإنجليزية لم يجد صعوبة فى العثور على اليوميات والمذكرات والخطابات والمواد الأخرى التى صاغ على ضوئها تاريخ الطبقة، فإن الرجوع إلى الوراء كثيرا تحوطه صعاب متعددة، لأنه من الصعب العثور على مثل هذه المواد قبل القرن الثامن عشر.

غير أن المشكلات الأخرى لها طابع نظرى، لعل أهمها ما هى الفئات التى يمكن القول أنها تقبع فى "أسفل" البناء الاجتماعى؟ وما الذى يمكن أن نفعله بهذا التاريخ حتى لو نجحنا فى كتابته؟

أسئلة هامة ولكننا لا نستطيع – لضيق المقام – أن نخوض فى الإجابة عليها.

هوارد زين مؤرخا راديكاليا

مـــا ســـبق كـــان مجرد مقدمة للحديث عن أشهر مؤرخ أمريكى معاصر هو هوارد زين. والسؤال هنا لماذا أهتم بهذا المؤرخ بالذات؟ والإجابـــة بســـيطة لأنه كان على رأس الموقعين على خطاب الكتاب الأمريكيين المعارضين "للحرب ضد الإرهاب" التى شنها الرئيس بوش وأركان إدارته. وقد جاء هذا الخطاب الذى وقعه أكثر من ١٢٠ مثقفا وأكاديمـــيا معارضا للرد على خطاب "الكتبة الأمريكيين" الذين دافعوا عن الحرب "العادلة" الأمريكية.

اكتشفت هوارد زين من خلال خطاب المعارضة، وكذلك اكتشفت الروائى الأمريكى الكبير جور فيدال أيضا. ومن باب حب الاستطلاع أردت أن أتعرف بعمق على كل من هذين المثقفين الأمريكيين.

رحلة البحث الطويلة قادتني إلى مجموعة حقائق مثيرة. أبرزها أن هـــوارد زيـــن هو المؤرخ الأمريكى الذى كان أول من كتب التاريخ الأمريكى "من اسفل". وحين استعرضت تاريخ حياته أدركت لماذا كان علـــى رأس الموقعيـــن على خطاب "الكتاب الأمريكيين" المعارضين للحـــرب. ذلـــك أن للـــرجل تاريخـــاً حافلاً فى المعارضة للسياسات الأمريكـــية، وســـنعود فى مناسبة لاحقة لاستعراض سيرته الشخصية والفكرية الحافلة.

غير أنه يمكن القول أن أهم إنجاز فكرى فى حياة هوارد زين هو نشره لكتابه الأساسى "تاريخ شعبى للولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٤٩٢ حـــتى الآن" وهـــذا الكتاب نشر لأول مرة عام ١٩٨٠ وأعيد نشـــره عام ١٩٩٥ وبيعت منه أكثر من نصف مليون نسخة وهو رقم قياسى فى مجال النشر.

والكتاب يقع فى حوالى ٧٠٠ صفحة ويبدأ - وهذا هو المثير فى هـــذا الـــتاريخ الفريد لنشأة وتطور الولايات المتحدة الأمريكية - بعام ١٤٩٢. وهـــو تاريخ فاصل فى التاريخ العالمى، لأنه تاريخ اكتشاف أمـــريكا وفتحها. وهو التاريخ الذى كتب بصيغ شتى. ويلفت النظر أن عـــام ١٩٩٢ شـــهد مؤلفات متعددة حول هذا الحدث العالمى الضخم بمناســـبة مـــرور خمســـمائة عام على حدوثه. وفى هذا المجال نشر

الباحث الفرنسى المعروف "تودورف" كتابه العميق "اكتشاف أمريكا" الذى ترجم إلى العربية، وكذلك نشر الكاتب الفرنسى "جاك أتالى" كتابا بعنوان "١٤٩٢" زاخر بالتحليلات العميقة للحدث، ونشر كتاب فرنسى نادر بعنوان "أحوال العالم عام ١٤٩٢" وفيه دراسة مقارنة عميقة لأحوال الأمم والدول الكبرى فى هذا العام. كما نشر تاريخ مضاد للتاريخ الرسمى لمؤلف أمريكى كشف اللثام عن الجرائم التى ارتكبها المكتشف "كريستوفر كولمبوس" ضد أهل البلاد الأصليين وهم الهنود الحمر".

بعبارة موجزة، عمد هوارد زين إلى البداية من البدايات الأولى فقدم تاريخا مضادا للتاريخ الأمريكى الرسمى، وتابع مراحل التاريخ الأمريكى مرحلة إثر مرحلة حتى وصل إلى حرب فيتنام، وبسط نطاق تحليلاته إلى عهد "كارتر وريجان".

والواقع أن هذا الكتاب النادر يمثل مدرسة "التاريخ من أسفل" أبرز تمثيل. ذلك لأنه يكتب التاريخ الأمريكى من زاوية المقهورين والمستغلين فى المجتمع الأمريكى. ويكشف الحلقات المتتالية للقهر السياسى والاستغلال الاقتصادى. وهكذا نجد فى هذا الكتاب الخطير تاريخ السود، والمرأة، والهنود، والعمال الفقراء من كل الجنسيات، وذلك من خلال أقوالهم هم. ولذلك لم يكن غريبا أن نجد "إريك فونر" فى تعليقه على الكتاب الذى نشر بملحق الكتب بجريدة النيويورك تايمز يقرر "أن البروفيسور زين كتب هذا الكتاب بحماس نادرا ما نجده فى النثر البارد السائد فى التاريخ الأكاديمى، ونص الكتاب زاخر بالاقتباسات ذات الدلالة من أقوال وكتابات زعماء العمل، والمقاومين للحرب، وللعبيد الهاربين من العبودية. وهناك أوصاف حية لأحداث عادة ما يتم تجاهلها مثل الإضراب الكبير لعمال السكك الحديدية عام ١٨٧٧، والقمع الوحشى لحركة استغلال الفيلبيين فى بداية القرن. ويمكن القول أن الفصل الذى كتبه زين عن حرب فيتنام، والذى أعاد فيه للحياة مرة أخرى مناطق القصف المفتوحة، والقصف السرى، والمذابح التى ارتكبت، والتغطية عليها، لابد من قراءتها لجيل جديد من الطلبة الذين يواجهون الآن التجنيد فى القوات "المسلحة الأمريكية".

هكـــذا كتـــب إريـــك فونر هذا التعليق المنصف والشجاع لكتاب المـــؤرخ الراديكالى الأمريكي الكبير هوارد زين الذى ستكون لنا معه وقفـــات طويلـــة، وخصوصاً موقفه المعارض للحرب الأمريكية ضد الإرهاب التى سبق للكتبة الأمريكيين أن وصفوها بأنها حرب "عادلة"!

[١٢]

مؤرخ الشعب الأمريكى

لا يمكن فهم السياسة الحديثة والمعاصرة بغير قراءة متعمقة للتاريخ. وهذه القراءة المتعمقة قد تأخذ شكل القراءة التأويلية التى تتجاوز الوقائع التاريخية لتصل إلى الآفاق العريضة لدلالاتها وتأثيرها على مجرى التطور الإنسانى. ومثال هذه القراءة الكتاب النادر للمؤرخ الإنجليزى إريك هوبزباوم "تاريخ وجيز للقرن العشرين"، والذى استطاع فيه بعبقرية فذة أن يعطى لتاريخ القرن الماضى معنى ودلالة. وقد تكون القراءة التاريخية قراءة نقدية تحاول من خلال "التاريخ المضاد" أن تكشف أقنعة الزيف عن التاريخ الرسمى وتقدم "التاريخ من اسفل" أى من وجهة نظر المقهورين والمستغلين، كما فعل هوارد زين فى تأريخه للولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٤٩٢، تاريخ كشف أمريكا، حتى الثمانينات من القرن العشرين. وقد كتب فى هذا الاتجاه مؤرخ مصرى شاب هو الدكتور خالد فهمى الذى يقوم بتدريس التاريخ فى إحدى الجامعات الأمريكية. فقد أنجز لأول مرة "تاريخا مضادا" للتاريخ الرسمى لمحمد على فى كتابه "كل رجال الباشا: محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة". والذى ترجمه إلى العربية شريف يونس، ونشرته دار الشروق عام ٢٠٠١. فى هذا الكتاب يحاول المؤرخ الشاب حكاية قصة عصر محمد على من السفح وليس من القمة! ونعنى بذلك أنه سجل التاريخ الحقيقى على لسان جندى مفترض من جنود جيش محمد على من أول عملية وضع اليد عليه ليكون جنديا مرورا بفترة التدريب، ثم المعارك الحربية التى شارك فيها. والكتاب بذلك يقدم أول دراسة للتاريخ المضاد عن عصر محمد على.

من هنا أهمية الدراسة النقدية لمناهج دراسة التاريخ لأن من شأنها أن تعلـــى مـــن شأن الحسّ النقدى للباحثين العلميين وللمثقفين والقراء بشـــكل عام. ولذلك اهتممت ومعى نخبة من كبار المؤرخين والعلماء الاجتماعيين بمتابعة جلسات "حلقة البحث" الهامة عن "منهجيات البحث الـــتاريخى" الـــتى نظمها محمد حاكم الباحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى إطار نشاط المركز الفرنسى للبحث والتوثيق بالقاهـــرة. وقـــدم عـــدد مـــن شباب الباحثين فى هذه الحلقة قراءاتهم للمنهجـــيات الحديـــثة فى التاريخ. وقدمت عروض هامة عن مدرسة الحولـــيات و"مدرســـة مـــا بعد الاستعمار" وتاريخ "الوحدات الجزئية" و"التاريخ النسائى".

فـــى ضـــوء هذه الملاحظات العامة عن منهجيات التاريخ، نتقدم خطـــوة أخرى فى سبيل التعريف بالتاريخ المثير لهوارد زين، والذى أطلـــق عليه أحد الباحثين الأمريكيين لقب "مؤرخ الشعب". وهو لقب يســـتحقه تمامـــا لأنـــه فى مقدمة المؤرخين الذين حكوا قصة التاريخ الأمريكى منذ اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ حتى الآن، بالإضافة إلى أنه لـــم يـــتردد أبـــدا فـــى اتخاذ مواقف نقدية حاسمة من كل المغامرات العسكرية التى قامت بها الإدارات الأمريكية المتعاقبة سواء فى مجال أمـــريكا اللاتينـــية أو فـــى حرب فيتنام، أو فى حرب الخليج، أو فى الحصـــار غـــير المشروع للعراق، وأخيرا علا صوته مع زملائه من الكـــتاب الأمريكيين المعارضين للحرب الأمريكية ضد الإرهاب التى شـــنها الرئيس بوش وأركان إدارته فى الخطاب الشهير الذى وجهوه للأوربييـــن، والذى سبق لنا أن ترجمنا نصه، حتى يعرف الجميع أن هناك أصواتا أمريكية ترفض الحرب وتنادى بالسلام بين الشعوب.

المناضل مؤرخا

أجـــرى الباحث دافيد باراساميان حديثا مطولا مع هوارد زين فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٩٢ (متاح على شبكة الإنترنت) دعاه فـــيه إلى أن يرسم الملامح الأساسية لقصة حياته باعتباره فى الأصل

مناضلا تحول لكى يصبح مؤرخا بعد أن حصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٨.

ومـــن هذا الحديث الهام تبين لنا أن المؤرخ الكبير نشأ فى أسرة يهوديـــة هاجـــرت إلى الولايات المتحدة. أما الأب فقد قدم من النمسا، وكـــان قد تزوج من أمه التى تنتمى إلى روسيا الآسيوية، ومن سيبريا علـــى وجـــد التحديد. كان الأب عاملا فقيرا لاقى الأمرين فى مجال العـــثور على عمل، وكان كثيرا ما يقع فى براثن البطالة. وكان ينتقل مـــن مكان إلى مكان بحثا عن العمل، ولذلك يقرر هوارد زين أنه لم يكـــن يحـــب أن يبقى فى البيت الذى كان مكانا كئيبا، وكان يفضل أن يمضى أوقاته فى الشوارع. وحين أصبح شابا عمل فى أحواض السفن كعـــامل مدة ثلاث سنوات. وتطوع فى الحرب العالمية الثانية وأصبح طـــيارا فـــى سلاح الجو الأمريكى، وعمل فى طائرة قاذفة قنابل. ولا ينســـى فى ذكرياته طلعتين جويتين أمر بالاشتراك فيهما إحداهما على مديـــنة "بلســـن" فـــى تشيكوسلوفاكيا، والثانية على مدينة "رويان" فى فرنسا.

يقـــول زيـــن انـــه كطيار عسكرى أمر بإلقاء القنابل على هاتين المدينتيـــن بـــدون أن يعـــرف السبب، لأنه فى الجيش لا يجوز طرح الأســـئلة عن الأسباب. ولكنه بعد الحرب زار أوربا وزار المدينتين. وبحـــث واكتشف أن دمارا هائلا لحق بمدينة "بلسن" وأن الغارة على المديـــنة الفرنسية لم يكن الهدف منها سوى تدمير حوالى ثلاثة آلاف جـــندى ألمانى استسلموا، وكانت الحرب انتهت تقريبا، وأدت الغارات الأمريكـــية إلى تدمير الجنود الألمان، ومعهم عدد من السكان المدنيين الفرنسيين أيضا. وأدرك هوارد زين بشاعة الحرب من تحليل تجاربه الشخصية.

ومـــن هنا أصبح من بعد من أكبر المناهضين للحرب. لدرجة أنه حيـــن زار هيروشـــيما مع وفد أمريكى لمقابلة عدد من ضحايا القنبلة الذرية الأمريكية التى ألقيت على المدينة، وكان مقررا له فى البرنامج أن يلقـــى كلمـــة ولكـــنه - كما يقول - حين رأى ضحايا القنبلة من المشـــوهين لم يستطع أن يتكلم كلمة واحدة، وضاع صوته فى همهمة غير مفهومة. ولا ينسى أن يذكر زين أن الغارة على روان قامت بها

١٢٠ طائــرة أمريكية، ألقت قنابل النابالم الذى كان قد اكتشف حديثا وقتها.

لقــد شارك هوارد زين فى الحركات التى كافحت من أجل إلغاء التميــيز العنصرى ضد الزنوج، كما شارك فى الحركات الاحتجاجية ضـــد حـــرب فيتنام، وقام بتدريس التاريخ فى كلية سيلمان من عام ١٩٥٦ حـــتى عام ١٩٦٣، ثم أصبح أستاذا لعلوم السياسة فى جامعة بوسطن من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٨٨.

المؤرخ مناضلا

لـــم يتوقف هوارد زين عن النضال الفكرى بعد أن اصبح أستاذا للـــتاريخ. ويمكن القول أن كل إنتاجه الفكرى بلا استثناء هو محاولة دءوبة لكشف الأقنعة عن التاريخ الرسمى المزيف، ومن ناحية أخرى إبـــداء رأيـــه الـــنقدى فى السياسات الأمريكية التى اتبعتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة.

وحيـــن ســـئل عـــن التاريخ باعتباره "سلعة تجرى عليها قوانين العـــرض والطلـــب" رد ســـاخرا بأنه كتب مرة مقالا بعنوان "التاريخ باعتباره مشروعا خاصا" وقصد بذلك أن المؤرخين الذين يعملون فى ظـــل المؤسسة الأكاديمية الرسمية غالبا ما يخضعون لطلبات السوق، والـــتى تفرضـــها الجهات التى تفرض كتبا مقررة معينة على تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعة. وهم يكتبون ما يمكن أن يطلق عليه "الـــتاريخ الآمـــن" Safe history أى التاريخ الذى لا يمكن أن يجلب مشـــكلات لكتابه، وخصوصا فيما يتعلق بتأييد الروايات الرسمية عن التدخلات العسكرية الأمريكية الخارجية، سواء فيما يتعلق بأسباب شن الحرب أو أسباب إنهائها.

وفـــى هـــذا الإطـــار يؤكد هوارد زين أن الموضوعية فى كتابه الـــتاريخ مستحيلة لسببين. الأول منهما أنها غير ممكنة، مادام المؤرخ ينتقى ما يشاء من الوقائع التاريخية ويركز عليها، والسبب الثانى أنها غـــير مـــرغوبة، ذلك أن المؤرخ عليه أن يبرز منذ البداية انحيازاته الفكرية وتوجهاته الإيديولوجية".

ولا ضير في ذلك ما دام القارئ سيتاح له في إطار التعددية الفكرية أن يقرأ تواريخ متعددة، ومن شأن هذا أن تخرج منه "الحقيقة التاريخية" بدلا من أن تنفرد مدرسة واحدة أو اتجاه محدد بحكاية التاريخ من زاوية محددة ضيقة. والواقع أن هوارد زين - ربما من حيث لا يدرى - يعيد إنتاج رأى عالم الاجتماع السويدى الشهير جونار ميردال عن الموضوعية حين قرر فى عبارة أضحت شهيرة "الموضوعية هى أن تعلن ذاتيتك منذ البداية"!

وهو ينقد الإدارات الأمريكية نقد لاذعا لأنها تعمدت فى كل مغامراتها العسكرية أن تخفى الوقائع ليس عن الشعب الأمريكى فقط، ولكن حتى عن الكونجرس. وأخطر من هذا كله أن الحكومة فى حرب فيتنام سيطرت على المعلومات وعتمت عليها، واخترعت حوادث لم تقع فى خليج تونكين فى صيف عام ١٩٦٤، حتى تكون هذه الحوادث ذريعة لها للتدخل العسكرى فى فيتنام. وهكذا ذهب الرئيس ليندون جونسون مستندا إلى هذه الأحداث المفبركة ليستصدر منه قراراً يطلق يده فى التدخل العسكرى.

وفيما يتعلق بمحاولات الإدارة الأمريكية السيطرة على كتابة التاريخ يقرر هوارد زين أن أركان الإدارة لم تعجبهم الطريقة التى انتهت بها حرب فيتنام، والتى كانت بالفعل هزيمة ساحقة للقوات المسلحة الأمريكية. ولذلك حاولوا إعادة كتابة التاريخ، وزعموا أنهم خسروا الحرب بسبب وسائل الإعلام الأمريكية التى هاجمتها فى نهاياتها، ونظرا للتأثير البالغ الذى أحدثته الحركة المضادة للحرب التى قامت بها الجماهير الأمريكية وفى مقدمتها الشباب. وقدر أركان الإدارة الأمريكية أنهم كانوا يقاتلون وإحدى أيديهم مكبلة من الخلف! يعنون بذلك أن الرأى العام ثار ضدهم. ويتساءل هوارد زين ساخرا كيف ذلك إذا كانت القوات الأمريكية ألقت بسبعة ملايين طن من القذائف على فيتنام وهو ضعف ما ألقى فى الحرب العالمية الثانية!

لم يكن دعاة الحرب فى الإدارة الأمريكية سعداء بنهاية الحرب، ولا بما حدث فيها بعد أن تكشفت مذبحة قرية "ماى لاى" وتدمير الريف الفيتنامى وموت مليون فيتنامى بالإضافة إلى موت ٥٥,٠٠٠ ألف جندى وضابط.

وفـــى ضـــوء مـــا تكشف من حقائق للجمهور الأمريكى، أثبتت استطلاعات الراى أن الغالبية العظمى لا تؤيد التدخل العسكرى فى اى منطقة فى العالم لأى سبب.

وقـــد أدى هـــذا إلـــى قلق الإدارة الأمريكية ومعها عمد المجتمع العســكرى الصـــناعى الذيـــن حاولوا باستماتة تغيير هذه الاتجاهات، باعتبار التدخل العسكرى هو أساس السياسة الخارجية الأمريكية.

لقـــد استخلصـــت المؤسسة الأمريكية الحاكمة الدروس من حرب فيتنام، فقررت أن تكون حروبها القادمة سريعة وحاسمة قبل أن يفيق الـــرأى العام من عملية الخداع الذى تمارسه، والذى يتجلى فى فبركة الأحداث والتعتيم الإعلامى وتزييف الحقائق.

هكـــذا تكلم هوارد زين قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر، من خـــلال عرضـــه الموســـوعى للتاريخ الأمريكى منذ نشأة أمريكا عام ١٤٩٢ حتى الوقت الراهن!

[١٣]

الوعى النقدى بالماضى الأمريكى

لا يمكــن فهم السياسات الراهنة التى تنتهجها إدارة الرئيس بوش فــى حــربها المعلنة ضد الإرهاب، والتى هى أول حرب تعلنها قوة عظمــى غــير محددة المكان ولا محددة الزمان، بغير التحليل النقدى للماضــى الأمريكى. هذه هى المهمة العسيرة حقا التى قام بها المؤرخ الــراديكالى الأمــريكى هــوارد زين أستاذ التاريخ بجامعة بوسطن، ومؤلــف الكتاب الشهير "تاريخ شعبى للولايات المتحدة الأمريكية من عام ١٤٩٢" حتى الآن، ويقصد منذ اكتشاف أمريكا على يد كولومبس فــى هــذا العام الشهير فى تاريخ الإنسانية حتى الوقت الراهن. وهو يمــثل كما قررنا من قبل نموذجا بارزاً "للتاريخ المضاد" الذى يكشف القناع عن زيف التاريخ الرسمى الذى يحكى الأحداث من وجهة نظر القادة والزعماء والسياسيين، وليس من وجهة نظر الجماهير التى عادة ما تكون موضعا للقهر السياسى والاستغلال الاقتصادى.

يفتتح هوارد زين كتابه بفصل افتتاحى عنوانه "كولومبوس والهنود والــتقدم الإنسانى". ويلفت النظر بشدة أن الكتاب ليس له مقدمة تشرح مــنهج المــؤرخ. ذلك أنه آثر بعد الدخول مباشرة فى قصة اكتشاف أمريكا على يد كولومبوس أن يعرض لمنهجه فى كتابه التاريخ. وهو منذ البداية يكشف عن الجشع الذى كان يمتلك كولومبوس فى بحثه عن الذهب، لأنه كان قد وعد ملوك أسبانيا الذين مولوا رحلته لكى يغريهم، أنــه ســيعود لهم من رحلة الاكتشاف المثيرة محملا بجبال من الذهب وأكــوام مــن الــتوابل الشرقية التى كانت أوربا مشغوفة بها فى ذلك الحين. ليس الجشع فقط الذى أبرزه هوارد زين فى مسلك كولومبوس،

ولكن أيضاً الوحشية السافرة التى تعامل بها هو وجنود حملته مع أهل البلاد الأصليين. وهو لم يكتف بأن يأسرهم لكى يأخذهم معه كعبيد إلى أسبانيا، ولكنه وبدون أدنى شفقة أو رحمة راح يعمل فيهم سيوفه هو وجنوده، لكل من أبدى أدنى درجة من المقاومة، وأحيانا على سبيل تمضية وقت الفراغ واللهو بإثارة الفزع لدى السكان وقطع رقابهم.

وهوارد زين فى نفس الوقت الذى يبرز فيها السمات البربرية لكولومبس ورجاله، يكشف عن السمات الإنسانية النادرة لأهل البلاد الأصليين. الذين هرعوا إلى الشاطئ حين شاهدوا سفن كولومبس ورحبوا به وبرجاله وقدموا لهم الهدايا. لقد سجل كولومبس نفسه فى يومياته أن هؤلاء السكان "يتسمون بالسذاجة لدرجة أنهم يتخلون ببساطة عما يملكون، وإذا سئلوا أن يتخلوا عن أى شئ فهم يقدمونه بغير معارضة. بل إنهم مستعدون لمشاركة الغير".

هؤلاء السكان الذين يتسمون بهذه الدرجة الرفيعة من الإنسانية هم أنفسهم الذين خضعوا للقهر الشديد والاستغلال البشع من قبل كولومبوس ورجاله، وحين حاولوا المقاومة جوبهوا بأسلحة الغزاة ودروعهم وخيلهم، ولم يكونوا يملكون شيئا منها. ولذلك سادت ظاهرة الانتحار الجماعى بينهم، بل وكان الآباء يقتلون أبناءهم حتى لا يلاقوا مصيرا مظلما على يد الأسبان. ولعل هذا ما يفسر أنه فى خلال عامين- كما يقرر هوارد زين- فإن الهنود من سكان هايتى الذين كان عددهم ٢٥,٠٠٠ ألف نسمة هبطوا إلى نصف هذا العدد نتيجة القتل على يد الأسبان أو الانتحار.

ويسجل هوارد زين إحصاءات مذهلة عن التناقض المطرد فى عدد السكان الأصليين من الهنود ، ويقرر أنه فى عام ١٥١٥ لم يبق من الهنود سوى ٥٠ ألفاً، وحين جاء عام ١٥٥٠ أصبح عددهم خمسمائة، أما فى العام ١٦٥٠ فلم يبق منهم أحدا ! ومعنى ذلك أن سياسة مخططة لإبادتهم تم تنفيذها بدقة بالغة.

ويخلــص هــوارد زين من كشفه القناع عن وحشية كولومبوس ورجاله إلى صياغة نظرية فى كتابة التاريخ. ويقول أن المؤرخ عادة مــا يختار بصورة عمدية إيديولوجية ما يستند إليها فى كتابة للتاريخ. ويضــرب المثل بهؤلاء المؤرخين الذين حين حكوا حكاية كولومبوس واكتشافه أمريكا، ركزوا على جسارته وشجاعته، ولكنهم تجاهلوا فى نفــس الوقــت وحشيته وجرائم القتل التى ارتكبها وحرب الإبادة التى شنها ضد أهل البلاد الأصليين.

وكتابة التاريخ الحقيقى ليس الغرض منها محاكمة كولومبوس أو غــيره عــن بعد. ولكن أهميتها تبدو فى دحض الأفكار الخطيرة التى تذهــب إلــى أن جرائم بعض القادة والزعماء كانت ضرورية لتحقيق الــتقدم الإنســانى. ينطبق ذلك على الأسباب التى بررت بها الولايات المتحدة الأمريكية إلقاء قنبلتها الذرية على هيروشيما فى نهاية الحرب العالمية الثانية وبغير ما بسبب عسكرى، كما ينطبق على الحرب التى شنتها أمريكا على فيتنام لإنقاذ الحضارة الغربية كما زعم القادة الذين أمروا بها، وهى نفس نمط الأسباب التى قدمت لانتشار الأسلحة الذرية بدعوى إنقاذ الإنسانية كلها.

ومن ثم فإن سرد التاريخ من وجهة نظر الزعماء والقادة والغزاة والدبلوماسيين إنما يمثل إحدى مدارس كتابة التاريخ، والتى ربما تكون هــى المدرسة السائدة، والتى تعبر عمن يزعمون أنهم يحافظون على "المصــلحة القومــية". ولعــل هنرى كيسنجر فى كتابه "عالم مستعاد" والــذى سرد فيه تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر، كان خير معبر عن هذه المدرسة حين ذكر فيه عبارة لها دلالة مفادها "أن التاريخ هو ذاكــرة الــدول". وهذا المنحى يتجاهل أن التاريخ هو أيضاً وقد يكون أولا هو ذاكرة الشعوب.

ويقــرر هــوارد زيــن أن نظريته فى التأريخ للولايات المتحدة الأمريكية مختلفة. ذلك أنه لا ينبغى أن نقبل فكرة أن التاريخ هو ذاكرة الدول. ذلك أن تاريخ أى بلد حين يعرض باعتباره تاريخ أسرة حاكمة مــا، فإنــه يخفى الصراعات العنيفة بين المصالح المتعارضة، والتى

تنفجر أحيانا وتقمع أحيانا أخرى، بين الغزاة والمغزوين، وبين السادة والعبيد، وبين الرأسماليين والعمال، وبين المستغلين والمستغلين. وفى هـذا العالم الملئ بالصراعات لا ينبغى إطلاقا على المفكرين أن يقفوا إلى جانب القاهرين.

ومـن هنا - يقرر هوارد زين - أنه يختار أن يحكى التاريخ من وجهـة نظر المقهورين، سواء كانوا السكان الأصليين من الهنود فى عملـية اكتشـاف أمريكا، أو كانوا هم العبيد فى حالة دراسة دستور الولايات المتحدة الأمريكية، أو من زاوية نظر العمال فى دراسة عملية التصـنيع الأمريكـية. ولا يعنى ذلك مجرد انحياز إلى المقهورين أو الفقـراء، أو رغـبة فـى تمجيد نضالهم بصورة رومانتيكية. ذلك أنه - كمـا ورد علـى لسان أحد الكتاب- "ليست كل صيحة للفقير دائما صـحيحة تعـبر عن الرغبة فى العدالة، غير أنه إن لم تستمتع إليها، فإنك لن تعرف أبدا ماذا يعنيه العدل".

النصر المستحيل

مـن أشـق الأمـور محاولـة إعطاء فكرة دقيقة عن هذا السفر الـتاريخى الضخم الذى يؤرخ به هوارد زين لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكـية. هـذا كتاب يقع فى حوالى ٧٠٠ صفحة، فكيف لنا أن نلم بأطرافه المتعددة ؟

ولذلـك نقفـز فوق فصوله المتعددة والمتلاحقة إلى الفصل الثانى عشـر وعـنوانه: "فيتنام: النصر المستحيل"، لنعرف كيف يؤرخ هذا المؤرخ الراديكالى لحرب فيتنام الشهيرة.

يفتتح هوارد زين هذا الفصل المثير بالعبارات التالية التى تكشف بجلاء عن نظريته فى كتابه التاريخ القومى لبلاده.

"مـن عـام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٢ قامت أغنى وأقوى أمة فى تـاريخ العالم بأقصى سعى عسكرى وبكل ما عندها من أسلحة ما عدا القنبلة الذرية، لهزيمة حركة قومية ثورية فى بلد فلاحية صغيرة غير أنهـا فشلت. وحين حاربت الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام فإنها كانـت حربا بين التكنولوجيا الحديثة المنظمة ضد بشر منظمين، غير

أن البشـــر انتصروا على التكنولوجيا. وهكذا يكشف هوارد زين بعمق عـــن عقـــيدته الأساسية، وهى أن البشر أقوى من أى تكنولوجيا، وأن الإرادة الشـــعبية الـــتى تتمثل فى الرغبة العميقة فى التحرر الإنسانى والـــتى ميزت تاريخ الإنسانية منذ أقدم العصور حتى الآن، أقوى من أى حتمية سياسية أو اقتصادية أو تكنولوجية.

وإلا فكيف نفسر أن الشعب الفيتنامى استطاع أن يهزم أقوى جيش فـــى العالم هزيمة ساحقة، مما دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تنســحب انســحابا تاريخـــيا مهيـــنا، كان علامة على انتصار إرادة الشعوب؟

إن نظرية هوارد زين فى كتابة التاريخ من وجهة نظر المقهورين والمســـتغلين من شانها أن تعطى الأمل للإنسانية فى هذا العصر الذى نعـــيش فيه، والذى أبرز تجليات العولمة المتوحشة بوجوهها السافرة، باعتبارها تحديا وجوديا لشعوب العالم، ليس فى الدول النامية وحدها، بـــل وحـــتى فـــى صميم المجتمعات الصناعية المتقدمة، حيث برزت ظواهر التهميش الاجتماعى والاستبعاد الطبقى.

ويمكـــن القـــول أن هذه النظرية الراديكالية فى كتابه التاريخ من شأنها أن تبدد سحابات اليأس والقنوط التى تغطى الآن المناخ العالمى، بعـــد أن اســـتنفرت الولايات المتحدة الأمريكية كل قواها بعد الحادى عشر من سبتمبر، لشن حرب هوجائية ضد ما تسميه الإرهاب، وهذه الحرب المعلنة ليس لها مكان محدد، ولا زمن معلن، وإنما هى حرب ممتدة إلى ما لا نهاية كما تقول التصريحات الرسمية الأمريكية.

والمجتمع العالمى ينتقل بذلك – بعد نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية – من حالة الفوضى الطليقة التى مـــيزت العقد الماضى بما دار فيه من حروب أهلية وانفجارات عرقية وما ساده من شعارات عنصرية كالتطهير العرقى فى البلقان، وحرب الإبـــادة الشـــاملة الـــتى تشنها الدولة الإسرائيلية النازية ضد الشعب الفلســـطينى، إلى مرحلة جديدة يمكن أن نطلق عليها "الهيمنة المقننة" (راجـــع مقالنا من الفوضى الطليقة إلى الهيمنة المقننة"، مجلة سطور، عدد يونيو ٢٠٠٢).

فـــى هذا المقال حاولنا قراءة نص العالم المعقد فى العقد الأخير، وخصوصـــا بعـــد الحادى عشر من سبتمبر، بناء على مؤشرات كمية وكيفـــية تـــبرز عمـــق الهيمـــنة الأمريكية، وتحول الولايات المتحدة الأمريكية إلى إمبراطورية تريد أن تأمر العالم كله فيطيع، لا فرق بين دول متقدمة ودول نامية، ولا بين حلفاء وأعداء.

لقـــد توصـــلنا إلـــى فكرة الهيمنة المقننة من خلال القراءة الدقيقة لمؤشرات تحول ميزان القوة العالمى، ولم نكن ندرى ساعة كتابتها أن هـــناك نظـــرية استراتيجية أمريكية معلنة، عن ضمانات بقاء الهيمنة المقنـــنة الأمريكـــية إلى أبد الآبدين! (سنعود إلى عرض هذه النظرية مستقبلا) .

ومعـــنى ذلـــك ترســـيخ حتمـــية تاريخية تزعم أن الإمبراطورية الأمريكية ستبقى تحكم العالم بغير منافس. وهى الحتمية التى يرفضها هوارد زين على أساس أن إرادة الشعوب – فى النهاية – ستكون هى المنتصرة .

القسم الرابع

حوار نقدى حول مشروع خطاب مصرى موجه للمثقفين الأمريكيين

[١]

مشروع خطاب مصرى موجه إلى المثقفين الأمريكيين

بناء على اقتراح من السفير عبد الرؤوف الريدى وجه لى المجلس المصرى للشئون الخارجية دعوة لإلقاء محاضرة عن البحث الذى أقوم بإجرائه عن أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتداعياتها الدولية والإقليمية من الزوايا السياسية والاقتصادية والثقافية. وقد ألقيت المحاضرة مساء الحادى عشر من يونيو الجارى بعنوان: "عصر الإمبراطورية: ما بعد الحادى عشر من سبتمبر". وقدم المحاضرة الدكتور أسامة الغزالى، وحضر المحاضرة نخبة من كبار السياسيين والسفراء والأساتذة الجامعيين والمثقفين. وكان فى مقدمتهم الدكتور عبد العزيز حجازى والدكتور عصمت عبد المجيد والدكتور مراد غالب والدكتور على الدين هلال والسفير الدكتور أمين شلبى، والدكاترة والأساتذة عاصم الدسوقى وأحمد يوسف وصلاح عبد المتعال ونبيل صمويل أبادير وسمير مرقس ورضا هلال، بالإضافة إلى أعضاء مجلس الشئون الخارجية.

وفى نهاية المحاضرة عرضت مشروع خطاب مقترح موجه من المثقفين المصريين إلى المثقفين الأمريكيين، من أيد منهم الحرب الأمريكية ضد الإرهاب باعتبارها "حرباً عادلة"، ومن نقدها ورفضها، حسب ما عرضناه فى مقالاتنا السابقة من مضمون هذه الخطابات المتعددة. وقد اتفق على أن يناقش مشروع الخطاب فى جلسة مقبلة من جلسات مجلس الشئون الخارجية.

غير أننى رأيت من المفيد استباق هذه المناقشة الهامة بنشر مشروع الخطاب المقترح الذى أعددته، والذى أتحمل وحدى مسئولية صياغته

فكـــراً وأســـلوبا، تعميما وأملا فى أن يصلنى تعليقات نقدية من القراء الكرام المتابعين للصراع، إثراء للمناقشة وترشيداً للخطاب.

وفـــيما يلـــى نص مشروع الخطاب المقترح كما عرض فى ندوة مجلس الشئون الخارجية.

"١ – يوجه المثقفون المصريون الذين ينتمون إلى كافة الاتجاهات السياســية السد ـ فـــى المجتمع المصرى هذا الخطاب إلى المثقفين الأمريكييـــن، سـ ـراء منهم من يرون الحرب الأمريكية ضد الإرهاب باعتبارها "حرباً عادلة" كما يشير إلى ذلك خطاب المثقفين الأمريكيين الذى أصدره فى ١٢ فبراير ٢٠٠٢ "معهد القيم الأمريكية" وكان على رأس موقعيه صمويل هنتنجتون وفرانسيس فوكوياما، أو إلى المثقفين الأمريكييـــن الذين عارضوا الحرب بشجاعة أدبية بارزة فى خطابهم الذى أصدره ١٢٠ أكاديميا ووجهوه إلى الأصدقاء الأوروبيين، وذلك فـــى شهر أبريل وكان على رأس الموقعين المؤرخ المعروف هوارد زين، والكاتب والروائى جور فيدال.

٢ – ونحـــن إذ نوجـــه هـــذا الخطاب للمثقفين الأمريكيين من كل الاتجاهـــات وللشعب الأمريكى عموماً، نؤكد منذ البداية إدانتنا المطلقة للأعمـــال الإرهابية التى هاجمت الأهداف الأمريكية المعروفة فى ١١ ســـبتمبر، أيـــا كانـــت الجماعات التى قامت بها، وندين الاعتداء على المدنييـــن كمبدأ عام، وسواء تم ذلك داخل الولايات المتحدة الأمريكية كمـــا حدث فى ١١ سبتمبر، أو داخل أفغانستان كما حدث فى الحرب الأمريكـــية ضد الإرهاب، أو داخل فلسطين فى الضفة الغربية وغزة بواسطة قوات الاحتلال الإسرائيلى.

٣ – ونحن نعتبر الحق فى الحياة الآمنة أبرز حقوق الإنسان، والتى ينـــبغى على كافة الدول احترامها، وعلى الأمم المتحدة كفالة تطبيقها، ومساءلة الإرهابيين والسياسيين ومجرمى الحرب الذين يخرقونها، من خلال المحكمة الجنائية الدولية التى تم إنشاؤها مؤخراً، والتى هى من إبداعـــات المجـــتمع الدولى لملاحقة مجرمى الحرب، بالرغم من أن الولايـ ـات المـــتحدة الأمريكية رفضت الانضمام إلى المعاهدة الخاصة بإنشـ ـها.

٤ – وقد راقبنا بقلق شديد الحملات السياسية والإعلامية التى انطلقت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة رد الفعل الأولى على هجمات ١١ سبتمبر على العرب والمسلمين، وتصويرهم وكأنهم ارهابيون بالطبيعة ينبغى الشك فيهم وفى تصرفاتهم، بل إن الحملة نـ... ذلك إلى مهاجمة الإسلام نفسه كدين، باعتباره دينا يحض على الإرهاب.

٥ – وقد تجاهلت هذه الحملات أن الإرهاب ظاهرة عالمية، وأن الحركات السياسية والدينية المتطرفة توجد فى كل البلاد، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية التى تنشط فيها جماعات دينية متطرفة، وبعضها يحمل السلاح ضد الحكومة الفيدرالية، أو يمارس الإرهاب الصريح، كما فعل تيموثى ماكفى فى نسف المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما.

ومن ثم لا ينبغى تجاهل عالمية ظاهرة الإرهاب ونسبتها فقط إلى العرب والمسلمين.

٦ – وإذا كان فريق من المثقفين الأمريكيين حاولوا تسهيلا – لتحقيق أهداف إدارة الرئيس بوش – تبرير الحرب الأمريكية ضد الإرهاب والتى كان شعارها "من ليس معنا فهو ضدنا" باعتبارها حربا "عادلة"، فإننا إذ نرفض هذا التوصيف لهذه الحرب المعلنة خارج الشرعية الدولية، والتى لا يحدها مكان أو زمان كما صرح الرئيس بوش، فنحن فى نفس الوقت نتفق مع خطاب المثقفين الأمريكيين المعارضين الذى صدر فى أبريل، مدينا اللجوء إلى هذه الحرب المعممة، محذرا من أخطارها على السلام العالمى.

٧ – إن تقسيم الدول إلى خيرة وشريرة، وفقا لما تراه الإدارة الأمريكية، يحمل فى طياته إثاره نعرات دينية وعنصرية يمكن أن تشعل نزاعات متعددة على المستوى العالمى والإقليمى، كما أنها ستؤدى بالضرورة إلى تهديد أمن الشعوب فى هذه الدول "الشريرة" بحسب توصيف الإدارة الأمريكية.

٨ – ونرى أن السياسة المعلنة لضرب العراق عسكريا خارج إطار الشرعية الدولية، أو محاولة قلب نظام حكمة بالقوة، يفتح الباب أمام

سيادة الفوضى فى مجال العلاقات الدولية ونسف الأسس المعترف بها فى القانون الدولى.

٩ – كمـــا أن ترك العنان للدولة الإسرائيلية لكى تقوم بحملة إبادة ضد الشعب الفلسطينى بموافقة ضمنية من الإدارة الأمريكية، يحمل فى طياته مخاطر بالغة على الأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط، ويعرض الشـــعب الفلســـطينى إلـــى معانـــاة غير إنسانية لا تقرها المعاهدات والمواثيق الدولية.

١٠ – لكل ذلك ندعو المثقفين الأمريكيين إلى حوار إيجابى مفتوح وفعـــال، للاتفـــاق علـــى الصيغ المناسبة لإخراج المجتمع الدولى من المـــأزق الـــذى وضـــعته فيه الإدارة الأمريكية، ذلك فى إطار الأمم المتحدة ذاتها، وفى الجمعية العامة للأمم المتحدة على وجه التحديد.

١١ – نحـــن ندعـــو المثقفين الأمريكيين ومثقفى العالم ومفكريه، للـــتوجه إلـــى الأمين العام للأمم المتحدة لعقد هذا الحوار الحضارى الواسع.

ونحن فى هذا المجال نؤكد على المبادرة الإيجابية التى أقدم عليها السيد الأمين العام كوفى أنان، حين شكل لجنة من حكماء العالم يمثلون مخـــتلف الـــثقافات المعاصرة بإشراف الممثل الشخصى للأمين العام جياندومونيكو بيكو، لكتابة تقرير جماعى عن "حوار الحضارات".

وهـــذه اللجـــنة تضم كمال أبو المجد من مصر، ولورد أرزيب من المكســـيك، وحـــنان شـــعرواى مـــن فلسطين، وروث كاردوزو من الـــبرازيل، وجاك ديلور من فرنسا، ولسلى جلب من الولايات المتحدة الأمريكـــية، ونادـيـــن جورديمر من جنوب أفريقيا، والأمير الحسن بن طـــلال مـــن الأردن، ونـــيرجى كابيتزا من روسيا، وهايو كاواى من اليابان، وتومى كو من سنغافورة، وهانز كونج من سويسرا، وجراسا ساشل من موزمبيق، وآمارتياسن من الهند، وسونج جيان من الصين، وديـــك ســـيرنج مـــن أيرلندا، وتى دانمج من الصين، ورنيشارد فون وايزاكر من ألمانيا، وجافاد ظريف من إيران.

١٢ – وقـــد أصدرت اللجنة تقريرها البالغ الأهمية فى أكتوبر عام ٢٠٠١ بعنوان "عبور الجسر" Crossing the Divide : الحوار بين الحضارات.

وهـذا التقرير يقوم على فكرة أساسية مفادها سقوط النموذج القديم فـى العلاقـات الدولـية تحـت تأثير العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، وأهمية صياغة نظام عالمى جديد يقوم على عدة مبادئ أهمها:

١ - تحقيق المساواة بين الدول بدون تمييز.

٢ - إعـادة تقيـيم فكـرة "العـدو" الذائعة الآن فى المناخ الثقافى العالمى.

٣ - توزيع القوة بين الدول وعدم تركيزها فى دولة واحدة.

٤ - مراعاة المصالح المتعددة للدول.

٥ - تأسيس المسئولية الفردية عن القرارات السياسية.

٦ - إقامـة الـتحالفات المختلفة وفقا للموضوعات الأساسية التى تواجه الإنسانية.

١٣ - ونحـن الموقعين على هذا البيان نرى أن هذا التقرير الذى كتـب فـى إطار الأمم المتحدة، يصلح أساساً لحوار حضارى واسع المـدى، فـى جلسة خاصة تعقدها الجمعية العامة للأمم المتحدة، يتاح فيها لممثلى المثقفين فى العالم حضورها وللإسهام فى مناقشاتها جنبا إلـى جنـب مع ممثلى أبرز مؤسسات المجتمع المدنى العالمى، والتى أصـبحت فاعلا أساسيا فى النظام الدولى، بالإضافة إلى ممثلى الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة.

١٤ - نحن المثقفين المصريين الموقعين على هذا البيان نؤمن أنه لـيس هناك صراع بين الحضارات، وأن جميع شعوب العالم بما فيها الشـعوب العربـية والإسلامية ترنو إلى أن نعيش فى سلام وفى ظل احترام الديموقراطية والتعددية وحقوق الإنسان.

١٥ - وفى هذا الإطار لابد من التفرقة الحاسمة بين حق المقاومة المشـروعة للشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وبين الإرهاب الصريح والذى هناك إجماع على إدانته فى إطار المجتمع الدولى.

ولـيس هـناك فـى النهاية من سبيل سوى تطبيق قواعد الشرعية الدولية، وممارسة حوار الحضارات تحت إشراف الأمم المتحدة، التى ينبغى أن تكون المظلة التى تحمى الشرعية وتحقق العدل بين الأمم."

[٢]

حوار نقدى حول الخطاب المصرى المقترح

حين نشرت مشروع الخطاب المصرى الموجه إلى المثقفين الأمريكيين فى الأسبوع الماضى، والذى عرضته على المشاركين فى الندوة التى نظمها المجلس المصرى للشئون الخارجية، فى نهاية محاضرتى عن "عصر الإمبراطورية: ما بعد الحادى عشر من سبتمبر"، دعوت القراء الكرام إلى إرسال تعليقاتهم على مشروع الخطاب، حتى تتسع دائرة المناقشة، ولا تنحصر فى دائرة ضيقة من المتخصصين والباحثين المهتمين، سعيا وراء فهم أعمق لمختلف التيارات الفكرية التى يموج بها المجتمع المصرى فى الوقت الراهن. وقد بدأت التعليقات على مشروع الخطاب تصلنى بانتظام.

وأبدأ برسالة المستشار د. جمال الدين محمود نائب رئيس محكمة النقض سابقا، والأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سابقا، وعضو مجمع البحوث الإسلامية. ويقرر فى صدر رسالته "إننى أتابع منذ سنوات طويلة جهدكم فى نشر ثقافة سياسية متميزة من خلال "الأهرام"، وقد سعدت بمشروع البيان المقترح توجيهه إلى المثقفين الأمريكيين، وكان لكم فضل وضع مادته وصياغته، والبيان يتميز بصياغة تجمع بين الإيجاز والتركيز، ويغطى مجمل أوجه الخلاف مع التوجهات الأمريكية، ويتفق كذلك مع أسلوب العرض والتلقى السائد الآن فى المجال السياسى والإعلامى لا سيما لدى المستويات العليا سياسيا وفكريا".

ثم يقترح المستشار جمال الدين محمود إضافة بندين إلى ما ورد فى مشروع الخطاب. وقد صاغهما كما يلى:

"١ – ويدعو المثقفون المصريون من كافة الاتجاهات السياسية والثقافية نظرائهم الأمريكيين إلى إحياء وتنمية مبدأ "العدالة فى التعامل الدولى" باعتباره قيمة عليا لدى جميع الحضارات والشعوب، وأن تراعى القوى الكبرى فى العالم – وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية – هذا المبدأ إلى جانب المصالح الوطنية والقومية."

"٢ – ويأمل المثقفون المصريون من نظرائهم الأمريكيين على تنوع اتجاهاتهم الفكرية والسياسية، أن تكون قناعاتهم ومواقفهم المبدئية بشأن القضايا الدولية والعالمية، تعبيرا عن فكرهم الحر ودراستهم ومعرفتهم بأحوال الشعوب الأخرى وثقافاتها المتنوعة، وحوارهم المتكافئ مع الأطراف المعنية. وأن تزداد مشاركتهم فى توجيه الرأى العام إلى جانب الإعلام الذى قد يصدر أحيانا فى أداء رسالته عن أغراض سياسية، لا تخدم قضايا السلام وحقوق الإنسان والتعاون الدولى"

وفى تقديرى فإن هذه الإضافة المقترحة لها وجاهتها، لأنها تركز على مبدأ العدالة فى التعامل الدولى من ناحية، وعلى أهمية أن يسعى المثقفون الأمريكيون إلى معرفة أعمق بأحوال الشعوب الأخرى وثقافاتها المتنوعة، حتى تصدر مواقفهم المبدئية عن إدراك صحيح، مما يسمح بقيام حوار متكافئ مع الأطراف الأخرى.

ملاحظات نقدية

وقد أرسل لى الأستاذ صبرى العسكرى المحامى بالنقض والأديب المعروف برسالة تتضمن ملاحظات نقدية هامة، تستحق أن نناقش ما انطوت عليه من أفكار عميقة. ونعرض فيما يلى لنص هذه الملاحظات.

" ١ – أليس من الأفق توجيه الخطاب من المثقفين المصريين "أصحاب التوقيع"، لكى لا يكون التوجيه صادراً من "المثقفين المصريين الذين ينتمون إلى كافة الاتجاهات السياسية السائدة فى المجتمع المصرى" مجرد إدعاء؟

٢ – كيف نوجه خطاباً إلى المثقفين الأمريكيين رداً على خطابين صادرين منهم إلى المثقفين الأوروبيين لا إلى المصريين أو بأقل القليل إلـــى العرب؟ أليس الأفضل أن نوجه الخطاب إلى المثقفين فى جميع أنحاء العالم، خاصة وأن الأزمة ليست أمريكية خالصة لا فى محتواها ولا فـــى نـــتائجها، بـــل هى أزمة عالمية وتهم العالم النامى بالدرجة الأولى؟

٣ – لمـــاذا نحـــرص على تقديم إجابات على تساؤلات الآخرين، ونغرق فى تأكيدها. وكأننا نعطى للغير صكاً بأحقيته فى إيقافنا وظهرنا لحائط ما يقدمه ضدنا من اتهامات؟

٤ – إن الأمـــريكان لا يديرون حواراً مع العالم ولا يسعون إلى ذلـــك، إنهـــم فقـــط اتخذوا من المواقف ما هو قابل للتفعيل والتصعيد بحمايـــة مـــن قـــوة مسلحة غالبة، تسبقها أو تلحق بها قوى اقتصادية وسياســـية لا تـــبل لعالمنا بمزاحمتها. أليس من الأجدى أن نرد على المواقف بمواقف مضادة أياً ما كان قدر الإمكان وسوء الحال؟

٥ – الحـــوار يصبح حوار طرشان إذا ما كان أحد طرفيه يعرف ما يقوله، أو أنه كان يجهله: ففى الحالة الأولى لن يجدى الحوار، لأن أحـــد الطرفيـــن حدد موقفه وأسنده إلى ما رأى انه يحقق به مصلحة مشروعة. وفى الحالة الثانية سوف نتفرغ بجهدنا المتواضع إلى السعى لإخـــراج ذلك الطرف من الجهالة التى هو عليها، وهذه ليست مهمتنا. بـــل الأجدى أن نخرج أنفسنا من جهالتنا، وأن نستهلك جهدنا لحسابنا وليس لترضية الآخرين.

٦ – لا ينبغى أن نبيع للغرب بضاعة يتأبى عليه هضمها، لأننا لا نستطيع أن نزرع الشك فى نفسه حول ما يتبنى من آراء أو يتخذ من مواقـــف. فهو أدرى بما يقدم عليه، بل ولديه من خفايا ما يحدث أكثر مما لدينا.

والبديل هو أن نقدم أنفسنا للعالم على حقيقتنا: أزماتنا ومشاكلنا وما لديـــنا من مصادر قوة سواء الموروث منها أو المستحدث. البديل أن نســـعى إلـــى الـــترقى والتقدم، وعلينا أن نزاحم الجميع بالحق وليس بالـــباطل، بالاجتهاد وليس بالإدعاء، بالصدق وليس بترويج الأوهام،

عــندها ســوف نجــد من يقف معنا لاتحاد المصلحة فيما بيننا، ومن يعاوننا لثقته فى أننا نصدق معه ومع أنفسنا.

٧ – إنه لمن الخطر الشديد أن نضيع جهدنا وراء ما يسمى بحوار الحضــارات. الأصل لدى من يتفهم المسالة على حقيقتها أنه لا يوجد أســاس للقول بصراع الحضارات، ذلك أن الحضارات جميعها تنزع إلى الترقى مهما كانت درجة التفاوت الحضارى بين حضارة وأخرى. ومن هنا يقوم الصراع بين الأضاد أو المتناقض ولا يقوم بين المتوافق أو المــتفاوت، ومن ثم لا يكون هناك مقتضى لحوار حضارات غير متصارعة.

وأخص ما يتصل بهذه المسألة هو محاولة السعى بالحوار فيما بين الديانــات، لأن الديانــات ليست محض ثقافة، بل هى عقيدة تقوم على اليقين والإيمان بل وتكتسب – كقاعدة أصولية – بالميراث.

إذن فــالجهد ضائع إذا ما سعينا إلى تعليم الإسلام لغير المسلمين، تماماً كما أنه ليس للآخرين أن يعلمونا حقائق ديانتنا. بل وليس لنا أن ننبرى فى هلع إلى تعريف الآخرين بالإسلام وأصوله، ذلك أن الإسلام لا يحتاج إلى حماية بعد إذ رسخ – طوال خمسة عشر قرناً – فى يقين الإنســان فى كل مكان، ونحت له مكاناً مرموقاً وسط العقائد الأخرى علــى اتســاع رقعــة الكرة الأرضية. ومن هنا لا تخضع الديانــات لعوامل الانتشار أو التآكل التى تخضع لها الفلسفات والثقافات والتقاليد البيئية أو الاجتماعية."

بداية الحوار

ولــيأذن لــى القــراء الكرام ببداية الحوار مع الملاحظات النقدية الهامة التى وجهت إلى مشروع الخطاب المقترح توجيهه باسم المثقفين المصريين إلى المثقفين الأمريكيين ومثقفى العالم.

وأبادر بالرد على الملاحظة الأولى للأستاذ صبرى العسكرى، أنه من الأوفق توجيه الخطاب من المثقفين المصريين أصحاب "التوقيع"، حــتى لا يكون الخطاب صادرا من "المثقفين المصريين الذين ينتمون إلــى كافــة الاتجاهــات السائدة فى المجتمع المصرى "مجرد إدعاء".

ونـرى أن مشـروع الخطاب المنشور يتضمن بصراحة ووضوح ما يطالب به الأستاذ العسكرى، ويكفى الرجوع إلى البند الرابع عشر، من المشـروع والذى يبدأ بعبارة "نحن المثقفين المصريين الموقعين على هذا البيان" ومعنى ذلك أن الخطاب لا يلزم سوى من وقعوا عليه.

أمـا الملاحظة الثانية فتتمثل فى أنه لا يجوز أن نوجه خطابا إلى المثقفيـن الأمريكييـن ردا على خطابين صادرين منهم إلى المثقفين الأوروبيين لا إلى المصريين أو بأقل القليل إلى العرب".

والواقع أن الأستاذ العسكرى لم يلتفت إلى أن الخطاب الأول الذى صـدر عـن "معهد القيم الأمريكية" والذى وقع عليه أكثر من ثمانين شخصـية أكاديمـية وفكرية أمريكية على رأسهم صمويل هنتنجون وفرانسـيس فوكوياما، موجه إلى العالم بصورة عامة، ويتضمن دعوة للحوار مع المفكرين الإسلاميين بصورة خاصة.

وعـنوان خطاب الكتبة الأمريكيين الذين صاغوا خطابهم لتبرير "الحرب العادلة" - كما بينا فى مقالاتنا التحليلية السابقة - هو "ما الذى نحـارب من أجله؟ خطاب من أمريكا". وقد جاءت فى خاتمة خطابهم دعوة صريحة للحوار مع المثقفين فى المجتمعات الإسلامية.

ويؤكـد ذلك أن الخطاب ينتهى بهذه الفقرة التى نترجم نصها عن اللغة الإنجليزية "ونحن نريد على وجه الخصوص أن يصل صوتنا إلى إخوتـنا وأخواتنا فى المجتمعات الإسلامية. ونقول لهم بشكل مباشر: لسـنا أعداء، بل إننا أصدقاء. ولا ينبغى أن نكون أعداء. ولدينا أشياء عديدة مشتركة، وهناك الكثير مما يمكن أن ننجزه معاً."

وتسترسل الخاتمة للتعبير عن أمل الموقعين على الخطاب فى أن يـتجاوز المسـلمون مشـاعر الشـك وعـدم الثقة التى يبدونها إزاء الأمريكييـن، ويعـترفون بأنهم مسئولون نسبيا عن هذه المشاعر من الشك من قبل المسلمين.

وهكذا يمكن القول أن مشروع الخطاب المصرى حين يتوجه إلى المثقفين الأمريكيين على وجه الخصوص فهو استجابة فعالة لدعوتهم للحوار.

أما خطاب المثقفين الأمريكيين المعارضين للحرب الأمريكية ضد الإرهـــاب والذى يحمل عنوان "خطاب من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكـــية إلـــى الأصدقاء فى أوروبا" فهو وإن كان دعوة لبناء حلف ثقـــافى أمـــريكى أوربـــى - إن صح التعبير - للنضال ضد نزعات الولايات المتحدة الأمريكية للهيمنة والعدوان، فإننا اعتبرناه أيضا دعوة عامة للحوار مع مثقفى العالم.

ما سبق هو مجرد بداية للحوار حول المشروع، لأنه مازالت هناك ملاحظات نقدية هامة تستحق أن نعرض لها بالتحليل النقدى.

[٣]

هل هناك جدوى من الحوار ؟

يطـــرح الأســـتاذ صبرى العسكرى فى استجابته لدعوتى المثقفين المصريين أن يسهموا بملاحظاتهم النقدية على مشروع الخطاب الذى أعددتـــه لمخاطـــبة المثقفيـــن الأمريكييـــن، مجموعـــة مترابطة من الاعتراضـــات على بعض منطلقات الخطاب، بالإضافة إلى تقديم عدد من الأفكار الإيجابية.

وهـــو يبدأ بطرح سؤال نراه هاما وهو: لماذا نحرص علـى تقديم إجابـــات علـــى تساؤلات الآخرين، ونغرق فى تأكيدها، وكأننا نعطى للغـــير صـــكا بأحقيـــته فى إيقافنا وظهرنا لحائط ما يقدمه ضدنا من اتهامات؟

وردّى علـــى هذا السؤال أننا نعيش فى عصر العولمة التى قضت على حواجز المكان والزمان، بحكم الفضاء المعلوماتى الذى أتاح لأول مـــرة فـــى تاريخ الإنسانية القدرة على التواصل المباشر بين الشعوب المختلفة والثقافات المتنوعة.

ومـــن الطبيعى فى هذا المناخ الثقافى أن تطرح مجتمعات معينة أسئلة جوهرية على مجتمعات أخرى، ليس من قبيل الاتهامات، وسواء كانـــت هـــذه الاتهامات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، ولكن فى سبيل الفهم المتعمق لسلوك الآخر واتجاهاته.

ولذلـــك تطرح المجتمعات العربية والتى لديها فائض سكانى أدى إلـــى هجرة الملايين من أبنائها إلى الدول الغربية المختلفة أسئلة هامة علـــى المجـــتمعات المعنية. لعل أهمها ما هى العوامل التى أدت إلى ظهور العنصرية الأوروبية الجديدة وانعكاساتها على مواقف المواطنين

فيها إزاء المهاجرين، وأهم من ذلك تأثيرها على السياسات التشريعية للدول الأوروبية فيما يتعلق بحق الإقامة والعمل؟

وهناك أسئلة أخرى خاصة بحق هؤلاء المهاجرين فى التعبير الحق الطليق - فى إطار الدستور والقانون - عن هويتهم الثقافية الأصيلة العربية الإسلامية، وعن حريتهم فى الاندماج الكامل أو التكيف النسبى.

هل إذا طرحنا نحن كعرب ومسلمين هذه الأسئلة على المجتمعات الأوروبية نكون فى مجال اتهامها، أم فى مجال السعى إلى حوار فعال معها، وصولا إلى أنسب الحلول لمشكلات المهاجرين، وخصوصا أن وضع سدود أمام هجرة العمالة العربية والإسلامية بالذات يعد من ناحية مخالفة لقواعد العولمة التى تزعم أنها تشجع على حرية تدفق السلع والخدمات والأفكار ورؤوس الأموال والبشر بلا حدود ولا قيود، ومن ناحية أخرى يعد ذلك تمييزا عنصريا ضد العرب والمسلمين.

وفى المقابل من حق المجتمع الأمريكى ومن يمثلونه وسواء كانوا سياسيين أو مثقفين، وكذلك المجتمعات الغربية الأخرى أن تطرح علينا أسئلة تتعلق بأسباب بروز التطرف الدينى فى بعض البلاد العربية، والذى تحول فى العقود الأخيرة إلى إرهاب صريح، وجه ضرباته أولا إلى عديد من النظم العربية، قبل أن ينتقل ليصبح إرهابا عالميا فى عديد من مناطق العالم.

ولا ينبغى أن نجد أى حساسية فى مجال الأسئلة التى تطرح علينا كعرب ومسلمين، مادام من حقنا أيضا أن نطرح عليهم أسئلتنا.

نحن نعيش فى عصر الحوار الحضارى العالمى، ولا يمكن لمجتمع أيا كانت قوته أو اكتفائه الذاتى أن يعيش فى انعزال عن باقى المجتمعات، ولا تستطيع ثقافة أيا كانت ونحن نعيش حضارة عالمية واحدة أن تعزل نفسها عن مجرى التاريخ المعاصر، ولا أن تعصم نفسها من التأثيرات الإيجابية والسلبية التى لابد أن تتولد من تفاعل الثقافات.

من هم أطراف الحوار؟

أحيانا نتحدث عن الغرب وكأنه كتلة صماء واحدة، وننسى أن ما يطلـــق علـــيه الغـــرب يـــتكون من أنظمة فكرية متعددة، يستند إليها السياسيون والمثقفون فى إدراك العالم، وفى صياغة السياسات المناسبة للـــتعامل معه. فهناك فى الغرب تيارات يمينية، وهناك أيضا تيارات يســـارية، وإن كانت ضاقت دائرة تأثيرها نتيجة عوامل شتى، وهناك عنصـــرية جديدة فى بعض البلاد الغربية، ولكن هناك أيضا اتجاهات إنسانية قديمة وجديدة، تحاول نقد العولمة المتوحشة وسياساتها الضارة بشـــعوب العالم الثالث، وتكافح لصياغة عولمة ذات وجه إنسانى. لقد أشـــرنا فـــى مقالاتنا الماضية (وخصوصا مقالة "استجابة المثقفين فى العـــالم") إلى أن المثقفين من خمسة وعشرين دولة فى العالم ، بينها دول أوروبـــية مـــتعددة، أصـــدروا بـــيانا قويا ينقدون فيه السياسات الإســـرائيلية، ويدعـــون بقـــوة إلى إنشاء دولة فلسطينية تحقق للشعب الفلســـطينى حقوقـــه المشروعة، وينتقد الاعتداءات على المدنيين على الجانب الفلسطينى وعلى الجانب الإسرائيلى على السواء.

ويؤكـــد هذا البيان ما قررناه من أنه ينبغى الالتفات إلى التعددية الفكرية والسياسية السائدة فى المجتمعات الغربية ولا نعمم الحديث عن الغرب.

وفى تقديرنا أن الأستاذ صبرى العسكرى وقع في محظور التعميم حيـــن قرر "أن الأمريكان لا يديرون حوارا مع العالم ولا يسعون إلى ذلـــك ، إنهـــم فقط اتخذوا من المواقف ما هو قابل للتفعيل والتصعيد بحماية قوة مسلحة غالبة، تسبقها أو تلحق بها قوى اقتصادية وسياسية لا قـــبل لعالمـــنا بمزاحمتها . أليس من الأجدى أن نرد على المواقف بمواقف مضادة أيا ما كان قدر الإمكان وسوء الحال".

والســـؤال هـــنا أى أمـــريكان؟ هـــناك اليمين السياسي المتطرف المتحالف مع اليمين المسيحى الصهيونى والذى يؤثر تأثيراً بالغاً على سياســـات وإدارة الرئـــيس بـــوش . ولكن هناك قوى سياسية أمريكية تقدمـــية تقف في مواجهة سياسات الهيمنة الأمريكية. ولعل البيان الذى وقعه ١٢٠ أكاديمياً أمريكياً على رأسهم المؤرخ الراديكالى هوارد زين

والــروائى والكاتب جور فيدال دليل على ذلك. قد يرد علينا أن التيار اليميــنى هو الغالب، وأن التيار المعارض تيار هامشى، هذا اعتراض صــحيح، ولكــن قبوله على علاته تسليم غير مقبول بحتمية تاريخية تــزعم أن الهيمنة الأمريكية التى يصدر عنها التيار اليمينى فى قيمه وسياســاته ستظل إلى الأبد. على العكس من ذلك فإننا نرى أن جدل التاريخ الذى لا يتوقف أبداً جدير - على المدى المتوسط أو الطويل - بتغيير المواقف.

ألم يستطع التيار التقدمى الأمريكى أن يعكس الموازين أثناء حرب فيتــنام، بعدمــا قامت المظاهرات الشعبية ضد الحرب، تنادى بوقفها، وتدعو الشباب إلى عدم الاستجابة لطلبات الاستدعاء للخدمة العسكرية؟

وألا يمكــن القــول أن المظاهرات ضد العولمة فى مختلف بلاد العــالم لابــد لها - طالت المدة أو قصرت - أن تؤثر على سياسات العولمة وتجبر الدول المهيمنة على تعديل بعض عناصرها المجحفة؟

وإذا كــان الأســتاذ العسكرى يدعو للرد على المواقف الأمريكية بمواقــف مضادة، فنحن إذ نوافقه، نؤكد أن مشروع الخطاب المقترح تطبــيق خلاق لهذا الاقتراح. الكتبة الأمريكيون بادروا بموقف فكرى تمثل فى بيانهم الشهير الذى دافعوا فيه بانتهازية مفضوحة عما أطلقوا علــيه "الحــرب العادلــة". وكان لابد أن يكون لنا كمثقفين مصريين وعــرب موقف مضاد، يتمثل فى مشروع الخطاب المقترح، الذى لا يقــنع بمجــرد تفنيد اتهامات المثقفين الأمريكيين، ولكنه يتجاوز ذلك لتأكيد عدد من القيم الأساسية والمبادئ العامة التى لابد من تطبيقها فى مجــال العلاقــات الدولــية، لإعطــاء الشعوب وفى مقدمتها الشعب الفلســطينى حقهــا فــى المقاومــة المشروعة للاحتلال، وفى تحقيق اســتقلالها الوطــنى. من هنا يمكن القول أن الجدل الفكرى والحوار الإيجابى يمكن اعتباره موقفا مضاداً.

ويضــيف الأســتاذ العسكرى إلى اعتراضاته السابقة نقطة هامة مفادها أن "الحوار يصبح حوار طرشان إذا ما كان أحد طرفيه يعرف ما يقوله، أو أنه كان يجهله. ففى الحالة الأولى لن يجدى الحوار، لأن أحــد الطرفيــن حدد موقفه واسنده إلى ما راى أنه يحقق به مصلحة مشروعة. وفى الحالة الثانية سوف نتفرغ بجهدنا المتواضع إلى السعى

لإخـراج ذلك الطرف من الجهالة التى هو عليها. وهذه ليست مهمتنا. بـل الأجدى أن نخرج أنفسنا من جهالتنا، وان نستهلك جهدنا لحسابنا وليس لترضية الآخرين".

هـل صحيح أن أحد أطراف الحوار لو كان يعرف ما يقوله فإن الحوار لن يجدى؟

لا نعـتقد ذلـك. لأن المسـألة لا تـتعلق بهل الولايات المتحدة الأمريكـية - على سبيل المثال - تعرف ما تقوله، وبالتالى لن يجدى الحوار معها، ذلك لأن الإدراك الأمريكى للعالم قد يكون - وهو كذلك فعـلا - سوء إدراك Misperception كما يطلق عليه فى علم نفس العلاقـات الدولـية، ولذلك فأحد وظائف الحوار - مهما تفاوتت قوة الأطراف المتحاورة - تصحيح هذا الإدراك المشوه.

ألم تعترض فرنسا وإنجلترا على خطاب بوش الأخير والذى دعا فـيه إلـى الـتخلص من الرئيس عرفات كشرط مسبق لإقامة الدولة الفلسطينية المؤقتة المزعومة؟

إن الاعتراضات الأوروبية بالإضافة إلى الاعتراضات الفلسطينية علـى ذلـك جديـرة - مهما بلغ عناد الإدارة الأمريكية - إلى تعديل مواقفها.

أما لو كان الطرف الآخر يجهل الواقع، فإن أحد أولويات الحوار نـزع حجاب الجهالة عن عقله، وإعطائه فكرة صحيحة وموضوعية عن الموقف الحقيقى.

ولـيس فى ذلك - كما يقول الأستاذ العسكرى - استهلاك لجهدنا ولا ترضـية للآخريـن، بل هو استثمار جيد لجهدنا تجاه أنفسنا أولا وتجاه الآخرين فى نفس الوقت.

ويضيف الأستاذ العسكرى " لا ينبغى أن نبيع للغرب بضاعة يتأبى عليه هضمها، لأننا لا نستطيع أن نزرع الشك فى نفسه حول ما يتبنى مـن آراء أو يتخذ من مواقف. فهو أدرى بما يقدم عليه، بل ولديه من خفايا ما يحدث أكثر مما لدينا"

وفـى تقديرنا أن نضال الشعوب على المستوى السياسى والفكرى لا ينـبغى أن يقف مهما بلغ من عناد القوى المهيمنة وتصلب مواقفها. ولعـل تحـرر الشعوب النامية من أسر الاستعمار الغربى دليل قاطع على أهمية مواصلة الكفاح.

[٤]

النقد المزدوج

ليس هناك بديل للحوار النقدى باعتباره سبيلا للوصول إلى الحقيقة، بالرغم من إيماننا بأنه ليست هناك فى مجال الصراع الفكرى حقائق مطلقة، بل إن كل الحقائق نسبية فى الواقع.

ذلك أن كل باحث أو مثقف عادة ما ينظر إلى الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية من منظوره الخاص. وهذا المنظور عادة ما يعكس رؤية محددة للعالم، تخضع فى صياغتها لمؤثرات متعددة. لعل أهمها نوعية اللحظة التاريخية التى يمر بها العالم، وطبيعة المجتمع الذى ينتمى إليه المثقف بتاريخه الاجتماعى الفريد من ناحية، ولنمط علاقاته بباقى المجتمعات المعاصرة، بالإضافة إلى الإيديولوجية التى يصدر عنها، والتى هى فى التعريف الدقيق نسق القيم التى تتعلق بالتطور الاجتماعى وأهدافه ووسائله، والقوى الاجتماعية التى يقع على عاتقها عبء تحقيقه.

فى ضوء ذلك كله يمكن أن نتابع الرؤية التى يقدمها الأستاذ صبرى العسكرى فى تعليقاته النقدية على مشروع الخطاب المصرى الذى أعددته ونشرت نصه، والمقترح توجيهه إلى المثقفين الأمريكيين. وإذا كان الأستاذ العسكرى يبدأ ملاحظة من ملاحظاته بقوله أنه لا ينبغى أن نبيع للغرب بضاعة يتأبى عليه هضمها، فإن البديل – كما يقرر بنص عبارته – "هو أن نقدم أنفسنا للعالم على حقيقتنا: أزماتنا ومشاكلنا وما لدينا من مصادر قوة سواء الموروث منها أو المستحدث. البديل أن نسعى إلى الترقى والتقدم، وعلينا أن نزاحم الجميع بالحق وليس بالباطل، بالاجتهاد وليس بالإدعاء، بالصدق وليس بترويج

الأوهـام، عندها سوف نجد من يقف معنا لاتحاد المصلحة فيما بيننا، ومن يعاوننا لثقته فى أننا نصدق معه ومع أنفسنا".

والواقـع أننا نختلف مع الأستاذ العسكرى فى أمر ونتفق معه فى أمـور. نختلف معه فى رفضه للحوار، ونتفق معه تماما فى أهمية أن نقوم بعملية نقد ذاتى تتسم بالجسارة والنزاهة الفكرية.

والواقع أننا نطالب بالقيام بنقد مزدوج، نقد الآخر من ناحية، ونقد الـذات مـن ناحـية أخرى. ونرى فى هذا النقد صلب عملية حوار الـثقافات ولا نقول حوار الحضارات كما ساد التعبير، لأننا نعيش فى الواقـع فـى ظل حضارة عالمية واحدة، ساعدت على تشكيلها الثورة العلمـية والتكنولوجية من ناحية، وثورة الاتصالات الكبرى من ناحية ثانية. وقد التفتنا منذ زمن إلى أهمية ممارسة النقد الذاتى. ويشهد على ذلـك أنـنا نشرنا دراسة مبكرة، وكان عنوانها "خطاب الأزمة وأزمة الخطاب: الموجة الرابعة من موجات النقد الذاتى".

غـير أننى أدركت - بمناسبة نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحـادى والعشـرين - حاجتـنا إلى ممارسة عملية نقد ذاتى عربى شـاملة، وهـو مـا قمت به فى دراسة مطولة عنوانها "العرب على مشـارف الألفـية الثالـثة" ضـمها بشكل متكامل كتابى "المعلوماتية وحضـارة العولمـة: رؤيـة نقدية عربية" (نشرته نهضة مصر عام ٢٠٠٠)

وهـذه الدراسـة الشـاملة تحقق فى الواقع ما يطالب به الأستاذ العسـكرى مـن ضـرورة أن نقدم أنفسنا للعالم على حقيقتنا بسلبياتنا وإيجابياتنا.

والواقـع أن الـذى دفعنا للقيام بهذه الدراسة المتكاملة إيماننا بأن الحـوار الحضـارى لا يمكـن أن يـنهض إلا على أساس العرض الموضـوعى للـذات بكل ما تمثله من إيجابيات وسلبيات، وفى نفس الوقـت لابـد من ممارسة نقد الآخر بكل ما نمتلكه من معرفة ومنهج نقـدى، بغـير تردد وبصورة حاسمة من شأنها أن توصف الظواهر السياسـية والاقتصـادية علـى حقيقتها، وليس فى ضوء ما يزخر به الخطـاب الغربى السائد والمهيمن من أوصاف زائفة. ولعل النموذج الـبارز لهذا الخطاب الذى يقوم على تزييف الوعى العالمى ما يتعلق

بالعولمة، والتى تقدم للعالم باعتبارها الحل السحرى لمشكلات الإنسانية، بالرغم من أنها فى الواقع عولمة متوحشة. ومن هنا أهمية النقد الذاتى الذى يوجهه لها المثقفون التقدميون فى العالم ومن بينهم المثقفون العرب، حتى تتحول العولمة – من خلال نضال الشعوب – إلى عولمة ذات وجه إنسانى، لا تؤدى إلى استبعاد الطبقات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة لحساب الطبقات المستغلة، ولا إلى تهميش المجتمعات النامية لصالح المجتمعات الصناعية المتقدمة التى تمسك فى يدها بمقاليد التقدم العلمى والتكنولوجى.

صراع حضارات أم حوار ثقافات؟

وإذ كان الأستاذ العسكرى يرى من ناحية أخرى أنه من الخطر الشديد أن نضيع جهدنا وراء ما يسمى حوار الحضارات، فإننا نختلف معه فى هذا الصدد، بالرغم من أننا نتفق معه أنه لا يوجد أساس للقول بصراع الحضارات. ولعلنا فى ذلك نؤكد هذا الاتجاه البصير الذى تبنته ندوة "صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟" التى عقدتها فى القاهرة منظمة التضامن الآسيوى الأفريقى فى مارس عام ١٩٩٧. غير أنه أهم من ذلك كله أننا نرى أن عملية حوار الحضارات الجارية فى العالم اليوم والتى ازداد زخمها بشكل ملحوظ منذ أن ألقى الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإيرانية الإسلامية خطابه التاريخى أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٩، والذى تلاه صدور قرار الأمم المتحدة أن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات، تحتاج إلى برنامج عمل محدد مازال غائبا حتى اليوم.

وإذا كنت قد شهدت منذ عام ١٩٩٠ بزوغ عملية حوار الحضارات بعد انهيار الحرب الباردة حوالى عام ١٩٩٠ بعد أن حضرت فى لشبونة المؤتمر الدولى عن "أوربا – العالم"، فإننى تابعت عبر السنين تطور الفكر العالمى فى الموضوع، وخصوصا فى المؤتمر العالمى عن حوار الحضارات الذى نظمته اليونسكو فى فلنيوس عاصمة ليتوانيا عام ٢٠٠٠. وقد شاركت فى هذا المؤتمر

ببحث عن "مفاهيم الحضارة فى القرن الحادى والعشرين" بتكليف من اليونسكو.

ويمكـــن القول أن تتبعى الدقيق لكل الندوات والمؤتمرات العالمية الـــتى انعقـــدت عن حوار الحضارات، جعلنى أخلص إلى نتيجة هامة مفادها أن هذا الحوار يدور فى الواقع فى دائرة مفرغة، لأنه يفتقر إلى مـــنهج صـــحيح مـــن ناحية، وليس له جدول أعمال محدد من ناحية أخـــرى، يركـــز على المشكلات الحقيقية التى تواجه البشر فى القرن الحادى والعشرين.

ومـــن هـــنا توصـــلت إلـــى إطار نظرى وبرنامج عمل لحوار الحضـــارات مؤســـس علـــى فكـــرة جوهرية هى عولمة المشكلات الإنســـانية. وتعـــنى هـــذه الفكرة ببساطة أن المسافات بين المشكلات الداخلـــية فـــي كل بلد وداخل كل ثقافة وبين المشكلات العالمية على مستوى الكون قد ضاقت إلى حد بعيد. فأصبحت أى مشكلة عالمية هى مشـــكلة محلية في نفس الوقت. فالفقر مشكلة عالمية ومحلية في نفس الوقت، وتلوث البيئة كذلك، والآثار السلبية للعولمة تحس على النطاق الكونى وعلى مستوى كل بلد في نفس الوقت، وخطر الإرهاب أصبح مشكلة عالمية ومحلية.

في ضوء ذلك وبتحليل الجهود الدولية البارزة التى بذلت في مجال تحلـــيل المشكلات العالمية، توصلت إلى أن برنامج حوار الحضارات ينـــبغى أن يركـــز علـــى الإشكاليات المعرفية من ناحية والمشكلات الواقعية من ناحية أخرى.

أمـــا الإشكاليات المعرفية التى ستواجه الإنسانية في القرن الحادى والعشرين فقد تكفلت هيئة اليونسكو بتحديدها من خلال مؤتمر عالمى شـــهير انعقـــد في باريس عام ١٩٩٩ بعنوان "حوارات القرن الحادى والعشرين" وقد شارك فيه عشرات من العلماء والمفكرين والمثقفين في العالم والذين يمثلون الثقافات العالمية المتعددة.

وقد خلص المؤتمر إلى أهمية إعادة صياغة العقد الاجتماعى بين الدولـــة والمواطنيـــن في ضوء المتغيرات العالمية الجديدة، وأبرزها ضـــرورة تحقيق الديمقراطية واحترام التعددية وحقوق الإنسان، والتي

أصبحت هى محك الحكم على شرعية أى نظام سياسى، بالإضافة إلى عقـد طبيعى جديد، يعيد صياغة علاقة الإنسان بالطبيعة، وعقد ثقافى جديـد يركـز علـى تطوير التعليم في ضوء نظرية التعليم المستمر، والتعلـيم عـن بعد، وأخيراً عقد أخلاقى جديد، بعد ما برزت أبحاث الهندسة الوراثية التى يمكن أن تقلب موازين المجتمعات الإنسانية. هذه هى الإشكاليات المعرفية الكبرى التى تم تحديدها وتعريفها في الكتاب الـذى ضـم أبحـاث هـذا المؤتمر التاريخى والذى نشرته اليونسكو بالفرنسية بعنوان "مفاتيح للقرن الحادى والعشرين".

ومـن ناحـية أخرى تكفل "المشروع الألفى" الذى تقوم به جامعة الأمـم المـتحدة فـي طوكيو بتحديد المشكلات الواقعية التى ستواجه الإنسـان في القرن الحادى والعشرين من خلال استطلاع آراء مئات العلمـاء والمفكريـن والمثقفين في العالم. وهذا المشروع ينشر نتائج أبحاثه في تقرير سنوى بعنوان "حالة المستقبل".

وقد توصل المشروع الألفى إلى تحديد خمسة عشر مشكلة سياسية واقتصـادية واجتماعية وثقافية، تحتاج إلى حوار حضارى للنظر في إمكانية حلها ومواجهتها بسياسات عالمية فعالية. من بينها – على سبيل المثال – مشكلة "الفجوة بين السكان والموارد"، ومشكلة هل يمكن إقامة حكـم ديموقـراطى من خلال نظم الحكم المستبدة؟ ومشكلة الأمراض الجديدة وظهور الأمراض القديمة المنقرضة مرة أخرى، ومشكلة ندرة مياه الشرب في العالم، وغيرها من المشكلات.

وهكذا يمكن القول أن الإشكاليات المعرفية من ناحية والمشكلات الواقعـية من ناحية أخرى يمكن أن تحتل البند الأول والبند الثانى في بـرنامج حـوار الحضارات المقترح. غير أن البند الثالث يتمثل في ضـرورة نقـد الـنظام العالمى الراهن والذى يقوم على هيمنة الدول الكـبرى، والتبشـير بـنظام عالمى جديد يقوم على الحرية والعدالة والمساواة بين جميع الأمم.

وهـذا ما حاول أن يقوم به تقرير لجنة الحكماء التى شكلها كوفى أنـان السـكرتير العـام للأمم المتحدة والتي ضمت أكثر من أربعين شخصـية مـن مخـتلف البلاد ويمثلون ثقافات العالم المتعددة، والتي

أخرجـــت تقريـــراً خطيراً عنوانه "عبور الخط الفاصل" يتضمن هذه التوجهات.

وهكـــذا تســـتوى الدعوة إلى حوار الحضارات على أسس سليمة، حيـــن تركـــز على الحوار الحضارى في إطار الجمعية العامة للأمم المـــتحدة، لمناقشة الإشكاليات المعرفية والمشكلات الواقعية وصياغة نموذج جديد للنظام العالمى.

[٥]

حوار متعدد الأبعاد

ازداد يقينى بأهمية إدارة حوار وطنى بين كافة ممثلى الاتجاهات السياسية الأساسية فى مصر بعدما تلقيت العديد من الرسائل استجابة لدعوتى المثقفين المصريين للتعليق النقدى على مشروع الخطاب الذى أعددته للحوار مع المثقفين الأمريكيين وغيرهم من المثقفين فى العالم، بمناسبة أحداث الحادى عشر من سبتمبر وتداعياتها المتعددة.

وهذه الرسائل تمثل إلى حد بعيد ألوان الطيف السياسى المتعددة التى يزخر بها مناخنا الثقافى. فبعضها يمثل التيار اليسارى الذى مازال مخلصاً لمقولة أن الصراع العربى الإسرائيلى هو صراع وجود وليس صراع حدود. وبعضها يعكس رؤية ليبرالية منفتحة تدعو للحوار الإيجابى الخلاق مع العالم بغير قيود ولا حدود، وبعضها الآخر يعبر عن التيار الإسلامى فى صوره المتنورة التى لا ترفض الآخر بإطلاق، وإنما تسعى للتحاور معه فى ضوء ثوابت الأمة.

لقد وصلتنى رسائل من قراء كرام هم الدكتور القس إكرام لمعى، والدكتور محمد عامر الأستاذ بعلوم القاهرة، والدكتور محمد الشبينى أستاذ التربية، والمستشار الدكتور جمال الدين محمود عضو مجمع البحوث الإسلامية، والمهندس نبيل صمويل أبادير المدير العام للهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية، ومن السيدة رضا محمد البيه، ومن الأستاذ محروس فودة المحامى، والأستاذ محمود القيعى مدير بمنظمة اليونسكو سابقاً، والأستاذ حسين فهمى مصطفى مستشار التليفزيون المصرى وبالأمم المتحدة، والدكتور منصور حسن أستاذ بهندسة المنصورة، والسفير الدكتور محمد شاكر رئيس مجلس إدارة

المجلس المصرى للشئون الخارجية، والدكتورة نادية مصطفى أستاذ العلوم السياسية ومديرة برنامج حوار الحضارات، والأستاذ صلاح سالم الصحفى بالأهرام.

وأعد القراء الكرام الذين اهتموا بإرسال ملاحظاتهم النقدية بعرض ومناقشة أفكارهم. وأبدأ اليوم بعرض رسالة الدكتور القس إكرام لمعى، والتي أثار فيها موضوعات بالغة الأهمية، تتعلق أساساً بضرورة التعرف على اتجاهات المثقفين الإسلاميين واليساريين، قبل تعميم القول بأن مشروع الخطاب الذى أعددته فى صيغته المبدئية يعبر عن مجموع المثقفين المصريين، بالإضافة إلى ملاحظات أخرى.

وفيما يلى نص خطاب الدكتور إكرام لمعى:

"أتابع دائماً مقالاتكم "أوراق ثقافية" واستمتع بتحليلاتكم العميقة والموضوعية ولقد أعجبت بمقالكم الأخير "مشروع خطاب مصرى موجه إلى المثقفين الأمريكيين" حيث أنه قد حان الوقت لتحرك المثقفين المصريين، خاصة ونحن نعيش فى عصر العولمة حيث سقطت المسافات بين الدول وصار الحوار حياً وفعالاً ويومياً، وأيضاً لأن بعض المثقفين فى دول أخرى تحركوا للرد على خطاب المثقفين الأمريكيين لكن الرد لم يكن على المستوى المطلوب، ولذلك كان لابد لمثقفى مصر أن يأخذوا هذه المبادرة ولقد كان نشركم لمشروع الخطاب المقترح والذى أعددته - وعلى حد قولكم - تتحملون مسئولية صياغته فكراً وأسلوباً وتنتظر تعليقات نقدية من القراء، سابقة مفيدة يجب الإقتداء بها عند توجيه مثل هذه الخطابات، لذلك بادئ ذى بدء أقدر التحرك والحماسة والموضوعية وأيضاً فتح باب المناقشة، وأسمح لى أن أقدم بعض التعليقات على مسودة الخطاب.

أولاً: يخلو الخطاب من مقدمة يتضح منها أهمية ودور المثقفين فى العالم فى التأكيد على الحوار وضرورة تراجع التوجه العسكرى أمام الفكر الثقافى لأجل مستقبل أفضل للإنسانية، كذلك تجيب المقدمة على السؤال: لماذا الخطاب؟ ولماذا الآن؟

"**ثانياً:** من المفيد تجنب التعميم بقدر الإمكان فى الخطاب، فمثلاً عندما تقول "يوجه المثقفين المصريون الذين ينتمون إلى كافة الاتجاهات السياسية السائدة فى المجتمع المصرى " فهل هذا التعميم

صـــحيح؟ وهل أخذ رأى التيار الإسلامى بكل اتجاهاته، وأنا أعلم أن التـــيار الإسلامى الذى يرفض الحوار أحد التيارات السائدة فضلاً عن التـــيار اليسارى، فهل سيقوم بالتوقيع على هذا البيان من يمثلون كافة الاتجاهـــات السياســـية فى مصر؟، وهل من الأفضل أن نقول "معظم" بدلاً من "كل"؟ فنكون أكثر علمية، ولا يطعن أحد بعد ذلك فى مصداقية الخطاب سواء من داخل مصر أو من خارجها.

أيضـــاً حـــدث تعمـــيم أخـــر عند الحديث عن الحملات السياسية والإعلامـــية ضـــد الإســـلام والمســـلمين وتصويرهم كأنهم إرهابيين بالطبيعة، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هناك من تصدى لهذه الحملات مـــن داخـــل الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، بل وقاموا بحملات مضـــادة مـــثل بعـــض المثقفين أو السياسيين أو الكنائس أو حتى من الشـــعب الأمريكى العادى، وحتى إن كان هؤلاء أقلية لكننا نحتاج إلى أن نشـــير إلـــيهم لأن تأثيرهم كان كبيراً وكما تعلمون فإن إعلامنا لا يركز على هذه الإيجابيات فى وقتها ولذلك من الأفضل استخدام تعبير "بعض" أو "معظم" الحملات .. الخ.

ثالثاً: علينا أن نتحدث إليهم بلغتهم فعندما نقول " و إذا كان فريق من المثقفين الأمريكيين حاولوا تسهيلاً – لتحقيق أهداف إدارة الرئيس بوش – تبرير الحرب الأمريكية ضد الإرهاب .. الخ" فهذه الجملة لا تفهـــم فـــى المجتمع الأمريكى، فلا يوجد مثقفون عملهم تسهيل أهداف الحكومـــة، فحـــرية الرأى فى أمريكا والديمقراطية لا تجعل هناك أى ضـــغط علـــى أى مـــثقف ليقوم بتأييد الحكومة لمجرد تسهيل تحقيق أهدافهـــا، فهـــؤلاء الذين تحدثوا عن الحرب العادلة هم مقتنعون تماماً بهـــذه الفكـــرة وكتبوا فيها كتباً ونشروا مقالات قبل ١١ سبتمبر وقبل إعـــلان الحكومـــة الأمريكـــية حربها على الإرهاب، بل إنهم طالبوا الحكومـــة الأمريكية – كما تعلمون – قبل ١١ سبتمبر بأن تقوم بهذه الحـــرب وتحدثـــوا عـــن نهاية العالم وصدام الحضارات، إذن لم يكن خطـــابهم تسهيلاً لمهمة الحكومة أو ضغطاً من الحكومة عليهم. لذلك علـــينا أن نناقشـــهم بموضوعية ونحاورهم فى صحة هذا الرأى الذى نرى فساده ونوضح لهم رأينا بأسانيده وحججه والذى يتفق مع الفريق الأخر من المثقفين الأمريكيين وهكذا نتحدث إليهم بلغتهم.

رابعاً: إقحام قضية العراق

كــل ما أخشاه أن إقحام قضية العراق فى الخطاب يفجر الخطاب ككــل، وتتركز المناقشة فى الغرب على هذه القضية خاصة ونحن لا نؤيــد الــنظام فى العراق، وفى الوقت نفسه نحن نرفض تغيير النظام بقــوة خارجية ونحن هنا نتحدث بشكل عام عن حرب الإرهاب لقتل مدنييــن أو قمع مقاومة مشروعة. لذلك اقترح رفع هذه الفقرة خاصة وأن الإدارة الأمريكــية عــبرت عن رغبتها فى تغيير النظام العراقى لكنها تترك هذا حتى الآن للشعب العراقى، ونفس الأمر بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية واقترح إضافة العراق إلى البند (٢) كنموذج لقتل المدنيين فيه مع أفغانستان وفلسطين، وهكذا نوضح رفضنا لما يحدث ضد الشعب العراقى مع تحفظنا على سياسة قيادته.

وفــى نهايــة تعليقى أشكركم على سعة صدركم راجياً أن يكون الخطــاب الــذى يعــبر عن المثقفين المصريين خطاباً تتخلله الروح المصرية بكل ما تحمل من دفء وحب للبشر جميعاً وميلاً واضحاً لا لبس فيه للسلام، أدامكم الله عقلاً مستنيراً لكل من يقرأك أو يسمعك".

والملاحظــة الأولى للدكتور لمعى المتعلقة بإضافة مقدمة للخطاب ملاحظة وجيهة، وخصوصا فيما يتعلق بأهمية تراجع التوجه العسكرى أمــام الفكــر الثقافى لأجل مستقبل أفضل للإنسانية. ويبدو صحة هذه الملاحظة من طغيان لغة القوة العسكرية الفائقة على الخطاب السياسى الأمــريكى، والذى بدأ حملة إرهاب فكرية صاخبة موجهة للعالم كله، حيــن أطلق الرئيس بوش وأركان حكومته شعار: "من ليس معنا فهو ضــدنا". غــير أن هذا التوجه الذى يعبر عن غطرسة القوة فى أقبح صــورها، تعمق من بعد حين صاغ الرئيس بوش مذهبه الاستراتيجى الجديــد وهــو الحــق المطلق للولايات المتحدة الأمريكية فى توجيه ضــربات إجهاض عسكرية ضد أى دولة فى العالم يشتم من سلوكها أنهــا تمــثل خطرا على أمن الولايات المتحدة الأمريكية! واعتبر هذا المذهــب الجديد الذى يعبر خير تعبير عما أطلقنا عليه من قبل مرحلة "الهيمنة المقننة" تجاوزا للمذهب الأمريكى الاستراتيجى الذى كان سائدا فى حقبة الحرب الباردة والذى كان عماده مبدأى الاحتواء والردع.

أما ملاحظة الدكتور لمعى حول ضرورة أن تتضمن المقدمة الرد علـــى الســـؤال لماذا الخطاب ولماذا الآن؟ فاعتقد أن مقدمة مشروع الخطـــاب واضـــحة، فـــى أن الخطـــاب مشروع للحوار مع المثقفين الأمريكيين الذين يروا الحرب "العادلة" الأمريكية.

وإذا كان الدكتور لمعى يتساءل فى ملاحظته الثانية هل أخذ رأى أنصـــار التـــيار الإسلامى وهو يرفض الحوار؟ وردى عليه أنه ليس صـــحيحا أن أنصـــار التيار الإسلامى يرفض الحوار، وسيتاح لنا فى المســـتقبل القريـــب أن نعرض الرسالة التى بعثت بها الدكتورة نادية مصـــطفى وهى من أبرز ممثلى التيار الإسلامى وسيتبين فيها أن هذا التيار راغب فى الحوار.

أمـــا التـــيار اليسارى فبعض ممثليه يرفضون الحوار حقيقة على أساس أنه لا جدوى منه، غير أن هناك فريقا آخر لا يتردد إطلاقا فى الدخول إلى ساحة الحوار، على أساس نقد مشروع الهيمنة الأمريكى، والتأكيد على عدد من المبادئ الأساسية التى يرى أنه لابد من تطبيقها فى مجال العلاقات الدولية.

ولا بـــأس أبـــدا من الإشارة فى مشروع الخطاب – كما يطالب الدكـــتور لمعـــى – مـــن الإشـــارة إلى الكتابات الغربية التى انتقدت الحمـــلات الظالمـــة التى وجهت إلى العرب والمسلمين والإسلام، وقد سبق لنا على أية حال أن أشرنا إليها فى مقال سابق لنا بعنوان "صوت العقلانـــية الأمريكـــية" بالإضافة إلى عرضنا للآراء المنصفة للمفكر الأيرلندى المعروف فرد هاليداى الأستاذ بمدرسة لندن للاقتصاد.

غير أننى أختلف مع الدكتور القس إكرام لمعى فى اعتراضه على تأكـــيدنا أن فـــريقا من المثقفين الأمريكيين حاولوا تبرير أهداف إدارة الرئيس بوش لتمرير خطتها فى الحرب ضد الإرهاب، على أساس أن المجـــتمع الأمـــريكى مجـــتمع مفتوح ولا يوجد مثقفون عملهم تسهيل أهـــداف الحكومة. وليس هذا الاعتراض صحيحا. وذلك أنه لو درسنا تـــاريخ حـــياة ثلاثـــة مـــن ابرز الموقعين على بيان الحرب العادلة المـــزعومة وهـــم صـــمويل هنتنجون، وفرانسيس فوكوياما واميتاى إتـــريونى الإسرائيلى الأصل، فسرعان ما سنكتشف أنهم جميعا عملوا مستشارين فى البيت الأبيض الأمريكى فى فترات مختلفة، مما حولهم

مــن مثقفيــن أصــحاب رأى إلــى خبراء للسلطة مهمتهم الدفاع عن سياساتها حتى لو كانت منحرفة المنطلقات.

ولا اعتقد في النهاية أن قضية العراق أقحمت على الخطاب، لأن الخطـــة الأمريكية المعلنة لغزو العراق وتغيير النظام السياسي بالقوة المسلحة، هي أبرز دليل على إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على ممارســة هيمنـــتها السياسية والعسكرية على العالم، ونقد هذه الهيمنة وتشريح السياسات الأمريكية والدعوة إلى نظام عالمي أكثر عدلا، هو صلب الرسالة التي يريد مشروع الخطاب إيصالها للعالم.

[٦]

رؤية إسلامية للحوار

أثـــار القـــس الدكتور إكرام لمعى فى رسالته التى عقب فيها على مشروع الخطاب الذى أعددته للحوار مع المثقفين الأمريكيين ومثقفي العالم، ليصدر بعد المناقشة المستفيضة باسم المثقفين المصريين سؤالا هاماً، وهو هل سيوافق المثقفين الذين ينتمون إلى التيار الإسلامى على التوقيع على الخطاب المقترح مع أنهم يرفضون الحوار؟

والواقـــع أن هذا السؤال يحمل فى طياته فكرة محددة عن رفض المثقفيـــن الذين ينتمون إلى التيار الإسلامى لفكرة الحوار مع الآخر، وعلـــى وجـــه الخصوص مع الغرب، على أساس معارضتهم المبدئية لعديد من قيم الثقافة الغربية.

وقد يكون فى هذه الفكرة التى يعتنقها عديد من المثقفين المصريين العلمانيين والليبراليين عن التيار الإسلامى، إشارة لعدم متابعتهم لحركة الـــنقد الذاتى التى قام بها المثقفون من أنصار الإسلام السياسى. وهى حركة جديرة بالمتابعة الدقيقة من قبل كافة المثقفين، سعياً للوصول إلى حـــد أدنـــى مشـــترك بينهم حول تشخيص المشكلات الحقيقية وليست المزيفة التى تجابه المجتمع العربى فى مرحلة تطوره الراهنة، ورسما لخطـــوط اســـتراتيجية مشتركة تتبناها مختلف القوى السياسية لتحقيق الديمقراطية واحترام التعددية وحقوق الإنسان، وتوفير كافة الضمانات لترســـيخ قـــيم تكـــافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية، وتدعيم الاستقلال الوطنى والحفاظ على الهوية الثقافية.

وفـــى تقديـــرنا أن البداية الحقيقية للنقد الذاتى الإسلامى تتمثل فى الكتاب الهام الذى أشرف على تحريره عالم السياسة الكويتى المعروف

الدكتور عبد الله النفيسى ونشره بعنوان "الحركة الإسلامية : أوراق فى النقد الذاتى" . وقد ضم هذا الكتاب مساهمات بالغة الأهمية من أبرز مفكرى جماعة الإخوان المسلمين بالإضافة إلى مساهمات عدد من أبرز زعماء تيار الإسلام السياسى ومن بينهم الترابى والغنوشى وغيرهم.

وبالإضافة إلى ذلك صدرت مؤخراً فى مصر أربع كتب فى النقد الذاتى كتبها زعماء الجماعة الإسلامية، الذين صاغوا مبادرة لوقف العنف، وأداروا حوارا عميقاً مع أعضاء الجماعة الإسلامية الذين مازالوا فى السجون تنفيذاً لأحكام قضائية.

ولعل ما يؤكد وجهة نظرنا الرسالة التى بعثتها لى الدكتورة نادية مصطفى أستاذ العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ومدير برنامج حوار الحضارات، تعليقاً على مشروع الخطاب الذى أعددته ونشرته فى الأهرام.

وفيما يلى نص الخطاب الذى أرجو أن أتناوله بالمناقشة فى المستقبل القريب:

" تزامنت قراءتى لمقالكم فى جريدة الأهرام (عدد ٢٠/٦/٢٠٠٢) تحت عنوان "مشروع خطاب مصرى موجه إلى المثقفين الأمريكيين" مع استلام نص خطاب مقترح إرساله. وقام بتوجيه الأخير فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى باعتباره رئيس مجلس إدارة جمعية البلاغ الثقافية التى أسست موقع "إسلام أون لاين".

وكانت فرصة ذهبية بالنسبة لى لأقارن بين خطابين لرمز من رموز الليبرالية ولرمز من رموز الإسلامية. فإننى منذ الحادى عشر من سبتمبر وأنا أحاول جاهدة الإجابة على سؤال يتردد فى ذهنى، وأحاول الوصول إليها من خلال القراءة المقارنة التراكمية للخطابات العربية خلال الشهور الأخيرة.

ولعلى أقترب الآن من إمكانية القول أن التحدى الخطير الذى يواجه أمتنا العربية قد ضيق من أبعاد الفجوة بين ما هو ليبرالى وما هو قومى، وما هو إسلامى، كما أوجد مناطق هامة وأساسية للتقاطع والتداخل سواء على صعيد تشخيص الحالة الراهنة وأسبابها ومؤشراتها وعواقبها أو على صعيد تصور البدائل المتاحة لإدارة هذه

التحديات التى تضرب فى الصميم الأبعاد الثقافية الحضارية للأمة العربية والإسلامية.

بعد هذه المقدمة السريعة، التى تبين اهتمامى بالمتابعة المنظمة لاتجاهات الرأى بين مثقى وخبراء وعلماء الأمة، أصل إلى الغاية الأساسية من رسالتى هذه، ألا وهى تسجيل بعض ملاحظاتى على مبادرتكم بصياغة مشروع بيان باسم المثقفين المصريين. وهى تنقسم إلى مجموعتين من الملاحظات: مجموعة كلية وأخرى جزئية.

أولا: الملاحظات الكلية:

١ - بداءة ومن حيث الفكرة ذاتها: فهى مطلوبة، إلا أننى كنت آمل أن يكون البيان من مثقفى الأمة العربية والإسلامية، حتى لا تتوالى "البيانات الوطنية" فى قضية تتعدى هذه الصفة وتتجاوزها. فلا أعرف ماذا بعد بيان سعودى ثم مصرى؟ فهل هذه ظاهرة صحية، أم أنها - على الأقل - "الممكن تحقيقه الآن"؟

٢ - البيان - باعتباره ردا على بيانى المثقفين الأمريكيين (فى فبراير ثم أبريل ٢٠٠٢) - يتسم بالإيجاز الشديد، حيث يقتصر على تحديد المواقف دون الانطلاق من مبرراتها وأسانيدها الفكرية والسياسية، كما هو شأن بيان "معهد القيم الأمريكية".

فالخطورة فى بيان معهد القيم الأمريكية أنه ينطلق من تحديد القيم الأمريكية كأساس لتبرير الحرب المسماة بـ "العادلة". فهى إذًا فى نظرهم "حرب عادلة باسم الله من أجل القيم الأمريكية". والبيان ينضح بالقيمية التى تعكس خصوصية ثقافية وحضارية يحرص أصحاب البيان على إبراز علوها وتفوقها، وإن حاولوا أن يدعوا التوازن بين الرافدين العلمانى والدينى بينهم.

بعبارة أخرى، لا يكفى بيان يوجز مبادئ المواقف السياسية، ولكن يجب صياغة بيان يعكس رؤية أو القاسم المشترك بين مجموعة رؤى فكرية حول الأبعاد الثقافية الحضارية فى العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى.

٣ – البيان صياغة فردية من جانبكم تأملون فى إثرائها بالمناقشة وترشيدها من خلال تلقى التعليقات النقدية. وإننى أثق أن مبادرتكم الكريمة ستكون نواة وحجر أساس لعقد اجتماع حاشد لمثقفى مصر من كافة الاتجاهات لصياغة بيان جماعى يعبر عن القواسم المشتركة بينها، والتى تمثل التيار الرئيسى حول هذه القضية المصيرية.

وقد أفرزت اللحظة الراهنة بطبيعتها هذا التيار الرئيسى، ومن ثم من إبرازه وتجسيده.

ثانياً: مجموعة ملاحظات جزئية:

٤ – البند ٣: أبرز حقوق الإنسان – من وجهة نظرى – هو الحق فى العدالة. فالعدالة هى التى تحقق للجميع الحق فى الحياة الآمنة.

٥ – فى البندين ٤ ، ٥: أليس من المهم الإشارة إلى أن ما يسمى "الأعمال الإرهابية" (بالمعنى الذى نقصده والذى يستبعد أعمال المقاومة ضد الاحتلال) ليس كره القيم الأمريكية أو كره الأمة الأمريكية، ولكن بسبب السياسات الظالمة والممارسات غير العادلة من جانب الولايات المتحدة ضد الشعوب العربية والإسلامية؟

وفى نهاية البند الرابع، ألا يجب التذكرة بالفارق بين الجهاد والإرهاب؟

٦ – لا يكفى رفض توصيف الحرب الأمريكية بأنها حرب عادلة لمجرد أنها معلنة خارج الشرعية الدولية، أو لأخطارها على السلام العالمى، ولكن لأنها تتضمن أساليب تدخلية فى السياسات والمجتمعات العربية والإسلامية باسم دعاوى الإصلاح لتجفيف منابع الإرهاب. وهى ليست كما قال سلامة أحمد سلامة إلا "محاولة لاختطاف الإسلام ولفرض إسلام أمريكى"، كذلك انظر مقال د. أسامة الغزالى حرب فى ٢٠٠٢/٦/١٨: "بيدنا نحن لا بيد أمريكا".

٧– البند ٧: إن تقسيم الدول إلى خيرة وشريرة أرى أنه لا يكفى وصفه بأنه يحمل فى طياته إثارة نعرات دينية وعنصرية، ولكن يجدر الإشارة إلى الدلالات الدينية التى أثرت فى صياغة هذا الخطاب والتي تعلن عن رؤية صراعية تجاه الحضارات الأخرى، وخاصة الإسلامية.

فقد أبرزت اللحظة التاريخية الراهنة واستدعت الأبعاد الحضارية بوضـــوح فى الخطاب والسياسات الأمريكية التى طالما ارتدت أثواب المصالح فقط (بالمعنى المادى).

٨- ضرب العراق ليس المشكلة الوحيدة بعد فلسطين. حقيقة هى القضية العربية الثانية ولكن هناك قضايا أخرى فى العالم الإسلامى لا تنفصل عن قضايانا العربية أو عن استراتيجية الولايات المتحدة تجاه الجميع، مثل التهديد ضد إيران، كشمير، القوقاز.

٩- صـــياغة البند ٩ عن القضية الفلسطينية تقدمها كمجرد قضية إنسانية وتفرغها من محتواها السياسى. كذلك ممارسات إسرائيل ليست بموافقة ضمنية أمريكية ولكنها موافقة صريحة.

١٠- البـــند ١٤: يجـــب إعادة صياغة هذا البند، وخاصة جملة " نؤمـــن أنه ليس هناك صراع بين الحضارات". فهناك سياسات غربية وأمريكـــية بصفة خاصة تبين صراعاً بين الحضارات ويجب أن نميز بيـــن الإيمان بأن العلاقة بين الحضارات قد تكون صراعاً أو قد تكون حـــواراً أو تعايشـــاً لأن التاريخ لم يعرف حالة واحدة من العلاقة بين الحضارات.

ومن ناحية أخرى من الأفضل دمج البند ١٤ مع البند ١٥ لبيان أن الشعوب وإن رنت للسلام إلا أنها يجب أن تقاوم الاحتلال.

١١- البند ١٥: ابتسر قضية معقدة فى وجه واحد فقط هو مقاومة الاحـــتلال، فى حين أن التهديدات الخارجية للعالم العربى والإسلامى ذات أبعاد متعددة تحتاج لمقاومة بسبل أخرى.

وجمـــيعها تعنى أنه يجب ألا تؤمن ببساطة أنه ليس هناك صراع حضارات يحرك السياسات الغربية.

١٢- هـــل الأمـــم المتحدة هى السبيل الوحيد لحوار الحضارات؟ وماذا بعد جلسة خاصة تجمع بين المثقفين ومؤسسات المجتمع المدنى الدولـــى وممثلى الحكومات للممارسة حوار الحضارات؟ كيف ستكون منطلقاً لحل مشكلات اختلال توازن القوى العالمى وآثاره السلبية على قضايانا؟ هل الحوار بين الحضارات غاية أم وسيلة؟ ألم يعد أمامنا إلا حوار الحضارات؟ (لاحظ آخر فقرة فى البيان: وليس هناك فى النهاية

مـــن سبيل سوى ..."). إن الحوار سبيل يجب أن تدعمه سبل أخرى لتفعيله، كما أنه بدوره سبيل وليس غاية، وهو قناة وليس حالة دائمة"

وفـــى تقديرنا أن هذه الرسالة التى كتبتها الدكتورة نادية مصطفى وهـــى باحثة ومثقفة إسلامية مرموقة سبق لها أن أشرفت على برنامج بحـــثى عن العلاقات الدولية فى الإسلام نشرته فى عديد من الأجزاء زاخرة بالأفكار التى تستحق المناقشة.

[٧]

هل هناك إمكانية لإجماع قومى؟

الخطـــاب الذى أرسلته لى الدكتورة نادية مصطفى أستاذة العلوم السياســية بكلـــية الاقتصـــاد والعلوم السياسية ومديرة برنامج حوار الحضـــارات والـــذى تضمن ملاحظاتها النقدية على مشروع خطاب المثقفيــن المصـــريين الذى قمت بصياغته، يحمل آمالاً عريضة فى إمكانية صياغة إجماع قومى بين كافة التيارات السياسية العربية حول تشـــخيص الحالـــة الراهـــنة وتصـــور الـــبدائل المتاحة لمواجهة هذه التحديات.

وأنـــا أريـــد في الواقع أن أقتبس عباراتها بالنص فى هذا المجال حيـــث تقـــول " .. ولعلـــى أقترب الآن من إمكانية القول أن التحدى الخطير الذى يواجه أمتنا العربية قد ضيق من أبعاد الفجوة بين ما هو ليـــبرالى ومـــا هـــو قومـــى وما هو إسلامى، كما أوجد مناطق هامة وأساســـية للتقاطع والتداخل سواء على صعيد تشخيص الحالة الراهنة وأســـبابها ومؤشراتها وعواقبها، أو على صعيد تصور البدائل المتاحة لإدارة هذه التحديات التى تضرب في الصميم الأبعاد الثقافية الحضارية للأمة العربية الإسلامية".

ولعل هذه الفقرة تعبر أبلغ تعبير عن استعداد أنصار تيار الإسلام السياســـى للحـــوار مع ممثلى التيارات الأخرى، ويتمثل ذلك فى تأكيد الدكـــتورة نادية مصطفى أن التحدى الخطير الذى يواجه أمتنا العربية قـــد ضيق من أبعاد الفجوة بين ما هو ليبرالى وما هو قومى وما هو إسلامى.

غير أننى قد اختلف معها في أن هذا التقارب هو وليد مواجهة التحدى الخطير لأمتنا العربية الإسلامية . ذلك لأننى دعوت منذ سنوات لإقامة حوار وطنى ديموقراطى يضم كافة الاتجاهات السياسية للوصول إلى حد أدنى من الإجماع حول تشخيص* المشكلات التى تواجهنا والتماس أكثر الحلول فعالية لها.

وكان يقينى أن الحوار سيكشف أن الفجوات المعلنة بين الخطابات الليبرالية والإسلامية ليست بالاتساع الذى نظنه، وخصوصاً أن عديداً من التيارات السياسية العربية قد قام أنصارها بممارسة النقد الذاتى لمنطلقاتها التقليدية.

وهكذا نتيجة للحوار - لم يعد هناك فارق كبير مزعوم بين الشورى الإسلامية والديموقراطية الغربية. فالديموقراطية - أيا كان تعريفنا لها - لابد أن تعتمد على الشورى. وليس هناك نظام ديموقراطى حقيقى ينفرد فيه الحاكم - أيا كانت كفاءته ومواهبه - بتقرير سياسات الحرب والسلم. بل لابد له أن يرجع إلى المجالس النيابية المختصة، ولابد له أن يستشير الوزارة ولابد له أن يمحص القرار، سواء كان ذلك في مجالات التنمية أو في مجالات التعامل مع الدول الأخرى، سلما كان ذلك أو حرباً.

وهكذا نرى أن مناقشة مشروع الخطاب المصرى باسم المثقفين المصريين الذى أعددته، مناسبة جيدة حقاً لإقامة حوار وطنى بين كافة الاتجاهات السياسية حول قضايا أساسية، ولعل هذا يحقق أحد المطالب التى نادى بها أحد حضور المحاضرة التى ألقيتها عن ١١ سبتمبر في المجلس المصرى للشئون الخارجية، حين تساءل كيف نجرى حواراً مع الخارج مع أننا لم نجر هذا الحوار مع الداخل أولاً ؟

ملاحظات كلية

وقد بدأت الدكتورة نادية مصطفى ملاحظاتها النقدية على مشروع الخطاب بمجموعة ملاحظات كلية. أولها أن فكرة مشروع الخطاب المصرى المقترح مطلوبة، إلا أنها كانت تأمل أن يكون البيان من مثقفى الأمة العربية والإسلامية. وهذه الملاحظة سبق للأستاذ حلمى شعراوى أن أبداها حين قرأت مشروع الخطاب على من حضروا

المحاضـــرة، فقـــد قـــرر أنه يفضل أن يصدر الخطاب باسم المثقفين العرب ولا يقتصر فقط على المثقفين المصريين.

ورغـــم وجاهة النقد، إلا أننى فضلت أن نبدأ بما نستطيع أن نفعله نحـــن كمثقفيـــن مصـــريين، لأننا لو حاولنا منذ البداية إعداد مشروع خطـــاب عـــربى لاستغرق ذلك فترة طويلة، ولا حتاج إلى اتصالات معقـــدة حتى يأتى الخطاب ممثلاً للاتجاهات المختلفة للمثقفين العرب وهى متعددة ومتناقضة في عديد من الأحيان. والملاحظة الكلية الثانية أن مشـــروع الخطاب المقترح يتسم بالإيجاز الشديد حيث يقتصر على تحديـــد المواقـــف دون الانطـــلاق مـــن مبرراتها وأسانيدها الفكرية والسياسية كما هو شأن بيان "معهد القيم الأمريكية".

والمشـــكلة هنا أننا لو أرسلنا القول في الخطاب وأصلنا كل فكرة، وأســـندنا كل قيمة إلى مرجعيتها، لتحول الخطاب إلى بحث مستفيض، ممـــا يجعل قراءته واستيعابه مسألة بالغة المشقة والصعوبة. ومن هنا تعمدنـــا الإيجاز، والتركيز على المنطلقات الأساسية التى يمكن إجماع المثقفين المصريين عليها.

وتضـــيف الدكـــتورة نادية أنها تأمل في أن تكون المناقشة النقدية العلنـــية لمشـــروع الخطاب، مقدمة لصياغة خطاب يناقش في اجتماع حاشـــد لمثقفى مصر من كافة الاتجاهات، لصياغة بيان جماعى يعبر عـــن القواســـم المشتركة بينها، والتي تمثل التيار الرئيسى حول هذه القضـــية المصـــرية، وترى أن اللحظة الراهنة بطبيعتها أفرزت هذا التيار الرئيسى، ومن ثم لابد من إبرازه وتجسيده.

ونحـــن نوافـــق علـــى هـــذا الـــرأى الصائب، ونرجو فى نهاية المناقشات، أن نعيد صياغة مشروع الخطاب ليعرض فى اجتماع كبير ينظمه المجلس المصرى لشئون الخارجية صاحب المبادرة فى دعوتى للمحاضرة وصياغة مشروع الخطاب.

ملاحظات جزئية

وهـــناك ملاحظات جزئية عديدة لا أعتقد أننى سأختلف بصددها كثـــيراً مع صاحبة الرسالة. وأولى هذه الملاحظات أنها ترى أن أبرز حقـــوق الإنســـان ليس هو الحق فى الحياة الآمنة، كما يقرر مشروع الخطـــاب ولكـــن فى العدالة، فالعدالة هى التى تحقق للجميع الحق فى

الحياة الآمنة. واعتقد أن ترتيب الأولويات فى مجال حقوق الإنسان له أهمية، وإن كنت مازلت عند رأيى فى أن الحق الذى يسبق كافة الحقوق هو الحق فى الحياة الآمنة، وهو المدخل الضرورى للحديث بعد ذلك عن العدالة.

وترى صاحبة الرسالة ضرورة الإشارة - فى مجال إدانة الإرهاب - إلى أنه يحدث فى كثير من الأحيان ليس بسبب كره القيم الأمريكية أو كره الأمة الأمريكية ولكن بسبب السياسات الظالمة والممارسات غير العادلة من جانب الولايات المتحدة ضد الشعوب العربية والإسلامية.

وردى على هذه الملاحظة هو أننا ينبغى أن نتفق أولا على إدانة الإرهاب بغض النظر عن أسبابه، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة التفرقة الواضحة بين الإرهاب والحق الشرعى للمقاومة الثابت للشعوب الواقعة فى ظل الاحتلال.

ولا اتفق مع ملاحظة صاحب الرسالة فى أنه ينبغى فى نهاية البند الرابع من مشروع الخطاب التذكرة بالفارق بين الجهاد والإرهاب، وذلك لأسباب متعددة.

وأهم هذه الأسباب أن هناك خلافات شتى بين مختلف الفرق والاتجاهات الإسلامية فى تعريف مفهوم الجهاد. وهناك فى هذا المجال اتجاهات إسلامية متطرفة غاية التطرف ولا يمكن قبولها فى أى دولة معاصرة تقوم على سيادة القانون، ولا تسمح بممارسة العنف من قبل أى جماعة مهما كانت خارج إطار سياسة الدولة. من ناحية أخرى أصبح مفهوم الجهاد الذى تستخدمه الجماعات الإسلامية الإرهابية التى صرحت - بشكل غير مباشر - عن مسئوليتها عن احداث ١١ سبتمبر، والتى ترى ضرورة الكفاح ضد "الكفار" من غير المسلمين، محل نقد شديد من دوائر عالمية شتى، ترى فى تبنيه خطورة على الأمن العالمى.

ولذلك يفضل أن يستخدم مصطلح المقاومة الذى نصت على شرعية ممارسته المواثيق الدولية فى مقابل الإرهاب المرفوض، والذى مهما كانت صعوبة تعريفه، إلا أنه يصلح - لو تبنينا له تعريفا إجرائيا- أن يقف فى قطب مضاد لقطب المقاومة المشروعة.

ولعلنا في هذا المقام ينبغي أن نوضح أن هناك أعمالا إرهابية على مستوى العالم ترتكب ليس فقط بسبب الممارسات غير العادلة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ضد الشعوب العربية والإسلامية فقط، ولكن ضد شعوب أخرى شتى. وقد أبرز ذلك الكاتب الروائي الأمريكي الشهير جور فيدال فى كتابه الصغير الهام عن أحداث ١١ سبتمبر والذى نشره بعنوان "حرب دائمة من أجل سلام دائم". فقد نشر جدولا تفصيليا بالتدخلات الأمريكية السياسية والعسكرية المباشرة وغير المباشرة فى بلاد شتى تنتمى لقارات العالم جميعا. مما يعطى جوابا على السؤال الشهير الذى ثار عقب أحداث سبتمبر الشهيرة وهو لماذا يكرهوننا؟

ومن الملاحظات الجزئية الهامة للدكتورة نادية مصطفى مطالبتها بإعادة صياغة البند ١٤ من مشروع الخطاب والذى يبدأ بعبارة "نحن المثقفين المصريين الموقعين على هذا البيان نؤمن أنه ليس هناك صراع بين الحضارات.

ذلك أنه فى رأيها أن هناك سياسات غربية وأمريكية بصفة خاصة تبين صراعا بين الحضارات.

وأنا اختلف مع هذا الرأى. ذلك أن الاتجاه المحافظ والرجعى والذى تتبناه حكومة الرئيس بوش لا تعبر بالضرورة عن صراع بين "الحضارة الأمريكية" و"الحضارة العربية الإسلامية"، بقدر ما هو تعبير عن مصالح الممثلين للمجتمع العسكرى الصناعى الأمريكى وهو المصطلح الذى أطلقه الرئيس أيزنهاود نفسه عن التحالف الطبقى لأصحاب المصالح الرأسمالية الأمريكية. ولذلك لا يجوز أن نعتبر الصياغات الإيديولوجية لنظرية صراع الحضارات التى صاغها صمويل هنتنتجون لتبرر السياسات التدخلية الأمريكية تقريراً لحقيقة موضوعية تشير إلى صراع حقيقى بين الحضارة الغربية وباقى العالم بحسب تعبيراته.

وفى النهاية تختم الدكتورة نادية مصطفى ملاحظاتها الهامة بالتساؤل هل الأمم المتحدة هى السبيل الوحيد لحوار الحضارات؟ وفى رأيى أنها ليست السبيل الوحيد ولكنه السبيل الأكثر فعالية، لأنها الجهة

الوحيدة فى العالم المخولة بحسب قواعد القانون الدولى، لوضع أسس نظام عالمى جديد ملزم لكافة الدول أعضاء الأمم المتحدة.

وتتساءل ألم يعد أمامنا إلا حوار الحضارات؟

وأجيب لا. أمامنا مهام قد تسبق حوار الحضارات ذاته، وأخطرها جميعا أن نمارس النقد الذاتى، وأن نصلح أحوال المجتمعات الإسلامية والعربـية الـتى تسـودها ظاهـرة الاستبداد السياسى وانعدام العدالة الاجتماعـية. هـذا هو الطريق الذى لا طريق غيره "لتحسين" صورة المسـلمين والعـرب حسـب التعبـيرات السائدة، ليس بالكلام ولكن بالفعل!

[٨]

أصوات متعددة

تعـــددت التعلـــيقات على مشروع الخطاب الذى أعددته والمقترح توجـــيهه باســـم المثقفيـــن المصريين إلى المثقفين الأمريكيين ومثقفى العالم. وهذه التعليقات تتفاوت فى رؤيتها لفكرة الحوار، وتختلف حول النقاط الأساسية التى ينبغى أن يشملها الخطاب.

فـــيما يـــتعلق بفكـــرة الحوار ذاتها ومنطلقاتها أرسل لى الصديق الدكـــتور محمـــد عامر أستاذ الرياضة والمنطق الرمزى بكلية العلوم بجامعة القاهرة رسالة تتضمن رفضا مطلقا للمنطلقات التى صدر عنها مشـــروع الخطـــاب. يقول الدكتور عامر وأنا أسوق عباراته بالكامل: "تلبية للأمل الذى أعربتم عنه فى أهرام الخميس ٢٠٠٢/٦/٢٠، أرجو أن تأذنوا لى بالآتى:

أ – جاء فى الفقرة (٢) من مشروع الخطاب "ونحن ... نؤكد من البداية إدانتنا المطلقة للأعمال الإرهابية ... فى ١١ سبتمبر ... ".

لماذا البداية من ١١ سبتمبر ٢٠٠١م؟ هل ما حدث فى ذلك اليوم فى نيويورك وواشنطن أبشع مما حدث فى هيروشيما (١٩٤٥/٨/٦م) ثـــم نجـــازاكى (١٩٤٥/٨/٩م)؟ .. ومـــاذا عمـــا حدث فى شيلى فى (١١ ؟) سبتمبر ١٩٧٣؟ ... وقبل كل هذا ماذا عن إبادة الهنود الحمر واغتصاب وطنهم؟

إنهـــم يتحدثون عن الجرائم ضد الإنسانية التى لا تسقط بالتقادم. فلماذا إسقاط هذه الجرائم؟ أم أنها لم تكن جرائم أصلا؟

ب – جـــاء فى الفقرة (٩) "كما أن ترك العنان للدولة الإسرائيلية ... يحمل فى طياته مخاطر بالغة ...".

- لماذا الحديث عن العرض دون المرض؟ أليست إقامة إسرائيل ذاتها جريمة ضد الإنسانية؟ أليس ما يجرى فى فلسطين منذ إصدار وعد بلفور، ثم تبنى عصبة الأمم له فى صك انتدابها بريطانيا على فلسطين، ثم إهدار الجمعية العامة للأمم المتحدة حقوق الشعب الفلسطينى بإصدار قرار تقسيم فلسطين، ثم إعلان "دولة" إسرائيل، أليس كل هذا عملا إرهابيا وحشيا متصلا؟

ج - إن الحوار الذى يتحاشى جواهر الأمور ويكتفى بحواشيها، محكوم عليه بالفشل قبل أن يبدأ".

والدكتور محمد عامر بهذه الملاحظات النقدية يميل فى الواقع - وإن لم يصرح بذلك - إلى الصياغة التقليدية فى الفكر القومى العربى من أن الصراع العربى الإسرائيلى هو صراع وجود وليس صراع حدود. وقد أصدر مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت وثيقة هامة عن استراتيجية التعامل مع المشروع الصهيونى هى ترجمة دقيقة لهذا التوجه.

وفى تقديرنا أن هذا التوجه لا ينطلق من تحليل دقيق لموازين القوة الدولية من ناحية، ولوضع النظام الإقليمى العربى من ناحية أخرى فيما يتعلق بجوانب القوة الشاملة للدولة. وهذه القوة ليست - كما قد يتبادر إلى الأذهان - القوة العسكرية فقط، بل قد تسبقها القوة العلمية والتكنولوجية والقوة المعرفية لأن العالم يتجه الآن للانتقال من مجتمعات المعلومات إلى مجتمعات المعرفة.

ومن ثم يمكن القول أن النتيجة القاطعة التى خلص إليها الدكتور محمد عامر والتى مفادها، أن الحوار الذى يتحاشى جواهر الأمور ويكتفى بحواشيها، محكوم عليه بالفشل قبل أن يبدأ، فيها مبالغة شديدة، لأنها تنطلق من مبدأ الكل أو لا شئ! بمعنى إما أن نطرح فى الحوار عدم شرعية الدولة الإسرائيلية من الأساس، أو لا داعى للحوار.

توسيع دائرة الحوار

وعلى خلاف الرأى السابق هناك رسائل وصلتنى تدعو إلى توسيع دائرة الحوار، وتقدم فى سبيل ذلك مقترحات إيجابية جديرة بالتأمل.

ومــن أبــرز هذه الرسائل الرسالة التى أرسلها الصديق المهندس نبــيل صـــمويل أباديــر المدير العام للهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية والتى تقوم بدور بارز في تنشيط الحوار الوطنى فى مصر بكل أبعاده.

وفيما يلى رسالة المهندس أبادير:

"تحية خالصة لسيادتكم وللمبادرات المتميزة التى تطرحونها دائماً، وبخاصة لمشروع الخطاب المصرى الموجه إلى المثقفين الأمريكيين، واحد من هذه المبادرات الهامة التى أود أن أشارك بالتعليق عليها:

أولاً: أؤيــد سيادتكم فى بدء عملية فتح حوار مباشر مع المثقفين الأمريكييــن، وقــد أصــبح ذلــك ضرورة ملحة تقتضيها الظروف والأوضاع التى يمر بها عالمنا وبخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر الماضى. هذا إلى جانب تفعيل عطاء ثقافتنا العربية والإسلامية فى هذا المحيط الدولى الذى نعيش فيه، مع بداية هذا القرن الجديد.

ثانياً: بدأت سيادتكم بتوجيه هذا الخطاب إلى المثقفين الأمريكيين، وانتهيــت بدعوتهم مع مثقفى العالم ومفكريه، للتوجه إلى الأمين العام للأمم المتحدة لعقد حوار حضارى واسع، وهى دعوة تهدف إلى توسيع دائــرة الحوار، إلى ما هو أوسع من مجرد حوار مصرى أمريكى، أو إســلامى غربى، ليكون حواراً دولياً، وهو ما يجب أن نسعى إليه فى عملية بناء حضارة دولية جديدة تلتزم بقيم الحوار والإنسانية والعدالة. ولا تعتمد على استقطاب نفوذ بعض أطراف هذا الحوار.

ثالــثاً: وإن كنت أرى ضرورة فتح هذا الباب من الحوار الدولى، وتحت غطاء الأمم المتحدة، فإننى أرى أيضاً ضرورة فتح باب الحوار أيضـــاً مـــع المثقفيـــن الأمريكييـــن، لتبادل الرأى، ووجهات النظر، وتصـــحيح المفاهيم التى قد تكون فى معظم الأحيان مغلوطة، لأسباب عديدة، من بينها عدم المعرفة الدقيقة أو التحيز، أو التعصب الشديد.

كمـــا أنـــنى أرى أن تعضـــيد هـــؤلاء المثقفين الأمريكيين الذى يعارضـــون الحرب بشجاعة أدبية بارزة – كما ذكرتم سيادتكم – لهو من التوجهات الهامة التى يجب أن نتبناها كمثقفين مصريين، حيث أننا نفهـــم المجتمع الأمريكى باعتباره مجتمعاً ديناميكياً أن فرص التفاعل بين أطراف المجتمع، واسعة جداً، لذا يجب علينا أن نؤثر فيه، ويكون

لـنا دور فى توجيه حركة هذا المجتمع المفتوح (الشعب بكل منظماته المدنـية ولـيس الحكومة فحسب) نحو القيم الدولية، فى إحلال السلام والعدالة لجميع الشعوب، بدون تحيز أو تفرقة.

رابعـاً: أتفـق مع سيادتكم بأن على المجتمع الأمريكى - حكومة وشـعباً - أن يراجع سياساته فى إعلان الحرب ضد كل من يخالفه، رغم أننا - كما ذكرتم سيادتكم - لا نتفق ولا نرضى تماماً عما حدث للمجتمع الأمريكى وللعالم، فى الحادى عشر من سبتمبر الماضى.

واعتقد أن الدعوة للحوار الدولى، الذى تقترحونه سيادتكم سيكون، لهـا أثـر كبير على توجهات سياسة الحكومة الأمريكية، على المدى البعيد.

خامسـاً: أتفـق مع سيادتكم فيما ورد فى باقى مشروع الخطاب الموجه إلى المثقفين الأمريكيين.

سادسـاً: أقـترح علـى سيادتكم بعد الوصول إلى صياغة نهائية للخطـاب المصرى الموجه إلى المثقفين الأمريكيين، البدء فى توجيهه مباشـرة، عـبر قنوات الاتصال المتاحة، وربما بعقد لقاءات حوارية مباشرة، باستخدام التقنيات الحديثة، عبر المسافات والأزمنة لتبدأ عملية تاريخية للحوار، تعاون على تشكيل ثقافة دولية جديدة".

وفـى تقديرى أن المقترحات التى طرحها المهندس نبيل صمويل أبادير وجيهة. ولعل أبرزها ضرورة تعضيد المثقفين الأمريكيين الذين يعارضـون الحرب بشجاعة أدبية بارزة، بالإضافة إلى تأكيده إلى أنه مع أهمية الحوار الدولى الذى اقترح أن يجرى بإشراف الأمم المتحدة ينـبغى فـتح باب الحوار أيضا مع المثقفين الأمريكيين لتبادل الرأى ووجهات النظر.

ووصـلتنى رسالة أخرى من الدكتور محمد الشبينى نائب رئيس المـنظمة العالمـية للتربية وإعداد المربين للشرق الأوسط، وهو بعد القـراءة المتأنـية والعمـيقة لمشروع الخطاب المصرى الموجه من المثقفين الأمريكيين يقترح إضافة ثلاثة نقاط وهى:

- "وقـد تتبعـنا بقلـق شديد قانون الحظر الأمريكى الذى صدر مؤخـراً بمـنع مواطـنى بعض الدول العربية والإسلامية للالتحاق بالجامعـات والمعاهد الأمريكية بحجة أن تلك الدول راعية للإرهاب

دون حقـــائق ثابـــتة. ومثل هذا الحظر على الثقافة والتعليم بين الدول يمـــثل انتهاكا صارخا لمبادئ منظمة اليونسكو الدولية التى تنص على ضرورة التعاون الثقافى والعلمى بين الدول لصالح البشرية.

- "كمـــا نراقب بأسف القيود والمضايقات التى تفرضها الأجهزة الأمريكـــية على الطلاب العرب الذين يدرسون فى الجامعات والمعاهد الأمريكـــية، وعـــزوف بعضها عن قبولهم. هذا بالإضافة إلى العداء السافر والاستفزازات التى يتعرضون لها أثناء دراساتهم بما فيه التمييز العنصرى.

- "ونحـــن ندعو المثقفين الأمريكيين، منعاً لصراع قد يدور بين الـــثقافات، إلـــى التأكيد على ضرورة الالتزام "بالتعددية الثقافية" بين الشـــعوب، ونبذ فكرة فرض "ثقافة أحادية" غربية تحت ستار العولمة، الغرض منها السيطرة على الثقافات الأخرى ومحو هويتها.

وهـــذه الإضـــافات المقـــترحة نراها وجيهة ومن شأنها أن تثرى موضوع الخطاب.

وفى نهاية هذا العرض للأصوات المتعددة التى صدرت ردا على مشـــروع الخطاب أشير إلى مضمون خطاب السيدة رضا محمد البيه ليســـانس آداب وتربـــية، وهـــى تـــرى ضرورة التنسيق مع الإخوة الســـعوديين الذين سبقونا فى الرد على خطاب الأمريكيين حتى نحقق تعاونـــا بيـــن مثقفى ومفكرى العالم الإسلامى. وترى ضرورة بحث أســـباب الإرهـــاب علـــى المســـتوى العالمى لمعرفة دوافعه وتحديد السياسات التى ينبغى أن توضع لمواجهته. وتشير إلى خطورة وسائل الإعلام فى تزييف الوعى لدى الشعوب.

لـــم تكـــن هذه فقط هل كل الأصوات التى عبرت عن ملاحظاتها الـــنقدية إزاء مشروع الخطاب، ولكن هناك أصوات أخرى، أرجو أن نلتقى معها فى مرات مقبلة.

[٩]

نقد ثقافى للسياسات الأمريكية

لـــم يقـــنع بعـــض القراء الكرام الذين اهتموا بإرسال ملاحظاتهم النقدية على مشروع خطاب المثقفين الذى اقترحنا توجيهه إلى المثقفين الأمريكييـــن بالتعلـــيق علـــى فكرة الحوار أو على مضمون الخطاب المقـــترح، ولكـــنهم تجـــاوزوا ذلك لكى يقوموا بنقد عميق للسياسات الأمريكـــية، وهـــذا النقد يتخذ صورة النقد السياسى المباشر كما سجله الأســـتاذ محمود القيعى المدير بمنظمة اليونسكو سابقا فى باريس، أو الـــنقد الـــثقافى كما مارسه صلاح سالم الصحفى بالأهرام والذى يمثل الأصوات الشابة من بين القراء الذين علقوا على مشروع الخطاب.

ويـــبدأ الأســـتاذ القـــيعى رسالته بطرح موضوع العولمة كمدخل لمناقشته، وهذا هو نص الرسالة:

"كانـــت ظاهرة العولمة ولا تزال موضع نقاش مستفيض ومحتدم، إلا أن جوانـــبها الثقافية تتطلب دائما معالجة خاصة، الأمر الذى دعا الفرنسيين مثلا إلى طرح" الاستثناء الثقافى" أثناء محادثات الجات. ولذا فإننـــي سأتناول هنا جانبا تبدى بوضوح في الآونة الأخيرة ويتمثل في محاولة فرض قيم ثقافية علينا تصل في بعض الأحيان إلى تعمد التحكم فـــي تفكـــيرنا ومواقفـــنا وقيمنا بل وفي ردود أفعالنا. فقد انطلقت منذ ســـنوات قليلة دعوات مثل ثقافة السلام وحماية الأقليات والحوار بين الـــثقافات والحضـــارات فأيدناهـــا وشـــاركنا فـــيها، وأسهم المثقفون المصريون والعرب في نقدها وتعميقها وإثرائها، على الرغم مما تكابده المجتمعات العربية من إحساس دفين بالظلم ناتج عن ازدواجية المعايير والكـــيل بمكياليـــن. فكيف للسلام، مثلا، أن يقوم أو يدوم بدون عدل؟

وكـيف يمكـن لنا أن نغرس في عقول الناشئين وأفئدتهم مفاهيم ثقافة السـلام في وقت ترى فيه الشعوب حقوقها تنتهك وأرضها تغتصب؟ وكـيف يمكن للشباب العربي أن يهدأ ويتحاور وهو يرى الإخوة في فلسـطين يقتلون ويسامون سوء العذاب؟ إن شعوبنا لا ترى بارقة أمل عند نهاية النفق المظلم.

قائمـة المظـالم طويلـة والجـروح غائرة ولا يتسع المجال هنا لحصـرها. والأغـرب مـن ذلك أن الرئيس الأمريكي جورج بوش، مادمنا في معرض الحديث مع المثقفين الأمريكيين، يحاول في كلماته أن يـتحكم فـي ردود أفعالنا داعيا الحكومات والشعوب العربية إلى الإحجـام عن تمجيد ما أسماه "الهجمات الانتحارية"، بل وأن تندد بها وتسـتنكرها، واصفا المناضلين الفلسطينيين بالإرهابيين. وصل الأمر إذن إلـى محاولـة الـتحكم في مشاعرنا وعقائدنا. إن حقوق الإنسان الفلسطيني تنتهك كل يوم على مرأى ومسمع من العالم كله. إنها حرب تحرير وطنية يخوضها شعب مناضل انطلقت منه صرخة الحرية. هل كـان الفرنسـيون، مثلا، إرهابيين عندما حاربوا الألمان أثناء احتلال هؤلاء لأرضهم في الحرب العالمية الثانية؟ بل إن الإسرائيليين أنفسهم يتـباهون بعملياتهم "الإرهابية" التي اقترفوها ضد الأبرياء في حربهم مـن أجل إقامة إسرائيل، ويعرضون في فندق الملك داود بالقدس فيلما عـن تـاريخ إنشـاء الفندق أبرزت فيه عملية تفجير هذا الفندق عام ١٩٤٦ علـى يد العصابات الصهيونية، مما أدى إلى سقوط أكثر من تسـعين قتيلا من المدنيين الأبرياء، أكثر من نصفهم كانوا عربا. وقد تحدث مراسل .C.N.N من القدس عن هذا الفيلم أثناء رسالة بعث بها من تلك المدينة في إبريل الماضي أثناء الهجوم الإسرائيلي على الضفة الغربـية. وتساءل المراسل الأمريكي عما إذا كان من الممكن وصف تفجير الفندق بأنه عمل إرهابي أيضا راح ضحيته مدنيون أبرياء أو لم يكن ضحايا دير ياسين وصابرا وشاتيلا وجنين من المدنيين أيضاً؟

لذلـك أرجـو تضـمين مشـروع الخطاب المقترح من المثقفين المصريين إلى المثقفين الأمريكيين التأكيد على الحق في الثقافة، الحق في إبداع الثقافة والانتفاع بها، كحق من حقوق الإنسان مثل الحق في التعليم والحق في الغذاء والحق في الحياة ذاتها. يجب أن نقول للمثقفين

الأمريكيين إننا وحدنا أصحاب الحق في تحديد عناصر ثقافتنا وفي صوغ قيمنا استنادا إلى معتقداتنا وتراثنا وتاريخنا".

أما الأستاذ صلاح سالم فيقول في رسالته ما يلي:

"لقد طالعت مع قراء العربية صيغة البيان إلى المثقفين الأمريكيين والذي اقترحتموه على مثقفي مصر، وحفل بتسامح فكري، وجزالة تعبيريه تعودناهما منكم. وتفاعلاً مع دعوتكم للحوار حول هذه الصيغة، وإشباعا لرغبتي النهمة الدائمة في الحوار معكم، فإنني اقترح هنا أمرين، الأول: يخص الشكل ويتعلق بضرورة إضافة أسماء لرموز ثقافية عربية إلى قائمة الموقعين على البيان من مصر ليكون ناطقاً باسم الثقافة العربية كلها لا المصرية وحدها. إذ يصعب الفصل، حتى التسعفي، بينهما على صعيد تصورنا عن أنفسنا، أو حتى تصور الآخر عنا، وحيث النموذج الثقافي المقصود بالبيان الأمريكي "الستينى" هو العربي الإسلامي لا المصري بالذات. ويكتمل هذا الاقتراح الشكلى بإضافة المثقفين الأوروبيين كطرف مقصود للبيان "العربي" على طريق الحوار تحقيقا لميزة عملية مهمة، إذ أن العقل الأوروبي بما يتلاطم داخله من تيارات فكرية مختلفة المشارب مثالية ووضعية وإنسانية ولكنها عميقة الجذور، يبقى هو الأقدر على إدراك وتقدير الموقف العربى من العقل الأمريكي البرجماتي ذى الرؤية الاختزالية للتاريخ والتي لا تتحسب لعقده وهواجسه الذى يستطيع العقل الأوروبي تقديرها لطول عهده في التعامل معها. فأوروبا تبدو كحكمة الغرب، بقدر ما أن أمريكا هي حيويته.

وأما الثاني فموضوعي، ويتعلق بأهمية تضمين البيان لصيغ تحذيريه بجانب الصيغ التبشيرية المطلوبة والذى حفل بها فعلا لتمثل نوعا من التوازن معها يسهم في تحديد ضفتي المشروعية، والمصلحة للحركة الأمريكية في المستقبل. وهو توازن مطلوب يستطيع العقل الأمريكى البراجماتي تفهمه، وهنا نقترح تحذيرات ثلاث:

١ – من النزوع إلى بناء "مركزية أمريكية" مستقلة عن نزعة التمركز الغربي وليس ضدها، أى استلهام أمريكا لأسوأ ما في العقل الأوروبى، حيث الحديث المشبع بالإجلال عن الأباء المؤسسين مشيدي الدولة الأمريكية على أسس الحرية والعدل والمساواة كمبادئ سرمدية

لا تحـــيد عنها المواقف العملية إلا على سبيل الاستثناء في إطار عام ينزع إلى التوافق معها، يحل محل الفلسفة اليونانية التي اعتبرت نقطة تكـــون وانطـــلاق العقلانـــية الغربـــية في التاريخ الأوروبي الموحد والمـــتجانس. كمـــا تحـــل الولايات المتحدة كدولة قومية محل أوروبا كتجربة تاريخية ويتم التعمية بعلة الاستثناء على كل تناقضاتها مع هذه المـــبادئ الســـرمدية طـــيلة القرنين الماضيين، مثلما تم الإدعاء بنقاء الغـــرب وطهـــارة روحه في الخمس والعشرين قرنا الماضية، ومثلما صـــار الـــنموذج الأوروبي هو المثال المحتذى وإلا فالاتهام بالنقص والدونـــية، فـــإن الخطاب الأمريكي بعد ١١ سبتمبر يقيم تمركزه على قـــاعدة: من معنا ومن ضدنا كأساس للخيرية العالمية الجديدة، وهو ما لا يخفـــى على أحد كونه تكراراً لنزوعات الإمبراطوريات الكلاسيكية فـــى لحظات تسلطها على منوال "السلام الرومانى مثلاً" وهو ما يعنى أن الولايات المتحدة على مشارف نزعة عسكرة إمبراطورية مستوحاة من التاريخ التقليدى للهيمنة، وهو ما سوف يفقدها قوة النموذج الحداثى الـــذى طالما جسدته باعتبارها الحلم الأمريكى، ويثير لديها والعالم من حولها تناقضات نموذج القوة الموروث.

٢ – من الرؤية المثالية التبسيطية التى تصل فى ذروتها إلى خليط مـــن الميتافيزيقية فى مصطلحات "العدالة المطلقة" و"الحرية اللانهائية" و"الحـــرب العادلة"، ومن المانوية إذ تقسم العالم على أساس من ثنائية الخـــير والشر باعتبارها زعيمة معسكر الخير ضد "محور الشر". ذلك أن هـــذه الـــرؤية "التبسيطية" إنما تدخل علوم السياسة ومناهج التحليل الاســـتراتيجى فـــى غياهب النزعة الإطلاقية الغيبية التى يرتكز عليها عادة الأصوليون فى كل الأديان والعنصريون فى كل الأمم مما يجعل مـــن تـــرويجها باباً شيطانياً تدخل منه قوى التطرف والعنصرية بكل أشـــكالها وألوانهـــا وهـــى القـــوى التى حاولت أو إدعت أنها تسعى لمواجهتها بإطلاق هذه النزعة التبسيطية.

٣ – من وهم القدرة على التحكم فى الظواهر السياسية بصناعتها وتوظـــيفها. وهـــو وهم كبير تغذية القدرة الأمريكية الشاملة المتفوقة، ولكن يفضحه الواقع والتاريخ معاً، وخاصة فيما يتعلق بالظواهر ذات الجـــذر الـــثقافى أو الإلهـــام الدينى. ولعل خبرتها مع الإسلاميين فى

أفغانستان إبان الغزو السوفيتى، وبعده وحتى أحداث سبتمبر خير دليل. ولـذا فالنزعة إلى خلق أعداء مفتعلين "محور الشر" أو غير محددين" منظمات الإرهـاب وجماعاته" إنما يحيلهم إلى أعداء حقيقيين حسب قـاعدة التنبؤ المحقق لذاته، وهو ما يفرض عليها استلهام منهج بديل لعـلاج الظواهر لا توظيفها عبر الحوار مع أصحابها وضمنهم عالمنا العربى. الذى يبدو فى حاجة شديدة وعاجلة للحوار مع ذاته أولاً حتى يتمكـن مـن استيعابه تناقضاته الظاهرة، ويتوقف عن إفراز تيارات الـتطرف الـذى عليه أن يعترف بقدرته على إنتاجها تفوق المتوسط العـالمى إن جاز التعبير، وذلك باتجاه نموذج ثقافى وسياسى فعال فى الواقـع العـالمى يحـول دون تحوله إلى موضوع للعلاقات الدولية، ويكون بمثابة جذر إلهام وأداة تصديق لخطابه عن نفسه، ذلك الخطاب الـثقافى الإعلامـى الـذى يبقى فى النهاية محض إفصاح عن الواقع الحضـارى ومن ثم فلا صدقية له عند الآخر إلا بجاذبية وفعالية هذا الواقع نفسه".

الحق فى الثقافة والإبداع الذاتى

والواقع أن رسالتى الأستاذين القيعى وسالم تزخران بأفكار تحتاج الـى تـأمل وتعلـيق. ونقنع – لضيق المقام – بالتعليق على الفكرة الجوهـرية للقيعى وهى ضرورة تأكيد حق الشعوب فى إبداع ثقافتها. ولـيس فـى ذلـك دعوة للانغلاق، ولا صيحة ابتعاد عن نسق الثقافة العالمـية الـتى تتشـكل الآن ببطء – وإن كان بثبات – نتيجة لثورة الاتصـالات الكبرى، التى ساعدت على ممارسة حوار حضارى غير مسـبوق فـى تاريخ الإنسانية. بعبارة أخرى الحق فى الإبداع الثقافى المسـتقل لا ينـبغى أبـدا أن يصدر عن مجتمعات تصمم على تبنى الماضـى باعتـباره هو المرجعية الوحيدة. ذلك أنه لابد من ممارسة الـتفاعل الحضـارى الخـلاق برؤية مستقبلية. ومن هنا فإن التدخل الأمـريكى السـافر فى مجال فرض سياسات ثقافية معينة على الدول العربية، مرفوض رفضا مطلقا. ذلك أنه مع اعترافنا أن هناك سلبيات متعددة فى السياسات الثقافية العربية، إلا أن تعديلها ينبغى أن يكون من خلال النقد الذاتى العربى وليس إملاء من قوى خارجية .

وهــذه هى النتيجة النهائية التى خلص إليها صلاح سالم من نقده الثقافى للنزعة الإمبراطورية الأمريكية، وهو نقد صائب تماما.

ذلــك أن الواقــع الحضارى العربى بإيجابياته المتعددة ، لو تمت عملــيات التحديــث العربى بأسلوب جذرى، هى الكفيلة فعلا بتحسين صورة العرب والمسلمين. وليس هناك خطاب عربى عن الذات تكون لــه أى مصــداقية لــو كان مفارقا للواقع. وهذا الواقع – نتيجة ثورة الاتصــالات وشيوع ثقافة الصورة – هو بالفعل تحت بصر العالم كله فــى كل مكان. وهكذا يمكن القول أن الواقع من ورائكم والصورة من أمامكم ، فماذا أنتم فاعلون ؟

[١٠]

ضد الحوار مع كتاب الشمال

فى تعليقه النقدى الهام على مشروع الخطاب الذى أعددناه للحوار مع الكتاب الأمريكيين والأوروبيين، أثار الأستاذ حلمى شعراوى الكاتب والباحث المعروف ومدير مركز البحوث العربية قضية بالغة الأهمية تستحق التوقف أمامها طويلا. وهذه القضية تتمثل فى نقده لنقطة انطلاق مشروع الخطاب والجدل الذى دار بصدده على صفحات الأهرام، والتى تصور العالم وكأنه فى حالة صراع بين بعض الأفكار أو الثقافات أو المواقف. مع أن الموقف العالمى الراهن لا يسمح بقيام حوار مثمر بين مجتمعات متصارعة. ومرد ذلك إلى عنفوان القوة التى تمارسها على العالم الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القطب العالمى الأوحد.

ورسالة الأستاذ شعراوى تقدم فى الواقع فكرة متكاملة، ولذلك نؤثر أن ننشرها كاملة حتى يتاح للقارئ من بعد أن يتابع نقدنا لبعض جوانب هذه الفكرة.

الأستاذ / السيد ياسين

حول أهمية إصدار بيان المثقفين المصريين - وأظنك تقصد العرب عموماً - يتناول ما تثيره بيانات الكتاب الأمريكيين والأوربيين فى الفترة الأخيرة حول قضايا تهمنا.

وكل هذا طيب، ويحسن أن نتعرف عليه، ولكننى أشعر بمشكلة نقطة الانطلاق والتى ستنتهى بتصور العالم وكأنه فى حالة صراع بين بعض الأفكار أو الثقافات أو المواقف، وهذا ما يوحى به الجدل على صفحات الأهرام، وأظننا بحاجة لمراجعة هذه المسألة من أساسها، ذلك

أن ظـروف الحـوار المـثمر بيـن مجتمعات – ولا أقول ثقافات – متصـارعة لا تـتوفر في وضعنا هذا. فثمة نظام اجتماعى اقتصادى وثقـافى علـى الضفة الأخرى يبلغ من عنفوان القوة ما يجعله يشعر بالأبويـة علـى العالم، وتوفر له آليات العولمة المادية والثقافية هيمنة مفـرطة بدورها تغطى على كل محاولة للمراجعة فى الوقت الراهن. إذن فنحن فى حالة عدم توازن للقوى تجعل "الثقافى" و "الفكرى" مجرد أداة وليسـت واجهة التعبير عن الواقع مثلما يكون الحال فى ظروف الـتوازن بين معسكرين، أو قوتين إقليميتين أو أكثر. هكذا كان الحال نسبياً فترة وجود المعسكر الاشتراكى، أو فترة وجود أوروبا بينهما مع وجـود معسكر التحرر الوطنى وعدم الانحياز أيضاً. فى ذلك الوقت كـان للحـوار معنى على الصعيد الفكرى والثقافى، لأنه كان عنصر صياغة لكل نظام متنافس وليس مجرد متحاور.

أعنى هنا أن أى تحليل لعناصر الحوار لابد أن يرى أولاً أن نظام العـنف العـالمى الحـالى ذو قطب واحد، وأن هيمنته شملت جوانب كثيرة، منها الفكر والثقافة التى تجعل أدوار المعارضة حتى من داخله محـدودة القـيمة، أو ذات قيمة رمزية فى الحوار يمكن أن نتلهى بها أحياناً ولكنها لن تساعدنا فى مواجهة الحقائق.

والحقـائق الأساسية ليست هى "مجالات الحوار المطروحة" لأنها لابد أن تكون عن طبيعة "النظام" الذى نواجهه، كنظام شمولى عالمى، ذى طابع رأسمالى مستقطب واستبدادى. وعلى "الشعوب الأخرى" من خـارج "هـذا المركز" أن تفكر أولاً فى نظمها التى تتنوع فى أساليب المواجهة وفك الاشتباك مع مثل هذا النظام وهيمناته، ولا أقول مع كل جوانب منتجه العلمى أو الفكرى أو الثقافى. ومعنى ذلك أن ثمة حوار "جـنوبى / جـنوبى" لابـد أن يجرى أولاً، وهذا ما لم ألحظه فى أية محاولـة فى الثقافة العربية حتى الآن وآخرها اجتهادات السيد ياسين نفسـه، المقدرة. المشكلة أن الثقافة العليا الكلية أو الكبرى السائدة الآن لا تـنظر لحواراتنا إلا كأصوات قادمة من أسفل، لأننا لم نعط لأنفسنا القيمة الكافية للمواجهة. إن المنطقة العربية بالتحديد منطقة خطيرة فى موقعهـا الوسـيط بيـن الثقافات والحضارات الكبرى. وفى تاريخها صـهرت بشكل فعال ومنتج آداب وفلسفات من شرقها وجنوبها، كما

ترجمت الكثير عن شمالها. وأعجب لقائل بأصالة وسلفية ساذجة لا تعي ماذا استوعبنا من الآخر ونحن في مركز قوة، لأننا في الواقع أخذنا بأكثر مما أعطينا أحياناً لنشيد كل ما قام بيننا من مشاهد التقدم الذاتي. وفي وقت قريب من تاريخ "الدولة الوطنية" في المنطقة – ومصر خاصة – فعلنا ذلك بشكل مناسب أيضاً وشكل ذلك معنى "الحوار الضمني" دون أن نثير – إلا في لحظات الضعف فقط – قضية الحوار – بهذا الشكل.

معنى ذلك أنه كان حوار بنى سياسية اجتماعية اقتصادية حتى في لحظات المواجهة الحادة ولم يكن حوار بيانات أو مؤتمرات .. الخ أو حول قضايا ثقافية فقط. إن ما ذكره هنتنجتون وزملاؤه من كتاب السلطة في أمريكا يكشف عن وعي كامن أو معلن بمعنى "الدولة" في أمريكا نفسها أولاً، وحتى الرسائل الأمريكية أو الأوروبية تكشف عن رغبة في تحديد المواقف من قبل دول ومجتمعات ذات مسئوليات في العالم وليس مجرد الحوار، فلماذا نتجاهل هذه المعاني البنيوية، لنلجأ إلى أسلوب إصدار البيانات، وكأنه حل للأزمة، دون الانتباه للحوار العضوي الضروري أولاً بين بناءات شعوب مقهورة يمكنها مراجعة ظروفها والتداعي للانطلاق نحو وضع أفضل؟ ألا يلفت النظر مثلاً أنه رغم كل الأزمات الطاحنة بين الصينيين أو الهنود وبين الغرب لم تنشأ قضية الحوار "الفكري" بينهم بهذا الشكل؟ ولا أريد القول هنا أن حوار "القوة المتناظرة" بدرجة أو بأخرى (اقتصادياً أو نظامياً ..) كانت هي اللغة التي سادت وتكاد تستقر عليها أوضاع الحوار مع هذه البلدان حتى الآن. أليس ملفتاً أن المعسكر الاشتراكي عاش سبعين عاماً أمام المعسكر الرأسمالي يبني قواته ولم يدفع ذلك أي من طرفي "التعسكر" إلى طلب مثل هذا الحوار، بينما انطلق جورباتشيف وهو يعلن إفلاس معسكره يدعو لأكبر مؤتمر للحوار في موسكو، وعقده فعلاً ووضع أسساً للاستمرار لكنه توقف بقدر ما تواصلت عوامل الانهيار داخله؟

* * *

" ألم تلاحظ أن أصدقاءنا الطيبين (ودعك من هنتنجتون وجماعته) لم يشيروا أبداً لجذر الشر في نظامهم الاقتصادي العالمي المسمى بالليبرالية الجديدة وآلياتها كمصدر حتمي لإضطراد الشرور

والسلوك الهجومى، وذلك منذ تعاونت أمريكا مع عناصر "القاعدة" بحجه دفع الشر عن أفغانستان؟ إن هذا ما يجب أن يدرسه أصدقاؤنا أولا ليطرحوا مساءلة نظامهم فى السابق مثل ضرورة مساءلته الآن عن كيف تمت أحداث ١١ سبتمبر؟ ألا يلفت النظر أن أحدا منهم لم يعلق على غياب التحقيق، والتحقق، وعن معنى إلهاء العالم بالكثير من الأضاليل فى وقت صدور أعتى الإجراءات الفاشية والمكارثية داخل أمريكا نفسها المركز العالمي؟ أليس من حقنا أن نذكرهم وهم يتهموننا وحدنا بالإرهاب – بما فعلته نظمهم وإرهابهم فى حربين عالميتين وثالثها حرب الإرهاب الدائرة؟ أليس من واجبنا جميعاً بحث روح التدمير فى ثقافتهم مثلما نراجع روح الإرهاب أو التخلف فى ثقافتنا؟ ألا نذكر أن أقل من هذه الأوضاع سوءاً فى أسبانيا و اليونان دفعت من قبل مفكرين مثلهم للذهاب للقتال "دفاعاً عن الجمهورية فى أسبانيا وضد العسكر فى اليونان، من همنجواى لبيكاسو لأندريه جيد، وغيرهم ممن استفزتهم الفاشية والنازية، ولم يكتفوا بالحوار وقتئذ؟ ألا يشير ذلك إلى أن اكتفاءنا بهذه "اللفتات الإنسانية" من جانب بعض المثقفين، سوف يجعلنا نتوقف عند تبيض وجه النظام القهرى هناك، مثلما يجرى أحياناً تجاه بعض السلاميين فى إسرائيل، بينما المطلوب وقوفهم أمام نظامهم وليس مجرد دفعه للحوار؟ أو تشغلنا حلقات النقاش ومؤتمرات الحوار عن دفعهم لموقف أكثر جذرية إزاء حقوق شعوبنا فى فلسطين والعراق والسودان، وضد دعاوى "الشر" التى تلصق بالعديد من شعوب الجنوب التى تبنى نفسها؟

والآن أظنك، يا سيدى قد تقلقت من هذه اللغة وكأنها رفض صريح للحوار، وإنكار لدور العمل الثقافى الذى ترشح الأمم المتحدة واليونسكو أن يتعهداه! وقد دهشت أولاً من توقعك لأن تتيح الهيمنة الأمريكية فرصة لهذه الهيئات الذى استسلم "رأسها" فى نيويورك مبكراً للتوجهات الأمريكية، برفض مبدأ "السيادة الوطنية" وبدعم التدخلية، ويقف مع حملات التفتيش فى العراق بل والتفتيش العقلى بجمله المبهمة .. وأعنى خطاب السيد كوفى عنان دون مواربة. ومن هنا أبدأ برفض الجزء الأكبر فى اقتراحك عن تنظيم الأمم المتحدة للحوار. لأن

هذه الهيئة لن تستطيع أن تتجاوز سقف المثقفين هناك أمثال هنتنجتون وجماعته.

لكــن ما العمل إذن؟ لا نرفض النقاش على مستوى عالمى، لكن حول جدول أعمال مختلف، ليس هو مجرد مضمون الرسائل الأمريكية أو الأوروبية حول أوضاعنا الثقافية. فللطيب من هؤلاء الشكر والتقدير سـلفا، لكننا نريد طرح جدول أعمال نناقشه مع مفكرى آسيا وأفريقيا وأمـريكا اللاتينـية بالأسـاس، ومـع مـن يحضر من الأوروبيين والأمريكييـن وفى إطار حركة مقاومة أمركة العالم وذلك حول نقاط مثل:-

١- معايـير "العالمية" المزدوجة حول الكثير من القيم المفروضة فى جو عسكرة السياسة الدولية على النحو الذى نراه، ويتيح للولايات المـتحدة عزل الآليات الدولية عن المشاركة فى أية حلول نافعة، هنا ستبرز "لا" كبيرة لأولوية حوار ثقافى أو سياسى مع الشمال دون البدء بحوار جنوب – جنوب كما أفضل تسميته.

٢- التصـدى لنزعات العنصرية والإقصاء فى قضايا اجتماعية ومحلية بين شعوب الجنوب تحت مسميات العرقية والإثنية والطائفية. والثقافتـية إلـخ دون تسمية الأسباب الحقيقية للإفقار والتردى الثقافى والاجتماعى الصادرة عن النظام العالمى للتجارة والتنمية ومشروطية القـروض والديـون وأجندة البنك والصندوق التى تستخدم لمحاصرة إمكانيات شعوبنا.

٣- الحـوار الداخلـى حول الحقوق الجماعية للشعوب فى تقرير مصـيرها وحقوقهـا الاجتماعـية والاقتصادية والثقافية، وموازنتها الضرورية مع حقوق الإنسان المدنية، ويتضمن ذلك مناقشاتنا لأوضاع الفساد والتدهور ومسئوليتنا الذاتية عن مظاهر التخلف والجمود الثقافى بما نقدسه من مؤسسات وقيم التجميد.

٤- التفكـير فـى برامج هجوم مضاد ضد العنصرية "الشمالية" ممـثلة فـى الموقف من استنزاف العقول من أبناء الجنوب فى الوقت الـذى تـتعرض هجـرة أبنائنا "العاملين المنتجين" لكل هذه الإهانات والصد وإرهاب الدولة.

٥- التعبير عن قلقنا كمثقفين مسئولين عالمياً عن خطر الإجراءات الفاشية والمكارثية المتزايد داخل المركز العالمى للهيمنة، وتأثير ذلك على تعميق موجات الاستبداد فى بلدان ونظم دول الجنوب، وهذا ما يعادل قلقهم المستمر على "طبائع" ثقافاتنا و أوضاع مجتمعاتنا.

إننى أطالبك يا سيدى أن تطرح جدول أعمال جديد للحوار على مستوى إقليمى وعالمى، وليس مجرد الحوار وفق جدول اهتمامات الآخر ومصادر قلقه، بل قد نعاونهم عندئذ فى تطوير جدول أعمالهم بدورهم إزاء نظمهم الاستبدادية وتعاملها مع قضايانا.

وإن نصاً بهذا المعنى جدير بك أن تعاود إعداده، ليصبح مغرياً بحوار جديد،،

والرسالة تحتاج لمناقشة تفصيلية تقوم بها فى مقال قادم.

[١١]

نحو حوار عالمى مفتوح

هل ينبغى معارضة إجراء حوار ثقافى أو سياسى مع الشمال لأن الأهم هو البدء بحوار جنوب جنوب كما يدعو إلى ذلك الأستاذ حلمى شعراوى فى رسالته النقدية التى نشرنا نصها فى المقال الماضى؟ لا نعتقد بصحة هذا التوجه، لأن الحوار مع مثقفى الشمال لا ينبغى أن يتوقف أبداً سواء على الصعيد السياسى أو الثقافى، وسواء بدء حوار الجنوب الجنوب أو لم يبدأ! وهذا الحوار - عكس ما يظن الاستاذ شعراوى - لم ينقطع أبداً. وغير صحيح على وجه الإطلاق ما يذهب إليه من أن المعسكر الاشتراكى عاش سبعين عاماً أمام المعسكر الرأسمالى يبنى قواته ولم يدفع ذلك أى من طرفى "التعسكر" إلى طلب مثل هذا الحوار.

ويتجاهل شعراوى فى الواقع منتديات الحوار الرسمية وغير الرسمية التى دار فيها حوار بالغ الخصوبة بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى، وخاصة طوال حقبة الحرب الباردة.

وأحيله - كمجردٍ مثال - على اجتماعات هيئة الباجواش العالمية التى شاركت شخصياً فى عديد من اجتماعاتها، والتى كانت المنبر غير الرسمى للحوارات السوفيتية الأمريكية، والتى بناء عليها صيغت مواقف وأبرمت معاهدات، وخصوصاً فى ميادين الأمن المتبادل.

وأعترف أننى دهشت من النقد المبدئى للأستاذ شعراوى حين قرر أن مشكلة نقطة الانطلاق فى الحوار ستنتهى بتصور العالم وكأنه فى حالة صراع بين بعض الأفكار أو الثقافات أو المواقف وهذا - كما يقرر - ما يوحى به الجدل على صفحات الأهرام، ويطلب مراجعة هذه المسألة من أساسها.

ومن يستطيع أن ينكر أن الصراع على مستوى العالم هو صراع فكرى فى المقام الأول، يتخذ فى العادة شكل التنافس بين إيديولوجيات متعارضة لها توجهاتها الخاصة على مستوى السياسات الداخلية والخارجية بين الدول؟

ويكفى للتدليل على صحة هذا الرأى متابعة الصراع الفكرى العنيف بين المثقفين الماركسيين والمثقفين الرأسماليين طوال حقبة الحرب الباردة فى مجالات الفلسفة والعلوم الاجتماعية بكل فروعها كعلم السياسة وعلم الاقتصاد، والدراسات الاستراتيجية، وحتى الدراسات المستقبلية باعتبارها فرعاً علمياً ناشئاً لم يسلم من هذا الصراع، وهكذا تشكلت مدرسة ماركسية مستقبلية تقابلها مدرسة رأسمالية مستقبلية، ربما مثلتها خير تمثيل بحوث نادى روما الشهير؟

ومن هنا يمكن القول أن صياغة الأستاذ شعراوى التى تذهب إلى أن الحوار تاريخيا كان "حوار بنى سياسية اجتماعية اقتصادية حتى فى لحظات المواجهة الحادة ولم يكن حوار بيانات أو مؤتمرات" تبدو بالغة الغرابة ! فما هو هذا الحوار بين البنى السياسية الاجتماعية والاقتصادية المتعارضة؟ وهل حوار "الأبنية" يمكن أن يتم دون حوار فكرى وسياسى؟ وهل هناك حوار هكذا بين نظم اقتصادية وسياسية متعارضة بدون حوار فكرى؟ وهل هناك شئ إسمه حوار البيانات أو المؤتمرات؟

إن صدور بيان معين فى لحظة تاريخية محددة قد يعبر عن ذروة الصراع الفكرى بين معسكرين. وقد يكون بداية حركة جادة على أرض الواقع لتغيير الأوضاع السائدة التى تدافع عن بقاء الأمر الواقع على ما هو عليه.

هل هناك دور للمعارضة ؟

ومن قال أن الحوار تجاهل أن نظام العنف العالمى الحالى ذو قطب واحد وأن هيمنته شملت جوانب كثيرة منها الفكر والثقافة؟

لقد ركز خطاب المثقفين الأمريكيين المعارضين للحرب الأمريكية ضد الإرهاب على هذه الحقيقة بكل وضوح، كما أن مشروع خطاب المثقفين المصريين الذى أعددناه يركز على هذه الحقائق تركيزاً شديداً.

ولذلــك لا نتفق مع شعراوى حين يقول أن أدوار المعارضة من داخــل النظام المهيمن محدودة القيمة أو ذات قيمة رمزية. ذلك لأنه - فيما يبدو - ركز على خفوت أصوات المعارضة الأمريكية فى الوقت الراهــن، نتيجة لهيمنة الإدارة الأمريكية على الإعلام الأمريكى ونشر الوعــى الــزائف بأســبقية اعتــبارات الوطنــية الأمريكية على كل الاعتــبارات الأخــرى بما فى ذلك احترام حقوق الإنسان! ولكن هذه اللحظــة التاريخية لن تستمر هكذا إلى الأبد، لأننا نستطيع أن نلتمس تبلور الاتجاهات المعارضة للسياسة الأمريكية داخل المجتمع الأمريكى ذاتــه. ولعل أصدق دليل على ذلك المناقشات الجادة داخل الكونجرس الأمــريكى وفى دوائر الرأى العام حول صحة منطلقات الرئيس بوش وأركــان إدارتــه فى حربه الموعودة ضد العراق، بما فى ذلك تغيير نظامــه السياســى بالقوة، مع ما فى ذلك من تعارض واضح مع قيم الديموقراطية الأمريكية المزعومة !

وإذا أردنــا أن نضرب مثلاً تاريخياً حول جدل التاريخ فيما يتعلق بــنمو المعارضة لمواقف الحكومات إلى أن تصبح تياراً جارفاً يكتسح أمامــه السياســات المنحرفة، فلدينا مثل المعارضة الأمريكية لحرب فيتــنام، والــتى بــدأت فى حرم الجامعات الأمريكية على يد الشباب الجامعى الأمريكى، إلى أن تحولت إلى تيار جماهيرى عاصف، أجبر الإدارة الأمريكــية علــى توقــيع اتفــاق سلام مع فيتنام بعد هزيمتها العسكرية الساحقة.

وفــى ضوء ذلك لا ينبغى أن نقلل أبداً من فاعلية تيار المعارضة الأمريكى الذى يقوده المؤرخ الراديكالى هوارد زين والروائى الشهير جــور فــيدال، بالإضــافة إلى تيار المعارضة الأوربى، والذى بدأت صــياغاته الفكــرية النقدية للسياسة الأمريكية تتوالى، والتى تبرز فى مقدمــتها كتاب آلان جوكس " إمبراطورية الفوضى" والذى صدر منذ شهرين فقط فى باريس.

الحوار الجنوبى الجنوبى

وهــناك ولاشك أهمية كبرى لقيام حوار جنوبى جنوبى كما يدعو شعراوى، ولكنه لا ينبغى أن نوقف الحوار مع الشمال - كما يدعو -

إلى أن يتم هذا الحوار الجنوبى الجنوبى والذى قد لا يتم أصلاً، نظراً لتشرذم مواقف دول الجنوب، وتنوع تحالفاتها مع دول الشمال ! فهناك دول من الجنوب تابعة تماماً لدول الشمال، وهناك دول تحاول فى عالم يمـوج بالصراعات أن تأخذ مواقف مستقلة عن دول الشمال، وهناك – أخـيراً – دول تحـاول أن تلعب على الحبال وتعيد إنتاج مناورات التوازن التى كانت سائدة فى عنصر الحرب الباردة، حين سمح وجود معسكرين متنافسين لمثل هذه الدول أن تحاول الاستفادة من التناقضات القائمة بينهما.

ولا يقـدح ذلـك فـى أهمية الحوار الجنوبى الجنوبى الذى يؤكد شعراوى أنه لم يجر فى أية محاولة فى الثقافة العربية حتى الآن.

وأعتقد أن هذا التعميم فيه ظلم شديد لحوارات جنوبية جنوبية تمت بالفعل فى إطار الثقافة العربية من خلال منابر شتى. وفى تقديرى أن الحوار الجنوبى الجنوبى ينبغى أن يبدأ أولاً بالنقد الذاتى، وهذا ما ركز علـيه شعراوى بحق. وفى هذا المجـال هناك مؤشرات إيجابية على أن موجـات الـنقد الذاتـى العـربى بدأت تتعمق فى مجال الأحزاب والتيارات السياسية والفكرية العربية. كما أن عدداً من المثقفين العرب مارسـوا النقد الذاتى لثقافتهم من خلال نشر كتب ودراسات أصيلة فى هـذا المجـال. وقد نشير – كمجرد مثل – إلى كتاب عالم الاجتماع الكويـتي المعروف خلدون النقيب " آراء فى فقه التخلف " الذى صدر مؤخـراً عـن دار الساقى. كما أن مركز دراسات الوحدة العربية فى بـيروت نشر فى إصداراته الثرية عديداً من دراسات النقد الذاتى. وقد أتـيح لـى فى كتابى " المعلومات وحضارة العولمة" الصادر عن دار نهضـة مصـر عـام ٢٠٠٢ أن أنشر دراسة موسعة فى النقد الذاتى بعنوان " العرب على مشارف الألفية الثالثة".

النقد الذاتى مجرد مقدمة ضرورية للحوار الجنوبى الجنوبى، ولكن مـا أزعمه أن هذا الحوار مورس بالفعل فى منتديات متنوعة. وحتى أضـرب مجرد مثل لذلك أشير إلى أعمال المؤتمر الهام الذى نظمته منظمة التضامن الآسيوى الأفريقي، وهو بعنوان "صراع حضارات أم تفاعل ثقافات" وهو يتضمن حواراً جنوبياً جنوبياً خصباً.

ويبقى أخيراً رفض شعراوى لأن تكون الأمم المتحدة هى الهيئة المشرفة على الحوار العالمى الذى ندعو إليه إلى أساس أن الهيمنة الأمريكية سيطرت عليها.

وهل هذا مبرر لتجاهل دورها الأساسى فى صياغة نظام عالمى جديد يقوم على الحرية والعدالة؟ وهل وضعها الراهن منع الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإيرانية الإسلامية من الاستخدام الفعال لمنبر الجمعية العامة للأمم المتحدة لكى يطلق دعوته لحوار الحضارات، والتى لقيت موافقة إجماعية من الدول ترتب عليها صدور قرار من الأمم المتحدة أن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات، مما كان له أثر بالغ على رفض مقولات صراع الحضارات وذلك قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟

وأشير بهذا الصدد إلى الأهمية الكبرى للتقرير الذى أمر كوفى آنان بإعداده عن حوار الحضارات، والذى صاغته لجنة من حكماء العالم وصدر بعد ١١ سبتمبر وعنوانه "الخط الفاصل"، وهو يوجه نقداً شديداً للنظام العالمى الراهن ودعوة جهيرة لتغييره، بل ورسم معالم نظام عالمى جديد أكثر حرية وعدالة.

ولا نختلف إطلاقاً مع شعراوى حول أهمية جدول أعمال الحوار الجنوبى الجنوبى الذى يقترحه، ولكن هذا - فى تقديرنا - لا ينبغى أبداً أن يؤجل حوارنا الضرورى والتاريخى مع مثقفى الشمال.

بهذه المناقشة نكون قد ختمنا حوارنا النقدى مع القراء الكرام الذين اهتموا بصياغة ملاحظاتهم حول مشروع خطاب المثقفين المصريين الذين أعددناه لكى يوجه إلى المثقفين الأمريكيين ومثقفى العالم، من أجل فتح حوار عالمى ضرورى بين مختلف الثقافات المعاصرة وممثليها المعتبرين. وهذا الحوار كان ضرورياً بعد نهاية الحرب الباردة حوالى عام ١٩٩٠، وهو اليوم أصبح أكثر إلحاحا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، والتى أعقبتها مباشرة سياسات أمريكية تجاه العرب والمسلمين بل والعالم كله لا تعبر إلا عن غطرسة القوة.

ومن هنا أصبح الحوار لازماً لمواجهة السياسات الخطرة لإمبراطورية الفوضى !

القسم الخامس

سبتمبر وإعلان الإمبراطورية الأمريكية

[١]

ليس باسم الشعب الأمريكى

هل تعبر النزعة الإمبراطورية الأمريكية الراهنة بما تتضمنه من توجهات عدوانية وعسكرية متطرفة، وتجاهل لمصالح كل دول العالم، لا فرق بين الحلفاء وغيرهم من الدول عن آراء الشعب الأمريكى، ومن شأنها أن تحقق مصالحه؟

لقد ظهرت الإدارة الأمريكية قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر باعتبارها القوة العالمية الوحيدة، التى تريد ليس فقط تحقيق المصالح الأمريكية كما تراها ولكن أن تفرض قانونها على كل البشر!

وإذا تتبعنا الجدل الدائر فى الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام حول غزو العراق وتغيير نظامه السياسى بالقوة المسلحة، وذلك بين الإدارة الأمريكية والكونجرس، وفى صفوف المثقفين الأمريكيين المعارضين للحرب ضد الإرهاب ولغزو العراق، لأدركنا أن هذه السياسة الأمريكية العدوانية والمخالفة لقواعد الشرعية الدولية لا تعبر عن اتجاهات الشعب الأمريكى ولا تحقق مصالحه فى الآجل المتوسط والطويل.

ليس باسمنا !

وهكذا يمكن القول أن الحرب ضد الإرهاب التى يشنها الرئيس بوش بعد الحادى عشر من سبتمبر وتوابعها الخطيرة التى تتمثل فى الخطة المعلنة لغزو العراق لا تعبر عن اتجاهات وإرادة الشعب الأمريكى، والتى اعتقلتها الإدارة الأمريكية فى سجن الإعلام المزيف

الـــذى يركز تركيزاً مرضياً على اعتبارات " الوطنية " الأمريكية التى تسبق احترام حقوق الإنسان !

وإذا كنا قد عرضنا من قبل لخطاب المثقفين الأمريكيين المبررين " للحـــرب العادلة" التى شنتها أمريكا والذى وقع عليه أكثر من ستين مـــثقفاً وأكاديمـــياً أمريكياً من مثقفى السلطة، فقد حللنا من بعد خطاب المثقفيـــن الأمريكييـــن المعارضين للحرب والذى وقع عليه أكثر من ١٢٠ أكاديمياً أمريكياً بارزاً .

كـــان خطـــاب المثقفين الأمريكيين المعارضين بعنوان "خطاب لأصدقائنا الأوروبيين"، يدعون فيه المثقفين الأوروبيين إلى الانضمام إليهم وتكوين حلف ثقافى ضد السياسات الأمريكية.

وســـرعان ما استجاب لذلك أكثر من مائة أكاديمى ومثقف ألمانى ونشروا خطاباً بعنوان "عالم العدالة والسلام سوف يكون مختلفاً" وذلك فـــى صحيفة "فرانكفورت ألجمن" اليومية بتاريخ ٢ مايو عام ٢٠٠٢. (راجع ترجمة هذه الوثيقة الهامة فى كتاب وثائق حول أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها، الذى أصدرته أكاديمية الفنون) .

وكـــنا فى الواقع بصدد تحليل هذه الوثيقة الهامة، غير أن جريدة "الحياة" نشرت خطاباً جديداً بالغ الأهمية وقعه أكثر من ٢٠٠٠ مثقف أمـــريكى باعتـــباره بياناً بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لأحداث ١١ سبتمبر، أبرزوا فيه معارضتهم للسياسة التى طبقتها بلادهم عقب تلك الأحداث، وتقسيمها العالم "معنا وضدنا" وفرزه إلى محاور شر وخير.

وقـــد وقـــع علـــى البـــيان نخبة من أبرز المثقفين والأكاديميين والمناضلين الأمريكيين الذين ينتمون إلى اليهودية والمسيحية والإسلام، وتضم الأسماء عرباً وغيرهم.

ومـــن أبـــرز الأســـماء التى وقعت البيان المفكر الشهير وأستاذ اللغويـــات المـــرموق نعوم شوســـكى، والناقد الأدبى البارز فردريك جيمســـون، وادوارد ســـعيد، ودافـــيد هـــارفى أستاذ الأنثروبولوجيا المعـــروف، والمحامى عابدين جباره الرئيس السابق للجنة الأمريكية المناهضـــة للتمييز، ومارتن لوثر كنج الثالث، والحاخام مايكل لرنر، والكاهـــن راندال أوسيرن وعالمة الاجتماع المرموقة ساسكيا ساسينى

والكاهــن جورج ويبر الرئيس الفخرى للمعهد اللاهوتى فى نيويورك، وديفيد كول إستاذ القانون.

ونظــراً للأهمــية البالغة للبيان، واثباتا لتصاعد حركة المعارضة للسياســات الأمريكــية داخل المجتمع الأمريكى والتى أكدناها من قبل أكثر من مرة، بالرغم من تشكك بعض الكتاب المصريين فى فاعليتها وجدواهــا، فإنــنا نعيد نشر نص البيان الذى ترجمته ونشرته جريدة الحياة فى عدد ٣٠ أغسطس ٢٠٠٢.

البيان

" كــى لا يقال أن الشعب فى الولايات المتحدة الأمريكية لم يفعل شــيئاً حيــن أعلنت حكومته حرباً لا حدود لها وأسست لمبادئ قمعية متصــلبة جديدة، نحن الموقعين والموقعات أدناه، ندعو شعب الولايات المــتحدة الأمريكية إلى مقاومة السياسات والتوجهات السياسية العامة الــتى انبثقــت غداة الحادى عشر من ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١، والتى تشكل مخاطر جدية تهدد شعوب العالم أجمعين.

إذ نؤمن بأن الشعوب والدول تملك حق تقرير مصائرها، حرة من القــيود العســكرية الــتى تفرضها القوى العظمى، كما نؤمن بأن كل الأشــخاص الذين إما اعتقلتهم الحكومة الأمريكية أو حاكمتهم، لابد أن يتمــتعوا بــالحقوق عيــنها الــتى تنص عليها الأعراف والإجراءات المتعارف عليها.

ونحن نؤمن أيضاً بأنه لابد من تثمين التساؤل والنقد والمعارضة وحمايــتها، إذ أننا نعى أن حقوقاً وقيماً كهذه تكون دوماً موضع نقاش ولابد من النضال من أجلها.

إنــنا نؤمــن بأنه يجب على أصحاب الضمائر (ذكوراً وإناثاً) أن يتحملوا مسئولية ما تفعله حكوماتهم، فيجب علينا أولاً معارضة الظلم الــذى يرتكب باسمنا. لذا، ندعو كل الأمريكيين والأمريكيات لمقاومة الحــرب والقمــع اللذين فرضاً على العالم أجمع من قبل إدارة بوش، كونهمــا عمــل ظالم، لا أخلاقى وغير شرعى. وقد اخترنا مناصرة شعوب العالم أجمعين. نحن أيضاً، شاهدنا مصدومين أحداث ١١ ايلول

٢٠٠١، المرعبة. نحن أيضاً فجعنا بمقتل آلاف الأبرياء وذعرنا من مشاهدة المجزرة الفظيعة ، حتى عندما استعدنا ذكرى مشاهد مماثلة في كل من بغداد، وينما وقبلهما فيتنام. ولا يسعنا إلا أن نضم صوتنا إلى صوت ملايين الأمريكيين الذين تساءلوا قلقين لماذا هكذا شئ حدث.

إلا أن الحداد ما كان بالكاد يبدأ حتى أطلق قادة الأرض الأهم، العنان لروح الثأر. وضعوا سيناريو مفرطاً فى التبسيط عن "الخير مقابل الشر" والذى تم تناوله من قبل وسائل إعلام طيعة وخائفة فى آن. فقالوا لنا أن التساؤل عن سبب حدوث هذه الكارثة يقارب الخيانة. لم يعد هناك أى حيز لأى جدل. لم يعد هناك أى أسئلة سياسية أو أخلاقية شرعية. وأمسى الجواب الوحيد المحتمل هو الحرب فى الخارج والقمع فى الداخل. ولم تكتف إدارة بوش، بشبه إجماع من الكونغرس، وباسمنا، بمهاجمة أفغانستان، بل انتزعت عنوة، لنفسها ولحلفائها، الحق فى أن تغدق فى إرسال قوات عسكرية لأى مكان وفى أى زمان. وقد طاولت النتائج الوخيمة لذلك الفيليبين وصولاً إلى فلسطين، حيث خلفت الدبابات والجرافات الإسرائيلية وراءها الموت والخراب الهائل. وتتحضر الحكومة الآن علناً لشن حرب شاملة ضد العراق وهو بلد لا تربطه صلة بأحداث ١١ ايلول المرعبة. أى عالم سيصبح عالمنا إذا باتت الحكومة الأمريكية حرة طليقة ترسل فرق الكوماندوس والمجرمين والقنابل حيثما تشاء؟

باسمنا، وداخل الولايات المتحدة، أنشأت الحكومة شريحتين من الناس: أولئك الموعودون بالحقوق الأساسية ضمن النظام القانونى الأمريكى كحد أدنى، وأولئك الذين يفتقرون تماماً إلى أى حق. فقد جمعت الحكومة ما يزيد على الألف مهاجر واحتجزتهم بالسر حتى أجل غير مسمى. كما تم ترحيل المئات، فى حين ما زال يذوى مئات آخرون فى السجن، مما يعيد للذاكرة الذكرى الأليمة لمخيمات الاعتقال للأمريكيين اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية. وللمرة الأولى منذ عقود، أشارت إجراءات الهجرة إلى بعض الجنسيات بهدف التمييز فى المعاملة.

باسمنا، نشرت الحكومة فوق المجتمع حجاباً قاتماً من القمع. وقد أنذر الناطق الرسمى باسم الرئيس الناس " للانتباه إلى ما يتفوهون به". لـذا يجـد الفنانون والمثقفون والأساتذة المعارضون وجهات نظرهم عرضـة للـتحريف والتشويه والهجوم والقمع. فما يعرف بالمرسوم الوطنى – إضافة إلى عدد من الإجراءات المماثلة على صعيد الولاية – يمـنح الشـرطة سلطات كاسحة فى ما يخص التفتيش والاعتقال، بإشـراف، عـندما يلزم ذلك، دعاوى قضائية سرية ترفع فى محاكم سرية.

باسـمنا، ثابـرت السـلطة التنفيذية على اغتصاب أدوار الدوائر الحكومـية ووظائفهـا الأخرى. وقد أنشئت محاكم عسكرية لا تتطلب براهيـن صـارمة وتفـتقر إلى حق الاستئناف، وذلك بواسطة أوامر إجرائية. ويتم الإعلان عن مجموعات "إرهابية" بجرة قلم رئاسى.

لابـد لنا أن نأخذ ضباط الأرض ذوي الرتب الأعلى على محمل الجد، عندما يتكلمون عن حرب ستدوم جيلاً وعندما يتحدثون عن نظام محلـى جديـد. إننا فى صدد مواجهة سياسة خارجية إمبريالية علنية جديد، وسياسة محلية تولد الخوف وتحركه بغية الانتقاص من الحقوق.

إن مسـار أحـداث الأشهر الأخيرة يؤدى إلى الهلاك لا محالة، ولابـد مـن رؤيته على حقيقته ومن ثم مقاومته. فكم من المرات فى الـتاريخ، انتظرت الشعوب حتى سبق السيف العذل ولم يعد هناك أى فـائدة من المقاومة. لقد أعلن الرئيس بوش: "انتم إما معنا أو ضدنا". وهـا نحـن نجيـب: نـرفض أن نسمح لك التحدث باسم كل الشعب الأمـريكى، ولـن نتخلى عن حقنا بالسؤال. ولن نسلم ضمائرنا مقابل وعـد خاو بالأمن. نقول ليس باسمنا. نرفض أن نكون طرفاً فى هذه الحروب، كما نتبرأ من أى تدخل يشن إما باسمنا أو من أجل رفاهنا. إننا نمد اليد للذين يعانون من تلك السياسات فى أرجاء العالم، وسنعبر عن تضامننا بالكلام والفعل.

نحن الموقعين أدناه، ندعو الأمريكيين كافة للانضمام لمواجهة هذا الـتحدي. ونحن نؤيد حال التساؤل والاعتراض الحالية، وإن كنا نقر بالحاجـة إلى المزيد الكثير لوقف هذه القوة الماحقة فعلياً. إننا نستلهم

من جنود الاحتياط الإسرائيليين الذين جازفوا بحياتهم لحظة أعلنوا "أن هناك حداً" ورفضوا الخدمة فى احتلال الضفة الغربية وغزة.

كما نستلهم أيضاً من الأمثلة الكثيرة للمقاومة والوعى من ماضى الولايات المتحدة: بدءاً من أولئك الذين ناهضوا العبودية من خلال العصيان والثورات، وصولاً لأولئك الذين تحدوا حرب فيتنام من خلال رفض الأوامر ومقاومة الخدمة العسكرية والتضامن مع المقاومين: فلنمنع العالم المتفرج اليوم من السقوط باليأس من جراء صمتنا وتخلفنا عن الفعل. بدلاً من ذلك، فلنسمع العالم تعهدنا: سنقاوم آلية الحرب والقمع وسنعمل على استنهاض الآخرين من أجل القيام بأى شئ ممكن لوقفها".

هكذا تكلم المثقفون الأمريكيون المعارضين للحرب والعدوان.

[٢]
شهادات أمام التاريخ

دار الزمن دورته، ومضى عام على الأحداث الرهيبة التى وقعت فـى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. ما أضخم التغيرات التى حدثت سـواء فـى مجـال الوعى الإنسانى أو فى ميدان الأحداث والوقائع المتشابكة التى لا تنى عن الظهور والتحول والتغير كل إشراقة شمس، وملايين البشر فى كل أرجاء المعمورة معلقة أنفاسهم فى انتظار القرار الأمريكى.

هـل سـتقع الحرب الغاشمة لغزو العراق وتغيير نظام السياسى بـالقوة المسـلحة أم لا؟ وإذا كـان القرار قد أتخذ فمتى؟ وإذا وقعت الحـرب مـا هى آثارها المدمرة السياسية والاقتصادية والثقافية على الـنطاق العـالمى والإقليمى والمحلى؟ لقد أصبح العالم – بحكم ثورة الاتصـالات الكـبرى وتشـابك المصالح الاقتصادية ووحدة الأسواق العالمية – فضاء واحداً، تؤثر فيه بعمق أى حرب، ولو كانت تدور فى إطار محلى ضيق، أو فى إطار إقليمى محدد .

شهادات مزورة وشهادات نقدية

ولقـد تباينت ردود الأفعال إزاء أحداث الحادى عشر من سبتمبر فور وقوعها، وتسلسل ردود الأفعال إزاءها.

ومـمـا لا شـك فيه أن أخبار الأحداث كما عكستها لحظة وقوعها شاشـات التلـيفزيون قد أحدثت صدمة فى العالم، وأدرك الملايين من البشـر خطـورة "الإرهاب الجديد" الذى لا يفرق بين أهداف عسكرية

وأهــداف مدنــية، على أرواح المدنيين الأبرياء، بالإضافة إلى تهديده الجسيم للأمن القومى. وإذا كانت قلة من البشر فى بعض البلاد الغربية والإســلامية وربمــا الأوربية أيضاً قد شعرت بأن ما حدث يعد نتيجة منطقــية للتحيز الصارخ فى السياسات الأمريكية، واستهانتها بمصالح الملاييــن مــن البشــر، والــتى تجلت فى انسحاب الولايات المتحدة الأمريكــية مــن معاهدة كيوتو الخاصة بضبط المناخ العالمى، أو من معــاهدة حظــر انتشار الصواريخ. إلا أن غالبية البشر قد أدانوا هذا الإرهــاب، وفى مقدمتهم حكام الشعوب العربية والإسلامية، بالإضافة إلــى قادة الفكر والمثقفين. وقد أدت ضخامة أحداث الحادى عشر من ســبتمبر وخطورتهــا الــبالغة إلى بروز خطاب فكرى تبناه عدد من المثقفيــن والأكاديمييــن الأمريكييــن لتبرير ما أطلقوا عليه "الحرب العادلة" التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية لمحاربة الإرهاب تحت شــعار "من ليس معنا فهو ضدنا". وحاول هؤلاء المثقفون فى خطابهم الشــهير الموجه إلى العالم تبرير هذه الحرب ملتمسين فى ذلك أسباباً قانونية وأخلاقية للدفاع عنها.

وكانــت هــذه فى الواقع شهادة زور أمام التاريخ، لأنها تجاهلت الأســباب الحقيقية لكراهية السياسة الأمريكية فى مختلف أنحاء العالم، بالإضــافة إلــى الاستهانة بالقواعد القانونية فى توجيه الاتهام، وتقديم الدلــيل علــى نسبة الوقائع إلى أشخاص أو تنظيمات أو دول بعينها. وبــدلا مــن ذلك شنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ضد نظام طالبان، وضربت أهدافا فى أفغانستان بغير تمييز، مما أدى إلى سقوط الآلاف من المواطنين الأبرياء قتلى القصف العشوائى الأمريكى.

غير أنه فى مقابل شهادات الزور برزت شهادات أخرى أمريكية نقدية تعارض الشهادة الأولى وتنتقد السياسة الأمريكية. وتمثل ذلك فى الخطــاب الــذى وقــع علــيه أكثر من مائة وعشرين مثقفا وأكاديميا أمريكيا، فى مقدمتهم المؤرخ الراديكالى هوارد زين والروائى والكاتب الــنقدى جــور فيدال. وكان خطابهم موجها إلى الأصدقاء الأوربيين باعتــبار أن الــدول الأوربية هى حليفة الولايات المتحدة الأمريكية، وســعيا لتكويــن حلــف ثقافى أمريكى أوربى للوقوف ضد السياسات الأمريكية العدوانية.

وســرعان مــا استجاب لهذا الخطاب حوالى مائتى مثقف ألمانى أصدروا خطابا هاما بعنوان "عالم العدالة والسلام سوف يكون مختلفا". وبعد فترة رد على هذا الخطاب المثقفون الأمريكيون أصحاب الخطاب الـنقدى، ونشأ حوار نقدى أوربى أمريكى بالغ الخصوبة، لابد له أن يـترك آثـاره الإيجابـية على تنشيط المعارضة الشعبية فى كل من الولايـات المـتحدة الأمريكية وأوروبا ضد السياسات الأمريكية. وقد ظهـرت دلائل المعارضة السياسية الأوربية فى التصريحات القاطعة للمستشـار الألمـانى شـرويدور والرئيس الفرنسى جاك شيراك فى معارضة الحرب ضد العراق.

كمـا أن المفكرين الأوربيين بدأوا يعبرون بشكل نقدى عنيف عن معارضـتهم للسياسة الأمريكية العدوانية والموجهة فى الواقع - بحكم آثارهـا المدمرة المحملة - ضد العالم كله، وليس فقط ضد العراق أو إيران أو الدول "المارقة" بالتعبير الأمريكى المخادع.

ويلفـت الـنظر بشدة فى هذا المجال - مما يعد شهادة نقدية أمام التاريخ - الكتاب الذى أصدره مؤخرا فى باريس فى شهر فبراير من العـام الجـارى الكاتب الفرنسى جان مارى كولومبانى رئيس تحرير جـريدة "المونـد" الشهيرة. وكان قد سبق للكاتب أن نشر افتتاحية فى "الموند" عقب أحداث سبتمبر مباشرة كان عنوانها "نحن كلنا أمريكيون" أراد فيها أن يثبت أن التعاطف مع أمريكا تام ومطلق لدرجة أنه يمكن للأوربيين جميعا أن يحسوا بمشاعر الأمريكيين. وقد كانت لهذه المقالة ردود أفعـال متباينة ما بين مؤيد ومعارض، بحكم الإسراف العاطفى الشـديد فـى المقالة، والذى يؤكد التوحد الكامل فى المشاعر الأوربية والأمريكية.

غـير أنـه بعدمـا هـدأت العواطف الجامحة، وإذا بجان بارى كولومـبانى يصدر كتابا عنوانه "هل صحيح أننا كلنا أمريكيون؟" وهو فى هذا التساؤل الجوهرى يمارس فى الواقع نقداً ذاتيا جسورا، ويعتذر عـن اندفاعـه المـبدئى، ويمارس نقدا بالغ الحدة والعنف للسياسات الأمريكية، فى ضوء الأحداث التى وقعت طوال العام الماضى. ويركز فـى هـذا المجال على الخرق الفاضح لحقوق الإنسان الذى مارسته الولايـات المتحدة الأمريكية فى مجال القصف العشوائى لأفغانستان،

بالإضافة إلى خرق معاهدات جنيف المتعلقة بمعاملة أسرى الحرب فى تعاملهـا مـع المعتقليـن الأفغـان، بالإضافة إلى القوانين الاستثنائية والمحاكمـات العسكرية السرية التى فرضتها على المشتبه فيهم داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها.

وظهـرت شهادة تاريخية أوربية أخرى أوسع مجالا فى مجال نقد السياسة الأمريكية العدوانية تمثل فى الكتاب الهام الذى أصدره المفكر الفرنسـى المعـروف آلان جوكـس وعنوان "إمبراطورية الفوضى: الجمهوريات فى مواجهة السيطرة الأمريكية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة" والذى صدر فى باريس فى أبريل من العام الجارى.

وهـو يتتبع بعمق شديد ارتباط العنف بالعولمة، والعولمة فى عهد الرئـيس السابق كلينتون، والتى تمثلت فى رأيه فى مذهب استراتيجى أدى إلـى وقـوع الفوضـى فـى العـالم، ثم "عسكرة الإمبراطورية الأمريكـية" والـتى بـدأت فى عهد كلينتون وتبلورت فى عهد بوش، وظهـرت تجلـياتها فـى الحرب ضد الإرهاب عموما، وفى محاولة السـيطرة علـى آسـيا الوسطى خصوصا، لحراسة التطور الصينى والتغـير الروسـى ومراقبة الأوضاع هناك عن قرب، بالإضافة إلى السيطرة على منابع البترول فى منطقة بحر قزوين.

ولم تقتصر الشهادات النقدية أمام التاريخ على الشهادات الأوربية الـتى أشرنا إلى بعضها، ولكن اتسعت دائرتها لتشمل فى المقام الأول شهادات أمريكية لمثقفين أمريكيين بارزين فى مقدمتهم عالم اللغويات والناقد الراديكالى الشهير نعوم شومسكى، والذى أصدر كتيبا عن ١١ سبتمبر، أبرز فيه أسباب الكراهية العالمية للولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الروائى والناقد الاجتماعى جور فيدال الذى أصدر كتابا بعنوان "حـرب دائمـة من أجل سلام دائم" وله عنوان فرعى "كيف أصبحنا مكروهيـن لهـذه الدرجـة" وقد سجل فيه بالوثائق الدامغة التدخلات الأمريكـية غـير المشـروعة فـى شئون دول عديدة فى العالم منذ الخمسينات حتى الآن. بالإضافة إلى أنه عقد مقارنة بالغة الأهمية بين الإرهـاب اليميـنى المـتطرف الأمريكى متمثلا فى شخصية تيموثى ماكفى والذى فجر المبنى الفيدرالى فى ولاية أوكلاهوما والذى ترتب علـيه موت أكثر من ٣٠٠ ضحية من الرجال والنساء والأطفال، مع

الإرهابى الإسلامى الأصولى المتطرف المتمثل فى شخصية بن لادن. ودعـا فـى الكتاب إلى أولوية دراسة وتحليل أفعال السلطة الأمريكية سـواء داخل المجتمع الأمريكى أو فى العالم، والتى أدت إلى تشجيع الجماعات الإرهابية على ردود الأفعال والذى تمثل فى أحداث إرهابية متعددة.

ويلفـت الـنظر أخـيرا فـى مجال الشهادات التاريخية المزورة والشهادات التاريخية الأصيلة والنقدية، الكتاب الذى أصدرته الصحيفة الإيطالـية "أوريانـا فلاتشى" التى اشتهرت منذ سنوات بعيدة بإجراء مقـابلات مـع زعماء العالم اتسمت بالجرأة البالغة فى طرح الأسئلة. أصدرت فلاتشى كتابا عقب أحداث سبتمبر بعنوان "الغضب والكبرياء" شـنت فـيه هجومـا صاعقا على الإسلام باعتباره دينا يحض على الإرهاب، ولم تقصر الاتهام كما هى العادة على الأصولية الإسلامية" كما يطلق فى الغرب على الاتجاهات المتطرفة والإرهابية.

غـير أن هـذه الشهادة التاريخية الزور ضد الإسلام وجدت كاتبا إيطالـيا منصفا رد عليها وفند اتهاماتها هو تيرزانى تيزاين فى كتاب بعـنوان "خطابـات ضـد الحرب" صدر بالإيطالية أولا ثم ترجم إلى الفرنسية ونشر فى يونيو ٢٠٠٢.

وهكذا يمكن القول أن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وأحداثه المهوله قد أدت إلى إنتاج خطابات سياسية وفكرية متعارضة، تعبر فى الواقع أبلغ تعبـير عـن المعركة الكبرى التى تدور فى عالم اليوم بين اتجاهات الهيمـنة العالمية التى تتبناها الإمبراطورية الأمريكية، وقوى الاعتدال والسـلام، والتى بدأت تتبلور داخل القارة الأوربية ذاتها، والتى كانت حليفة للولايات المتحدة الأمريكية.

وفى تقديرنا أن هذه الخطابات المتعارضة تحتاج الى تحليل نقدى متعمق، يكشف عن طبيعة الصراع بين رؤى العالم التى تتبناها القوى العالمـية المتنافسـة والتى تسعى كل منها الى السيطرة الكاملة على شـئون الكـون فـى عـالم ضاقت فيه المسافات بين الدول، وتكثفت التفاعلات بين البشر.

[٣]

أسئلة سبتمبر بين الدلالة والحدث

ليس هناك من شك فى أن الحادى عشر من سبتمبر سيسجل باعتباره يوما فاصلا فى تاريخ القرن الحادى والعشرين.

كان العالم قبله مشغولا بظاهرة العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية. ودار الجدل الفكرى العنيف بين أنصارها وخصومها. وتجمع أنصار العولمة فى منتدى دافوس الشهير الذى ضم النخب السياسية ورجال الأعمال والباحثين والإعلاميين والمثقفين، فى حين أن خصوم العولمة تجمعوا تحت شعار " "دافوس الأخرى" لكى يناضلوا ضد العولمة ليس بالنقد الفكرى فقط ولكن من خلال المظاهرات الصاخبة التى امتدت من دافوس إلى يورتو الليجيرى إلى ديربان فى جنوب أفريقيا. كان هذا هو المناخ السياسى والثقافى السائد، وفجأة دارت أحداث الحادى عشر من سبتمبر والتى شهدتها الملايين لحظة وقوعها تقريباً وفى زمنها الحقيقى على شاشات التليفزيون. وأحس الناس جميعاً أن الولايات المتحدة الأمريكية والتى هى أقوى دولة فى العالم عسكرياً وتكنولوجيا واقتصادياً قد أخذت على غرة، إذ تم غزوها فى عقر دارها بواسطة بضعة عشر إرهابيا، استطاعوا بخيال مجنون أن يحولوا أربع طائرات مدنية إلى أربعة أسلحة من أسلحة الدمار الشامل. تم ذلك فى لحظات بعد اختطاف الطائرات المدنية واقتحام البرجين الشهيرين بالاصطدام المباشر بهما بالطائرات المدنية التى ضمت الإرهابيين والركاب معاً، مما أدى إلى وقوع أكثر من ثلاثة آلاف قتيل فى لحظات.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية هي فقط التى أخذت على غرة، ولكن السياسيين والباحثين والمثقفين فى كل أنحاء المعمورة. وكان من المنطقى أن تنهال الأسئلة من كل زاوية حول الحدث ودلالاته، ونتائجه المتوقعة، ونوع رد الفعل الأمريكى، وتأثير هذا الفعل - أيا كان اتجاهه- على الأمن العالمى من ناحية، وعلى الجماعات والأقطار التى سيوجه لها الانتقام الأمريكى من ناحية ثانية .

إطار نظرى لدراسة أحداث سبتمبر

وعندما شاهدت على التليفزيون الكلمات التى ألقاها كل من الرئيس بوش والرئيس الفرنسى جاك شيراك ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير. وباعتبارى فى المقام الأول باحثا فى علم الاجتماع مهتما أبلغ الاهتمام منذ سنوات بعيدة بالقضايا النظرية والمنهجية لتحليل الخطاب، قمت تلقائيا بتحليل هذه الخطابات الفورية الثلاث، واكتشفت أنها تتضمن مضامين سياسية وتاريخية وثقافية وحضارية تقتضى الوقوف أمامها طويلا.

وكان أول ما فعلته أن كتبت ورقة بحثية موجزة بعنوان "نحو إطار نظرى لدراسة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر". لم أعد هذه الورقة للنشر وإنما كانت أداة أساسية أردت من ورائها أن أنظم أفكارى حول الحدث وتداعياته، تمهيدا للدراسة المنهجية التى يمكن أن تخرج فى صورة مقالات تحلل مختلف أبعاده، أو فى صورة كتاب متكامل حين تكتمل الصورة وتتضح الأبعاد، وتظهر الوثائق، وتبرز الشهادات المختلفة، وتنشر التحليلات المتنوعة .

وفى هذه الورقة الموجزة قدرت - وكان ذلك عقب الحادى عشر من سبتمبر مباشرة - أننا فى حاجة إلى دراسة الحدث، وبنية المجتمع العالمى، والخطاب السياسى والثقافى، والسياسات التى أعلنت، والممارسات التى تمت، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة لهذه السياسات والممارسات .

وأول ما تبادر إلى ذهنى فيما يتعلق بالحدث ذاته سؤال يتعلق بموضوع شغلنى منذ أيام الدراسة فى فرنسا، وهو موضوع القطيعة

التاريخــية. ويــرد هذا الاهتمام إلى أنه فى الستينيات برز موضوع "القطــيعة المعرفــية" لدراســة لحظات الانقطاع فى مسيرة الفلسفات والاتجاهات الثقافية والمشاريع الفكرية للفلاسفة والعلماء، بمعنى لحظة التحول الفاصلة بين موقف معرفى وموقف معرفى مختلف عنه. كان الــذى صــاغ هذا المفهوم هو مؤرخ العلم الفرنسى المعروف كانجيم وتبــناه من بعد الفيلسوف الفرنسى الشهير ميشيل فوكو، والذى طبقة بإبداع بارز وهو يؤرخ فى كتابه "الكلمات والأشياء: نحو أركيولوجيا للعلــوم الإنسانية" لصعود وتطور العلوم الاجتماعية فى القرن التاسع عشــر. وأصــبح المؤرخون يتداولون المفهوم من بعد فيتحدثون عن "القطيعة التاريخية" التى تعنى نهاية عصر وبداية عصر جديد فى إطار ما يطلق عليه عادة مشكلة التحقيب Periodiaziation التاريخى .

وفى ضوء ذلك كله طرحت على نفسى عدة أسئلة :

هــل صــحيح أن حدث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ - كما وصف فى بعض الكتابات - يمثل تاريخا فاصلا بين ما قبل وما بعد ؟

وهــل هو يمثل قطيعة تاريخية بين عصر وعصر، وعلى غرار القطيعة المعرفية فى مجال الفكر ؟ وما هى المعايير التى على أساسها يمكن القول بنهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى ؟

وهــل عــام ١٩٩٠ الذى عادة ما يؤرخ به لنهاية عصر الحرب الــباردة ونهاية النظام الثنائى القطبية، وبروز النظام الآحادى القطبية، يصــلح حقــا لتحقيب العقد الأخير فى القرن العشرين ؟ أم أن النظام الآحــادى القطبية هو استمرار لصورة أخرى للنظام العالمى السابق، وســؤال أخير هل مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ستؤدى كما أكد هــنرى كيسنجر فى مقالة له نشرت فى جريدة الشرق الأوسط فى ٣ فــبراير عــام ٢٠٠٠ إلــى صــياغة الــنظام العالمى للقرن الحادى والعشرين، أم أنها فى الواقع استمرار للنظام العالمى قبل ١١ سبتمبر والذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة الأكبر ؟

أم أن هناك تغيرا لأن الولايات المتحدة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر تحولــت لتصبح القوة الأوحد فى القرن الحادى والعشرين. وهل تتفق هذه التفرقة الهامة مع بعض تقديرات الخبراء من أن الولايات المتحدة تتحول فى الواقع من قوة عظمى وحيدة إلى إمبراطورية ؟

وإذا كـان هـذا صحيحا فهل هناك نموذج نظرى للإمبراطورية يمكن أن يحدد اتجاهات وأبعاد السلوك الامبراطورى، أم لابد فى هذه الحالـة أن نعـتمد على المشابهة التاريخية للمقارنة مع إمبراطوريات سابقة فى التاريخ، كما فعل بول كيندى فى كتابه "صعود وسقوط القوى العظمى"، حيث استدعى نماذج من الإمبراطوريات السابقة، ليصل إلى نتيجـته الأساسـية وهـى الانهيار الحتمى للقوة الأمريكية فى العقود القادمة.

(صـاغ كيـندى هذا التنبؤ منذ سنوات بعيدة وقبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر).

أسئلة واقعية

وإذا كانـت الأسئلة التى أشرت إليها قد صغتها فى إطار نظرى مـتكامل إلا أنه من الواضح أنها تلمس فى الواقع موضوعات نظرية ومنهجية تتجاوز الحدث ذاته فى الحادى عشر من سبتمبر بكل ما دار فـيه. ومن هنا من السهل توجيه النقد إلى هذا الإطار على أساس أنه فـى الواقـع تجاهل طرح الأسئلة الواقعية الخاصة بالحدث نفسه، من زاويـة كيف حدث. ومن قام به، وما هى أهداف الإرهابيين الحقيقية، وخصوصـا فـى غيبة أدلة يقينية تشير بشكل محدد إلى ما حدث فى تسلسله الطبيعى من التخطيط للهجمات إلى التنفيذ الفعلى.

لذلك لم يكن غريباً ان تتضمن أهم الكتب التى صدرت عن أحداث الحـادى العشـر من سبتمبر والتى كان أفضلها على الإطلاق الكتب المحـررة التى يشترك فى كتابتها أكثر من باحث متخصص، فصولا هامـة تطرح أسئلة تفصيلية عن الحدث ذاته، قبل التطرق إلى مسائل نظـرية أو فلسفية أو تاريخية، سواء تعلق ذلك بالنظام العالمى ما بعد ١١ سـبتمبر على سبيل المثال، أو ما يتعلق بالصراع بين الحضارات وخصوصـا مـا تنبأ به من قبل صمويل هنتنجتون عن الصراع بين الحضـارة الغربـية والإسـلام، إلى عديد من الموضوعات المتشعبة الأخرى.

وفى إطار تجميعى لأهم ما صدر من كتب إنجليزية وفرنسية عن أحـداث الحـادى عشر من سبتمبر، لفت نظرى كتاب هام صدر بعد

الأحـــداث بشهور قليلة حرره جيمز هوجَ وجيدون روز ونشر بعنوان "كـــيف حدث هذا ؟ الإرهاب والحرب الجديدة.. والذى تضمن حوالى ٢٣ دراسة متنوعة، من بينها دراسة عنوانها: "رجال المنظمة: تشريح لهجـــوم إرهـــابى" كتبها برايان جنكز. وهو يطرح الأسئلة التى تتعلق بالحدث ذاته وكيفية وقوعه.

وفى نفس الاتجاه نجد دراسة بالغة الأهمية يتضمنها كتاب "عوالم متصادمة: الإرهاب ومستقبل النظام العالمى" وهو أحدث ما صدر من كتـــب عـــن سبتمبر، وحرره كن بوث وتوم دان، كتبها ستيف سمث بعـــنوان "أســـئلة لا أجوبة لها". فى هذه الدراسة الشيقة يطرح الباحث عشرة أسئلة رئيسية تتعلق بالحدث ذاته.

وفـــى تقديـــرنا أننا نحتاج إلى تبنى هذا المنهج الواقعى فى طرح الأســـئلة، وخصوصـــا أن الأحداث التى دارت بين الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠٢ بالغة الخطورة، وبعضـــها يـــتعلق بصميم الأسئلة الخاصة بالحدث ذاته، ومن قام به، وخصوصـــا فى ضوء ما أذيع من أشرطة تليفزيون فى قناة الجزيرة، والـــتى أظهـــرت بـــن لادن فى بعضها وهو يحيى من قاموا بالحدث ويتغنى ببطولاتهم، وإن لم يتضمن ذلك اعترافا صريحا بأنه هو الذى خطـــط، أو أمر بالتنفيذ. غير أن آخر أشرطة أذيعت من قناة الجزيرة تصور عددا من أعضاء منظمة القاعدة وهو يدرسون ويخططون للقيام بـــالفعل يوم الحادى عشر من سبتمبر، وأمامهم خريطة أمريكا، حيث يظهر بوضوح موقع البرجين، وموقع البنتاجون، بالإضافة إلى صوت بن لادن وهو يسرد تاريخ كل واحد ممن شاركوا فى الهجوم.

ألـــيس مـــن شأن هذه الأشرطة أن تجيب بذاتها على الأسئلة التى أثـــيرت منذ اللحظة الأولى حول من قام بهذا الفعل، وهل هناك دليل على ذلك ؟

لـــم لا نحاول أن نعمق الأسئلة الخاصة بالحدث أولا قبل أن ننتقل إلى باقى الأسئلة الخطيرة التى يثيرها الحادى عشر من سبتمبر والذى وصف فى تعبير موفق باسم يوم "الهول العظيم" ؟

[٤]

تشريح أحداث سبتمبر

إذا كنا طرحنا من قبل أسئلة أساسية حول دلالة أحداث الحادى عشر من سبتمبر وتأثيراتها على الأمن العالمى والأمن الإقليمى وانعكاساتها على العلاقات الحضارية بين الثقافات. إلا أن هناك باحثون يرون أنه من الأفضل أولاً أن نثير الأسئلة الخاصة بالحدث المهول ذاته بعبارة أخرى لابد أن نبدأ بداية رائعة للتساءل من فعلها وكيف فعلها ولماذا هذا الاندفاع الشديد لقتل أكبر عدد من البشر فى البرجين الشهيرين؟

والسؤال الرئيسى الأول عن من قام بالهجوم الإرهابى يثير إشكاليات متعددة. ولعل أولى هذه الإشكاليات أن الإدارة الأمريكية سارعت بعد وقوع الحديث بفترة وجيزة فى توجه الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمه أسامه بن لادن. وتساءلت مصادر متعددة فى العالم سواء فى ذلك فى البلاد الغربية أو فى البلاد الإسلامية والعربية أين الدليل؟ ومقتضى هذا التساؤل أنه لا ينبغى توجيه اتهامات مرسلة لأى طرف من الأطراف بدون دليل مقنع ويبرر الحرب ضد الإرهاب التى أعلنتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد نظام طالبان باعتبار أن الدولة الأفغانية آوت بن لادن وحمته ورفضت تسليمه. وكان الرد الأمريكى على هذا الاعتراض والذى أسهمت فى صياغته أيضاً بريطانيا باعتبارها تابعة للإدارة الأمريكية أننا لسنا فى محكمة بحيث نطالب بتقديم دليل دافع وفقاً للقواعد القانونية المطبقة أمام المحاكم. بعبارة أخرى زعمت المصادر الأمريكية أن لديها – من واقع استخباراتها – أدلة متعددة تثبت أن تنظيم القاعدة هو المخطط والمنفذ للهجمات.

وظـل أصـوات متعددة عربية وإسلامية تشكك فى التهمة بحكم افـتقارها لدليل مقنع. ليس ذلك فقط بل أن بعض الأصوات الفرنسية المستقلة شككت فى الرواية الأمريكية للأحداث فى مجملها، على أساس أنهـا روايـة مفبركة الغرض منها إلصاق التهمة بالعرب والمسلمين تحقيقاً لأهداف أمريكية استراتيجية متعددة. وكان أبرز هذه الأصوات الكاتب الفرنسى تيرى ماسون الذى نشر كتابه الشهير " الخدعة الرهيبة " والذى وزع منه مئات الآلاف من النسخ وأصبح أكثر الكتب مبيعاً.

وقـد أصبح هذا الكتاب الذى ترجمته إلى العربية ونشرته " مجلة سطور" المصرية مرجعاً لكل من أراد أن يشكك فى الرواية الأمريكية.

غير أن المشككين لم يلتفتوا إلى أن هناك كتاباً فرنسياً آخر صدر فى شهر يونيو الماضى فى باريس لتفيد حجج تيرى ماسون. والكتاب ألفـه جيوم داسكيه وجان جونسيل وعنوانه المثير هو: الكذبة الرهيبة. وقـد صدر عن دار نشر لاريكوفرت فى باريس، وهو يتصدى لتفيد حجج تيرى ماسون حجة حجة.

مسألة من ارتكب الهجوم الإرهابى خلافية إذن، غير أن الذى زاد من تعقيد المسألة الشرائط التليفزيونية التى أذاعتها قناة الجزيرة، والتى صـورت مجموعـة من الإرهابيين لم تظهر وجوههم وهم يدرسون خـريطة أمريكا، ويشيرون إلى موقع البرجين والبنتاجون، وفى جزء آخـر من الشريط، يرتفع صوت أسامة بن لادن وهو يحكى سيرة كل فرد ممن شاركوا فى الهجوم ذاكرا فضائله محييا جهاده الميمون !

غـير أن هـذه الأشـرطة رفضـت مـن قبل المشككين العرب والمسلمين على أساسها أنها مفبركة وغير حقيقية.

أين الحقيقة إذن؟

محاول مبكرة لتشريح الحدث

يلفت النظر أن بعض الباحثين تصدوا لتحليل الحدث بعد شهر فقط مـن وقوعه، لكى يطرحوا الأسئلة الرئيسية الخاصة بمن فعلها وكيف ولمـاذا. وفـى مقدمة هؤلاء بريان جنكيز وهو مستشار أول لرئيس مؤسسـة رانـد الأمريكـية للأبحـاث والتى تعد العقل الاستراتيجى

الأمـــريكى. وقــد أنشـأ هذه المؤسسة سلاح الجو الأمريكى منذ فترة طويلـــة لـــتجرى له الأبحـــاث الخاصة به، ثم تحولت من بعد لتصبح مركـــزا بحثـــيا واستراتيجيا عاما يعالج عديدا من موضوعات الأمن والاقتصــــاد والاجـــتماع والثقافة. وهو مؤلف كتاب "الإرهاب الدولى: نمـــط جديـــد من الصراع" ومؤلف مشارك لكتاب "إرهاب الطائرات وأمـــنها" نشـــرت دراسة جنكيز كأحد فصول كتاب "كيف حدث هذا؟ الإرهـــاب والحرب الجديدة" الذى حرره جميز هوج الصغير وجيدون روز وصدر عام ٢٠٠١ عن دار نشر ببلك آفيرز فى نيويورك.

يقرر جنكيز فى صدر دراسته أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر تكشـــف اتجاهات طويلة المدى فى مجال الإرهاب وتعلمنا كثيرا عن الإطـــار الذهنى لمن خططوها وتنظيماتهم وقدراتهم ومقاصدهم. وهى فى نفس الوقت تكشف عن خطأ بعض معتقداتنا عن الإرهاب وتطرح أســـئلة طازجـــة تحـــتاج من المحللين إلى تأمل طويل. وهو يقر أن الباحثين يحتاجون إلى شهور طويلة حتى تكتمل لديهم صورة ما حدث وكـــيف حـــدث، وإن كان يمكن الاعتماد - كما يقول - إلى حد كبير علـــى مـــا نشرته وسائل الإعلام نقلا عن المصادر الأمريكية والتى قدمت صورة تقريبية لكيف حدثت الأحداث. ولذلك ينبغى حين التحليل الحذر من صياغة نتائج يقينية، فما زال حجم المجهول أكبر كثيرا من حجم المعلوم. ولكن القدر المتيقن أن مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر ليسوا بعيدين عن من قاموا بأحداث إرهابية سابقة أقربها قصف مبنى برنامج الـــتعاون الأمريكى فى الرياض عام ١٩٩٥ وقصف سفارتى الولايات المـــتحدة الأمريكية فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والهجوم الإرهابى علـــى الـــبارجة الأمريكية كول فى اليمن فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠. بعـــبارة أخرى هناك شواهد على أن كل هذه الأحداث من تدبير أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة.

ويقـــرر جنكـــيز أن أحـــداث الحادى عشر من سبتمبر أصبحت معـــروفة فى العالم كله من أول لحظة، حين تصدت أربع مجموعات مـــن الإرهابيـــن تضـــم ١٩ رجـــلا لخطـــف أربعة طائرات مدنية. اصـــطدمت اثنان منهم بالبرجين، والثالثة اصطدمت بمبنى البنتاجون

والرابعة سقطت فى بنسلفانيا حيث قتل كل ركابها، نتيجة ما يظن أنهه معركة قامت بين الخاطفين والركاب.

وربمــا لا يمكــن ان نعــرف أبــداً كيف سيطر الخاطفون على الطائــرات وإن كانــت هناك تصريحات تقرر أنهم استخدموا سكاكين صــغيرة وقواطــع للــورق افلتوا بها من نقاط التفتيش فى المطارات بالإضافة إلى تهديديهم بأن لديهم قنبلة ستنفجر فى الطائرة.

وخلاصــة هذه النقطة أن الإرهابيين لم يستخدموا للسيطرة على الطائــرات تكنولوجيا متقدمة، بل أدوات بدائية. ومعنى ذلك أن الذكاء الخــارق فــى التنفيذ هو الذى سمح لهم بالسيطرة وليست التكنولوجيا المتطورة.

والــنقطة الثانــية الجديــرة بالــتأمل أنــه كــان هناك يقين لدى المتخصصــين فــى شئون الإرهاب يقين من أن الإرهاب سيتجه فى السـنوات القادمة إلى إيقاع أكبر عدد من الضحايا. وقد أكدت أحداث ســبتمبر هــذا التوقع، غير أنه لم يدر تجلد أحد من المتخصصين أن طمــوح الإرهابييــن فــى هذا الصدد سيتجاوز المئات. فقط سقط فى البرجيــن عدة آلاف من البشر، فى حين أن الحوادث الماضية لم تزد فــيه عدد الضحايا عن مئات. وكان الإرهابيون فى الحقبة الماضية لا يميلون إلى تجاوز هذا العدد، حتى لا يتسرب الشك إلى الناس فى أنهم مجرد قتلة محترفون لا قضية لهم يدافعون عنها، بالإضافة إلى خوفهم مــن رد الفعــل العنيف الذى يطالبهم لو تجاوزا كل الحدود. غير أن أحــداث سبتمبر قد قلبت كل المعادلات والتوقعات بعد أن تجاوز عدد الضــحايا الآلاف ومــن الملاحظــات الهامة التى يوردها الباحث أن الإرهاب فى العقود الأخيرة تحول من إرهاب سببه بواعث قوية تمثل فى اتجاه بعض المنظمات الإرهابية للدفاع عن الحقوق القومية لبعض الجماعــات كما هو الحال بالنسبة للجيش الأيرلندى إلى إرهاب مبعثه عقــائد دينية يقوم على أساس أن الله سبحانه وتعالى يبارك أفعالهم فى قــتل الأعداء والخصوم. وقد عبر أسامة بن لادن فى تصريحاته عن هــذا الاتجاه بقوله أن المعركة تدور بين المسلمين وأعداء الإسلام، او بين قسطاط الإيمان وقسطاط الكفر بحسب تعبيراته.

ويقرر الباحث أن الإسلام دين مسالم بطبيعته ولا يحض على القتل، ومن ثم فلا يجوز اسناد صفة الإرهاب إليه، لأن الإرهاب الدينى تمارسه جماعات تنتسب إلى أديان شتى كاليهودية والمسيحية.

والنقطة الثانية الهامة فى تشريح جينكيز لأحداث سبتمبر أن السلاح السرى للإرهابيين لم يكن هو التكنولوجيا الراقية المستوى، وإنما التصميم الإنسانى والإرادة الفاعلة، والتى أدت بهم إلى التضحية بحياتهم لتحقيق أهدافهم. ويرى أن الهجمات الانتحارية ليست بسيطة فى التخطيط لها وتنفيذها، فهى تقضى الإيمان الشديد لعدد من الأشخاص بها، والتصميم عليها، وعدم التخلى عن الهدف مع مرور الوقت، بمعنى عدم الانهيار والتخلى عن المشروع. ويلتفت الباحث إلى أن هؤلاء الإرهابيين – وفقا للرواية الأمريكية الرسمية – عاشوا فى المجتمع الأمريكية شهور طويلة حياة عادية وتفاعلوا مع المجتمع، وسافروا أحيانا إلى الخارج وعادوا، وكان لديهم الوقت لكى يراجعوا أنفسهم ويعدلون عن خططهم، ولكنهم لم يفعلوا، مما يدل عن الكفاءة الفاعلة فى إعدادهم النفسى لتحقيق الهدف. ويلفت النظر أن الإرهابيين الانتحاريين فى ١١ سبتمبر على عكس الصورة السائدة عن فى فلسطين على سبيل المثال لا ينتمون إلى أوساط اجتماعية فقيرة، ولا هم لم يحصلوا على العلم إلا قليلا. على العكس فهم ينحدرون من عائلات متوسطة وأكثرهم تلقى تعليماً جامعياً، مما من شأنه أن يعيد رسم بروفيل المهاجم الانتحارى من زاوية أصوله الاجتماعية ومستويات تعليمه.

ويرى الخبراء أن تنظيم القاعدة يتميز عن غيره من التنظيمات الإرهابية بكثرة عدد أعضائه، والذين يتلقون عدة آلاف، مما يسمح لهم بالتخصص الدقيق فى مجالات متعددة كالهندسة والطيران والعلوم، مما يعطيهم فرصاً هائلة لتخطيط هجمات إرهابية بارعة من زاوية التخطيط والتنفيذ معا. ومن ناحية أخرى فكثرة عدد أعضاء المنظمة ووصوله إلى الآلاف يجعل تجنيد عشرين مهاجما انتحارياً من بينهم مسألة جد ميسورة.

ولا يمكن فى هذا المجال إغفال السياق الثقافى. بمعنى أن كل الثقافات سبق لها أن قدمت نماذج من الشهداء والأبطال الذين ضحوا

بحـــياتهم فـــى ســـبيل هـــدف أسمى يؤمنون به. ويمكن القول أنه فى الســـنوات الأخيرة يرون فى الشرق الأوسط أنماط من الانتماء الدينى والسياســـى تدفـــع ببعض المؤمنين إلى طريق الاستشهاد هى طريقة الهجمات الانتحارية أيا كانت صورتها.

ويلفـــت الباحث النظر إلى حقيقة هامة مؤداها أن منظمة القاعدة تعـــودت على التخطيط طويل المدى لعملياتها. فأحداث ١١ سبتمبر تم الإعـــداد لهـــا داخـــل أمريكا لمدة عام على الأقل، سبقتها أعوام فى التخطيط لها. وقد دفع ذلك بالمنظمة إلى تقسيم العمل بحيث لا يعرف بالمخطط كاملاً إلى العقل المدبر، وذلك تقادماً لانتشار السر. ويطرح جنـــيكز تساؤلاً هاماً: هل الأحداث الإرهابية التى وقعت فى السعودية واليمـــن كانـــت أساسا لاختيار الأدوات والوسائل ودراسة ردود الفعل الأمريكـــية، وبحيث يمكن اعتبار أحداث الحادى عشر من سبتمبر هى ذروة العمليات بعد الاستفادة من دروس الأحداث السابقة ؟

هـــذه أســـئلة يصعب الإجابة عليها فى ضوء المعلومات المتوفرة ويـــبقى السؤال لماذا ؟ ويجيب الباحث أن كراهية السياسات الأمريكية والرغـــبة فـــى عقابها قد يكون إجابة مقنعة، ووضوحها بعد عسكرة القـــوات الأمريكية فى السعودية والتى تضم أقدس أماكن العبادة لدى المســـلمين بالإضـــافة إلى الدعم الأمريكى غير المحدود لإسرائيل فى عدوانها على الشعب الفلسطينى.

وأخـــيراً يقرر الباحث أن بن لادن حاول من خلال تصريحاته أن يضمن تعبئة جماهير المسلمين وراءه لدعم مشروعه فى حربه الدينية المقدســـة ضـــد قـــلاع الكفـــر ذلك لأنه فقد جماهير تؤيده فإن أفعاله الإرهابية تصبح لا معنى لها فى الواقع.

هذه المحاولة كانت اقتراباً مبكراً من قبل باحث أمريكى حاول فيه أن يشرح أحداث ١١ سبتمبر، بعد شهر منه وقوعها. ولعل هذا يفسر تردد الباحث فى صياغة نتائج نهائية، وهو الذى جعل باحث آخر هو ســـتيف سمث بعد عام من وقوع الأحداث أكثر دقة فى طرح الأسئلة وفى صياغة الإجابات.

[٥]

الإعلان الإمبراطورى الأمريكى

اتسمت المرحلة منذ عام ١٩٩٠ تاريخ انهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية حتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بسمات بارزة سبق لنا أن أطلقنا عليها فى دراسة منشورة مرحلة الفوضى العالمية الطليقة! وعنينا بها على وجه التحديد عملية التفكك الكبرى التى لحقت ببنية عديد من المجتمعات المعاصرة لأسباب شتى. وتكمن وراء عملية التفكك الواسعة المدى الاندفاع فى مجال الدفاع عن الخصوصيات الثقافية وثورة الأعراق التى أدت فى أوروبا إلى حروب أهلية طاحنة. كما أن الحركات الأصولية فى مختلف بلاد العالم رفعت عقيرة خطابها الزاعق لتثير القلاقل والفتن وتحض على الكراهية فى عديد من البلاد. وأصبح لبعض هذه الحركات الأصولية امتدادات عابرة للقارات، من خلال أفواج المهاجرين التى اندفعت من آسيا وأفريقيا والبلاد الإسلامية والعربية لتستقر فى عديد من البلاد الأوروبية، بالإضافة إلى الهجرة للولايات المتحدة الأمريكية.

وفجأة وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر فانتقلنا من مرحلة الفوضى الطليقة إلى مرحلة الهيمنة الأمريكية المقننة! وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية برزت فى مرحلة الفوضى الطليقة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة التى مارست هيمنتها السياسية والعسكرية والاقتصادية من خلال قيادتها لعملية العولمة، إلا أنها بعد سبتمبر انتقلت من دور الدولة العظمى الوحيدة إلى دور الإمبراطورية الكونية التى تمارس الهيمنة المقننة على كل العالم.

كان شعار "من ليس معنا فهو ضدنا" هو فاتحة عهد تقنين الهيمنة، بمعـــنى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تكتفى باستعراض قوتها الاقتصـــادية أو العسكرية أو الثقافية، ولكنها انتقلت إلى مجال إصدار الأوامر للدول المختلفة والتى عليها أن تنفذ فوراً، لا فرق فى ذلك بين حلفائها الأقربين وبين أى دولة أخرى فى العالم.

وتســـارعت الأحـــداث بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحـــرب ضـــد الإرهاب والتى بدأت بضرب أفغانستان والقضاء على نظـــام طالـــبان، فى ظل التأكيدات الرسمية أن هذه الحرب لا يحدها زمان أو مكان! وسرعان ما بلور العقل الاستراتيجى الأمريكى اليمينى المـــتطرف مذهباً استراتيجياً أمريكياً جديداً أطلق عليه "مذهب بوش"، وهـــو يقـــرر الحـــق المطلق للولايات المتحدة الأمريكية فى أن تقوم بضـــربات استباقية أو إجهاضية ضد أى دولة إذا ما قررت أنها تمثل خطـــراً علـــى أمنها القومى. وذلك على أساس أن سياسات الاحتواء والـــردع الـــتى كانـــت سائدة فى عصر الحرب الباردة لم تعد تكفى لمواجهة الأخطار الكبرى الناجمة من موجات الإرهاب الجديد. وبعدما خـــاض عديد من الباحثين والمحللين فى المبادئ التى انطلق منها "هذا مذهـــب الجديـــد" إذا بالرئـــيس جورج بوش يصدر فى شهر سبتمبر الجـــارى وثيقة مهرها بتوقيعه بعنوان "الاستراتيجية الأمريكية للأمن القومى". وقد تكفلت كوندليزا رايس مستشارة الأمن القومى الأمريكى وأحد الأركان الرئيسية للإدارة الأمريكية بشرح المبادئ الحاكمة لهذه الاســـتراتيجية، وذلك فى عدد الثالث والعشرين من سبتمبر فى جريدة الفينانشـــيال تايمـــز، ربمـــا باعتـــبارها أحـــد الذيـــن أســـهموا فى صـــياغتها مستندة إلى خلفيتها الأكاديمية باعتبارها أستاذة سابقة للعلوم السياسية.

والواقع أننى منذ أن تعقبت أخبار هذه الاستراتيجية المعلنة وقرأت عديـــداً مـــن التحليلات عنها، عنيت بالحصول على النسخة الرسمية الكاملـــة الـــتى أذاعها البيت الأبيض، لتقديرى لأهمية تحليلها بصورة متعمقة.

إعلان إمبراطورى

وحيـــن طالعت الوثيقة التى تصدرتها مقدمة للرئيس جورج بوش أدركت أنها أشبه بإعلان إمبراطورى أمريكى يفتح الستار رسمياً عن بداية حكم الإمبراطورية الأمريكية للعالم.

ويؤكد هذا ليس فقط المقدمة التى وقع عليها بوش والتى زعم فيها أن الولايـــات المـــتحدة الأمريكية هى وحدها المسئولة عن أمن العالم وحريـــته، بل إنها هى مصدر القيم الوحيد، ولذلك ستعمل على تسييد قيمها فى كل أرجاء العالم من خلال عملية تغيير واسعة المدى سياسية واقتصادية واجتماعية.

وتنقسم الوثيقة إلى تسعة أقسام أساسية بيانها كما يلى:

- نظرة عامة على استراتيجية أمريكا الدولية
- مطامح جسورة من أجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية
- تقويـــة الحلفـــاء لهـــزيمة الإرهاب المعولم والعمل للوقاية من الهجمات ضدنا أو ضد أعدائنا.
- العمل مع الآخرين للقضاء على الصراعات الإقليمية
- مـــنع أعدائنا من تهديدنا أو تهديد حلفائنا أو أصدقائنا بواسطة أسلحة الدمار الشامل
- افتتاح حقبه جديدة للنمو الاقتصادى العالمى من خلال الأسواق الحرة وحرية التجارة
- توســيع دائـــرة التنمـــية من خلال فتح المجتمعات وبناء البنية التحتية للديمقراطية
- تنمـــية جدول أعمال للعمل التعاونى مع الأقطاب الكبرى للقوة العالمية.
- تغيـــير مؤسســـات الأمن القومى الأمريكى لمواجهة التحديات والفرص الكامنة فى القرن الحادى والعشرين

مقدمة الوثيقة

ما الذى يركز عليه الرئيس جورج بوش فى المقدمة التى قدم بها هـــذه الوثـــيقة الخطيرة التى صدرت فى السابع عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١؟

هــو يــبدأ بتأكيد فكرة "نهاية التاريخ" التى سبق للمفكر الأمريكى الــيابانى الأصل فرانسيس فوكوياما أن ركز عليها، وإن لم يشر إليه صــراحة. ذلــك أن يقرر أن "المعارك الكبرى التى دارت فى القرن العشــرين بيــن الحرية والشمولية انتهت بنصر حاسم لقوى الحرية، وبــروز نمــوذج واحــد ومســتدام sustainable للــنجاح القومى، وعناصره هى الحرية والديمقراطية والمشروع الحر. ويمكن القول أنه فى القرن الحادى والعشرين لن يتاح إلا للأمم التى تشارك فى الالتزام بحماية حقوق الإنسان الأساسية وضمان الحرية السياسية والاقتصادية، أن تطلق إمكانيات شعوبها وتضمن رخائها فى المستقبل"

وينــتقل بوش من بعد للتأكيد أن الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بقوة عسكرية لا نظير لها، وبنفوذ اقتصادى وسياسى عظيم. ويقول أنه طــبقاً للتراث الأمريكى وللمبادئ الأمريكية فلن تستخدم أمريكا قوتها للحصول لنفسها على فوائد من طرف واحد. ولكنها – على العكس – تســعى إلــى أن تخلق توازناً فى القوى لتأكيد الحرية الإنسانية. وهو يؤكــد أن أمريكا ستدافع عن السلام من خلال حربها ضد الإرهابيين والحكام الطغاة فى نفس الوقت.

وهو يؤكد أن الدفاع عن الأمة الأمريكية ضد أعدائها هو الالتزام الأساســى للحكومــة الفيدرالــية. وبعــد أن يكرر الرئيس بوش عزم الولايات المتحدة على خوض حرب ضد الدول التى تأوى الإرهابيين، ينتقل للحديث عن أن أخطر ما يواجه الأمة الأمريكية يكمن فى مفترق طــرق الحركات الراديكالية من ناحية والتكنولوجيا من ناحية أخرى. وأعداء الولايات المتحدة أعلنوا عن أنهم يسعون للحصول على أسلحة الدمــار الشــامل، ومن ثم فلن تسمح الولايات المتحدة الأمريكية لهم بالحصول عليها.

وقــد أثبتت أحداث ١١ سبتمبر – يقرر بوش – أن الدول الفقيرة مــثل أفغانســتان يمكــن أن تمثل خطراً شديداً على المصالح القومية الأمريكــية مــثلها فى ذلك مثل الدول الغنية. غير أن الفقر لا يؤدى بالضرورة إلى أن يتحول الناس ليصبحوا إرهابيين أو قتلة. ومع ذلك يمكــن القــول أن الفقر والمؤسسات الضعيفة والفساد يمكن أن يجعل بعــض الدول يسهل اختراقها بواسطة الشبكات الإرهابية والمنظمات الإجرامية التى تتاجر فى المخدرات على أساس عالمى.

وتنتهى مقدمة الرئيس بوش بنسق مترابط من العبارات الإنشائية الأخاذة، إذ نجده يقرر أن الحرية هى مطلب الكرامة الإنسانية الذى لا يمكن التفاوض بشأنه، بل هى حق من حقوق الميلاد بالنسبة لكل شخص، وذلك فى جميع الحضارات. وعبر التاريخ هددت الحرية بواسطة المخططات الشريرة للحكام الطغاة، واختبرت من خلال الفقر المتزايد والمرض. غير أن الإنسانية تمسك اليوم بيدها الفرصة لتعميق نصر الحرية على جميع هؤلاء الأعداء، والولايات المتحدة الأمريكية ترحب بمسئوليتها لكى تقود العالم لتحقيق هذه المهمة العظيمة"

بهذه العبارات ينهى جورج بوش المقدمة التى كتبها لوثيقة استراتيجية الأمن القومى الأمريكى.

والفقرة الأولى من الوثيقة والتى حملت عنوان "نظرة على الاستراتيجية الدولية لأمريكا" هى محض تأكيد على النقاط الأساسية التى ركز عليها الرئيس بوش فى المقدمة، أما الفقرة الثانية وعنوانها "قيادة المطامح لتحقيق الكرامة الإنسانية" فهى تركز على الوسائل التى ستطبقها الولايات المتحدة الأمريكية والتى تحصرها فى أربعة وسائل هى:

- رفع الصوت الأمريكى لإدانة كل ما يؤثر على الكرامة الإنسانية والتصويت فى المؤسسات الدولية للدفاع عن الحرية.
- استخدام المساعدات للدول الأجنبية لتدعيم الحرية وتدعيم أولئك الذين يسعون لتحقيقها باستخدام وسائل غير عنيفة.
- جعل الحرية وتنمية المؤسسات الديمقراطية موضوعات أساسية فى العلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأخرى، مع دفع الدول التى تنكر حقوق الإنسان، لتصحيح مسارها، وأخيراً اتخاذ كافة الخطوات لتدعيم حرية الدين وحرية الضمير والدفاع عنها ضد الدول القمعية التى تخالفها.

وبعبارة موجزة ستتولى الولايات المتحدة الأمريكية الدفاع عن الكرامة الإنسانية ومعارضة من يهددها.

هكذا تكلمت الفقرات الأولى من الإعلان الإمبراطورى الأمريكى الذى أريد منه أن يكون فاتحة لحكم الإمبراطورية الأمريكية العالمية!

[٦]

الانقلاب فى العلاقات الدولية !

لم نكن مبالغين فى الواقع حين أطلقنا على الوثيقة الأمريكية للأمن القومـــى التى أعلنها الرئيس جورج بوش فى السابع عشر من سبتمبر عـــام ٢٠٠٢ بأنهـــا أشبه بالإعلان الأمبراطورى الأمريكى الذى يعد بمثابة فتح الستار عن حقبة هيمنة الإمبراطورية الأمريكية. وقد يكون فـــى استخدام كلمة "حقبة" بكل ما تعنيه من كونها فترة وستنتهى فيها تجـــاوز للمسلمات التى يصدر عنها العقل الاستراتيجى الأمريكى فى الوقـــت الراهـــن، وهـــى تلـــك الـــتى تتمثل فى الإيمان المطلق أن الإمبراطورية الأمريكية وجدت لتبقى للأبد، وبغير أى منافس أيا كان ! ويؤكد ذلك استراتيجية أمريكية معلنة فى بحث أعدته مؤسسة "راند" الشـــهيرة مضـــمونها الأساسى منع ظهور أى منافس أو ند للولايات المـــتحدة الأمريكية، وذلك بتطبيق نموذج معرفى واستراتيجى متكامل فصلته هذه الدراسة الخطيرة.

وحين نؤكد اليوم أن وثيقة الدفاع القومى الأمريكى تمثل انقلابا فى العلاقات الدولية، فهذا الحكم يشترك فى صياغته معنا بعض المفكرين الأوربييـــن الذيـــن التفـــتوا بذكاء شديد إلى خطورة الهيمنة الأمريكية المقننة، وانفرادها بإصدار القرار على مستوى العالم، متجاهلة فى ذلك الأمـــم المـــتحدة ذاتها. ولعل ما يكشف عن ذلك بجلاء شديد تصريح أخـــير للرئـــيس بـــوش قـــرر فـــيه بكـــل بساطة إن لم تصدر الأمم المـــتحدة قراراً بشأن العراق يستجيب للإملاءات والشروط الأمريكية، فمعـــنى ذلـــك أنهـــا ســـتثبت أنهـــا لا قـــيمة لهـــا ولا جدوى منها Irrelevant !

لقد سبق أن أشرنا فى مقالاتنا السابقة إلى كتاب المفكر الفرنسى آلان جوكس "إمبراطورية الفوضى" باعتباره أول نقد أوربى متكامل للإمبراطورية البازغة.

غير أننى - وأنا عائد من باريس بعد رحلة سريعة - اكتشفت أن هذا التيار النقدى ضد السياسات الأمريكية الجديدة يتعمق ويتسع نطاقه فى الدوائر الفرنسية بسرعة، إدراكا لحجم المخاطر على أوربا وعلى العالم، إذا ما أتيح للولايات المتحدة الأمريكية أن تواصل سياساتها العدوانية بغير ضابط أو رادع. ويؤكد هذا الكتاب الذى أصدره الكاتب الفرنسى آلان تود فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر الماضى بعنوان "بعد الإمبراطورية". وفى نفس الوقت تقريباً أصدر الكاتب الفرنسى المعروف جان فرانسوا ريفيل كتابا يستحق التأمل بعنوان "الهوس الخاص المضاد لأمريكا" يحلل فيه أسباب الكراهية للسياسات الأمريكية. ويلفت النظر أخيراً ظهور ترجمة فرنسية لكتاب صدر بالإنجليزية ألفه الكاتب الباكستانى الشهير ضياء الدين سردار والمقيم بصفة دائمة فى إنجلترا مع ميريل دين دافيز وعنوانه "لماذا يكره الناس أمريكا؟" وهو رد على التساؤل الشهير الذى صدر عن الأمريكيين عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر مفاده "لماذا يكرهوننا؟ ومعنى ذلك أن هناك حركة فكرية عالمية بدأت فى التبلور وتنصب على دراسة مختلف جوانب ظاهرة الإمبراطورية الأمريكية البازغة ونتائجها الخطيرة على الأمن العالمى.

انقلاب جذرى

وفى سياق تتبعى لردود الأفعال العالمية لصدور الوثيقة الأمريكية للأمن القومى، لفت نظرى بشدة مقال بالغ الأهمية كتبه الكاتب الصحفى الأمريكى المعروف وليام باف وذلك فى جريدة الهيرالد تريبيون الصادر فى الثالث من أكتوبر عام ٢٠٠٢. وهو - فى حدود علمنا - أول مقال نقدى عنيف ضد الاستراتيجية الأمريكية الجديدة يكتبه كاتب أمريكى وينشره فى صحيفة سيارة واسعة الانتشار. وعنوان مقاله "إعادة النظر الجذرى فى العلاقات الدولية". ونظراً

للأهمية القصوى للمقال سنحاول أن نقدم عرضا لأفكاره الرئيسية، لأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بعرضنا النقدى للوثيقة الأمريكية والذى بدأناه بمقال الأسبوع الماضى.

يقرر وليام باف منذ السطور الأولى من المقال وبشجاعة أدبية ملحوظة "أن الوثيقة الجديدة للأمن القومى الأمريكى التى صدرت فى ٢٠ سبتمبر الماضى هى إلغاء ضمنى لنظام الدولة القومية الذى حكم العلاقات الدولية منذ اتفاقية وستفاليا عام ١٦٤٨".

وهذه الاتفاقية التى أنهت حرب الثلاثين سنة اعترفت بالسيادة المطلقة للدولة وبالمساواة القانونية للدول باعتبار ذلك أساسا للنظام الدولى. وهذه المبادئ الخاصة بالسيادة والمساواة اعترف بها منذ ذلك الحين، حتى فى الحالات التى تمت فيها مخالفتها. وساد إجماع بين الحكومات وخبراء القانون أنه بغير الاعتراف بالسيادة القومية فإن العالم يخاطر بنشوب معارك فوضوية للحصول على القوة.

ويقرر وليام باف أن وثيقة الأمن القومى الأمريكية الجديدة تعد انقلابا جذريا، سواء أدركت ذلك كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومى الأمريكى أم لم تدركه، لأنه يقال أنها هى التى صاغتها.

ويحاول باف أن يجرى مشابهة تاريخية ملفتة للنظر حقاً بين الوثيقة الأمريكية الجديدة وإعلان سابق صدر منذ حوالى ١٥٤ سنة ويعنى به "البيان الشيوعى". ذلك أن هذا البيان أدان النظام العالمى السائد الذى كان يدور حول النظم الملكية والجمهوريات "البورجوازية" داعيا إلى قلبه لصالح شرعية جديدة أسمى من الشرعية الموجودة، وهى شرعية طبقة البروليتاريا.

وقد أعلن البيان أن هذه الشرعية الجديدة ينبغى أن تكون عالمية لتحرير الإنسان. وبعد قيام الاتحاد السوفيتى سعى لوضع هذه الشرعية موضع التطبيق، وذلك فى علاقاته مع باقى الحكومات، وأعلن أن كل الحكومات الأخرى غير شرعية. وهذا هو الذى أدى – كما يقرر وليام باف – إلى أن السياسة السوفيتية أحدثت اضطراباً شديداً فى النظام الدولى، وكانت مزاعمها مطلقة وغير قابلة للتفاوض.

ويضيف الكاتب الأمريكى أن التأويل "العلمى" للعمليات التاريخية – وهو الأساس الفكرى للشيوعية – زعم أن التاريخ تقوده عملية صراع

الطبقات وأن دول العمال فقط هى التى تتسم بالشرعية، على أساس أن العامل الصناعى هو الذى يمثل القوى المنتجة فى المجتمع الصناعى الحديث.

ووفقاً لهذا النظر فإن هناك دولة عمالية واحدة هى روسيا البلشفية، وكل الحكومات الأخرى غيرها استولت على السلطة التى قرر التاريخ أنها ينبغى أن تكون فى يد البرولتياريا، ومن ثم ينبغى تغيير هذه الحكومات فى الأجل القصير أو الطويل.

وبعد هذه المشابهة التاريخية المثيرة ينتقل وليام باف لكى يشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد قررت فى الوثيقة أنها لن تحترم مبدأ السيادة المطلقة للدول. وهى تفعل ذلك لا لكى تستبدل به مبدأ عالمياً جديداً يسعى إلى تحرير الدول، بل إنها تفعله لتحقيق أهداف الأمن القومى الأمريكى، والذى تجعل فيه - وان كان بصورة مضمرة - الأمن القومى لكل الدول الأخرى تابعاً له !

والوثيقة تقرر أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها هى التى إذا قررت أن أى دولة تمثل خطراً مستقبلاً محتملاً بالنسبة لها، أو إذا كانت تؤوى مجموعة تعتبر تهديداً محتملاً، فإن الولايات المتحدة ستتدخل بشكل استباقى فى هذه الدولة للقضاء على التهديد، ولو كان ذلك بتغير نظام الدولة لو كان ذلك ضرورياً. وقد سبق أن أعلنت قائمة بالدول التى تعتبر "محور الشر" ويقول باف أن الإدارة الأمريكية تعتبر أنه من باب قواعد التفكير البديهية إجهاض التهديدات المختلفة.

وهذه المبادرة الأمريكية تهدف فى الواقع إلي تجاوز المبدأ المطبق حالياً فى العلاقات الدولية وهو الشرعية الدولية.

ويلفت الكاتب النظر إلى حقيقة معروفة وهى أن القانون الدولى ليس قانوناً بالمعنى الصحيح للكلمة، ما دامت لا توجد سلطة عليا دولية تطبق أحكامه، ولكنه فى الواقع نظام من المعاهدات والاتفاقيات والسوابق والالتزامات الأخرى التى تمت عبر السنين الطويلة، حاولت من خلالها الدول أن تحد من ظاهرة الحرب، وأن تديم السلام، وأن تجعل مزاعمها الصراعية ومصالحها تخضع للنفع المتبادل وتحقيق الأمن.

وقــد كانت الولايات المتحدة الأمريكية منذ نشأتها منذ قرنين وربع تقريباً إحدى الدول الفاعلة التى ساهمت فى بناء قواعد القانون الدولى الــتى تحــاول إدارة بوش – كما يقرر وليام باف – أن تقضى عليه وتهدمــه. كـــل ذلك مع أن ميثاق الأمم المتحدة هو من بين الاتفاقيات الدولـــية الأساســـية الـــتى أقامت صرح القانون الدولى، والذى قامت الولايـــات المتحدة بمجهود كبير فى صياغته. والميثاق يحرم استخدام "التهديد" أو استخدام القوة ضد التكامل الإقليمى أو الاستقلال السياسى لأى دولـــة، ويعتـــبر ذلـــك مضاداً للقانون الدولى. وأهم من ذلك أن الحـــرب "الاجهاضـــية" اعتبرت فى محاكمات نورمبرج الشهيرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية باعتبارها من جرائم الحرب.

وإذا ما كان سبق صحيحاً، إلا أن الواقع يقول أن أقوى الدول عادة مـــا كانـــت تضع القواعد. ولقد تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية فى شـــئون دول صـــغيرة عديداً من المرات. غير أنه فى الماضى كانت الولايـــات المـــتحدة تحاول أن تجد تبريراً قانونياً لتدخلها، لأنها كانت مازالت – نظرياً على الأقل – تعترف بمبادئ السيادة وعدم التدخل فى شئون الدول الأخرى.

غـــير أنها اليوم بإصدارها الوثيقة الجديدة للأمن القومى تهدر هذه المـــبادئ، وتستبدلها بزعم أن إدراكها الخاص بمصالح بالأمن القومى الأمـــريكى يســـمو علـــى كل شئ آخر. وهى تؤكد نيتها بل وحقها – بفضل منظورها الخاص – فى السيطرة العسكرية على العالم. وهذا – كما يقرر باف – تغير درامى للغاية ومن الأفضل للكونجرس ألا يقر هـــذه الوثيقة، فهى تحتاج إلى نقاش، لأن نتائج تطبيق مبادئها، يمكن على المدى الطويل أن تكون ضارة.

هكذا تكلم بكل شجاعة أدبية وصراحة الكاتب الأمريكى وليام باف، وهو بذلك ينضم مبكراً إلى الحملة الفكرية النقدية التى أطلقها عدد من كـــبار المفكريـــن الأوروبيين، والتى قامت بالتشخيص الدقيق للأزمة الراهـــنة فـــى الـــنظام الدولى، وبكشف المخاطر الحقيقية التى تمثلها الإمبراطورية الأمريكية على الأمن العالمى، وبالدعوة إلى حلف ثقافى عـــالمى جديـــد لمواجهة النزعة الأمريكية الراهنة للسيطرة العسكرية والسياسية على مختلف دول العالم.

وإذا كنا قد عنينا بإبراز الآراء النقدية للكاتب الأمريكى وليام باف، إلا أن ذلك لا يعنى عدم مواصلتنا للعرض النقدى لأبرز أفكار الوثيقة الأمريكـــية وأخطـــرها على الإطلاق، وهى الحق المزعوم للولايات المـــتحدة الأمريكية فى تغيير النظام السياسى لأى دولة فى العالم ترى فيها خطراً يهدد أمن الإمبراطورية القومى!

[٧]

الإمبراطورية فى مواجهة الإرهاب العالمى

هـناك اتفـاق بيـن الباحثين الثقات فى العلاقات الدولية على أن انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الكتلة الاشتراكية حوالى عام ١٩٩٠، أدى إلـى فراغ إيديولوجى خطير. ذلك أن القرن العشرين طوال عمر الحـرب البـاردة اتسـم بالصـراع الدامى بين الرأسمالية من ناحية والشيوعية بكل تنوعاتها من ناحية ثانية.

كان العدو الأساسى بالنسبة للعالم "الحر" كما كان يطلق على الدول الرأسمالية الأوروبية التى يسودها النظام الليبرالى هو الشيوعية. وهذا العـدو صـيغت سياسـات أمريكـية أساسـاً لمواجهته على الصعيد العسـكرى، بـرفع استراتيجية المواجهة إلى مستوى الردع النووى، وعلى الصعيد السياسى بإقامة تحالف عالمى واسع المدى للنضال ضد الاتحـاد السـوفيتى، وعلى الصعيد الثقافى بمحاصرة الفكر الشيوعى وتفنيد مسلمات الماركسية وتطبيقاتها فى مختلف الميادين. بل ووصلت حدة الصراع الثقافى إلى خوض "حرب باردة ثقافية" قامت على أساس غـزو ميادين الفكر والأدب والفن فى مختلف بلاد العالم، ومحاربة الفكـر اليسـارى، والدعوة إلى القيم الليبرالية والرأسمالية، من خلال مجـلات فكرية وأدبية أسستها المخابرات الأمريكية بدون معرفة من يشرفون عليها، وكان من أبرزها مجلة "إنكاونتر" الإنجليزية التى رأس تحريرها الشاعر الإنجليزى الشهير ستيفن سبندر واستقطب للكتابة فيها عـدداً مـن مشاهير الكتاب. وعلى غرارها أنشئت مجلة "حوار" التى صدرت فى لبنان باللغة العربية وشارك فى الكتابة فيها – بغير معرفة

بأصل المجلة وارتباطها بالمخابرات الأمريكية – عدد من كبار الكتاب العرب، بما فيهم كتاب مصريين من المشاهير.

وقد وثقت هذه "الحرب الباردة الثقافية" صحفية إنجليزية نشرت كتابا بنفس العنوان تقريبا، وترجمه ترجمة ممتازة طلعت الشايب، وصدر فى إطار المشروع القومى للترجمة الذى يشرف عليه المجلس الأعلى للثقافة.

سقط الاتحاد السوفيتى وبالتالى اختفى العدو! ماذا تفعل الولايات المتحدة الأمريكية بغير عدو؟ وماذا يفعل حلف الأطلنطى الذى أسس لكى يقف سدا منيعا أمام الاتحاد السوفيتى وحلف دارسو بغير عدو؟

ساد الاضطراب الشديد الدوائر الغربية الاستعمارية، وظلت قيادة حلف الأطلنطى حائزة سنوات وهى تسعى لإعادة صياغة المذهب العسكرى للحلف فى غيبة العدو السوفيتى. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية سادت دوائرها الاستراتيجية حيرة كبرى. ذلك أن أساليب التنشئة الاجتماعية والسياسية السائدة فى المجتمع الأمريكى كانت يقوم على أساس التخويف من "غول" الشيوعية ومن تهديد الماركسية كأيديولوجية سياسية. وكان المجمع الصناعى العسكرى – كما أطلق عليه هذا الوصف الرئيس الأمريكى ايزنهاور – يقوم فى سياساته أساسا على مواجهة الشيوعية من خلال برامج تسليح تكلف الميزانية الأمريكية مبالغ باهظة، وكانت هذه البرامج هى الأداة المثلى لتشغيل عجلة الاقتصاد الأمريكى.

وقد سارع بعض خبراء السلطة الأمريكيين من المفكرين لنجدة الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى رأسهم عالم السياسة الأمريكى الشهير صمويل هنتنجون، حين نشر مقاله الشهير الذى طوره من بعد فى كتاب أحدث دويا فى العالم عن "صراع الحضارات". واصطنع هذا المفكر الأديب صداما حتميا بين الحضارة الغربية من جانب والحضارة الإسلامية والكونفشيوسية من جانب آخر. وهكذا أخيرا عثرت الولايات المتحدة الأمريكية والدوائر الغربية الاستعمارية الأخرى على "العدو" الذى ظل البحث دائراً عنه طوال السنوات التى أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتى.

غير أن الدعوة لصراع الحضارات سقطت من خلال النقد العنيف الــذى وجـــه لهـــا، سواء من داخل الدوائر الفكرية الغربية ذاتها فى الولايـــات المتحدة الأمريكية وأوروبا من ناحية، أو من المفكرين فى العالم عموما وفى العالم الإسلامى خصوصا من ناحية أخرى.

وفجـــأة وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وأعلنت الولايات المـــتحدة الأمريكية حربها الشهيرة ضد الإرهاب، والتى كان شعارها "مـــن ليس معنا فهو ضدنا" ودارت المعركة العسكرية ضد أفغانستان لإسقاط نظام طالبان باعتباره يؤوى تنظيم القاعدة.

غـــير أن كل ذلك لم يكن سوى مقدمات صياغة العدو الجديد وهو "الإرهـــاب العالمى" الذى حرصت استراتيجية الأمن القومى الأمريكية التى أعلنها الرئيس جورج بوش فى السابع عشر من سبتمبر الماضى على رسم ملامحه.

ملامح العدو الجديد

لابـــد لـــى فى هذا المقام أن أشير إلى أن الأستاذ محمد سيد أحمد كـــان سباقا فى الفكر السياسى العربى إلى صياغة نظرية لم يتفق معه كثـــيرون فى صحة مسلماتها، وإن كانت أثبتت الأحداث أنها صحيحة فعـــلا. النظرية تقول بكل بساطة أنه ليس صحيحا أننا نعيش فى عالم أحـــادى القطبية بعد انتهاء النظام الثنائى القطبية. ذلك أننا نعيش فعلا فى إطار عالم جديد ثنائى القطبية أيضاً، ولكن هذه المرة تقف الولايات المتحدة الأمريكية فى قطب، ويقف الإرهاب العالمى فى قطب مضاد.

لم يقبل عديد من الكتاب العرب هذا التحليل، غير أن وثيقة الأمن القومى الأمريكية الجديدة تؤكد صحة أفكار محمد سيد أحمد.

لو رجعنا للفقرة الثالثة من نص وثيقة الاستراتيجية والتى عنوانها "تدعيم التحالفات بهزيمة الإرهاب العالمى والعمل لمنع الهجمات ضدنا أو ضد أصدقائنا الوثيقة تقول بالنص:

"إن الولايات المتحدة الأمريكية تخوض حربا ضد الإرهابيين على الصـــعيد الكونـــى. إن العدو ليس نظاما سياسيا مفردا، وليس شخصا، وليس دينا، وليس إيديولوجية. إن العدو هو الإرهاب، والذى هو العنف

عــن سبق إصرار وترصد والذى توجهه دوافع سياسية، وموجه ضد الأبرياء".

وهكــذا حددت الوثيقة ملامح العدو الجديد الذى ستوجه الولايات المــتحدة الأمريكــية كل جهودها فى السنين المقبلة لمواجهته ودحره. وهو - كما رأينا - عدو غامض الملامح حقا! فهو - بعبارات الوثيقة - ليس نظاماً سياسياً يمكن التعرف عليه أو تحديده، وليس شخصياً ولا ديناً ولا إيديولوجية. إذن من هو العدو؟ تأتى الإجابة البالغة الغموض، هــو الإرهاب - هكذا على الإطلاق- الذى ينتشر فى كل مكان وكأنه الهواء الذى يتنفسه البشر!

ألــم تذكر بعض التصريحات الأمريكية من قبل أن شبكة القاعدة ينتشر أنصارها فى أكثر من ثمانين قطراً فى العالم!

ويعــنى ذلــك أن النضال الأمريكى ضد الإرهاب ستتسع جبهته لتشمل العالم كله، وهذا النضال - حسب نفس التصريحات - ليس له مجــال زمــنى محدد، بل إنه قد يمتد إلى الأبد! أليست هذه ميتافيزيقا سياســية مبــتكرة تصوغها الولايات المتحدة الأمريكية، لتبرز هيمنته الإمــبراطورية البازغة على مقدرات العالم كله السياسية والاقتصادية والثقافية؟

وتقــرر الوثــيقة بهذا الصدد " إن الصراع ضد الإرهاب العالمى يخــتلف عن أى حرب أخرى دارت فى التاريخ. لأنها ستحارب على جبهات متعددة ضد عدو يتسم بالمراوغة، وذلك فى إطار زمنى ممتد. والــنجاح ســيتحقق مــن خلال التراكم المستمر للنجاحات، وبعضها سيمكن رؤيته وبعض صور النجاح لن يكون فى الإمكان رؤيتها".

وحــتى تبرر الوثيقة توسيع نطاق الهيمنة الأمريكية لتشمل العالم كلــه تقــرر أن جــبهة أفغانســتان التى تحررت، وإن كانت القوات الأمريكــية مازالت مستمرة فى عملية اصطياد أعضاء حكومة طالبان وعناصر القاعدة، فإن ذلك لا يعنى نهاية الحرب ضد الإرهاب. وتقرر الوثيقة بالنص "إن آلاف الإرهابيين المدربين مازالوا يكونون خلايا فى أمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، وأوروبا وأفريقيا، والشرق الأوسط وغير آسيا".

ومعنى ذلك أن الإرهابيين موجودون فى كل مكان فى العالم، مما يـبرر أن تشن الولايات المتحدة الأمريكية حربها ضدهم بغض النظر عن الحدود السياسية التى تفصل قطراً عن آخر، تجاهلاً لمبدأ سيادة الدولة الذى استقر فى العلاقات الدولية منذ اتفاقية "وستفاليا" حتى الآن، والذى تريد الامبراطورية الأمريكية أن تلغيه من الوجود.

وحين انتقلت الوثيقة لتتحدث عن وسائل الولايات المتحدة الأمريكية لتنفيذ حربها ضد الإرهاب قررت أنها ستستخدم فى ذلك كل عناصر القوة القومية والدولية.

وتقرر الوثيقة بكل صراحة ووضوح أن الولايات المتحدة الأمريكية ستسعى إلى تحقيق التعاون مع المجتمع الدولى فى هذا الصدد غير أنها "لن تتردد في أن تتصرف بمفردها إذا اقتضت الضرورة لممارسة حق الدفاع عن النفس من خلال الضربات الإجهاضية ضد الإرهابيين لمنعهم من إلحاق الأذى ضد شعبنا وضد بلدنا".

وهكذا يقنن مذهب بوش الذى صيغ منذ فترة والذي أريد منه تجاوز استراتيجيات الاحتواء والردع التي سادت طوال عصر الحرب الباردة، والانتقال إلي الضربات الإجهاضية. وهو نفس المبدأ الذي اعتمدت عليه الولايات المتحدة الأمريكية في خطتها لضرب العراق، حين وجه الرئيس بوش في خطابه فى الأمم المتحدة إنذارين إحداهما للعراق، والثاني للأمم المتحدة، علي أساس أن مجلس الأمن لو لم يصدر قراراً جاسماً ضد العراق فإن الولايات المتحدة ستنفذ خطتها في غزو العراق لنزع أسلحة التدمير الشامل وتغيير النظام السياسي له بالقوة!

ولا تنسى الوثيقة فى ختام هذه الفقرة أن تقرر أن الولايات المتحدة الأمريكية في حربها ضد الإرهاب العالمي لن تنسى أنها تحارب من أجل القيم الديموقراطية الأمريكية وأسلوبها فى الحياة.

ترى أى قيم ديموقراطية تلك التى تبرر للإمبراطورية الأمريكية أن تدوس على القانون الدولي، وتتجاهل مجلس الأمن، وتغزو بالقوة العسكرية دولة عضواً فى الأمم المتحدة لتغيير نظامها السياسي؟

[٨]

أوهام نظرية التغيير السياسى بالقوة !

لـم أجد فى وصف السلوك السياسى الأمريكى فى الآونة الراهنة، والـذى تكشـف عـنه خطة الولايات المتحدة الأمريكية المعلنة لغزو العـراق وتغيـير نظامه السياسى بالقوة العسكرية، أدق ولا أبلغ من العبارات الافتتاحية التى صدر بها الكاتب الفرنسى "إيمانويل تود" كتابه الصـادر حديثا بعنوان "ما بعد الإمبراطورية: مقال عن تفكك النظام الأمريكى".

يقول تود بالنص فى مقدمة الكتاب :

" الولايـات المـتحدة الأمريكية فى سبيلها لتصبح مشكلة بالنسبة للعـالم. وكـنا قد تعودنا على اعتبارها حلاً للمشكلات. وذلك لكونها كانـت ضامنة للحرية السياسية وللنظام الاقتصادى خلال نصف قرن. غير أنها اليوم تبدو بشكل متصاعد عاملاً من عوامل الفوضى الدولية، بحكـم إثارتهـا للصراع وعدم اليقين. وهى تطلب من العالم كله أن يعـترف أن بعـض الدول ذات الأهمية الثانوية "تمثل محوراً للشر" ويـنبغى ضربها والقضاء عليها، وهى عراق صدام حسين والذى هو ظاهـرة صـوتية أكثر مما يمثل قوة عسكرية، وكوريا الشمالية التى يقودها كيم جونج والتى تمثل أول و"آخر" نظام شيوعى أسس للوراثة فـى مجال الخلافة السياسية، والذى هو فى الواقع من رواسب عصر مضى، وهو نظام مرشح للاختفاء فى غيبة أى تدخل خارجى، وإيران التى يتم الهجوم عليها بشكل مهووس، والتى وإن كانت دولة هامة من وجهة النظر الاستراتيجية، إلا أنها منغمسة فى الواقع فى عملية تهدئة داخلية وخارجية".

ويضيف "تود" أن كبار حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية تشتد بهم الحيرة، ويعصف بهم القلق من جراء السياسات الأمريكية، وآثارها السلبية على دولهم.

والواقع أن هذا الوصف البليغ لاتجاهات السياسة الأمريكية الراهنة، يعبر فى الواقع عن القلق العميق الذى أصاب المجتمع العالمى نظراً للاندفاع الخطير والمبالغة الشديدة فى ردود الفعل الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

الفأس المدفونة والفتنة النائمة

ولعل ما يكشف عن السياسات الخطرة التى تتبناها إدارة الرئيس جورج بوش الابن، نظرية أساسية عن تغيير المجتمعات من الوجهة السياسية والثقافية باستخدام القوة، سواء كانت قوة مسلحة كما هو الحال فى خطة غزو العراق وتغيير نظامه السياسى، أو كانت قوة التهديد بعقوبات متنوعة سياسية أو اقتصادية إن لم ترضخ بعض المجتمعات، وخصوصاً فى منطقة الشرق الأوسط للتوجهات الأمريكية بصدد ضرورة الإصلاح السياسى والثقافى وفقاً للمعايير الأمريكية.

ويلفت النظر فى نقد هذه النظرية الأمريكية البازغة فى مجال التغيير القسرى للمجتمعات، التحليل البالغ الذكاء للكاتب الأمريكى ويليام فاف والذى نشرت جريدة "الاتحاد" ترجمة له بعنوان " لا تقارنوا إعادة بناء الشرق الأوسط بإعادة بناء أوروبا بعد الحرب" (راجع "وجهات نظر" فى ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢).

وهو – استناداً إلى نوع من المشابهة بين أنماط الأدباء الأمريكيين – والذى كانوا يتوزعون بين قطبى الاعتدال والتطرف – يصنف السياسيين الذين يجتهدون فى آرائهم فى مجال السياسة الخارجية الأمريكية بين ما يطلق عليهم السياسيين "البيض" ويقصد المعتدلين الذين يبحثون عن بدائل أخرى لحرب الشرق الأوسط، والسياسيين "الحمر" أو المتطرفين، الذين يقومون بمهمة التخطيط وإعادة إنشاء وتوسيع ذلك النظام العالمى الجديد، الذى كان قد دعا إلى تأسيسه من قبل الرئيس جورج بوش الاب أثناء حرب الخليج، وإن كان لم يستكمل

الدعوة إليه لكونه بالغ التعقيد والخطورة. أما إبنه الرئيس بوش فهو كما يقرر فاف يبحث عن الفأس المدفونة والفتنة النائمة، بمعنى بعثه مـن جديد لفكرة نظام عالمى تهيمن الولايات المتحدة الأمريكية على مقدراتــه بالكامل، بما يتضمن حكمها المطلق فى تأديب خصومها ولو باسـتخدام القوة المسلحة، تطبيقاً لنظرية الضربات الإجهاضية، أو فى "تهذيب" سلوكهم السياسى والاجتماعى والثقافى من خلال فرض خطة للتغيير القسرى عليهم.

ولعله قد آن الأوان لطرح الأسئلة الهامة الخاصة بمدى صحة هذه الـنظرية الجديدة التى تتبناها الإمبراطورية الأمريكية البازغة، ومدى قدرتها وفاعليتها فى مجال التغيير السياسى والاجتماعى والثقافى لبنية عـدد مـن المجـتمعات المعاصرة، التى لا ترضى الولايات المتحدة الأمريكية عن نظمها السياسية وتوجهاتها الثقافية.

لـنلق نظـرة أولاً علـى إدراك بعض المتطرفين الأمريكيين من أصحاب هذه النظرية. وفقاً لهؤلاء - كما أورد فاف آراؤهم فى مقاله - "لا مـناص من إنقاذ منطقة الشرق الأقصى الكبرى" التى تمتد من أفريقـيا شـمالاً وحتى دولتى أفغانستان وباكستان من أزمتها التنموية المستفحلة وتخليصها من تطرفها"

ولكن كيف يمكن أن تتم مهمة الإنقاذ التاريخية هذه؟

يجيـب هـؤلاء المنظرين العباقرة يتم ذلك بتوفير نوع جديد من الديمقراطـية والـنظام الاقتصـادى والأخذ بيد شعوب منطقة الشرق الأوسط حتى تتمكن من اللحاق بركب الحداثة، وخلق مجتمعات مدنية حديـثة تمكـن شعوب المنطقة من التنافس والقدرة على الانسجام مع العالم الحديث دون فقدان الشعور بالتفرد والخصوصية الثقافية.

صحة التشخيص وبطلان النظرية!

وإذا تأملنا هذا التشخيص الأمريكى للسلبيات الخطيرة التى تكتنف الممارسات السياسية والاجتماعية والثقافية لعديد من المجتمعات الواقعة فـى "دائرة الشرق الأقصى الكبرى" المشار إليها فليس هناك من شك فى أنه تشخيص سليم تماما. فمن ينكر سيادة النظم الشمولية والسلطوية

فـــى غالبـــية هـــذه المجتمعات، والتى ترتب عليها القضاء التام على المجـــتمع المدنـــى أو حصــــاره حصارا شديداً، مما قضى عمليا على التعددية السياسية والفكرية، وأدى فى النهاية إلى الانتقاص الشديد من الحقوق السياسية والاقتصادية والثقافية للمواطنين.

ومـــن الذى يستطيع أن ينكر أنه فى عديد من هذه المجتمعات - ولأســـباب سياســـية ودولية وثقافية شتى - تسود ثقافات محافظة وفى بعـــض الأحـــيان بالغـــة الرجعية، تريد أن تجعل من الماضى البعيد المرجعـــية الأساســـية فى القيم والاتجاهات والسلوك، يأسا من صلاح الأحـــوال فى الحاضر، وتشككا فى المستقبل. وهذه الثقافات المحافظة والرجعـــية لـــم تقف آثارها المدمرة عند حدود تعويق عملية التحديث النســـبى بالـــرغم مـــن تعـــثرها الأصلى نتيجة للممارسات الشمولية والسلطوية، وإنما تجاوزت ذلك لتشكيل البيئة الفكرية الحاضنة للتشدد الديـــنى والعـــنف الفكرى، والذى كان هو نفسه الباعث على موجات الإرهاب العنيفة التى طالت عديدا من المجتمعات، تحت شعارات شتى أبـــرزها تكفير الدولة والمجتمع والدعوة إلى الانقلاب تمهيداً لتأسيس الدولـــة الإســـلامية الفاضلة، التى لا يمكن - فى نظرهم - أن يأتيها الباطل من أمامها أو من خلفها!

وهـــذا التشخيص ليس جديدا علينا فى المجتمع العربى فى الواقع. فقـــد تكفلـــت موجات النقد الذاتى العربى بتشخيص سلبيات الممارسة السياســـية والاقتصادية والثقافية فى المجتمع العربى، من خلال بحوث مـــتعمقة، اعـــتمدت المنهج النقدى فى التحليل والمنهج المستقبلى فى التماس الحلول. ويكفى للتدليل على صحة كلامنا مراجعة أدبيات النقد الذاتـــى العـــربى فى العقود الماضية، ولعلنا - على سبيل التمثيل لا الحصر - نقف فى مجال التشخيص عند ندوتين عربيتين بارزين.

الـــندوة الأولـــى نظمتها جمعية الخريجين الكويتيين عام ١٩٧٤ ونشرت أعمالها بعنوان "أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى". وهـــى بأبحاثها وتعليقاتها ومناقشاتها نموذج رفيع للنقد الذاتى العربى، والـــندوة الثانية هى "أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى" التى نظمها مركـــز دراسات الوحدة العربية فى بيروت منذ أكثر من عشرين عاما فى قبرص، وهى الندوة التى أتيح لى الإسهام فيها، وهى التى شهدت

مولـــد "المنظمة العربية لحقوق الإنسان"، والتى كانت شهادة على أن المثقفيـــن العرب النقديين قد انتقلوا من مستوى الكلام إلى ميدان الفعل الخـــلاق والجســـور، ســـعيا وراء ترسيخ الديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان فى الوطن العربى.

أما الندوة البارزة التى تكشف عن تبنى المنهج المستقبلى فى مجال التغيـــير السياسى والاقتصادى والثقافى المخطط لنقل المجتمع العربى المعاصـــر إلى آفاق العصرية، فهو الندوة التى نظمها مركز دراسات الوحـــدة العربـــية فـــى المغـــرب، ونشرت أعمالها بعنوان "المشروع النهضـــوى العـــربى". وهى تتضمن إسهامات أبرز المفكرين العرب المعاصـــرين فـــى مجال التغيير السياسى والاجتماعى والثقافى، الذى يـــنطلق أساساً من "أسفل" وليس من "أعلى". ويقصد بذلك التغيير الذى ينطلق من ارتفاع الوعى الاجتماعى للقواعد الشعبية العربية، من خلال تفعيل أداء مؤسسات المجتمع المدنى المختلفة، والتى تتضمن الأحزاب السياســـية، بمختلف توجهاتها والنقابات المهنية والعمالية، والمنظمات غـــير الحكومية بكل تنوعاتها. وذلك إيمانا منهم أن التغيير من "أعلى" ونقصـــد مـــن خـــلال النظم السياسية الحاكمة غالبا ما تشوبه نزعات الوصـــاية علـــى الشـــعوب، واتجاهات الرقابة والحصار على حركة المجتمع.

وإذا كان المثقفون العرب لا يثقون فى قدرة النظم السياسية العربية علـــى التغيير من "أعلى" مع أنها فى جميع الأحوال نظم وطنية، فهل يمكـــن أن يقـــبل المـــثقفون العرب أو المسلمين والشعوب العربية أو الإســـلامية أن يـــأتى التغيير من "أعلى" عن طريق الولايات المتحدة الأمريكية؟

وحـــتى بفرض هذا القبول، حتى ولو كان قسريا، هل يمكن لهذا التغيير بالقوة أن ينجح؟

فـــى تقديـــرنا أن النظرية الأمريكية فى التغيير بالقوة تنطلق من تجـــاهل مطلق للقواعد العلمية للتغيير السياسى والاجتماعى والثقافى، وسببه الاندفاع الجنونى والحماقة السياسية التى تدفعها الرغبة العارمة فـــى تحقـــيق المصالح الأمريكية، كما يعرفها الإدراك الضيق للنخبة السياسية الحاكمة فى إدارة الرئيس بوش.

غــير أنــه أخطــر من ذلك كله، ان هذه النظرة يجهل أصحابها الــتاريخ السياســى والاجتماعى لعديد من المجتمعات المعاصرة التى يــريدون تغيــيرها بالقوة. وهذا الجهل ليس سببه قلة المعلومات، فهم يعــرفونها ولكــن مرده أساسا إلى العجز عن فهم المنطق الكامن فى سـلوك هــذه الشعوب، ومكونات ذاكرتها التاريخية، التى تدفعها إلى مقاومة الهيمنة الأجنبية، حتى ولو اتخذت فى الحاضر شكل الاستعمار الجديد الأمريكى.

لقد أخطأت الولايات المتحدة الأمريكية فى فهم التاريخ الاجتماعى الفيتنامى مِن قبل، ولذلك لقيت هناك فى ساحة المعركة هزيمة ساحقة بفضل نضال الشعب الفيتنامى ودفاعه عن حريته واستقلاله. ولا نبالغ لــو قلنا أن الولايات المتحدة الأمريكية بكل جبروتها العسكرى ستفشل فــى مغامــرتها السياسية لحكم العالم كله بالحديد والنار، لسبب بسيط مؤداه أن سلوكها الإمبراطورى مضاد لمنطق التاريخ.

[٩]

أمراض الخيال السياسى الأمريكى !

لا يمكن لصانعى التاريخ من الزعماء والقادة السياسيين على الصعيد العالمى أو الإقليمى أو المحلى أن يتخذوا قراراتهم الخاصة بالمستقبل، بغير شحذ خيالهم السياسى الى أقصى درجة ممكنة. غير أن شحذ الخيال السياسى والاستناد إليه فى رسم الخطط وصياغة الاستراتيجيات وتنفيذ السياسات تحيط به مخاطر شتى، لعل أهمها الوقوع فى شرك التفكير الرغائبى- إن صح التعبير- أى إعلاء الرغبة فى حدوث تطور معين عل حساب اعتبارات الواقع. وهنا تحل اليوتوبيا أى العوالم المثالية الغير قابلة للتطبيق محل السياسات الواقعية.

وهناك أمثلة بارزة على مغامرات الخيال السياسى المبهرة، لعل أبرزها فى التاريخ المعاصر تأسيس وإنشاء الاتحاد الأوربى. لقد نشأت أوربا الموحدة فى ذهن مفكر متميز هو "مونيه"، غير أنها سرعان ما تحققت بالتدريج، من مجرد اتحاد اقتصادى، توجّه توحيد العملة الأوربية وقيام "اليورو" باعتبارها وجدة نقود عالمية منافسة للدولار الأمريكى ، الى اتحاد سياسى توجّه نشأة البرلمان الأوربى. ولعل الاجتماع الأخير للاتحاد الذى انتهى منذ أيام قليلة بقراراته التاريخية التى تهدف الى توسيع الاتحاد بضم أكثر من عشر دول أوربية شرقية إليه، بحيث يصبح الاتحاد ممثلا فعلا لقارة أوربا مما يجعلها قوة عالمية مؤثرة ، يرسخ قيمة الخيال السياسى الايجابى، الذى من خلال العقلانية بكل ما تحمله من رشد فى التخطيط وكفاءة فى التنفيذ وديموقراطية فى اتخذا القرار ، وعدم القفز حول المراحل، استطاع أن يحول الحلم الى واقع .

وعلى عكس ذلك تماما فإن الخيال السياسى، الذى مارسه عدد من أبرز القادة السياسيين القوميين العرب، وربما كان على رأسهم الزعيم جمال عبد الناصر، لم يكن خيالا سياسيا فعالا ، لأنه وقف عند حدود التمنى، ولم يستطع أن يعبر الفجوة العميقة بين حلم تحقيق الوحدة وواقع التجزئة الإقليمية.

وبالرغم من المشروعية التاريخية للهدف ، ونبل مقاصد الساسة العرب الذين طمحوا الى تحقيق الوحدة ، إلا أنهم - على عكس القادة الأوربيين- لم يستطيعوا أن يدرسوا الواقع العربى بجوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية بشكل علمى وموضوعى وواقعى، وتجاهلوا ظواهر التناقض الشديد بين الأنظمة السياسية العربية، والتفاوت العميق فى درجة النضج الاجتماعى والاستنارة الثقافية بين البلاد العربية .

الخيال الأمريكى المريض

والواقع أننا أردنا بالملاحظات السابقة التركيز على شرعية لجوء صانع القرار الى شحذ الخيال السياسى، مع التفرقة بين الخيال السياسى الايجابى الذى ينطلق من الرغبة فى تحقيق أهداف مشروعة، باستخدام أدوات لا تتناقض مع المواثيق الدولية، والخيال السياسى السلبى الذى يسعى الى تحقيق أهداف غير مشروعة، ويصطنع لذلك أدوات وسياسات تتناقض تناقضا بينا مع القانون الدولى.

وفى تقديرنا أن الخيال السياسى الأمريكى الذى أفصح عنه الرئيس بوش وأعضاء إدارته فيما يتعلق بغزو العراق وتغيير نظامه السياسى بالقوة المسلحة ، وأبعد من ذلك سيناريو الحكم الأمريكى المباشر للعراق بواسطة قائد عسكرى أمريكى، هو من نمط الخيال السياسى السلبى، بل إنه فى الواقع خيال مريض يقوم على التمنى، ولا يأبه لا لمخالفته لكل القوانين والأعراف الدولية فقط ، ولكن أهم من ذلك يستهين بالصعوبات الحقيقية لتنفيذ هذا السيناريو، ويقلل بشكل مشين من أهمية احترام كرامة الشعوب ، وحقها فى أن تحكم نفسها بنفسها، مهما استبدت بعض نظمها السياسية بمقدرات المجتمع.

ولو رجعنا الى التقرير الذى رفعه للكونجرس كينيث كاتزمان الخبير فى شئون الشرق الأوسط وذلك فى الثالث من أكتوبر الجارى وعنوانه "العراق: جهود الولايات المتحدة الأمريكية لتغيير النظام" لوجدناه يوثق بشكل دقيق سياسة الولايات المتحدة إزاء تغيير النظام السياسى العراقى منذ إدارة كلينتون حتى إدارة بوش، مع التركيز على حقبة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر، والتى تميزت بالإصرار الأمريكى على أن تنتزع من مجلس الأمن قرارا يخولها الغزو العسكرى للعراق، إن لم يستجب العراق الى الشروط الأمريكية التعجيزية.

ويلفت النظر حقا أن جريدة "الموند" الفرنسية كان "المانشيت" الرئيسى لها فى عددها الصادر فى ١٣-١٤ أكتوبر٢٠٠٢ هو "نحو حكم أمريكى للعراق" ؟

وهى تبدأ تحقيقها الصحفى الأساسى فى الموضوع بقولها أن التصورات الأمريكية لما بعد صدام تهدف الى الحكم المباشر للعراق والذى سيستمر سنوات طويلة. والخطط الأمريكية التى تقدم تصورا لسيناريوهات لحقبة ما بعد صدام حسين، بعد هزيمة العراق عسكريا والقضاء عليه، أوردتها جريدة "النيويورك تايمز" فى مجموعة من المقالات، وقد أكد خطوطها الرئيسية المتحدث باسم البيت الأبيض. وقرر باول وزير الخارجية الأمريكية فى أحاديث إذاعية أنهم درسوا سيناريوهات مستوحاة من نماذج تاريخية مختلفة ، أبرزها حالة ألمانيا واليابان بعد هزيمتهما فى الحرب العالمية الثانية، والجهود الأمريكية التى بذلت للقضاء على روح "العسكرة" فى كلا المجتمعين وإدخال مجموعة متنوعة من التعديلات الديموقراطية على نظمهما السياسية.

وفى ضوء الخيال السياسى الأمريكى المريض فإن الجنرال تومى فرانكس قائد القيادة المركزية والذى سيقود الحملة العسكرية ضد العراق، سيكون هو بعد الانتصار (المؤكد فى نظرهم) حاكم العراق الذى سيدير شئونه بعد الحرب .

ووفقا لهذه التصورات فإن الجيش الأمريكى سيحكم العراق حكما مباشرا قد يمتد لسنوات طويلة، مما يسمح بعبور فترة الانتقال، وإعطاء مقاليد الحكم الى سلطة مدنية وضمان الوحدة الإقليمية للعراق،

وهـو بلـد ينقسـم بشدة سياسيا وعرقيا. وفى نفس الوقت سيقدم قادة العراق الى محاكمات عن جرائم الحرب التى ارتكبوها. وستستمر هذه الفـترة سـنوات طويلة، وستكون الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة لانفاق مليارات الدولارات لتحقيق الإصلاح المطلوب.

هـذه هى الخطوط العريضة للخيال السياسى الأمريكى فيما يتعلق بوضع العراق بعد هزيمة النظام العراقى والقضاء على صدام حسين. ومن الواضح أن هذا السيناريو المقترح عبارة عن تبسيط مخل للواقع السياسى المعقد فى العراق وتسطيح فكرى شديد فى تصور المستقبل.

وعلـى عكـس هـذه الأفكـار نشـر المعهد الدولى للدراسات الاسـتراتيجية فى لندن تقريرا يستحق التأمل العميق، لأنه يشير بدقة الى العقبات الكبرى التى ستواجه القوات الأمريكية إذا ما أتيح لها أن تهـزم العـراق وتقضى على نظام صدام حسين (راجع التقرير على الإنترنت- موقع إسلام أون لاين فى ٣٠/٧/٢٠٠٢).

ويـبدأ التقرير بداية سليمة حين يقرر أنه من الصعب للغاية توقع الأحـداث عقـب الغـزو العسكرى الأمريكى. غير أن محاولة إعادة تأسـيس السياسـة العراقية على يد الاحتلال الأمريكى المحتمل أمر معقـد، لأن هذا الاحتلال سيكون مجبرا على التنسيق مع القوة الفعالة داخـل نسـيج المجتمع السياسى العراقى، والذى يتشكل من جماعات مخـتلفة الـرؤى والـولاءات. فبعضها يجهر بمعاداة النظام الحالى، وبعضها الآخر يتحالف معه سراً ، وبعضها الثالث يؤيده بشكل كامل.

وبغـض الـنظر عن السيناريو الخاص باحتمال انقلاب فرق من الجيش العراقى ضد صدام حسين إذا تم الغزو ، فإن الإدارة الأمريكية لابد لها أن تجيب على سؤالين رئيسين: كيف ستعيد الولايات المتحدة تأسـيس وتدشـين الدولة العراقية ؟ وماهى القوى العراقية التى يمكن للولايات المتحدة الاعتماد عليها فى سبيل تنفيذ مخططها ؟

ويقـرر الـتقرير أن الولايات المتحدة الأمريكية ستكون معرضة للتأرجح بين خيارين لا ثالث لهما: أما الإدارة عن قرب، أو رفع اليد عن الدولة.

والخـيار الأول ونعـنى "الإدارة عن قرب" يتطلب من الولايات المتحدة الأمريكية جهدا متواصلا لإعادة تأسيس السياسة العراقية. ولن

ينصرف هذا فقط الى المؤسسات العامة الحكومية فقط ، بل لابد له أن يمتد الى جميع شبكات السلطة، والى جميع المصالح التى تحرك هذه المؤسسات . وهذا معناه إدخال مبادئ جديدة فى الحياة العراقية يتم تدعيمها وتطبيقها فى عقول عدد معين من السكان العراقيين على كافة المستويات.

ولكن تبرز هنا مشكلتان: أولاهما أن المعارضة العراقية تفتقر الى النفوذ الاجتماعى الذى يجعلها قادرة على حمل عبء مشروع "إعادة التأسيس". والمشكلة الثانية تتمثل فى كيفية إخضاع جميع اللاعبين العراقيين لقوانين "اللعبة العراقية الجديدة" . ذلك أنه ستكون هناك بالطبع أطراف مقاومة لتلك القوانين. وقد تتحول المقاومة الى صراع يستدعى بالضرورة تعظيم دور قوات الأمن العراقية فى الدولة الجديدة. ، ومعنى ذلك – ويا للتناقض– إعادة إنتاج النظام القمعى الذى ساد فى عصر صدام حسين !

ولاشك أنه – بالإضافة الى المقاومة على المستوى المحلى– فإن أطرافاً أخرى على المستوى الإقليمى كإيران لن تقبل بسهولة التواجد الأمريكى فى العراق، وسيقلق من هذا التواجد دول أخرى مثل تركيا والسعودية وسوريا .

أما الخيار الثانى فهو رفع اليد عن الدولة، بدلا من إحكام القبضة على كل صغيرة أو كبيرة فى العراق. وسيؤدى هذا الخيار الى ايجاد فضاء متسع لمختلف المنظمات السياسية العراقية لكى تلعب أدواراً مهمة على الساحة العراقية تحت المظلة الأمريكية، غير أن قيادات الجيش ستكون لها اليد العليا لأنها الوحيدة القادرة على استخدام جميع أساليب العنف.

وأيا ما كان الأمر، فيبدو – كما يقرر التقرير– أن ما سيتبقى من نظام صدام سيعيش وسيستمر حتى بعد زواله!

هذه هى الصورة الواقعية للمشكلات الجسيمة التى ستواجه الخيال السياسى الأمريكى فى تصوراته لحقبة ما بعد صدام حسين، ونرجو ألا يمتد هذا الخيال السياسى المريض الى تصور أن الجنرال تومى فرانكس إذا ما نصب حاكما عسكريا للعراق سيكون له الحق فى تمثيل العراق فى اجتماعات جامعة الدول العربية !

[١٠]

النظرة النقدية فى مواجهة العقول المغلقة !

تتشـــابه العقـــول المغلقة لقيادات التيارات الإسلامية الإرهابية مع العقـــول المغلقـــة لقيادات الإدارة الأمريكية! و من هنا يصدق الباحث الباكستانى المعروف طارق على فى كتابه الأخير الصادر حديثا، حين يقـــرر أن المطـــروح على العالم ليس صراعاً بين الحضارات، ولكنه صدام بين الأصوليات!

الأصـــولية الأولـــى رجعية هدامة تريد أن تشعل فى العالم حرباً دينـــية بيـــن المسلمين وغير المسلمين، زاعمة أنها بذلك ترفع رايات الإسلام الصحيح، والثانية أصولية سياسية يمينية متطرفة، متحالفة مع أصولية صهيونية تتمسح فى المسيحية.

وتثبـــت بحوث علم النفس الاجتماعى أن العقل المغلق Closed mind فـــى مجال التعصب والجمود العقائدى له بنية محددة وسمات بـــارزة، تتواجد بين المتعصبين سواء كانوا ينتمون إلى اليمين أو إلى اليســـار. فاليمينى المتعصب يتشابه مع اليسارى المتعصب فى مجال نمـــط ادراكاته للواقع وآلية تفكيره. أثبتت هذه الحقائق البحوث العلمية النفسية التى أجريت على عينات متعددة من المتعصبين السياسيين.

ولعله من بين الملامح البارزة لهذا الفكر المتعصب أن أصحابه لا يملون من تكرار ترديد نفس الأحكام بنفس الصورة، وبغض النظر عن تغيرات الواقع، أو ردود الأفعال السلبية لأفعالهم، وسواء صدرت من أنصارهم أو من أعدائهم.

ولو طبقنا هذه الملاحظات على خطاب بن لادن وأصحابه، لوجدنا أن الـــرجل لا يمـــل مـــن تكـــرار نفس المعانى المكررة فى خطاباته

السابقة، سواء فى ذلك قبل أحداث ١١ سبتمبر أو بعدها. وهو لا يتردد فـــى رفع شعارات الحرب الدينية ضد غير المسلمين. ولو ولينا وجهنا إزاء تصـــريحات الرئـــيس بوش ونائبه تشينى ووزير الخارجية باول لوجدنا – ويا للمفارقة – أن نفس ملامح خطاب بن لادن ظاهرة تماما فى خطاباتهم!

بـــالأمس فقـــط إســـتمعت إلى تصريح للرئيس بوش على شاشة التلـــيفزيون قـــال فيه ما نصه، لقد قلت وأكدت فى خطبى خطابا بعد خطـــاب أن مجلـــس الأمن لو لم يصدر قرارا يخول الولايات المتحدة الأمريكية ضرب العراق عسكريا فإنها ستقوم منفردة بهذا العمل حفاظا علـــى أمنها القومى. وهو بذلك يشير إشارة واضحة إلى سمة التكرار فى خطابه، وهى الملاحظة التى تصدق على تصريحات تشينى وباول ورامزفـــيلد. وأهـــم من ذلك كله عدم استعدادهم على الإطلاق لقبول الملاحظـــات النقدية على قرارات الحرب التى أصدروها، بل إنهم من قبيل العناد العقيم – وهو إحدى سمات العقول المغلقة – يردون بنفس الطريقة على هذه الملاحظات برفضها المطلق، تحاشيا لأى تعديل ولو نسبى لمواقفهم المبدئية.

الرؤية النقدية

ويمكن القول أنه فى مواجهة هذه العقول المغلقة هناك رؤى نقدية لخطـــاب الحـــرب، بـــرز أساســـا فى خطاب مجموعة من المثقفين والأكاديميين الأمريكيين الذين نقدوا خطاب زملائهم الذين أصدروا من قبل خطابا يبررون فيه "الحرب العادلة" الأمريكية ضد الإرهاب.

وقـــد سبق أن تحدثنا عنهم باعتبارهم صوت العقلانية الأمريكية. وانتقدنا البعض على أساس أننا أعلينا من شأن موقف علنى إتخذه مائة مـــثقف أمريكى معارض، لا وزن لهم فى الشارع السياسى الأمريكى. غـــير أنـــنا رددنا عليهم أن جدل التاريخ لا يتوقف، وأن هذا الموقف النقدى الجسور لابد أن يحرك الشارع بعد فترة. وقد صدق هذا التنبؤ، بعـــد أن حملـــت الأنـــباء أخـــبار المظاهرة الحاشدة التى تجمعت فى واشنطن حول النصب التذكارى لضحايا حرب فيتنام، ووصلت أعداد المشاركين فيها إلى مائة ألف متظاهر. واعتبرت من أكبر المظاهرات

التى تمت منذ حرب فيتنام، وهى مظاهرة رفعت شعارات مضادة للحرب ضد العراق.

غير أن الرؤية النقدية ظهرت بارزة جلية فى تصريحات نخبة من السياسيين الأمريكيين الذين شغلوا مناصب هامة فى الإدارات الأمريكية السابقة، وكذلك عدد من قادة الجيش الأمريكى السابقين، مما يؤكد أن جزءا لا يستهان به من النخبة السياسية والعسكرية ضد الحرب، بالإضافة إلى المظاهرات الشعبية الحاشدة. ومعنى ذلك أن هناك معركة دائرة فى المجتمع الأمريكى بين أصحاب الرؤية النقدية وأصحاب العقول المغلقة.

ولابد - مادمنا فى مجال عرض الرؤى النقدية لسياسات الإدارة الأمريكية فى الغزو العسكرى للعراق وتغيير نظامه السياسى بالقوة - أن نشير إلى المزايا الإيجابية للانفتاح الفكرى النسبى فى المجتمع الأمريكى، والذى يسمح بالعرض الموضوعى لحجج المعترضين على الحرب. وإذا كان لا يتاح لهؤلاء بسهولة التعبير عن آرائهم فى الصحف والمجلات الأمريكية وفى وسائل الإعلام الأخرى، بحكم الحظر غير الرسمى المفروض عليها فيما يتعلق بعدم الانتقاد العلنى للسياسات الأمريكية، إلا أن التقارير الاستراتيجية التى يعدها الخبراء فى الكونجرس وترفع إلى أعضائه، تتضمن عادة عرضا موضوعيا لحجج المعترضين. ودليلى على ذلك تقرير مقدم للكونجرس فى ٣ أكتوبر ٢٠٠٢ أعدده الفرد برادوس الخبير بشئون الشرق الأوسط فى إدارة السياسة الخارجية والدفاع والتجارة وعنوانه "العراق: آراء مختلفة بصدد العمل العسكرى" وقد صنف هذا الباحث حجج المعترضين على الحرب فى ست فئات رئيسية حسب الموضوع الرئيسى المطروح فى كل فئة.

والاعتراض الأول عنوانه "الفعل المتعجل". ومضمونه أن هناك تعجلا فى اتخاذ القرار لدى من أصدروه والذين عجزوا أن يثبتوا ضرورة اتخاذ إجراء عسكرى سريع ضد العراق. وفى نظر هؤلاء أن الحملة العسكرية سابقة لأوانها، لأنه لا ضرورة منها مادام أن فريق التفتيش على أسلحة العراق لم يقم بعد بمهمته، ولم يعط الوقت الكافى لذلك. وذهب بعض القادة العسكريين السابقين إلى أن العمل الدبلوماسى

لابد أن يعطى فرصته قبل القيام بأى عمل عسكرى. وقد ذهب مستشار الأمن القومى السابق الليفتنانت جنرال برنت سكوكرفت إلى أن التفتيش يمكن أن يفقد صدام حسين التوازن ويجعله تحت بصر التفتيش الدقيق. ويضيف إنه إذا رفض صدام حسين التفتيش، أو لو كشف التفتيش عن إمكانية عراقية لصنع أسلحة ذرية، ففى هذه الحالة يكون لدى الولايات المتحدة سبب قوى يبرر استخدامها للقوة العسكرية إزاء العراق.

والحجـــة الثانـــية للمعترضين على الحرب أنها ستؤثر سلبا على الحملـــة الأمريكـــية الموجهـــة ضـــد الإرهاب، لأنها ستجعل الإدارة الأمريكـــية مشتتة الذهن، وهى تتخذ قرارات هامة فى أكثر من جبهة، وذلـــك بالإضـــافة إلـــى إفســـاد العلاقـــة بين أمريكا والدول العربية والإســـلامية الـــتى تعـــارض الحرب ضد العراق، مما قد يؤثر على تعاونهـــا مع الحملة الأمريكية ضد الإرهاب. ومن ناحية أخرى فقرار الحـــرب ضـــد الإرهـــاب لم يوافق عليه بشكل صريح من بين حلفاء أمريكا إلا أنجلترا، فى حين أن باقى الحلفاء الأوروبيين أبدوا تحفظات مـــتعددة علـــيه. وفى رأى بعض نقاد الحرب أن الولايات المتحدة لا يمكـــن لها أن تكسب الحرب ضد الإرهاب إلا إذا ضمنت تعاونا دوليا معها وخصوصا فى مجال المخابرات.

والحجة الثالثة تبرز الصعوبات العملياتية واللوجستيكية. وفى نظر أصـــحاب هـــذه الحجـــة أن تحديات الحملة العسكرية المقترحة بالغة الخطورة. ذلك أن حشد تحالف دولى وراء الولايات المتحدة بالطريقة الـــتى تـــم بها فى حرب الخليج عامى ١٩٩٠ و١٩٩١ يبدو مستحيلا الآن. وأغلـــب الـــدول الإقليمـــية صرحت علنا أنها لا تقبل استخدام أراضـــيها كنطقة انطلاق فى غزو العراق، وحتى لو قدمت هذه الدول تســـهيلات للقوات الأمريكية، فأغلب الظن أنها ستكون محددة. وهناك صـــعوبات أخـــرى فى حالة ما استدرج العراقيون القوات الأمريكية الغازيـــة إلـــى حـــرب مـــدن قـــد تحدث خسائر جسيمة فى الأرواح الأمريكـــية. وأخـــيرا هناك احتمالات استخدام صدام حسين للأسلحة البيولوجية والكيماوية.

والحجـــة الرابعة تكمن أهميتها فى أن الغزو العسكرى الأمريكى للعـــراق قد يحدث اضطرابا عميقا فى كل منطقة الشرق الأوسط. فقد

تقـــوم مظاهرات شعبية حاشدة ضد الولايات المتحدة الأمريكية وضد المصـــالح الأمريكية، مما قد يؤدى إلى انقلابات سياسية تفتح الطريق أمـــام بـــروز نظـــم راديكالـــية معادية للغرب، وقد ينتمى قادتها إلى الأصولية الإسلامية المتعاطفة مع تنظيم القاعدة.

أما فيما يتعلق بالجهود الأمريكية المعلنة للإسهام فى حل الصراع العـــربى الإســـرائيلى فقـــد تصاب بنكسة إذا ما حدث غزو عسكرى أمريكى للعراق، لأن الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الحالة ستكون قـــد فقـــدت مصـــداقيتها بالكـــامل أمام الشعوب العربية. ولذلك التفت الجنرال انطونى زينى إلى هذا الجانب الهام، حين قرر أنه من الأفضل للولايـــات المتحدة الأمريكية أن تواصل مساعيها لتحقيق سلام عربى إسرائيلى قبل أى محاولة للحرب ضد العراق.

وتكمن أهمية الحجة الخامسة فى أنها تثير مسألة التكاليف الباهظة للحـــرب المقـــترحة. ويرى بعض النقاد أن هذه الحرب يمكن أن تزيد المشـــكلات الاقتصـــادية الأمريكـــية سواءا. وقد قدر بعض الخبراء الاقتصـــاديين تكلفة الحرب بأنها ستكون بين مائة بليون دولار ومائتى بلـــيون دولار. وهـــو مـــبلغ وإن كـــان صغيرا بالنسبة لمعدل الدخل الإجمـــالى القومـــى الأمريكى، إلا أنه لا يمكن الاستهانة به فى نفس الوقـــت. وإذا قارنا هذه التكلفة التى ستتحملها كلها الميزانية الأمريكية بـــالموقف فـــى حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) لاكتشفنا أنه فى هذه الحرب السابقة تكلفت الدول العربية بدفع مبلغ ٥٣,٦ بليون دولار من الـــتكلفة الإجمالية للحرب التى بلغت ٦١,١ بليون دولار. ومعنى ذلك أن العـــبء الاقتصـــادى للحرب كله تقريبا تحملته الدول العربية، ولم تتكلف الميزانية الأمريكية إلا حوالى ٨ بليون دولار.

وإذا أضـــفنا إلـــى الـــتكلفة الباهظة للحرب احتمال ارتفاع أسعار البـــترول والاضطراب فى مجال التزويد بالبترول، لأدركنا أن هناك مخاطـــر كـــبرى ستنشـــأ لو نفذت الولايات المتحدة خطتها فى الغزو العسكرى للعراق.

وتـــبقى الحجة الخيرة والتى مفادها أن الحرب غير مؤكدة النتائج كمـــا خطط لها العباقرة الاستراتيجيون فى الإدارة الأمريكية! ذلك أن الـــنظام الذى سيعقب نظام صدام حسين لو تم القضاء عليه نهائيا غير

مضـــمون فـــى ذاته بالنسبة لتوجهاته المستقبلية. فقد يظهر ديكتاتور عراقى جديد يواصل برنامج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية مما يجدد الخطـــر العراقى. وهناك احتمالات تفتت العراق وفق خطوط جغرافية وعرقـــية، ممـــا يهدد الأمن القومى للبلاد مثل تركيا، التى تعيش مع هـــاجس بـــروز هويـــة كـــردية جاذبـــة للأفراد الذين يعيشون فيها. واحـــتمالات تفتت العراق قد يؤدى إلى نتائج غير محسوبة من زاوية محاولة بعض جيران العراق مثل إيران أو سوريا استغلال هذا الوضع لتحقيق مكاسب إقليمية.

هـــذه بصورة موجزة الحجج الرئيسية التى رفعها أصحاب الرؤية النقدية الأمريكية من السياسيين المرموقين والقادة العسكريين البارزين. غير أن أصحاب العقول المغلقة من قادة الإدارة الأمريكية رفضوا هذه الحجج جميعا، ومارسوا ترديد نفس حججهم التقليدية فى صواب قرار الغزو العسكرى للعراق. وقد يتاح لنا فى المستقبل ان نعرض لردودهم غير المقنعة كدراسة حالة نموذجية لكيف يعمل العقل المغلق فى سياق كونى مفتوح على مصراعيه لكل الاحتمالات التى لا يمكن لأى صانع قرار – مهما كانت عبقريته – أن يتوقعها!

[١١]

القرار المراوغ !

هل يمثل قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ بشأن نزع أسلحة العراق الصادر فى ٨ نوفمبر ٢٠٠٢ أداة فعالة لتجنب قيام الولايات المتحدة الأمريكى بغزو عسكرى للعراق وفق الخطط الأمريكية المعلنة، أم هو فى الواقع يمهد بشكل مراوغ لهذا الغزو الذى تدل كل الشواهد على أن هناك تصميما على القيام به بالرغم من كل الاعتراضات عليه، سواء تلك التى صدرت من داخل المجتمع الأمريكى أو أعلنتها دول كبرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا بعد تحليل دقيق للبنود المتعددة التى شملها هذا القرار الخطير، والذى ربما لا يوجد له سابقة على وجه الإطلاق فى العلاقات الدولية المعاصرة. ذلك أنه إذا كانت ألمانيا وإيطاليا واليابان التى كانت تمثل ما كان يطلق عليها "دول المحور" فى الحرب العالمية الثانية قد تم إخضاعها بالكامل من قبل دول الحلفاء المنتصرة وبالتالى نزع سلاحها، فقد حدث ذلك بعد هزيمة كاملة فى حرب شاملة للقوات الألمانية والإيطالية واليابانية، وخصوصا بعد أن ألقت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى. وبعد هذه الهزيمة الشاملة بدأت الولايات المتحدة الأمريكية فى "ترويض" كل من الشخصية القومية الألمانية والشخصية القومية اليابانية لنزع الطابع العسكرى العنيف من مكونات هذه الشخصيات القومية المتطرفة. وقد تضمنت عملية الترويض إدخال تعديلات جوهرية على دساتيرها وإعادة صياغة نظمها السياسية، وتخطيط نظمها التعليمية، لإنتاج شخصيات اجتماعية تؤمن

بالســـلام ولا تلجـــأ إلى الحرب لفض النزاعات وحل الصراعات بين الدول.

ولعـــل هـــذا النموذج التاريخي هو الذى تحاول بعض الأصوات الأمريكية أن تستوحيه فى حالة العراق بعد الغزو العسكرى والانتصار الأمريكي الكاسح. بعبارة أخرى، فى التصور الأمريكى تخطيط لإعادة صياغة العراق ليصبح بلدا ديموقراطيا، ليس ذلك فحسب بل ستجرى محاولـــة دائـــبة لكى يصبح نموذجا للديمقراطية تقتدى به كافة الدول العربية التسلطية!

وهكـــذا يمكن القول أن مجلس الأمن لم يسبق له أن أصدر قرارا شبيها بالقرار رقم ١٤٤١، يكرس كل جهده للنزع الشامل لسلاح دولة ما، غير داخلة فى حرب فعلية مع أطراف أخرى.

تكييف القرار

لو أردنا أن نكيف القرار من وجهة النظر القانونية البحتة لقلنا أنه مـــن ناحـــية يستخدم بعض مفاهيم القانون الجنائى المستقرة، وبعض مفاهيم القانون المدنى من ناحية أخرى. ذلك أنه يلفت النظر بشدة أنه يديـــن العراق إدانة مسبقة فى العبارات الأولى للبند الأول حين ينص علـــى ما يلى "أن مجلس الأمن إذ يعمل بموجب الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة.

١ - يقرر أن العراق كان ولا يزال فى انتهاك جوهرى لالتزاماته بموجب القرارات ذات الصلة..."

ومعـــنى ذلك أن العراق - بمصطلحات القانون الجنائى - ارتكب ومازال جريمة مستمرة مادام أنه خرق ومازال يخرق الالتزامات التى فرضت عليه. ولا يخفى معنى أن تتصدر القرار هذه الإدانة المسبقة، والتى تفتح الباب أمام التدخل العسكرى ضده من بعد.

ولـــو قـــرأنا بدقـــة بنود القرار المختلفة وما حفل به من شروط تعجيزية، لأدركنا أنه يمثل نموذجا صارخا من نماذج "عقود الإذعان" المعـــروفة فـــى معـــاملات القانون المدنى! وعقد الإذعان - بحسب الـــتعريف - هـــو العقد الذى تفرضه هيئة أو سلطة ما ويتضمن عادة

شـــروطا مجحفـــة على من يقبلها القيام بكافة الالتزامات المنصوص عليها، وذلك مثل العقود التى تفرضها أحيانا شركات الكهرباء، والتى بمقتضـــاها أن يقـــبلها المستهلك أو لا تدخل الكهرباء إلى منزله! هنا أيضا إما أن يقبل العراق كل الشروط المجحفة والتعجيزية الواردة فى القـــرار، أو أن تشـــن علـــيه الحرب فورا بواسطة الولايات المتحدة الأمريكـــية وحلفائها. بل إن تفسيرا أمريكيا صدر للقرار بعد إعلانه، بـــالغ مبالغة صارخة حين قرر أن العراق لو لم يقم بتنفيذ القرار فإن من حق أى دولة أن تتصدى له لنزع سلاحه! ولنتأمل مليا هذا الاتجاه الأمريكى لفتح باب الفوضى فى العلاقات الدولية على مصراعيه!

ولـــو درســـنا القرار بعناية لأدركنا أنه زاخر بالشروط التعجيزية الـــتى لـــو قبلها العراق ونفذها بالكامل لكان ذلك بمثابة استسلام كامل للدولـــة العراقـــية، وتنازل مطلق عن سيادتها، وهزيمة شاملة للنظام السياســـى العراقى وقادته الذين ملأوا الدنيا صياحا بأنهم هم الحراس على مصالح الأمة العربية من ناحية، وكرامة شعب العراق واستقلاله من ناحية أخرى.

وهكذا يمكن القول أن قادة العراق - نتيجة سياساتهم الحمقاء التى اســـتمرت أكـــثر من عشر سنوات على الصعيد العربى والدولى - قد وقعـــوا بالفعل بين مطرقة الاستسلام الكامل لو نفذوا القرار، وسندان الحرب التى ستشنها الولايات المتحدة الأمريكية لو رفضوه.

وحـــتى لا يكـــون من قبيل المبالغة زعمنا أن قرار مجلس الأمن قـــرار مـــراوغ لأنه يتظاهر بالسعى إلى حل سلمى مع أنه فعليا يمهد الطـــريق لضربة عسكرية أمريكية ضد العراق، علينا أن نتأمل بعض بنوده العجيبة!

يقـــرر البند الخامس من القرار فى فقرته الأخيرة ما نصه "يمكن للجـــنة التفتيش عن الأسلحة والوكالة الدولية للطاقة الذرية أن تجرى وفق ما تراه مناسبا مقابلات داخل العراق أو خارجه، ويمكن أن تسهل ســـفر أولئك الذين تجرى مقابلتهم وأفراد عائلاتهم إلى خارج العراق. وأن مثل هذه المقابلات يمكن أن تجرى وفق ما تراه لجنة التفتيش عن الأســـلحة أو الوكالـــة الدولية للطاقة الذرية وحدهما مناسبا، من دون حضور مراقبين من الحكومة العراقية .. "

ولنا أن نتأمل ماذا يعنى ذلك، حين تقرر لجنة التفتيش بإرادتها المنفردة – على سبيل المثال – مقابلة عدد من علماء العراق الذين كلفتهم الدولة العراقية من قبل وبصورة قانونية مشروعة – كما تفعل أى دولة – فى إجراء الأبحاث فى مجال البحوث الذرية أو الكيماوية، وتجبرهم عن إفشاء أسرارهم المهنية، وقد تجبرهم على السفر هم وأسرهم إلى خارج العراق لاستجوابهم. هل سبق تطبيق مثل هذه الشروط من قبل على أى دولة من الدول؟

ولماذا إذا كان مجلس الأمن حريصا هذا الحرص على "السلام الدولى" لا يطبق نفس الإجراءات لنزع سلاح الدولة الإسرائيلية التى لديها أسلحة ذرية وكيماوية وبيولوجية التى تهدد بها الأمن القومى العربى والسلام العالمى؟

بل إن مجلس الأمن قد فشل فشلا ذريعا فى مجرد إلزام الدولة الإسرائيلية التى تمارس بشكل منهجى إرهاب الدولة ضد الشعب الفلسطينى بتطبيق عشرات القرارات الدولية التى أصدرها فى مجال حل الصراع العربى الإسرائيلى.

ونظرة أخرى إلى فقرة من فقرات المادة السابقة تقرر ما نصه "تملك لجنة التفتيش عن الأسلحة والوكالة الدولية للطاقة الذرية الحق فى أن تعلن لأغراض تتعلق بعزل أى موقع يخضع للتفتيش مناطق محظورة، من ضمنها مناطق محيطة بالموقع وممرات عبور، يوقف فيها العراق الحركة براً وجواً كى لا يجرى تغيير أى شئ داخل الموقع الذى يخضع للتفتيش أو تنقل منه أى مواد".

هل رأينا من قبل قرارات دولية مماثلة يفرض فيها على دولة ما ليس مجرد أن تفتح كل ملفاتها وأسرارها وهيئاتها للتفتيش، بل أبعد من ذلك ترغم على وقف الحياة والحركة فى مناطق كاملة بزعم ضرورة تفتيشها؟

أما عن الآجال المضروبة والمواعيد الملزمة التى يتعين فيها على العراق أن ينفذ ما عليه من التزامات بسرعة البرق وإلا حدث ما لا تحمد عقباه فحدث ولا حرج!

خذ – على سبيل المثال – البند التاسع من القرار والذى يجرى نصه كما يلى "يطلب من الأمين العام أن يخطر العراق فورا بهذا

القرار، الذى يعتبر ملزما للعراق، ويقضى بأنه يتعين على العراق أن يؤكد خلال سبعة أيام من هذا الإشعار نيته أن يمتثل كليا لهذا القرار. كمـا يقرر أن على العراق أن يتعاون فورا ومن دون شروط وبشكل فاعل مع لجنة التفتيش عن الأسلحة والوكالة الدولية للطاقة الذرية".

هل يمكن لدولة ما حتى لو كانت أكبر دولة متقدمة فى التاريخ أن تـدرس وتحلـل كل الالتزامات التى يفرضها القرار لتقرر قبولها أو رفضها فى أسبوع واحد لا غير؟ وهل هناك تعسف فى تحديد الآجال والمواعيد أبرز من ذلك؟

ويعنيـنا أن نقـف عند البندين ١١ ، ١٢ من القرار. يقرر البند الحادى عشر "يوجه المدير التنفيذى للجنة التفتيش عن الأسلحة والمدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية بإبلاغ المجلس فورا بأى تدخل من قـبل العـراق فـى أنشطة التفتيش، بالإضافة إلى أى إخفاق من قبل العـراق فـى تنفـيذ التزاماته على صعيد نزع الأسلحة بما فى ذلك الـتزاماته المتعلقة بعمليات التفتيش بموجب هذا القرار" ومن الواضح أن هذا البند يفترض أن العراق قد قبل القرار، وأن لجان التفتيش بدأت بالفعل عمليها غير أنها قد تواجه - وهنا الغموض المتعمد فى صياغة هذا البند - بتدخل من قبل العراق فى أنشطة التفتيش.

وكلمـة "تدخل" هنا كلمة مطاطة للغاية، يمكن إدخال أى تصرف عراقى ولو كان غير مقصود تحتها باعتباره خرقا للقرار. كما أن كلمة "لـو أخفـق" العراق فى تنفيذ التزاماته، يسرى عليها ما قلناه بالنسبة لكلمة "تدخل".

ونصـل إلـى البند الثانى عشر والذى يدور حوله الخلاف، لأن الولايات المتحدة الأمريكية وضعت له تفسيرا يحقق أهدافها الثابتة فى ضرب العراق عسكريا.

نص هذا البند هو "يقرر أن يلتئم فوراً (يقصد مجلس الأمن) حالة تسـلمه تقريرا وفقا للفقرة ٤ أو ١١ أعلاه من أجل أن يدرس الوضع والحاجة إلى الامتثال الكامل لكل قرارات المجلس ذات الصلة من أجل استعادة السلام والأمن الدوليين".

ويضيف البند ١٣ "يذكر فى هذا السياق بأن المجلس حذر العراق مـراراً بأنـه سـيواجه عواقـب خطيرة نتيجة لانتهاكاته المستمرة لالتزاماته".

ويعـنى ذلك أن مخالفة العراق للقرار لا يترتب عليه بصورة آلية كما تزعم الولايات المتحدة الأمريكية حقها فى توجيه ضربة عسكرية ضد العراق استنادا للقرار. فالصياغة هنا واضحة وقاطعة حين يقرر البند المشار إليه يلتئم المجلس فورا من أجل أن يدرس الوضع، كما أن البـند الثالـث عشر يهدد بعواقب خطيرة لو انتهك العراق التزاماته، ولكنه لم يذكر شن حرب ضده صراحة.

وأيا ما كان الأمر، يمكن القول بدون أدنى مبالغة أننا بصدد قرار مـراوغ لمجلـس الأمن يمثل فى الواقع خضوعا للمشيئة الأمريكية، وخصوصا من قبل فرنسا وروسيا وألمانيا التى سبق لها أن عارضت السياسـة الأمريكـية العدوانـية، وانتصـارا مؤقتا لمعسكر الحرب الأمريكى الذى دعمه ولا شك الانتصار الساحق للحزب الجمهورى فى انتخابات الكونجرس الأخيرة.

كتب أخرى للمؤلف

١ – أسس البحث الاجتماعى (بالاشتراك)، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٦٣.

٢ – دراسات فى السلوك الإجرامى ومعاملة المذنبين، القاهرة: دار الفكر العربى ١٩٦٣.

٣ – التحليل الاجتماعى للأدب، القاهرة: دار الأنجلو المصرية ١٩٧٠.

الطبعة الرابعة، القاهرة: مدبولى، ١٩٩٥.

٤ – السياســة الجنائـــية المعاصـــرة: دراسة نقدية للدفاع الاجتماعى، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٣.

٥ – الشخصـــية العربـــية بيـــن مفهوم الذات وتصور الآخر، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٧٣.

الطبعة الرابعة، القاهرة: مدبولى، ١٩٩٥.

٦ – تحليل مضمون الفكر القومى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

٧ – مصـــربين الأزمـــة والنهضة، ،: ميأت باحث مصرى، القاهرة: الأهرام الاقتصادى ١٩٩٠.

٨ – الخطاب القومى المحاصر، أزمة الثقافة السياسية، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاسترتيجية، ١٩٩٢.

٩ – الوعى التاريخى والثورة الكونية، حوار الحضارات فى عالم متغير، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الطبعة الثانية، ١٩٩٥.

١٠ – الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، جزءان، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٥.

١١ – العولمة والطريق الثالث، القاهرة: دار نشر ميريت، ١٩٩٩. (نشرت منه طبعة فى مكتبة الأسرة).

١٢ – الزمن العربى والمستقبل العالمى، القاهرة: المستقبل العربى، ١٩٩٩.

١٣ – العالمية والعولمة، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠.

١٤ – تشريح العقل الإسرائيلى، القاهرة: دار نشر ميريت، ٢٠٠٠ (نشرت منه طبعة فى مكتبة الأسرة).

١٥ – المعلوماتية وحضارة العولمة، رؤية نقدية عربية، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠١.

١٦ – حـــوار الحضـــارات، تفاعل الغرب الكونى مع الشرق المتفرد، ميريت، ٢٠٠٢، (نشرت منه طبعة فى مكتبة الأسرة).

١٧ – الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية، ميريت، ٢٠٠٢.

١٨ – المواطنة فى زمن العولمة، القاهرة: المركز القبطى للدراسات الاجتماعية،٢٠٠٢.

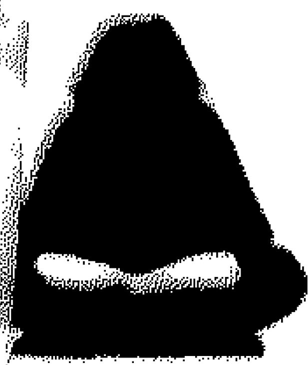
فهرس

رقم الايداع ١٤٢٣٩ / ٢٠٠٣
I.S.B.N. 977 - 01 - 8779 - 8



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية .

سوزان مبارك



التنفيذ
الهيئة المصرية العامة